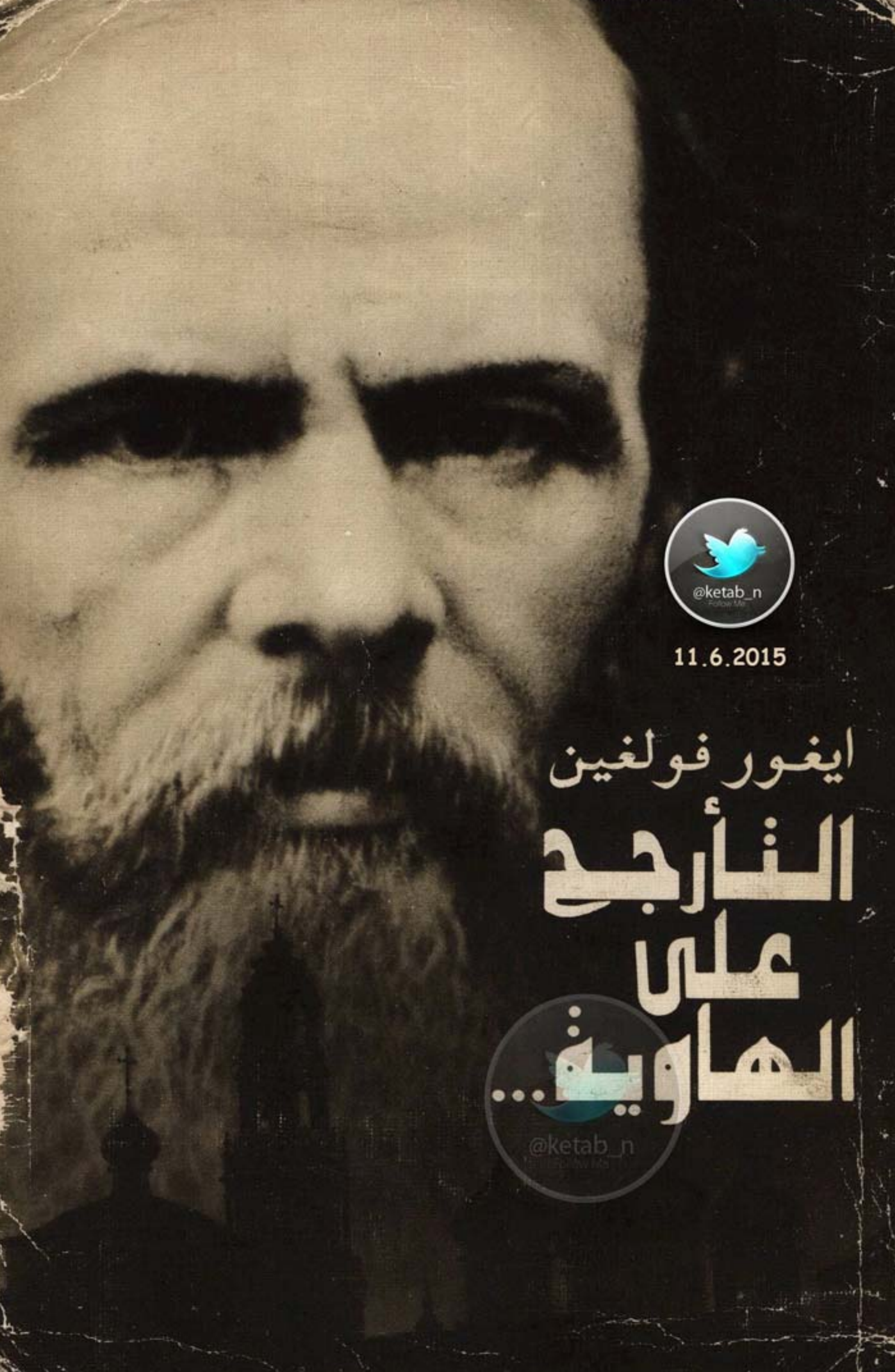

@ketab_n
Follow Me
11.6.2015
ايغور فولغين
التأرجح على الهاوية...
@ketab_n

ايغور
فولغين

التأرجح على الهاوية...

العام الاخير من حياة دوستويفسكي



دار التقدم • موسكو

ترجمة موفق الدليمي

Игорь Волгин

КОЛЕБЛЯСЬ НАД БЕЗДНОЙ
ДОСТОЕВСКИЙ И РУССКАЯ РЕВОЛЮЦИЯ

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

B $\frac{4702010201-286}{014(01)-90}$ 195—90

ISBN 5—01—002143—9

من المؤلف

فى الاول من شباط (فبراير) ١٨٨١ احتضنت تربة سانت – بطرسبورغ المتجمدة جثمـــان دوستويفسكى . وبعد مضى شهر واحد بالضبط ، فى الاول من آذار (مارس) خرّ الكسندر الثانى (١) صريعا بقنبلة القاها احد اعضاء منظمة «نارودنايا فوليـــا» («ارادة الشعب») (٢) السرية الصدامية : هكذا جرى اخيرا ، بعد المحاولة الثامنة ، تنفيذ حكم الاعدام الذى اصدره قادة التنظيمات الثورية الروسية السرية بحق قيصر روسيا وحاكمها المطلق .

لقد اختتم الوضع الثورى الثانى فى روسيـــا * بهذا العمل الانتحارى اليائس الذى افضى الى ربـع قرن تقريبـا من تسلط الرجعية وتفشى الركود السياسى .

جاء رحيل دوستويفسكى مواكبا لاعمق ازمة تاريخية يشهدها البلد . . . لقد رحل فى ساعـة كانت فيها – على حـد قوله هو نفسه – «كل روسيا تقف عند خط الختام ، متأرجحة على الهاوية» ، رحل دون علم منه بأن مراسيم دفنه سوف تغدو خاتمة عصر تاريخى كامل .

فى القرن التالى (الذى يكاد يمتد الى وقت قريب جدا) سوف يعتبر التراث الادبـى التاريخى العالمى دوستويفسكى كاتبـــا تتعارض ممارسته الفنية وقناعاته الفكرية تعارضا حادا لا مماراة فيه مع روح الثورة الروسية ومغزاهـا . بينما الفكر الفلسفى الدينى الوطنى الذى حقق جملة من الكشوف الباهرة عن اعمق

---

* الوضع الثورى الاول فى روسيـــا (١٨٥٩–١٨٦١) يتعلق بالاصلاح الفلاحـــى (تحرير فلاحى الملاكين العقاريين من اغلال نظام القنانة) وبنهوض الحركة الثورية .

اغوار روحية دوستويفسكى ، يضع مؤلف «الاخوة كارامازوف» ضمن عداد أثبت خصوم الانقلاب الاجتماعى ايمانا وأرسخهم عقيدة . اما النقد الادبى السوفييتى الذى تبنى بشكل عام وجهة النظر هذه ، فسيعرّض تراث دوستويفسكى الروحى - بدوره - لعملية جراحية لا تخلو من مخاطر : فدفاعه عن «المذلين المهانين» فى مؤلفاته الروائية سوف يفصل فصلا محكما عن موقفه الاجتماعى «الرجعى» ، وعن آرائه «الارتدادية» «المتخلفة» التى حوّلته ، هو الكاتب الكبير ، لسوء الحظ ، الى حليف لأعتى القوى الحكومية والكنسية المحافظة .

ان المخطط الذى لا يزال يستخدم - فى الكثير من نقاطه المفصلية - لتناول تراث دوستويفسكى يقسّم حياته الى مرحلتين مختلفتين مبدئيا .

دوستويفسكى الذى كان اول من دشن حياته الادبية فى روسيا بـ«رواية اجتماعية» هى «المساكين» ، لا يلبث ان ينضم الى جمعية بتراشيفسكى ، وهى حلقة شباب من المثقفين شغفوا بافكار الاشتراكية الطوباوية ، وراحوا يحلمون باصلاحات اجتماعية جذرية . وفى عام ١٨٤٩ القى القبض على المشاركين فى «مؤامرة الافكار» هذه ، وحكم عليهم بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى الاشغال الشاقة ثم التجنيد العسكرى (حكم على دوستويفسكى - ابن الثامنة والعشرين - بالحبس فى سجن الاشغال الشاقة بمدينة اومسك لمدة اربع سنوات ، «ثم بالخدمة كجندى») . وهناك ، فى سيبيريا ، حدث الانقلاب الروحى الذى ارغم دوستويفسكى على اعادة النظر جذريا فى قناعاته السالفة والخلوص الى استنتاجات معاكسة تماما .

يعتبر تطور دوستويفسكى السياسى اللاحق تحولا تدريجيا «من اليسار الى اليمين» ، اما **استبصاراته** الروائية العبقرية فتفسر - ان جاز القول - بالقوة الابداعية **العمياء** الفاعلة **على الضد** مما نشأ لديه من اسلوب فى تأمل العالم .

ذلكم هو - باعتقادنا - المخطط الذى استنفد نفسه ولم يعد قادرا على تفسير اى من المعضلات البيوغرافية التاريخية الفعلية .

اولا ، ان مجمل تأمل دوستويفسكى للعالم يلوح اليوم

اكثر تكاملا واتزانا ، كجملة موحدة داخليا ، واكثر توجها نحو القيم الاخلاقية غير المعرضة للتآكل او الصدأ . ثانيا ، ان الحد الفاصل بين «الابداع» و«الايديولوجيا» بات يبدو اكثر نحافة افتراضا . اذ يتضح انهما مترابطان ارتباطا اكثر احكاما و«حميمية» مما قد يبدو للوهلة الاولى . كما يتضح — اخيرا — ان جملة من حالات الحدس الروائى لدى دوستويفسكى قد تجسدت بأفظع شكل تاريخى ، وبابعاد كونية حقا .

هذا الكتاب مكرس لعلاقات دوستويفسكى بعالم الثورة الروسية . فقد ظلت هذه المعضلة ملموسة وواقعية طوال حياته ويمكن تناولها فيما يتعلق بكل اللحظات البارزة فى سيرة حياته . وبديهى ان مثل هذا التناول يخرج عن اطر هذا البحث . لقد ركزنا الانتباه على المرحلة الختامية من هذه المجابهة الدرامية ، بسبب الصفة الحادة والتراجيدية غير المألوفة لما رافقها من احداث تاريخية ، وكذلك بحكم بقاء هذه الفترة بعيدة كل البعد تقريبا عن البحث والدراسة من الزاوية التى تستأثر باهتمامنا .

لم يكن دوستويفسكى شاهدا متفرجا على هذه الدراما ، بل اصبح طرفا فيها ، وبطلا من ابطالها الى حد ما .

جاء عمله على تأليف «الاخوة كارامازوف» مزامنا لانتقال النشاط السرى الثورى ، «السلمى» نسبيا فى الماضى ، الى اعنف اشكال الكفاح الارهابى . وكان على هذا الانعطاف ان يهز اعماق الكاتب الذى ابتدع قبل هذه الاحداث بوقت طويل الصورة الفنية لبطله راسكولنيكوف ، وكتب روايته «الشياطين» .

لقد اخذت تنبؤاته الروائية تتحقق بملموسية مخيفة . بيد ان الحياة (او بالاصح الموت) تدخل عليها تعديلاتها . اذ يتحول «الغيلان» السياسيون الى شهداء وابطال ، ويطرح الموقف منهم (منهم بالذات ، وليس من تصرفاتهم) فى المقام الاول طائفة من المسائل الاخلاقية التى لم يسبق لها مثيل .

ولابد هنا من استطراد . . .

كثيرا ما يجرى التدليل على مفاهيم متباينة من حيث مضمونها التاريخى بمفردات متماثلة .

كان الثوريون الروس فى اواخر سبعينات القرن التاسع

عشر يطلقون على انفسهم نعت الارهابيين . وهكذا يُنعت اليوم من جعل من الارهاب اداة متعددة الاغراض فى لعبته الشريرة العمياء .

بينما ليس للسيمــــاء التاريخية لابطال «ارادة الشعب» ، وليس لطرائقهم ، وأهــم ما فى الامر ليس للدوافع الاخلاقية لتصرفاتهم ما يجمعهــا بممارسات التطرف الارهابى المعاصر ، سواء اليمينى منه او اليسارى .

لم يقــم اعضاء «ارادة الشعب» بنسف محطات قطارات فى ساعات الزحام ، ولم يفتحوا النار عشوائيا على جمهور يغــادر كنيسة ، ولم يختطفوا النساء والاطفال كرهائن (بل هم لم يكونوا يعرفون بوجه عام اسلوب احتجاز الرهائن) ، ولم يقتلوا خصومهم الفكريين (مثلا ، من يكيل لهم السباب من الصحفيين) ، وهم — اخيرا — لم يذهبوا الى ان طريقة نضالهم هى الطريقة الوحيدة الصائبة . ولم يقدموا على ما اقدموا عليه الا بعد ان استنفدت كل الحجج الاخرى . ولم يكن اعضاء «ارادة الشعب» قط يظنون ان لاساليب نضالهم الاضطرارية قيمة عمومية .

يقول كرافتشينسكى (٣) : «ان الارهاب امر فظيع . وليس هناك اسوأ من الارهاب سوى امر واحد هو الاذعان للعنف» .

ان من يبذل محاولات يائسة ومغرضة لربط الارهاب الدولى المعاصر بتقاليد الحركة التحررية الروسية فى اواخر سبعينات — اوائل ثمانينات القرن التاسع عشر ، انما يرتكب عملية اختلاس تاريخية فظة .

يقول انجلس : «ان طريقة كفاح الثوريين الروس املتهــا ظروفهم القاهرة وتصرفات خصومهم انفسهم» . وكانت طريقـــة الكفاح هذه اجراء دفاعيا ضد تعسف الحكم المطلق فى البلد ، وردا على «اعمـــال القسوة اللامعقولة» التى تمارسهـــا الجهات العليا . بيد ان عدم صلاحية هذه الطريقة وعقمها التاريخى ، كما ذكر لينين ، «قــد اثبتتهما بوضوح تجربة الحركة الثورية الروسية» .

«اثبتته التجربة» — هذا يعنى انه امر لم يدركوه بالبصيرة ، بل دفعوا دماءهم ثمنا له . لقد تجاوزت روسيا الارهاب ورفضته ، قبل ان يظهر الراغبون فى تأويل هذه الصفحة من تاريخها خدمة لمصالحهم ، بوقت طويل .

كان دوستويفسكى يهوى ترديد ان على المرء ان يحمل عبء تجربة الحياة بنفسه .

وموقف دوستويفسكى من الثورة الروسية اوسع كثيرا من موقفه ازاء الارهاب بحد ذاته ، الذى كان يدخل فى روحه – بطبيعة الحال – الفزع والنفور . ولئن كانت فرضية تكملة «الاخوة كارامازوف» التى نحن بصدد مناقشتها (والتى تفيد بأن بطله «المثالى» الاثير أليوشا كارامازوف هو الذى سيقوم باغتيال القيصر) تجد بالفعل فرصة لان تتجسد روائيا ، فليس هذا سوى دليل على تنبؤ دوستويفسكى التراجيدى بخطوات التاريخ الروسى الجهنمية ، وعلى ادراكه الخارق تقريبا لمفارقاته الاليمة ، والمستعصية – للاسف – على الحل .

ان وجهة نظر دوستويفسكى بشأن حاضر ومستقبل روسيا لا تطابق وجهة نظر الثوريين . ولكنها لا تطابق ايضا ، وبنفس القدر (ان لم نقل اكثر) وجهة نظر السلطة الرسمية . ولم يكن بمقدور حماة وملهمى الارهاب الحكومى الوطنيين ادراج دوستويفسكى تحت خيمتهم ، ذلك ان ايديولوجيته ، كما نحاول اثبات ذلك ، شخصانية ، اصيلة ، لا تنتمى الى اى من المنظومات الايديولوجية التى عايشها .

ان قلنسوة السانكولوت * الحمراء لا تليق بمبدع «الجريمة والعقاب» ، كما لا يمكن ان يخلع عليه المعطف الاسود الذى كان يرتديه رجال محاكم التحقيق . ومن يحاول ان يخلع عليه مثل هذه اللبوس انما يفضح ، فى اغلب الظن ، انجرافه مع الموضة اكثر من حرصه على البحث عن الحقيقة .

ان الكثير من صفات دوستويفسكى المتعلقة بتأمله للعالم لا تنفصل عن وجهه الانسانى . لهذا السبب جازفنا بالتوقف عند بعض سمات شخصيته وحياته العائلية : فمن غير هذه السمات لا يكتمل دوستويفسكى ، لا ككاتب ولا كمؤدلج .

---

* مصطلح بالفرنسية (من sans – بلا و culotte – سروال قصير) كانت الارستقراطية فى عهد الثورة الفرنسية تطلقه على فقراء المدن الذين كانوا – بخلاف النبلاء – يرتدون سراويل طويلة لا قصيرة . فى عهد دكتاتورية اليعاقبة بات هذا المصطلح يعنى الثوريين الادعياء – **المترجم** .

في هذه الصور القلمية نحاول فك اسرار جملة من الالغاز البيوغرافية والادبية التى تمت بهذا الشكل او ذاك بصلة الى موضوعنا . لقد تطرقنا الى تكملة «الاخوة كارامازوف» المحتملة . وسيمثل امامنا في ضوء جديد ومباغت تعرّف الكاتب على عقيلته الثانية – آنّا غريغوريفنا سنيتكينا . وسنجعل القارئ حكَما على تأملات ربما تتطلب تدقيقات لاحقة ، لكن المؤلف يعنى بها عناية فائقة ، عن طابع أعيـــاد بوشكين وخطبة دوستويفسكي البوشكينية (٤) التي كـــاد الخطيب بعدها ان يغدو من ابرز الشخصيات اطلاقا على الصعيد الوطني . واخيرا ، فأن ملابسات وفاة الكاتب المثيرة والتي لا تزال محفوفـــة بالغموض (وهى موضوع لم يجر التطرق اليه في الادب العالمي) – كل هذا يغدو محط اهتمام مكثف للغاية من قبل كاتب هذه السطور .

لقد نوه احد معاصري الكاتب قائلا : «في حالة قيام الثورة سوف يلعب دوستويفسكي فيها دورا كبيرا» . وكان هذا التوقع ضربا من النبـوة . فحضور دوستويفسكي يغدو ملموسا اكثر فاكثر في عالــم اليوم الذي تعصف به شتى الـوان الخطوب والتغيرات . انــه يتعاطف بثبات وعلى الدوام مع الانسان في فورانه الروحي اللامتوقف وفي بحثه الدائم عن المثال الاسمى ، غير انه ينذره في الوقت ذاتــه من ارتكاب الكثير من الهفوات والاخطاء الدامية ، ولئن توخينا ذكرها جميعا ، فهو يحذّره من الظلامية والفناء .

ايغور فولغين

موسكو

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨

رجل الشارع والارهابيون

فوهة المسدس فى صدغ السلطة

فى اواخر فصل الشتاء بات الناس يتوجسون ان حدثا جللا سيحدث بين عشية وضحاها .

ففى ١٩ شباط (فبراير) ١٨٨٠ حلت الذكـــرى الخامسة والعشرون لاعتلاء الكسندر الثانى العرش . وبهذه المناسبة كانوا ينتظرون صدور ارادة ساميـــة . وانتشرت شائعات تفيد بأن من المتوقع ان يتم بمناسبة هذه الذكرى اليوبيلية منح بعض الحقوق والتسهيلات والامتيازات ، وربما حتى ما يشبه المؤسسات التمثيلية (من يدرى ماذا يخبئ الشيطان) .

وراحت هذه الاشاعات تنمو وتزداد انتشارا . قام الامير الكبير قسطنطين نيقولاييفيتش (٥) بابـــلاغ امين الدولـــة بيريتس (٦) عن حديثه مـــع الامبراطور : «لقد ابلغنى صاحب الجلالة الآن بأنـــه يرغب ، بمناسبة يوم الذكرى الخامســـة والعشرين لاعتلائه العرش ، فى ان يتكرم على روسيا بدليل ثقة وائتمان ، وذلك بخطوة جديدة ومهمة ، اكمالا لما قام به من تطويرات . ان لديه رغبة فى ان يمنح المجتمع اكثر مما يتمتع به اليوم من اسهام فى مناقشة الشؤون الخطيرة» .

كان القيصر مترددا : ففى الظروف الراهنة قد تبدو هذه المكرمة تنازلا ، ذلك ان شبح الثورة الفرنسيـــة العظمى التى ابتدأت بالملاكات العامة وانتهت بالمجلس التمثيلى كان لا يزال يحوم فوق البلاط القيصرى الروسى .

وكانت احداث السنوات الاخيرة تثير لدى دوستويفسكى قلقا شديدا .

فالحرب الاهلية – بين الحكومة والتنظيمات الثورية السرية – اعلنت عن اندلاعها قبل عامين بدوى رصاصة فيرا زاسوليتش

التى اطلقت النار على حاكم مدينة بطرسبورغ العسكرى جنرال البلاط تريوبوف . آنذاك ، فى كانون الثانى (يناير) ١٨٧٨ ، لم تكن قد صمتت بعد الاطلاقـــات الاخيرة لحرب اخرى تدور رحاها فى البلقان (٧) ، بعد ان بعثت فى مبدأ الامر هذا القدر الكبير من الآمال الباطلة . وكان مقصد هذه الآمال هو ليس فقط الانتصار السريع للسلاح الروسى ، بل ايضا ان تجد روسيا ، اخيرا ، القوة التى تمكنها من التغلب على «الاتراك الداخليين» ، اى نظام الحكم المطلق الذى عفى عليه الزمن .

وكانت لدى دوستويفسكى تصوراته بهذا الصدد . فقد كان مؤلف «يوميات كاتب» يعتقد ان هناك بالذات ، فى البلقان ، سوف يرسى الاساس لانقلاب اخلاقى عالمى ، هو ما أسماه بـ«الحل الروسى للمسألـــة» . وكان على هذا الحل ان يرتكز ليس على الحسابات الرسمية الباردة ، بل على الحقيقة والعدل ، «حتى اذا كان على حساب المنفعة الذاتية» .

انتهت الحرب الروسية التركية ؛ والجيش الذى بات يميز على خط الافق قبة «آجيا صوفيا» تراجع بارادة حميدة منه عن القسطنطينية . وبعد مؤتمر برلين (٨) جرى فى واقـــع الحال شطب «المنفعة الذاتية» لروسيا بالفعل (وكأن ذلك قد جرى من باب السخرية من كلمات دوستويفسكى) . امـــا بشأن الجانب الاخلاقى من القضية – وهو الجانب الرئيس بالنسبة له ، فقد تناسوه اصلا . فالمسألة الشرقية لم تجدد اوربا ولم تفض الى الحل العالمى المرتجى .

وتوقف كذلك صدور «يوميات كاتب» (٩) التى تعود عليها خلال عامين (١٨٧٦ و١٨٧٧) جمهـــور القراء فى روسيـــا . والمشتركون فى المجلـة الذين اعتادوا ان يجدوا على صفحات الـ«يوميات» ، ان لم نقل اجوبة عن «قضايا الساعة» ، ففى اقل تقدير مناقشة مكثفة لها ، كتب عليهم الآن ان يجهلوا جهلا تاما كيف ينظر محدثهم الدائم الى ما يجرى من احداث .

بينما كانت الاحداث تجرى تباعا .

فريثما كان جنرال البلاط تريوبوف يتماثل للعلاج من الجرح الذى اصيب به ، أغتيل فى اوديســا عقيد الشرطـــة البارون هايكنغ . ودفع حياته ثمنا لنشاطه ايضا عميل شرطة التحريات

نيكونوف . وفى مساء ٢٣ شباط (فبراير) (بعد شهر واحد فقط من مبادرة فيرا زاسوليتش) اطلق فاليريان اوسينسكى النار على كوتلاريفسكى ، المدعى العام لمدينة كييف . ولم ينج هذا الاخير من الموت المحقق الا بفعل سمك فراء معطفه ؛ اذ لم يصب هذا المحظوظ حتى بجروح ، رغم انه سقط على الارض من شدة الرعب .

ان روسيا لم تعرف نظيرا لهذا الوضع من قبل .

صحيح ان بضع رصاصات قد اطلقت من مربع الوضع الدفاعى الذى اتخذته القوات الثائرة يوم ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥ (١٠) فى ميدان مجلس الشيوخ (١١) ، وأردى بها المدعو كاخوفسكى (١٢) ، وهو احد اولئك المدنيين الذين تصفهم السجلات الحكومية بالسادة «السفلة فى بدلات الحفلات الرسمية» ، الجنرال ميلورادوفيتش (١٣) قتيلا ، وصحيح ان رصاصة كاراكوزوف (١٤) قد مرقت يوم ٤ نيسان (ابريل) ١٨٦٦ من امام سياج البستان الصيفى وكادت تصيب القيصر الكسندر الثانى . بيد ان هذه الحوادث كانت استثناءات مؤسفة . أما الآن فقد اصبحت فوهة المسدس مصوبة باستمرار الى صدغ السلطة .

على ان المسدس لم يكن هو وحده الذى يثير الرعب .

فى ٤ آب (اغسطس) ١٨٧٨ ، وفى حوالى الساعة التاسعة صباحا ، كان جنرال البلاط ميزينتسوف ، مدير الشرطة ورئيس الشعبة الثالثة (١٥) عائدا الى داره بعد اداء صلاة الصبح فى كنيسة صغيرة تقع بالقرب من غوستينى دفور (١٦) . ودلف الجنرال بصحبة رفيقه العقيد المتقاعد ماكاروف الى ميدان ميخائيل (١٧) . وفى تلك اللحظة ، كما جاء فى نص التبليغ الرسمى المرفوع الى الامبراطور «صرعه . . . شاب مجهول متوسط القامة يرتدى نظارة ومعطفا رماديا» . لقد هجم الشاب على مدير الشرطة وطعنه بخنجر فى بطنه (الامر الذى بدد جزئيا الاشاعة القائلة بأن الجنرال يرتدى دوعا مزرّدا) . فصرخ العقيد ماكاروف «امسكوه ، امسكوه» ، وضرب المهاجم بمظلته . . . . » وفى نفس اللحظة اطلق شاب آخر اسود الشاربين يرتدى معطفا طويلا ازرق وقبعة وبرية سوداء مدورة ، النار على

ماكاروف ، لكنه اخطأ الهدف ، بعد ذلك قفز كلا القاتلين الى عربة كارو يجرها حصان أدهم ، كانت بانتظارهما في الايطالي (١٨) ، واغلب الظن ان العربة كانت ملكا لهما . وبعد ان اعتلى المعتديان العربة انطلقا في شارع مالايا سادوفايا وتواريا عن الانظار» .

ولم يخذلهما الحصان الادهم . فقد كان هذا ، كما اتضح في وقت لاحق ، هو الحصان الشهير بربري — نفس ذلك «الحصان الثوري» الذي اختطف في عام ١٨٧٦ بيوتر كروبوتكين (١٩) من مستشفى سجن نيقولايفسكايا العسكري ، وانطلق في عام ١٨٧٧ حاملا ايفانوفسكي الهارب من السجن ، وافلح قبل بضعة اشهر من حادث اغتيال ميزينتسوف في انقاذ بريسنياكوف من مطارديه بعد فراره من السجن (رغم ذلك تمكنوا في وقت لاحق من القاء القبض على بريسنياكوف ، واعدم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٠ ، وعندها سجل دوستويفسكي اسمه في مفكرته : وسنعود لاحقا الى هذا التسجيل) . ومن نزوات القدر ان بربري الذي اسرته الدولة ، اخيرا ، وجندته للخدمة في سلك الشرطة ، هو الذي سينقل الى القصر الشتوي (٢٠) يوم ١ آذار (مارس) ١٨٨١ القيصر الروسي مسربلا بدمائه .

ان من غرز الخنجر الثقيل المقتنى لغرض اصطياد الدببة في جسد ميزينتسوف («اسفل الدرع المزرّد») هو سيرغي كرافتشينسكي ، الذي ما لبث ان هاجر ، واصدر في المهجر بأسم مستعار هو ستيبنياك ، بضعة كتب عن الثورة الروسية ، جلبت له شهرة في اوربا . وفي احد هذه الكتب يأتي على ذكر دوستويفسكي قائلا : «ان الشخصين الموهوبين الوحيدين اللذين كسبتهما (الرجعية — **المؤلف**) . . . . ، هما دوستويفسكي في الادب الروائي وكاتكوف في الصحافة — وكلاهما مرتد عن القضية الثورية» .

ان الكاتب ليس محقا كل الحق : اذ ان كاتكوف (٢١) — ناهيك عن الفارق الهائل في الموهبة — لم يكن منتميا قط الى «القضية الثورية» . اما بشأن مسألة «ارتداد» دوستويفسكي ، فسوف نعود في وقت لاحق الى هذه الصيغة الرائجة .

واخيرا ينبغي التطرق الى المشارك الآخر في الحادث الدرامي

الذى شهده ميدان ميخائيل ، وهو الرجل «ذو القبعة الوبرية السوداء» الذى غطى بالنار انسحاب رفيقه (فى المحكمة التى عقدت عام ١٨٨٢ سوف يدعى انه اطلق النار فى الهواء ، لانه ظن ان العقيد ماكاروف ليس حارسا ، بل مجرد رفيق سبيل عابر) . وسيغدو هذا الشخص **الجار الاخير** لدوستويفسكى : ففى شتاء عام ١٨٨٠–١٨٨١ سيسكن فى العمارة رقم ٥ بزقاق كوزنيتشنى ، وعلى صحن سلم واحد مع دوستويفسكى ، وبأسم مستعار ، عضو «اللجنة التنفيذية العليا» لمنظمة «ارادة الشعب» ، احد المشاركين فى عملية اغتيال ميزينتسوف ، ومن ثم فى كل محاولات الاغتيال تقريبا التى استهدفت حياة الكسندر الثانى ، المدعو الكسندر ايفانوفيتش بارانيكوف .

هكذا اشتد وثاق العقد التى لم يعد ممكنا حلها او قطعها . وهكذا امتدت الخيوط من «خشبات المسارح العالمية» الى مؤلف «الاخوة كارامازوف» .

بعد مصرع ميزينتسوف باربعة ايام صدرت ارادة سامية تقضى باحالة جميع الدعاوى المتعلقة بأستخدام السلاح ضد ممثلى السلطة الى المحاكم العسكرية . فالمحكمة العسكرية اسرع محكمة فى العالم بعد الاقتصاص العرفى : فالاحكام التى تصدرها قطعية – عادة – وغير قابلة للتمييز .

لقد أُعد للثورة الروسية نظام مرافعات مبسط .

فى ١٢ ايار (مايو) ١٨٧٩ اصدر المحافظ العسكرى الموقت الكتاب الرسمى السرى التالى : «ان جلالة الامبراطور ، بعد ان تلقى معلومات مفادها ان بعض المجرمين السياسيين الذين مثلوا امام المحكمة العسكرية فى كييف . . . قد حكموا بالاعدام رميا بالرصاص ، تفضل بالتنويه بأن **من الانسب** فى مثل هذه الحالات اصدار حكم بالاعدام شنقا . . . وعما ورد آنفا اتشرف بابلاغكم . . . بأنه ارشاد عند التصديق على قرارات احكام المحاكم العسكرية فى هذا النوع من الدعاوى» .

وكان هذا الكتاب مذيلا بتوقيع المدعى العام العسكرى الاعلى ف . فيلوسوفوف ، وهو زوج امرأة كان دوستويفسكى يكنّ لها عميق الاحترام لقاء «قلبها الذكى» ، ويهوى كثيرا التردد على منزلها .

كان الكسندر الثانى يكرّم مدعيه العام العسكرى الاعلى ، لكنه - بخلاف دوستويفسكى - لم يكن يتلطف مع زوجته آنّا بافلوفنا فيلوسوفوفا . ويجدر القول ان هذا النفور كان متبادلا . فقد اعترفت آنّا بافلوفنا فى رسالة الى زوجها قائلة : «اننى امقت حكومتنا الحالية . . . انها عصابة شقاة تسعى فى هلاك روسيا» .

وانتشرت اشاعات مكثفة بأن فيرا زاسوليتش بعد الافراج عنها من الاحتجاز وجدت مخبأ لها فى دار آل فيلوسوفوف (بطبيعة الحال فى شطرها **النسوى**) . وتردد اسم آنّا بافلوفنا مقرونا بمسألة هروب كروبوتكين . وكانت تحفظ فى شقة المدعى العام العسكرى الاعلى الحكومية الفسيحة ادبيات ممنوعة ، ومن المحتمل ان يكون قد تردد عليها ضيوف كان على رب البيت الذى يتحلى بما يكفى من الادب واللياقة لان لا يُعنى بهوية من يعاود زوجته ان يطالب فى وقت لاحق باصدار احكام اعدام بحقهم .

ولم يمنع الفارق فى القناعات آنّا بافلوفنا من ان تحب زوجها . فبعد ان نفيت خريف عام ١٨٧٩ من روسيا لقاء صلاتها السياسية (الكسندر الثانى قال لمدعيه العام العسكرى الاعلى بالنص : «تكريما لك نُفِيت الى الخارج وليس الى فياتكا» (٢٢)) عادت الى الوطن ، ولكن بعد وفاة دوستويفسكى . على ان منزلة فيلوسوفوف الاجتماعية قد انتهت فى عهد الكسندر الثالث : اذ لم يكن بامكان السلطة ن تغفر له سلوك روجته .

وثمة ما يسمح بالظن ان بعض التفاصيل غير القابلة للذيوع والمتعلقة بنشاط المحاكم العسكرية كانت تصل الى دوستويفسكى عن طريق آنّا فيلوسوفوفا .

وكانت الحصيلة البادية للعيان لهذا النشاط هى الآتى : ستة عشر حادث اعدام خلال عام ١٨٧٩ وحده . ان كل القرن التاسع عشر لم يشهد عاما بمثل هذا «الحصاد» الوفير .

والموت يولد الموت ، وقد تردد صداه فى ارجاء البلد بأسره .

فى ٢ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ كان الامبراطور الكسندر الثانى يتنزه حول القصر الشتوى . وعندما اقترب (كما جاء فى نص البلاغ الحكومى) من مقر هيئة اركان سانت - بطرسبورغ العسكرية الواقع عند جسر بيفتشيسكى «برز من طرف المبنى المقابل شخص حسن الهندام يرتدى قبعة مدنية مسلكية (٢٣) ذات شارة . وعندما اقترب هذا الشخص من جلالة الامبراطور استل من جيب معطفه مسدسا ، واطلق النار على جلالته ، بعد ذلك اطلق عدة عيارات نارية اخرى» .

بيد ان المشهد كان فى واقع الحال اكثر دينامية : فالقيصر - المحرر (٢٤) البالغ سنّ الستّين لم يفلح فى انقاذ حياته الا بأن رفع اذيال معطفه وهرب بخط متعرج مبتعدا عن صولوفيوف (استخدمت الصحف عبارة لبقة هى ان الامبراطور «تفضل بأستدارة سريعة الى اليسار») .

لقد هرب الامبراطور مبتعدا عن صولوفيوف متعثرا ، اما صولوفيوف فقد جرى وراء الامبراطور وهو يطلق النار (ظلت على جدار مبنى المقر آثار ثلاث رصاصات ، جرحت احداها وجنة ضابط هرع الى موقع الحادث) ؛ وحاول الحرس متصارخا اللحاق بالمهاجم . واخيرا تمكن النقيب كوخ (وهو احد ضباط حرس الامبراطور) من اللحاق بصولوفيوف ، واسقطه أرضا بضربة واحدة بالجنب المنبسط من سيفه . وبعد يومين (اى فى ٤ نيسان (ابريل)) حلت الذكرى الثالثة عشرة لمحاولة الاغتيال التى اقدم عليها كاراكوزوف .

قدم الامبراطور فى ميدان عاصمته الرئيس ، وهو ينط امام فوهة المسدس ، مشهدا لا يبعث الانشراح . لقد تقرر مصير الكسندر الثانى . وعلى الرغم من ان النجاة الثالثة **بأعجوبة** (كان الشخص الثانى الذى اطلق النار عليه عام ١٨٦٧ فى باريس هو البولندى بيريوزوفسكى) قد وفرت المسوغات لتلاوة الجديد من صلوات الشكر والعرفان والتعبير عن آيات الولاء للامبراطور ، لم تضمن هذه الاخيرة اطلاقا سلامة الامبراطور . وراحت تكهنات

فاتحات الفأل بأن القيصر الروسى سوف يهوى بعد الاعتداء الثامن تزداد ثمنا مع كل محاولة جديدة .

حاول المجرم ، ابن الثانية والثلاثين ، بعد القاء القبض عليه ان يتعاطى السم الذى اخفاه سلفا فى قشرة جوزة ، لكن احبِطت هذه المحاولة . فقد اعطاه الاطباء الذين استدعوا على جناح السرعة عقارا قويا مضادا للسم استثاروا به تقيؤا دمويا .

هنا ينبغى التوقف قليلا ذلك ان اسما يعرفه دوستويفسكى جيدا يطفو بشأن هذا المشهد على سطح التقارير الصحفية ، وهو البروفيسور دميترى ايفانوفيتش كوشلاكوف - احد الطبيبين اللذين اعطيا العقار المضاد للسم الى صولوفيوف - من اجل انقاذه «لغرض التعذيب والاعدام» ، كما جاء فى احدى الوثائق السرية . هذا البروفيسور هو الطبيب العائلى لآل دوستويفسكى ، او بالادق مستشارهم الدائم . وهو يعالج منذ سنوات عديدة رب العائلة . وكوشلاكوف هو الذى شخّص لدى زبونه مرض انتفاخ الرئتين وأرسله الى ايمس للعلاج .

وعليه فقد كان بمقدور دوستويفسكى ان يحصل على هذه المعلومات من مصادرها الاولى .

قبل كاراكوزوف لم يجر اغتيال القياصرة الروس فى الميدان العام ، امام انظار الملأ . كان الحساب يصفى معهم على انفراد - يقتلون خنقا بلفاف الرقبة فى مخادعهم ، او يقضى عليهم بعلبة النشوق ، او يفتك بهم فى غمار حفلات الانس الودى (٢٥) . لكن كاراكوزوف خرق العُرف : لقد قام بفعلته **امام الملا** ، بمعنى انه اوجد **سابقة** . ومنذ ذلك الحين فقدت السلطة التاريخية الروسية هالة الحصانة . ومنذ ذلك الحين باتت **حراستها** امرا لازما .

فى وقت لاحق سوف يصف الكاتب كاراكوزوف بأنه «منتحر مسكين اعمى» . ان هذا الوصف الذى يختلف اختلافا كبيرا عن القوالب الرسمية التى يتصدرها على الدوام نعت «الجريمة النكراء» مفعم بالتعاطف الوجدانى . هنا (مثلما هو الحال على الدوام) الامر الاهم بالنسبة لدوستويفسكى هو العنصر **الانسانى** : انه لا يعنى بفعل القتل ، بقدر ما يعنى بالقاتل نفسه ، بمصيره وباندفاعه الى الانتحار .

1—1824

«لو قيض لى فى الوقت الراهن لهربت من بطرسبورغ الى الصحراء» – هذا ما كتبه لدوستويفسكى ك . بوبيدونوستسيف (٢٦) بعد حادث صولوفيوف بأسبوع . ثم تمنى لمراسله الذى يهم بالمغادرة الى ستارايا روسّا (٢٧) لتقضية فصل الصيف بأن «يعـود بصحة وسلامة فى عهد افضل» .

اعدم صولوفيوف شنقا يوم ٢٨ ايار (مايو) فى سمولينسكويه بوليه (٢٨) ، بيد ان «العهد الافضل» لـم يحل . فقد سارعت الحكومة الى الرد على اطلاقات صولوفيوف بنشاط ادارى عاصف ، فعينت فى بطرسبورغ وخاركوف وأوديسا محافظين عسكريين موقتين منحوا صلاحيات فوق العادة (ومنحت صلاحيات مماثلة الى المحافظين العسكريين الدائمين فى موسكو وكييف ووارشو) . واصبحت روسيا تُحكم بالقوانين العرفية .

. . . كانت ابنـــة الزوجين فيلوسوفوف تهوى – على حد قولها – الجرى «قدر ما تتحمل الانفاس» عبر كل صفوف غرف شقة والديها الفسيحة . وهى تقول فى مذكراتها : «ذات يوم كنت انطلق على هذا النحو ، وكنت فى السادسة عشر من العمر وقد انهيت المدرسة الثانوية . فاصطدمت عند الباب الخارجى بفيودور دوستويفسكى . ارتبكت خجلا واعتذرت ، وفجأة ادركت ان لا داعى لذلك . كان واقفا امامى شاحبا ، يجفف حبات العرق على جبينه ويتنفس لاهثا بمشقة ، يبدو انه ارتقى السلم بسرعة . فبادرنى : «هل ماما فى البيت ؟ اذن ، الحمد لله !» ثم اخذ رأسى بكفيه وقبلنى فى جبينى : «اذن ، الحمد لله ! لقد أبلغت توا بأنكما قد اعتقلتما» .

ان اعدام صولوفيوف لم يجلب قط الهدوء والسكينة .

«واكتب الى ملاك كنيسة اللاذقية»

كتب دوستويفسكـــى لاحد الصحفيين المحافظين ويدعـى بوتصيكوفيتش (٢٩) ، يقول : «اذا اردت الكتابة عن العدميين الروس ، فأعيذك بالله ألا تؤنبهم ، بقدر ما تؤنب آباءهم . لك ان تأخذ بهذه الفكرة ، ذلك ان جذور العدمية ليست فى الآباء

وحدهم ، غير ان الآباء اشد عدمية من البنين . ان لدى اشقيائنا المزاولين للعمل السرى حرارة حماسة شنيعة ، على الاقل ، بينما نجد فى آبائهم نفس تلك المشاعر ، ولكنها تقترن بالاستهتار واللامبالاة ، وهو امر اكثر سفالة» .

احد ابطال «الشياطين» يستشهد بقول الانجيل : «واكتب الى ملاك كنيسة اللاذقية : هذا ما يقوله آمين الشاهد الامين الصادق ، رأس خلق الله . انى عالم باعمالك ، انك لست باردا ولا حارا . وليتك كنت باردا او حارا . ولكن بما انك فاتر . لا حار ولا بارد . فقد اوشكت ان اتقيأك من فمى» .

وفى رسالته الى بوتصيكوفيتش يدور الحديث - من حيث الجوهر - عن الامر ذاته . فالحرارة وان تكن «شنيعة» ، الا انها تدل على الصدق والامانة : اما «الفاترون» فهم الآباء بالذات . و«الى ملاك كنيسة اللاذقية . . .» لا تشمل الابناء . فالخطيئة التاريخية ، حتى لو لم يبرّأ منها الثوريون الروس من ابناء جيل السبعينات براءة تامة . فهى تلقى الى قدر لا يستهان به على كاهل جيل الاربعينات .

هنا يمر حد ربما لا يبدو ملحوظا كفاية ، لكنه رغم ذلك جوهرى جدا ، يفصل دوستويفسكى عن ذلك المعسكر الذى كان ينتمى اليه بوتصيكوفيتش .

ان بوتصيكوفيتش ، شأنه شأن كاتكوف الذى يطالب دون كلل بانزال كل ثقل «سيف الدولة التنكيلى» على رؤوس العدميين (٣٠) ، ينتظر اجتثاث الفتنة من لدن السلطة ، ومن لدن السلطة وحدها : فالقوة يجب ان تقوّض **بالقوة** .

نحن لا نجد فى اى تصريح لدوستويفسكى خلال الاعوام ١٨٧٨ - ١٨٨١ ، لا فى رسائله ولا فى «يوميات كاتب» ، ولا فيما سجله كتّاب المذكرات من اقواله ، ما يشير الى ان مؤلف «الاخوة كارامازوف» كان يعتقد بامكانية حل المعضلة بالطرق الادارية المحض . انه لا يجد ، وهو الموالى للنظام الملكى ، ايما كلمة للاطراء على تلك الاعمال القمعية التى تلجأ اليها السلطة الملكية لاغراض حماية الذات .

انه لا يرى فى نزال الثورة مع دولة الحكم المطلق صراعا بين قوى سياسية لها حضورها («من سيتغلب منهما») . بقدر ما

يرى فيه مأساة تاريخية متأصلة . ذلك ان القطيعة مع الشعب ، فى رأيه ، صفة لا تتسم بها التنظيمات الثورية السرية فحسب ، بل يتسم بها كذلك ما يجابه هذه التنظيمات السرية : انها تسم مجمل نظام كيان الدولة الروسى . فالسلطة تتحمل جريرة القطيعة مع الشعب ، شأن من يحاول تحطيم هذه السلطة . ان جذور المأساة واحدة .

دوستويفسكى يكتب الى بوبيدونوستسيف قائلا : «ان الثقافة لا وجود لها لدينا كما لدى الآخرين والمتسبب فى غيابها هو العدمى ، بطرس الاكبر (٣١)» . انه يطلق نعت العدمى على المع ممثل للسلالة المالكة . فبطرس الاكبر ، فى رأى دوستويفسكى هو الذى فرق الوحدة الروحية للامة عندما اقحم عليها قشور الثقافة فحسب . انما فحكم على «الشريحة المثقفة العليا» بوجود تاريخى خيالى مفتعل . حتى ليمكن وصفه بوجود هزلى . وهذه هى النتيجة : ان الانسان الروسى «العديم الثقافة» «رغم انه استمد كل شىء بالكامل من الاشتراكية الاوربية . الا انه حتى فى هذا المضمار قد غيّرها الى درجة لم تعد معها تشبه شيئا سواها» .

لقد ارجع خط «الابوة» الى مديات تاريخية اكثر قدما : فلم يعد جيل الاربعينات ، بل القيصر الروسى هو الذى بات يشرف على منابع النوائب والبلبلة الراهنة .

ان فكرة الذنب العام (ذنب المجتمع المتعلم بأسره) لا تبارح دوستويفسكى حتى ايامه الاخيرة . فنراه يدوّن فى مفكرته «الاحتضارية» : «ان العدمية ظهرت عندنا لاننا جميعا عدميون . سوى ان شكل تجليها الجديد المتفرد قد ارعبنا .

ان الارهاب ، على هذا النحو ، نتيجة وليس سببا فهو مجرد «شكل متفرد» لمرض قومى مزمن . وهذا المرض (على الضد من آراء كاتكوف وبوبيدونوستسيف وبوتصيكوفيتش) لا يتيسر علاجه «بالحديد والدم» .

جار خطر

فى ٢٠ ايار (مايو) ١٨٧٦ سجلت ألتشيفسكايا (٣٢) فى يومياتها : «ان اشد ما انطبع فى ذاكرتى هو السمة التالية ،

البادية لدى دوستويفسكـــى : الخوف من الافتراق مع الجيل الشاب . هذا ، فيما يبدو ، هو مـــا يشكل لديه idée fixe (الفكرة الملازمة) . وهذه الفكرة الملازمة ليس فيها بتاتا الخوف من فقدان صفة الكاتب المحبوب او تقلص عدد المعجبين والقراء ، كلا ؛ يبدو انه يعتبر **الافتراق** مع الجيل الشاب بمثابة **سقوط** المرء ، بمثابة موت اخلاقى» .

فى نفس تلك الرسالــة الى بوبيدونوستسيف (بتاريخ ١٩ ايار (مايو) ١٨٧٩) ، حيث يدور الحديث حول «العدمى بطرس الاكبر» ، يأتى ذكر اسم آخر اقل اهمية . يقول دوستويفسكى : «عندما وصلت ، كانوا هنا يتحدثون عن ضابط (اعدم شنقا) يدعى دوبروفين من فوج فيلمانستراند المحلى» .

ان لاهتمام سكان ستارايا روسّا بدوبروفين مـــا يبرره تماما . ففى ٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ اعدم بقرار من محكمة دائرة بطرسبورغ العسكرية .

ان الملازم الثانى فلاديمير دميتريفيتش دوبروفين من فوج مشاة فيلمانستراند السادس والثمانين المرابط فى ستارايـــا روسّا شخصية غير مألوفة ، بل هــى أشبه باللغز فى الكثير من النواحى .

بالامكان ان يعزى الى الارهابيين المنفردين من امثـــال صولوفيوف وفاليريان اوسينسكـــى الذين كانوا قبل تشكل «الارادة الشعبية» تنظيميا يتصرفون اساسا على مسؤوليتهـــم الشخصية .

كان دوبروفين يقطن فى ستارايا روسّا على مسافة قريبة نسبيا من مسكن دوستويفسكى . ولا يستبعد ان يكون الكاتب قد التقاه فى اثناء نزهاته .

فى ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٨ عندمـــا جاء رجال الشرطة لاعتقال دوبروفين فتح هذا عليهم النار . لكنهم افلحوا فى تجريده من السلاح ، فأفلت من قبضتهم واندفع الى غرفة اخرى واستل خنجرا (وكانت قد نقشت عليه عبارة «إعمل ودافع عن نفسك») . ولكن لم يطل امد دفاعه عن نفسه ، فالقوى كانت غير متكافئة . لقد طرحوا دوبروفين ارضا ، وشدوا وثاقه بعد عناء .

ولم يمر اعتقال دوبروفين دون ان يلحظه احد لسبب آخر هو انه ، عندما اجلسوه مقيدا فى زلاجة الفوج ، ومن ثم اقتادوه عبر محطة القطار ، حاول مرارا ان يخاطب الجمهور المحتشد . كان يصرخ : «يـــا عباد اللـــه المؤمنين ، انتـــم ترون كيف يقيدونني ويعذبونني ، انا الضابط . ان من يصدر الاوامـــر بتعذيب الناس واضطهادهم يجب ان يقتل ، مثلما قتل تريوبوف وميزينتسوف ، كما يجب قتل القياصرة» . (على ان من الصعب التكفل بالدقة الحرفية لهذه الكلمات ، ذلك ان الشاهد فى هذه الحالة كان نائب ضابط من الشرطة) .

وكان دوبروفين فى السجن ايضا يتصرف بهياج اثناء التحقيق الاولى : يغنى باعلى صوتـــه ويصرخ عبر فوهة باب زنزانته بعبارات شائنة . وعندما اودع فى زنزانة العقاب حاول الانتحار : لقد قطع اوردة يده ، لكنه فى اللحظة الاخيرة طلب الغوث وهو ينزف دما . فأنقذوا حياته ؛ وبعد مضى فترة من الوقت استولى عليه الهياج مرة اخرى ، وصار يهذى .

«يقال انه تظاهر بالجنون حتى اعتلائه المشنقة ، — يكتب دوستويفسكى الى بوبيدونوستسيف ، — رغم انه كان بمقدوره الا يتظاهر ، لانه كان مجنونا اصلا دون شك» .

المقصود هنا هو حالة غير طبيعية لا ترتدى طابعا عضويا بقدر ما ترتدى طابعا اجتماعيا . فالثورة الروسية هى انحراف واضح عن المعدل ، «اغراء وجنون» : هنا عزف بوبيدونوستسيف عن مماراة مراسله .

ولكن ، ترى هل كان المدعى العـــام الاعلى المقبل للسينود المقدس (٣٣) سيتفق مع الفكرة التالية التى ربمـــا لم تكن بعد واضحة تماما للمؤلف ذاته : «لقد اراد تمريره عبر الدير ليجعل منه ثوريا . ووقتذاك كان سيرتكب جريمة سياسية ولكان جزاؤه الاعدام» .

تلكـــــم هى افادة سوفورين (٣٤) (فى يومياته) عن نيـــة دوستويفسكى مواصلة «الاخوة كارامازوف» . فالمقصود بالكلام «هو» قطعا ليس دميترى كارامازوف (الذى يذكر بما لا يدركه الاحساس بدوبروفين فى بعض سماته ، بل أليوشا «المفرط

الهدوء» الذى كان من المفترض ان يكون تجسيدا للمعدل الطبيعى بين «غير الطبيعيين» . حائز الكيان النفسى الهانئ .

لم يتوصل دوستويفسكى فورا الى فكرته عن مثل هذا الأليوشا . بل ترسخت الصورة نهائيا ، فيما يبدو ، بعد مضى عام ، حين اخذت شخصية الثورى من ابناء جيل السبعينات تقتنى فى وعيه (مثلما فى وعى البلد بأسره) مزيدا من الملامح المحددة.

بيد انه راح منذ الآن ، فى ايار (مايو) ١٨٧٩ ، يتفحص بفراسة الاشخاص من امثال دوبروفين . محاولا رؤية امر آخر وراء «الجنون» الظاهرى .

«ومن ناحية اخرى ، - يواصل دوستويفسكى رسالته الى بوبيدونوستسيف ، - نحن نقول صراحة : هذا جنون ، بينما لهؤلاء المجانين منطقهم وعقيدتهم وقانونهم ، بل حتى لهم ربهم ، وقد تأصل ذلك فيهم برسوخ لا يفوقه رسوخ» .

يبدو كاتب الرسالة وكأنه يدعو مكاتبه الى اعمال الفكر فى اسباب هذه الظاهرة المدهشة . فمن شأن الاستناد الى الشذوذ عن المعدل الطبيعى ان يكون مريحا تماما : فهو يشطب التساؤلات ويهدئ الضمير . لذا يختار دوستويفسكى سبيلا آخر : انه يحاول تناول هذا النمط الذى يجهله بعد «عن كثب» - فيوقن مع بعض الدهشة والاستغراب بأن هذا الاخير يختلف اختلافا كبيرا عن ابطاله السابقين . فالاعتراف للثوريين بوجود «رب خاص بهم» يعنى الكثير على لسان دوستويفسكى . اذ ليس ثمة «رب» لدى بيوتر فيرخوفينسكى ، بطل «الشياطين» ، ولا يمكن ان يكون : انه - باعترافه - «محتال وليس اشتراكيا» .

ولنبح لانفسنا بعض التصرف فى التحليل . انطلاقا من طابع «الشياطين» . سنقوم بتعميم استنباطى لسلوكهم خارج حدود الرواية . ولنتصور كيف كانوا سيتصرفون فى لحظة الاعدام ، لو كتب لهم ذلك ، مثلا . من الواضح ان هذا السلوك من حيث «نبرته» كان يجب ان يذكر بعض الشيء بالموقف التراجيكوميدى فى مشهد اغتيال شاتوف . فمن المستبعد ان يتجاسر ليبوتين وليامشين وفيرغينسكى وتولكاتشنكو ، بل وحتى بيوتر فيرخوفينسكى على التحديق فى عين موتهم الذاتى .

ترى هل كان دوستويفسكى يعرف كيف تصرف دوبروفين

على منصة الاعدام ؟ لا شك انه كان على علم بذلك : فهو يتطرق الى ذكر الشائعات ، ولكن كانت هناك مصادر اخرى .

من المعروف ان دوبروفين رفض وصية القس (وصية الوداع) ، وحاول مخاطبة الجنود المحيطين بمنصة الاعدام . نحن لا نعلم ماذا صرخ به دوبروفين : فقد طُمس صوته بقرع الطبول الذى لم يتوقف «حتى انتهاء عملية الشنق» . (بعد حوالى عشرة ايام ، وبالنظر لهذا الحادث بالذات فيما يبدو ، اصدر محافظ بطرسبورغ العسكرى غوركو امرا خاصا يقضى بعزف مارش الاعدام وقرع الطبول ، اذا عنّ للمحكوم عليه ان يقول او يصرخ بشىء على منصة الاعدام .

تفيد وثيقة رسمية بأن دوبروفين اعتلى منصة الاعدام «وهو ينشد اغنية شائنة المضمون» . كانوا لا يزالون يخشونه : فلاجل اعانة الجلادين اللذين استدعيا خصيصا من موسكو ووارشو جلبوا من قلعة السجن الليتوانية (٣٥) اربعة من المجرمين الجنائيين «تحوطا لاحتمال مقاومة المجرم» .

وزعمت نشرة «الارض والارادة» (٣٦) ان السرية التى كان دوبروفين يؤدى الخدمة فيها ، والتى جرى صفها فى موقع الاعدام قد ادت التحية له بشكل تلقائى . ولئن كانت هذه اللمسة الاخيرة مبالغا فيها (فالجنود اخذوا وضع الاستعداد فى اللحظة الاخيرة بمقتضى التعليمات) ، فهى رغم ذلك تنطوى على الكثير من الدلالات . لقد اخذت تحاك امام انظار المعاصرين اسطورة اكتسبت بالتدريج قوة معنوية وخلقية كبيرة الشأن واخذت هالة الشهادة المحيطة بالمجرمين السياسيين تلقى **ضوءا معاكسا** على مجمل نشاطهم السالف .

المحاكمة السياسية

طالبة التماس بمسدس

لم يتسن لمؤلف «الاخوة كارامازوف» قط حضور اى مما يسمى بـ«محاكمات الارهابيين» . اذ لم يكن يسمح للجمهور ، عادة ، بحضورها . لكنه حضر بالمقابل ربما احدى اكثر المرافعات القضائية اثارة فى السبعينات .

فى ٣١ آذار (مارس) ١٨٧٨ اصغت قاعــة محكمة دائرة بطرسبورغ الغاصة بالجمهور لدعوى اتهام ابنــة النقيب فيرا ايفانوفنا زاسوليتش التى اعتدت على حياة حاكــم بطرسبورغ العسكرى الجنرال فيودور فيودوروفيتش تريوبوف .

كانت هذه هى الدعوى الاولى (والاخيرة !) من هذا النوع التى اوكلت الى محكمة المحلفين . ولم يكن بوسع الحكومة ان تتوقع ان تكون رصاصة زاسوليتش فاتحة صراع دموى مديد : لقد جرى عن قصد اعتبار الدعوى قضية جنائية .

ترأس المحكمة اناتولى فيودوروفيتش كونى (٣٧) ، وهو احد معارف دوستويفسكى الطيبين . واتخذ مقاعده على منصة الشرف خلف الحكام وجهاء الامبراطورية – مستشار الدولة ، كبار موظفى وزارة العدل ، اعضاء مجلس الشيوخ . . .

واتخذ دوستويفسكى مقعدا له فى الصف المخصص للصحافة .

كانت جريمة زاسوليتش تنطوى على عامل اخلاقى لابد له ان يقلق مؤلف «الجريمة والعقاب» : فقد انتقمت من تريوبوف عن الامر الذى اصدره بجلد شخص معتقل يدعى بوغولوبوف . لقد تطاولت على حياة انسان **دفاعا عن** انسان آخر .

لقد دافعت هذه الامرأة الشابة (كان لها من العمر ٢٨ سنة) ليس عن خطيبها او عشيقها (هكذا ظنوا فى بادئ الامر : ولكان ذلك امرا **مفهوما**) ، ولا عن شرفها او شرف اقاربها ، بل عن

شخص ليس لها معرفة به اطلاقا (حتى ان زاسوليتش لم تر بوغوليوبوف قط فى حياتها) . لقد دافعت عن **مبدأ** .

فى ٢٤ كانون الثانى (يناير) ١٨٧٨ ، وفى الساعة العاشرة صباحا ، ظهرت زاسوليتش فى غرفة استقبال المراجعين بمقر حاكم المدينة العسكرى . كانت ترتدى تلما (٣٨) سوداء طويلة بلا اكمام : وكانت تخفى فى طياتها مسدسا . شرع الجنرال فى تفقد التماسات المراجعين ، وكانت زاسوليتش الاولى فى الصف . فأستلم تريوبوف عريضتها وسألها عن مضمونها ، ثم التفت الى طالبة الالتماس التالية موجها نفس السؤال . وقبل ان تجيب العجوز دوى عيار نارى .

اطلقت زاسوليتش النار عن كثب ، من مسافة نصف خطوة ، «من مسدس ، — كما ورد فى قرار الاتهام ، — معبأ برصاصات من العيار الكبير» .

فى المحكمة استجوب الحاكم كونى شاهدا هو الرائد كورنييف :

«سؤال (س) : هل ابدت المتهمة مقاومة لكم ؟

جواب (ج) : كلا .

(س) : هل قامت بحركة كى تطلق النار مرة ثانية ؟

(ج) : كلا ، لم يكن لديها مسدس ، فقد القته ارضا .

(س) : وعليه فأنت تدعى انها اطلقت النار مرة واحدة فقط ؟

(ج) : اجل ، مرة واحدة .»

اذن ، لقد رمت زاسوليتش مسدسها جانبا بعد ان اطلقت النار . وعندما سألها كونى هل كانت ترغب فى قتل تريوبوف ام فى اصابته بجرح ، اجابت بأن الامر كان سواء لديها : انها كانت تريد فقط «ان تبين بذلك عدم جواز اهانة انسان ، بمثل هذا الايمان بالافلات من القصاص» .

كانت رصاصة زاسوليتش جريمة **ايديولوجية** .

وجميع حوادث الاغتيال والانتحار فى روايات دوستويفسكى تكاد تكون ايديولوجية .

وستجد بعض لقطات هذه الدعوى (ومنها ، تحديدا ، سلوك رئيس المحكمة كونى ، وكلمات المحامى والمدعى العام) فى وقت

لاحق صدى لها فى «الاخوة كارامازوف» . غير ان الذى يعنينا الآن هو امر آخر .

ما يعنينا هو قرار الحكم .

لم يكن لقرار الحكم نظير فى السابق : فالمجتمع (المتمثل فى شخص المحلفين) قد صفى حسابه مع طاغية جائر عنيد هو سيد العاصمة المطلق السلطة (وهو - بالمناسبة - ابن غير شرعى لنيقولاى الاول (٣٩)) . وكما ذكر كاتكوف فى مقالـه الساخط ، فان هذه المحاكمة تحولت الى «دعوى حاكم بطرسبورغ العسكرى تريوبوف الذى حوكم بتهمـة معاقبة المعتقـل بوغوليو بوف» .

كان معظم الحاضرين على ثقـة من ان المحلفين قد اتخذوا قرارا بتجريمها .

اليكم هذا المشهد ، كما رآه رئيس المحكمة نفسه : «لقد دخلوا (اى المحلفون - **المؤلف**) الى قاعة المحكمة متزاحمين ، بوجوه شاحبة ، متحاشين النظر الى المتهمة . . . فساد صمت مطبق . . . كتم الجميع انفاسهم . . . ناولنى عميد المحلفين الورقة بيد مرتجفة . . . امام السؤال الاول طالعتنى بخط ضخم عبارة : «كلا ، ليست مذنبة ! . .» .

كانت تبرئة زاسوليتش صفعة للحكومة امام الملأ : لذا لم يكن بوسع السلطات ان تغفر امرا كهذا لمحكمة المحلفين .

«هذا اسعد يوم فى تاريخ القضاء الروسى !» - هتف احد الوجهاء الذين حضروا المحاكمة ، فأجابه كونى بتجهم : «انت على خطأ ، انه اتعس يوم فى تاريخه» . وكان كونى محقا فى قوله : فعلى اثر تبرئة زاسوليتش سحبت كل الدعاوى المتعلقة بالاعتداء على حياة المسؤولين من صلاحية محكمة المحلفين واحيلت الى محكمـة العرش (وكان هذا اول ضغط على «محكمـة الضمير الاجتماعى» ، لكنه لم يكن الضغط الاخير بتاتا) .

وذهبت «موسكوفسكيه فيدوموستى» (٤٠) (وليس هـى وحدها) الى ان كل المصائب فى روسيا تقريبا قد ابتدأت من قرار الحكم الفاضح هذا .

يقول كونى فى مذكراته : «عندمـا ناولت عميد المحلفين الورقة تطلعت الى زاسوليتش : كان وجهها نفس ذلك الوجه

«المختل القسمات» الاغبر الذى ليس فيه من الشحوب او الحمرة ما يفوق المألوف ، وعيناها نفس تلك العينين المرفوعتين الى الاعلى والمتوسعتين قليلا . . . «كلا !» – اعلن عميد المحلفين ، فتضرجت وجنتاها بلمح البصر . . . ، «ليست مذنـ . . .» ، لكنه لم يستطع المضى فى الكلام» .

لقد شهد دوستويفسكى تلك الحماسة المحتدمة التى عمت الجمهور اثر اعلان قرار الحكم .

ويمضى كونى الى القول : «تعالت صرخات ابتهاج جامح ، وانتحاب هستيرى ، وتصفيق يائس ، ودربكة اقدام ، وهتافات : «برافو ! عفارم ! فيرا ! فيروتشكا ، فيروتشكا * !» – واختلط كل هذا فى ضجة واحدة من الصرير والولولة والانين . كان الكثيرون يرسمون اشارة الصليب . وفى القسم الاعلى ، الاكثر ديمقراطية ، المخصص للجمهور راح الحضور يتعانقون ، وحتى فى الاماكن الواقعة وراء الحكام دوى تصفيق عاصف للغاية» .

تُرى ، ماذا كان دوستويفسكى يفعل فى هذه اللحظة ؟

كان بمقدوره ايضا ان يشهد ما حدث بعد فترة وجيزة : المظاهرة الصاخبة التى قام بها الجمهور الغفير بالقرب من مبنى المحكمة فى شارع شباليرنايا ، والمحاولات التى بذلها رجال الشرطة لـ«استعادة» زاسوليتش التى اخلى سبيلها ، واطلاق رصاص مسدسات وما الى ذلك .

كيف كان موقف دوستويفسكى من قرار حكم المحلفين ؟ ولكن لنر قبل ذلك كيف كان موقف المجتمع الروسى من هذا القرار .

لم يستطع الكثيرون التصديق بقرار الحاكم القاضى بتبرئة المتهمة : ظنوا انها نكتة ١ نيسان (ابريل) .

بعد ان تلقى كاتكوف صحف بطرسبورغ المفعمة بردود الفعل المعبرة عن الاغتباط بقرار المحلفين (وهكذا كان رد الفعل الجماعى للصحافة الليبرالية) ، ابلغ قراءه بأن «كل دار صحافة بطرسبورغ المجنونة» قد وصل الى موسكو . وفى وقت لاحق

---

* اسم تدليل من فيرا .

لن يفوت كاتكوف ايما حادث الا واعاد الى الاذهان ان فاتحة الطريق الى ١ آذار (مارس) ١٨٨١ كانت فى ٣١ آذار ١٨٧٨ .
ان نظرة دوستويفسكى الى هذه القضية لا تشبه مطلقا لا استياء السلطات ولا رقة وحنان الليبراليين على السواء .

«الكنيسة هى الناس كافة»

انه بوجه عام لا يشبه شيئا سواه .
ذلك أن دوستويفسكى «ينتزع» القضية من المجال القانونى الرسمى وينقلها الى تربة اخرى ، مغايرة تماما .
لقد عزف عن الادلاء برأيه امام الملأ : كانت «يوميات كاتب» قد كفت قبل ذلك الحين عن الصدور . لكنــــه رغم ذلك رأى معروف .
وفى مساء الاول من نيسان (ابريل) قام غرادوفسكى (٤١) ، كاتب المقال الساخر الشهير عن المحاكمة ، الذى كان ينبغى ان ينشر فى صبيحـــة اليوم التالى فى صحيفة «غولوص» (شكا بوبيدونوستسيف لولى العهد قائلا : «ان غولوص» («الصوت») رقصت رقصة فرح ماجنة بمناسبة تبرئة زاسوليتش») بزيارة بيوتر الكسندروفيتش فالويف (٤٢) ، رئيس مجلس الوزراء . فسأله فالويف مندهشا : «أيعقل انك ايضا تؤيد قرار التبرئة ؟» فأجاب الصحفى : «ليس انـــا فحسب . . . كان يجلس بجانبى دوستويفسكى ، وحتى هذا (ان عبارة «وحتى هذا» لها هنـــــا دلالاتها – **المؤلف**) أقرّ بأن معاقبة هذه الفتاة أمر غير مناسب ، وفائض عن اللزوم . . . وقال انه كان ينبغى ان يكون التعبير هــــو أن : «اذهبى ، انت حرة ، ولكن لا تفعلى ذلـــــك مرة اخرى» (٤٣) . ففحّ فالويف من خلال اسنانـــه قائلا : «يـــا للعجب !»» .
بامكان المرء ان يفهم مشاعر الوزير : ف«قرار الحكم» الذى اقترحه دوستويفسكى ليس له نظير فى الممارسة القانونيـــــة العالمية . بينما كانت الكلمات التى قالها لغرادوفسكى تنطوى

على فكرة يضمرها الكاتب سنوات طويلة وقد انعكست في «يوميات كاتب» وفى «الاخوة كارامازوف» .

ان المسألة بالنسبة لمؤلف «يوميات كاتب» لا تتلخص فى القدر الكبير او القليل من جدوى الاصول القانونية المعمول بها ، بل فى عدم توافق المراسيم القضائية مع جوهر القضية . ذلك ان القضاء نفسه يقوم على الرياء الداخلى ، على الانقطاع بين اخلاقية الدولة واخلاق الشخص .

«اذهبى ، انت حرة . . .» - يقولها دوستويفسكى قبل اعلان قرار الحكم (فى فترة استراحة جلسة المحكمة) . ثم اضاف : «ليس لدينا ، كما يخيل الىّ ، مثل هذه الصيغة القانونية . ومن يدرى فقد يرفعونها الآن الى مصاف الابطال» .

ليس هناك «صيغة قانونية» ؛ ونفس تلك «الصيغة» التى يقترحها دوستويفسكى («اذهبى ، ولكن لا تفعلى ذلك مرة اخرى») غير مقبولة **بالنسبة للدولة** . ولكن ، ربما كان ما يقترحه ممكن التحقيق **بين الناس** المترابطين بوشائج اخرى غير الوشائج الرسمية ؟

. . . لقد كسب سباسوفيتش ، وهو احد ابرز المحامين الروس ، بعد عناء ، دعوى اقيمت فى محكمة بطرسبورغ ضد موكله كرونينبيرغ . وكان كرونينبيرغ قد اعتدى على ابنته بعقوبات جسدية قاسية . ووظف سباسوفيتش كل موهبته اللامعة (انعكست ملامح «فاسق الفكر» هذا فى شخص المحامى فيتيوكوفيتش فى «الاخوة كارامازوف») فى سبيل حماية موكله .

ان احدا من معاصرى دوستويفسكى الذين استاؤوا من نتيجة هذه الدعوى لم يشعر بالحدة التى شعر بها هو نفسه بوطأة العبء الاخلاقى الذى يترتب حينما يوجه كل جبروت فن المحاماة الباهر ضد صبية صغيرة فى السادسة من العمر بهدف واحد فقط هو تجريم البنت وتبرئة ابيها .

لقد دمر دوستويفسكى سباسوفيتش تدميرا ماحقا (كما لم تكن لديه ، بطبيعة الحال ، كلمات ثناء على كرونينبيرغ ايضا) . بيد انه حين رسم هذه اللوحة التى لا يمكن بأى حال من الاحوال ان تقارن من حيث ما تنطوى عليه من قوة

الفضح والادانة مع أى من الطروحات العامة الواعظة التى تقدم بها الادعاء العام ، لا نجده يطالب بتاتا بانزال عقوبات بحقها .

ان الموقف الذى تستطيع فيه البنت ان تحكم على ابيها غير مقبول لدى دوستويفسكى بنفس القدر الذى يرفض به حقيقة ان يستطيع الاب المعنى ان يمضى قدما فى تعذيب ابنته دون عقاب. هنا كان يكمن زيف متأصل . وليس فقط لان الدولة تقتحم بفظاظة منظومة علاقات القربى الشديدة الحرمة (حتى ولو كان اقتحامها هذا يرمى الى هدف نبيل هو حماية الضعيف) . لقد كانت دارمية الوضع تتلخص فى ان كل قرار اتهام ينتزع الابن من ابيه تلقائيا (حتى اذا كان أبا **من هذا النوع**) ، ويحطم الاسرة ويقضى على الضحية التى **كسبت** الدعوى باليتم التام (لم تكن للبنت أم). بينما لم يكن امام المحكمة خيار آخر : فالتشريعات الروسية لم تكن فى مثل هذه الحالات (وفى سواها كذلك) تنص على شكل ما من اشكال الادانة الخلقية .

«ليس لدينا ، كما يعيل الىّ ، مثل هذه الصيغة القانونية» .

يبدو ان رجل الدولة فالويف لم يقرأ - بسبب انشغاله - «يوميات كاتب» ، والا لتسنى له ان يلاحظ ان ما قاله دوستويفسكى عن زاسوليتش يتضمن نفس تلك «الصيغة غير الرسمية» التى استخدمها مؤلف «يوميات» استخداما ثابتا بشأن كورنيلوفا وكرونينبيرغ وآل جونتوفسكى .

ان **فصل الادانة عن العقاب** امر متعذر عمليا : بيد ان دوستويفسكى يطرح المسألة على هذا النحو بالذات .

وهكذا كانت الحال لديه على الدوام . ليس تطوير «النظام» ، ليس تحسين بعض اجزائه ، بل تغييره جذريا ، واعتماد «العامل الانسانى المحض (ويمكن القول العامل الانسانى المطلق) فى دائرة المفاهيم العامة وفوق الشخصانية . فعالم التجريدات الباردة «يُدفّأ» ، فتكتسب هذه التجريدات صورة جديدة (مقربة باقصى درجة الى الانسان) .

وكان ثمة امتداد لما قاله فى محاكمة زاسوليتش .

ففى ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٠ اعدم فى قلعة بطرس وبولص (٤٤) شنقا اندريه بريسنياكوف (٢٤ سنة) والكسندر كفياتكوفسكى (٢٧ سنة) .

ولم يتبق من حياة دوستويفسكى نفسه سوى اقل من شهرين .

وقد دون فى دفتره الاخير (الذى سنعود اليه مستقبلا غير مرة) ما يلى : «اعدام كفياتكوفسكى وبريسنياكوف والصفح عن الباقين . كدولة – لم يكن بمقدورها ان تصفح (باستثناء ارادة العاهل) . فما هو الاعدام ؟ فى الدولة انه التضحية فى سبيل فكرة . ولكن لو كانت الكنيسة لما كان الاعدام» .

من ابسط ما يكون : ان دوستويفسكى نصير للمحكمة الكنسية . وبالتالى ليس سوى متعصب دينى يمثل امامنا ، على حد قول ستيفان تسفايغ ، «راهبا قروسطيا ، متعصبا ، حقودا يحمل صليبا بيزنطيا ، وكأنه يحمل سوطا فى يده» .

ان اعضاء محاكم التفتيش (الكبار و«العاديين») يمارسون ، عادة ، الاعدام . علما بأنهم يفعلون ذلك بأسم الكنيسة بالذات . «لما كان الاعدام» – يقول دوستويفسكى .

وفيما سجله عن كفياتكوفسكى وبريسنياكوف نسمع نبرة غير غريبة عنا بتاتا .

القانون الاخلاقى : استخدامه حسب الحالة

لنتذكر «الاخوة كارامازوف»

. . . يدور فى الدير ، وبالتحديد فى صومعة الشيخ زوسيما حديث مثير للفضول . فبعد الاصغاء الى طروحات الاب بائيسى الذى قال انه على الضد من فكرة الروم الكاثوليك ، – «حسب الفهم الروسى» – «فأن على الدولة ان تؤول الى ان تتشرف بأن لا تغدو سوى كنيسة فحسب ، وليس اى شىء آخر» ، اطلق مالك الاطيان ميئوسوف ملاحظة فى منتهى التهكم مفادها ان كل هذا «يكاد ان يكون حتى شبيها بالاشتراكية ، وانه اذا اخذ كل هذا مأخذ الجد ، فأن «الكنيسة **الآن** . . . سوف تقوم بمحاكمة المجرمين واصدار احكام بالجلد والاشغال الشاقة ، وربما حتى بالاعدام ايضا» .

وهنا يتدخل فى الحديث ايفان فيودوروفيتش كارامازوف . انه يشرح لميئوسوف بهدوء ، «دون ان يرف له طرف» ، ان الامر ليس كذلك بتاتا ، لانه لن تكون هناك حاجة للجوء الى التدابير «الميكانيكية» فى اصلاح المجرمين ، عندما ستتغير جذريا النظرة الى الجريمة بحد ذاتها .

تجدر الاشارة الى ان دوستويفسكى يوكل هذه الفكرة الى ناكر شاب ، مرتاب وكافر «من المحدثين» . بالمناسبة ، مثلما يوكل اسطورة المفتش العظيم .

بيد ان شد مـــا يدهش هو امر آخر : فايفان كارامازوف يؤيده فجأة الشيخ زوسيما .

«لو كانت المحكمة ، — يقول الشيخ ، — ملكا لمجمـــع كالكنيسة ، لعرف هذا المجمع عندئذ من ذا الذى ينبغى رفع نبذ الكنيسة عنه واعادته الى حظيرتها» .

لمجمع كالكنيسة .

بالفعل : عن أية كنيسة يتحدث دوستويفسكى ؟ ربمـــا كان يقصد ، مثلما يليق بـ«راهب القرون الوسطى» ، التنظيم الكنسى الجاهز وآليته المحبكة التدبير على مدى القرون ، وهذا الشكل او ذاك من الهرم الكنسى المعاصر له ؟

بيد ان «الكنيسة مشلولـــة منذ عهد بطرس الاكبر» (٤٥) (وقد ورد هذا القول فى نفس دفتر الملاحظات المذكور) . وجل ما تستطيعه هو اداء الطقس الرسمى عند توديع المجرم المقاد الى الاعدام . «الكنيسة مشلولة» ، — أيعقل أن دوستويفسكى يرغب ، وهو يعى ذلك ، فى ان تتحول الدولة الى كنيســـة كهذه ، وبذا تغدو وكأنها تجمدت تلقائيا ، ان تقع فى حالة من الذهول الشديد ؟

انه لتناقض غريب يتعذر تفسيره للوهلة الاولى . ولكن لنرجئ تفسيره بمفارقة جديدة من مفارقـــات مؤلف «الاخوة كارامازوف» .

وهذا سطر آخر مما دونه : «الكنيسة هى الناس كافة» ، — «الناس كافة» أى انها ليست دائرة ، ليست مؤسسة مفصولة عن الناس ومتسلطة عليهم ، بل هى رابطة روحية تطابق هؤلاء الناس تماما .

بهذا المعنى يكون «الناس» و«الكنيسة» مترادفين . حتى وتغدو الاخيرة اسما جامعا لسلطة الشعب .

فى العدد الاخير من «يوميات كاتب» (صدر فى يوم وفاته) يقول دوستويفسكى ان الخطأ الرئيسى للمثقفين الروس هو «أنهم ينكرون تأصل الكنيسة فى الشعب الروسى» . «اننى لم اعد الآن اتحدث عن المبانى الكنسية ولا عن الرعية الكنسية ، – يضيف دوستويفسكى ، – بل اتحدث الآن عن «اشتراكيتنا» الروسية (وانا اتناول هذه الكلمة المتضادة مع الكنيسة بالذات لاجل توضيح فكرتى ، مهما بدا هذا غريبا) – التى يتمثل هدفها وغايتها فى الكنيسة الشعبية العالمية العامة المطبقة على الارض ، ما دامت الارض قادرة على احتوائها» .

اذن ، ف«الاشتراكية الروسية» هى «الكنيسة الكونية» ، بعبارة اخرى ، هى بلوغ تلك الحالة الاخلاقية ، عندما يغدو **الجميع يتصرفون بما يمليه عليهم الضمير .**

ولكن ها هو ذا أليكو – «جوّاب الآفاق» ، المنبوذ ، المشترد ، بطل قصيدة بوشكين «الغجر» الذى يذكره دوستويفسكى فى خطابه البوشكينى – انه ايضا «بحاجة الى الوفاق العالمى بالذات كى يستكين ، فهو لن يتهادن بما هو أرخص من ذلك» . أفلا يتعطش أليكو **هذا** هو الآخر الى ان يغدو عضو «كنيسة كونية» ؟

لعله يتعطش ايضا . والحقيقة انه لا يفلح فى ذلك حتى الآن الا قليلا . يقولون له ، هو الذى لطخ كفيه بالدماء :

دعك عنا ، ايها الرجل الابى ؛
نحن متوحشون ، لا قوانين لنا ،
لا نمارس التعذيب ولا الاعدام .

«ليس ثمة اعدام» لدى الغجر ، لان هذه الحال لا تزال **سابقة لقيام** الدولة . و«ليس ثمة اعدام» لدى الكنيسة ايضا ، لكن هذه الحال **تأتى بعد** الدولة .

بيد ان الدولة نفسها – «التى تمارس التعذيب والاعدام» – أليست هى ذلك «الرجل الابى» ، أوليست اليها **كذلك** توجه التضرعات والدموع التى تطلب الرحمة والاستكانة ؟

. . . فى ١ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٦ قرر دميترى كاراكوزوف المحكوم بالاعدام ان يطلب الغفران من القيصر . واختتم التماسه بما يلى : «اما الآن ، يا صاحب الجلالة ، فانا اطلب منك المغفرة كمسيحى من مسيحى وكانسان من انسان» .

اصغى الكسندر الثانى ، مبتسما بوداعة ، لهذه الكلمات التى تلاها عليه وزير العدل ، ثم فتح ذراعيه بما ينم عن الاسف .

فى اليوم التالى ، ٢ ايلول (سبتمبر) استدعى الامير غاغارين (٧٧ سنة) ، رئيس المحكمة الجنائية العليا (الذى قام عام ١٨٤٩ ، بالمناسبة ، بالتحقيق فى قضية دوستويفسكى وباقى البتراشيفيين (٤٦)) المحكومَ عليه وابلغه قائلا : «كاراكوزوف ، ان جلالة الامبراطور أمرنى بأن اوضح لك ان جلالته – كمسيحى – يغفر لك ، لكنه كعاهل لا يستطيع الغفران . عليك ان تستعد لملاقاة الموت» .

فى ٣ ايلول اعدم كاراكوزوف شنقا .

فى ذلك الموقف **النظرى** المتخيل الذى تجرى مناقشته فى صومعة الشيخ زوسيما تعتبر مثل هذه النتيجة مستحيلة . «هناك» لا يوجد **نوعان** من الاخلاقيات : للدولة وللفرد . فتصرف الدولة المناقض للضمير لا يمكن حجبه بهيبة الدولة ، ذلك أن الضمير «هناك» هو وحده الذى يعتبر معيارا لكل مصلحة ، بما فى ذلك المصلحة الاجتماعية .

على ان دوستويفسكى حين يقول ان الدولة «لم يكن بمقدورها أن تغفر للمحكوم عليهم» ، يستدرك استدراكا جوهريا : «باستثناء ارادة العاهل» ، أى ان العاهل **فى حالات اخرى** يحق له ان يغدو مسيحيا اكثر مما هو عاهل .

بينما كان الكسندر الثانى يفكر على نحو مغاير .

رغم ذلك كان «العفو عن الباقين» فى عام ١٨٨٠ واقعة عظيمة الحجم بالنسبة لدوستويفسكى . وانطلاقا منها يقوم بتعميمات عالمية النطاق حقا .

يواصل دوستويفسكى مدوناته قائلا : «لا يجوز الخلط بين الكنيسة والدولة . وحقيقة ان هذا الخلط هو بادرة طيبة لانها تعنى الميل الى الكنيسة» .

كان هذا غرورا . فاعدام شخصين فقط لا يدل بتاتا على تطور الحكم الاوتوقراطى الروسى بالاتجاه الذى اشار اليه دوستويفسكى . القضية كانت ابسط كثيرا . ففى اواخر عام ١٨٨٠ ، أى فى فترة عدم استقرار السلطة والتذبذب الحكومى ، لم يكن «العفو عن الباقين» سوى خطوة **تكتيكية** : اذ كان من غير الجائز اغاظة المجتمع بالمشانق «فوق المعتاد» .

«لو كان ذلك فى انجلترا وفرنسا ، لما ترددوا بشأن الشنق» – هكذا يختتم دوستويفسكى ما سجله . وبهذه الصيغة بالذات نشرت هذه الاسطر عام ١٨٨٣ ، فى الطبعة الاولى لمؤلفاته بعد وفاته .

بيد ان نص دوستويفسكى الحقيقى بحجمه الكامل يختلف بعض الشىء : «لما ترددوا بشأن الشنق ، ذلك أن الزعامة للكنيسة وللعاهل» . لقد قلص الناشرون العبارة بعض الشىء ، على ان ذلك جرى لاعتبارات مفهومة تماما .

يبدو ان المحررين لم يكونوا يخشون اهانة دولة اجنبية بقدر ما كانوا يرومون ابعاد المقارنات السياسية الاكثر قربا : فمهما يكن من امر «لم يتردد» القيصر الروسى عن اعدام عشرين شخصا خلال سنتين (ليس اعتباطا ان يقول الكسندر ميخائيلوف ، عضو اللجنة التنفيذية لـ«ارادة الشعب» بعد اعدام كفياتكوفسكى وبريسنياكوف : «يبدو الآن اننا نصفى معه الحساب») ولم تنبس الكنيسة خلال ذلك ببنت شفة دفاعا عن المعدومين .

لقد خيل الى دوستويفسكى ان «العفو عن الباقين» ليس نتيجة لحالة تردد فكرى سامية – وهذا نعت لا يخلو من تلقين – بقدر ما هو واقعة تاريخية . فهو يرى فيه بادرة طيبة ، ويأخذ وهن السياسة الحكومية مأخذ التردد الاخلاقى .

وفى دفتر ملاحظاته يخوض قبيل وفاته جدلا شديدا مع واحد من اجدر الليبراليين الروس هو البروفيسور كافيلين (٤٧) ، جدلا حول ماهية الاخلاق . فنراه يعود الى الموضوع (الذى يختفى تارة فى زحمة سواه من الملاحظات ، ويبرز تارة اخرى) باصرار مدهش ، وكأن الكاتب يحدس أنه الحوار الاخير .

كان كافيلين يؤكد ان تعريف الاخلاق بسيط للغاية ، وهو وفاء المرء لقناعاته .

«ان من يحرق الهراطقة لا أستطيع عتباره انسانا سوىّ الإخلاق ، ذلك انني لا أقر باطروحتكم القائلة بأن الاخلاق هي الوفاق مع القناعات الداخلية ، – يقول دوستويفسكي معترضا على كافيلين ، ثم يعقب : – هذه مجرد نزاهة (اللغة الروسية غنية) ولكن ليست اخلاقا . والنموذج الخلقي لديّ واحد هو المسيح . ولئن تساءلت : أكان له ان يحرق الهراطقة ؟ ، – كلا . اذن ، فحرق الهراطقة يعتبر تصرفا منافيا للاخلاق» .

والدولة ذات الحكم المطلق ليست «انسانا سوىّ الاخلاق» ، ذلك انها – حسب اصدق قناعاتها – تحرق «هراطقتها» . وما كان لـ«مسيح» دوستويفسكي ان يطلق النار على كوفالسكي او ان يعدم شنقا دوبروفين وكفياتكوفسكي وبريسنياكوف .

ان الاخلاق التي كان دوستويفسكي يعتنقها لا تتطابق مع الاخلاق السارية المفعول **حسب الحالة** والتي تبرر نفعيتها بالاستناد الى عدم كمال الانسان .

انه يرفض القبول بمثل هذه الاسانيد .

«ما هو حقيقة بالنسبة للانسان كفرد ، يجب ان يبقى حقيقة بالنسبة للامة بأسرها» – هذا ما ورد في «يوميات كاتب» عام ١٨٧٧ .

ان القانون الخلقي واحد للجميع .

ودوستويفسكي ليس وحيدا في قناعته هذه .

قبل جدل دوستويفسكي وكافيلين بستة عشر عاما كتب كارل ماركس ، راصدا **اهم وابرز** اهداف البروليتاريا ، ان احدها يتلخص في العمل على «ان تكون قوانين الاخلاق والعدل البسيطة التي يجب ان يسترشد بها الافراد في علاقاتهم فيما بينهم اسمى قوانين ايضا في العلاقات بين الشعوب» .

وبطبيعة الحال ، ليست تلك المناهج التي يقترحها ماركس لبلوغ هذه الاهداف هي وحدها التي تختلف اختلافا جذريا شديدا عن «مناهج» دوستويفسكي . فالذي يختلف اختلافا جذريا شديدا هو مجمل تأمله للعالم بوجه عام . لذا يتحمل قدرا اكبر من الدلالات هذا التطابق المنفرد . وليس اعتباطا ان يشير ماركس بمثل هذا الالحاح الى الاصول الانسانية ، الخلقية (أي غير

المرتدية اللبوس الرسمية) للنظام الاجتماعى القادم . ((«وجهة نظر المادية القديمة هى المجتمع «المدنى» ، ووجهة نظر المادية الجديدة هى المجتمع الانسانى . . .» .)

ان لمفهوم «الانسان» فى هذه المنظومة من الاحداثيات الخلقية قيمة مطلقة .

التردد امام اراقة الدماء

كثيرا ما تتجاور لدى دوستويفسكى كلمتا «الدم» و«الاخلاق» .

فى محاكمة زاسوليتش ترددت كلمة «الاخلاق» مرارا . وكثيرا ما كان يلجأ اليها بصفة خاصة المدعى العام . فقد اعلن فى كلمة الاتهام قائلا : «اننى لا أستطيع ان اتصور للحظة واحدة ان زاسوليتش تعتبر تلك الوسائل التى لجأت اليها مسايرة للاخلاق الحميدة . . . ولا يبقى امام المرء سوى ان يندهش كيف يرفض البعض ان يفهم ان الوسيلة الوضيعة المستخدمة لتحقيق هدف يُدعى انه نبيل تعتبر هى نفسها واقعة تتطلب المحو . . . اننى لا اظن حتى ولا للحظة واحدة انك كنت قادرة على الاقرار بأن هذا النوع من الوسائل ليس اجراميا» .

ولكن اتضح ان مفاهيم الاخلاق لدى المدعى العام والمتهمة تختلف فيما بينها اختلافا جوهريا . ففى نظر المتهمة كان الوهن الخلقى للجريمة يفتدى بالاستعداد لتقديم الحياة لقاءها . اذ كانت هى نفسها تنتظر «ان تعدم شنقا بعد مهزلة المحكمة» .

«. . . لقد قررت ، — قالت زاسوليتش امام المحكمة ، — ان ابرهن ، ولو كلفنى ذلك حياتى ، ان من غير الجائز ان يكون المرء واثقا بامكانية الافلات من العقاب وهو يهين بهذا الشكل شخصية الانسان . . . (ينص المحضر المسجل بطريقة الاختزال بلهجة محايدة على ان زاسوليتش كانت منفعلة الى درجة بحيث لم تتمكن من مواصلة كلامها . وقد عرض عليها رئيس المحكمة ان تستريح وتستعيد هدوءها) . . . ولم أر امامى طريقة اخرى . . . ان التطاول على حياة انسان امر فظيع ، لكننى ايقنت بأننى يجب ان افعل ذلك» .

لقد حفظ دوستويفسكى هذه الكلمات حفظا جيدا . فبعد مضى عامين تقريبا نراه ، هو الذى يشكو ابدا من سوء ذاكرته وينسى اسماء ابطاله ، يورد نصها بصورة مطابقة تماما من حيث المغزى .

فى جدلــه مع كافيلين يستخدم دوستويفسكى زاسوليتش كبرهان .

فقد دون دوستويفسكى : «ان زاسوليتش يصعب عليها رفع يدها لاراقة الدماء ، وهذا التردد اكثر اخلاقية من اراقة الدم ذاتها» (أى اكثر اخلاقية من التصرف المناسب للقناعـــات — **المؤلف**) .

ان عذابات روديون راسكولنيكوف النفسية ، رغم كل تمايز الدوافع — «اكثر خلقية» هى الاخرى من وفائه لنظريته الذاتية : لذا لا غرابة فى ان نرى دوستويفسكى اكثر «فضولا» تجاهه حين **يشك** وليس حين **ينفذ** .

ان تردد الحكم المطلق الذى اعدم اثنين «فقط» وعفا عن الباقين ، ذلك التردد النابـــع حصرا من اعتبارات الاهليـــة الرسمية ، مناف للاخلاق فى جوهره . أما تردد فيرا زاسوليتش التى راعها ان تتطاول على حياة انسان **فقط** لكونه انسانا ، فهو مساير للاخلاق من حيث طبيعته .

يحاول دوستويفسكى معادلة هذه الكميات ، لكنه يفشل . ان زاسوليتش — وحدها ! — «تفوق فى الوزن» الدولة التى لا تفكر اصلا بالتحول الى «كنيسة» (علاوة على ذلك ، يجرى عكس ذلك تماما بعد محاكمة زاسوليتش : فكما اسلفنا ، جرى سحب هذا النوع من الدعاوى الى الابد من صلاحية محكمة المحلفين ، ولم يعد المجتمع منذ ذلك الحين قادرا على ابداء ايما تأثير فى نتائجها) .

ليتنـــا نعرف : هل ادلى دوستويفسكى برأيه فى قضية زاسوليتش لكاتكوف او بوبيدونوستسيف ؟ أغلب الظن أنه لم يفعل ذلك : فهو لم يكن قط صريحا معهما للغاية (بل كان على حد تعبيره «يراعى التكتيك») . لكننا سنتطرق مستقبلا الى ذلك . اما الآن فسنتناول مسألة اخرى ، والحقيقة انها غامضة كفاية . وقد خطرت فى بال الكثيرين بعد وفاة دوستويفسكى .

المسألة هى ما يلى : كيف كان مؤلف «الاخوة كارامازوف» سيتصرف **بعد** ١ آذار (مارس) ١٨٨١ ؟ ليس من النادر ان نصادف الرأى القائل بأنه لو قيض له ذلك لأيد بحرارة نمط تصرفات حكم القيصر الجديد ، بل حتى لاصبح مؤدلجه الرسمى .

لن نمارى الآن بوجهة النظر هذه التى يمكن وصفها بأنها اكثر من مريبة . ونكتفى بالتوقف عند نقطة واحدة هى : كيف كان دوستويفسكى (فى ضوء ما نعرفه عنه) سينظر الى اعدام القائمين بحادث ١ آذار (مارس) ؟

لقد جرى اعدام المشاركين الخمسة فى عملية الاغتيال الثامنة (الناجحة) التى استهدفت حياة الكسندر الثانى يوم ٣ نيسان (ابريل) ١٨٨١ . علما بأنها كانت المرة الاولى والاخيرة خلال القرن التاسع عشر بأسره التى اعدمت خلالها امرأة فى روسيا .

فى ٢٨ آذار (مارس) ، أى فى اليوم الذى كان على الدائرة الخاصة لمجلس الشيوخ الحاكم ان تصدر قرار الحكم ، القى فلاديمير سيرغييفيتش صولوفيوف (٤٨) ، وهو فى السابعة والعشرين من العمر ، محاضرة فى قاعة جمعية التسليف ، وهى نفس القاعة التى كان يحاضر فيها منذ وقت قريب معلمه الراحل . وكان موضوع المحاضرة على قدر كاف من التجريد : «نقد التعليم المعاصر وأزمة العملية العالمية» .

كان فلاديمير صولوفيوف واحدا من الاشخاص القليلين المقربين روحيا الى دوستويفسكى خلال اعوامه الاخيرة . ويبدو أن مؤلف «كارامازوف» كان يشعر ببعض الميل الى صولوفيوف . فوجه هذا الفيلسوف الشاب ، على حد قول آنّا غريغوريفنا ، كان يذكر زوجها بلوحة يحبها هى «رأس المسيح فى شبابه» للفنان آنّيبال كارّاتشى . ويقال ان صورة فلاديمير صولوفيوف الروحية قد انعكست فى بطل دوستويفسكى الاثير أليوشا كارامازوف .

كان الشباب يتزاحمون على محاضراته : فقد اصبح مؤلف «مبررات الخير» المقبل صرخة من صرخات الموضة .

فى ٢٨ آذار (مارس) ١٨٨١ حضر للاستماع لمحاضرة

فلاديمير صولوفيوف الاصدقاء المشتركون له ولدوستويفسكى .
ووصلت ايضا آنّا غريغوريفنا ، وهى مرتدية ملابس الحداد .
يتذكر شهود العيان ان صولوفيوف اعتلى منصة الخطابة «نحيفا ، فارع القامة ، اكثر شحوبا من المألوف» . واصغى الحضور له ، مثلما هى الحال دائما ، بانتباه . بيد ان الصمت اصبح مطبقا عندما تحول الفيلسوف الشاب من المواضيع الفلسفية الى ما كان الجميع يفكرون به خفية .
«اليوم ، – قال فلاديمير صولوفيوف ، – تجرى محاكمة قتلة القيصر ، وفى اغلب الظن سوف يحكمون بالموت . ان بامكان القيصر ان يصفح عنهم ، واذا كان يشعر فعلا بارتباطه بالشعب ، فعليه ان يصفح عنهم . فالشعب الروسى لا يقرّ بحقيقتين» .
كتم الحضور انفاسهم . ففى البلد الذى لم تصمت فيه منذ شهر كامل الدعوات الى الاقتصاص من قتلة القيصر بلا رحمة لم يجرؤ احد بعد على التقدم **امام الملا** بمثل هذا الاقتراح الجنونى فيما يبدو * .
ومضى صولوفيوف الى القول : «ان حل هذه القضية لا يتوقف علينا . فليس نحن من يهاب به ان يحكم . . . ولكن اذا انكرت سلطة الدولة المبدأ المسيحى وسلكت الطريق الدموى ، فسوف نخرج ونبتعد عنها ونتبرأ منها» .
بعد ذلك حدث ما كان يجب ، فى اغلب الظن ، ان يذكر بالمشهد فى قاعة المحكمة بعد تبرئة فيرا زاسوليتش . كان الجمهور مهتاجا . صحيح ان الحماسة لم تكن فى هذه المرة تتسم بنفس القدر من الاجماع . اذ كان هناك من صرخ على الخطيب : «انت اول من يجب ان يعدم ، ايها الخائن !» – بيد ان هذه الهتافات غرقت فى ضجيج الاعجاب العام .
ويستدل من مصدر آخر ان الاحداث فى قاعة جمعية التسليف قد تطورت بصورة مغايرة بعض الشىء . فقد ارتقى منصة

---

* الحقيقة ان ليف تولستوى قد تجرأ على ذلك : فقد توجه بطلب مماثل الى الكسندر الثالث . لكنه فعل ذلك فى رسالة شخصية لم يتسن للمجتمع الاطلاع عليها فى ذلك الحين .

الخطابة «شخص قد يكون موظفا ، او وقد يكون ضابطا» ، وخاطب صولوفيوف قائلا :

يا حضرة البروفيسور ، كيف ينبغى فهـــم ما قلته بشأن الصفح عن المجرمين؟ أفهذا مجرد استنتاج مبدئى من فهمك لفكرة القيصر وتفسيرك لتأمل الشعب للعالم ، أم هو مطلب فعلى ؟ . .

فعاد صولوفيوف الى المنصة وقال :

– لقد قلت ما قلته . وباعتبارى ممثلا لشعب ارثوذكسى يرفض الاعدام . . . يتوجب على القيصر ان يصفح عـن قتلـة ابيه .

وعلى الرغم من استياء جزء من الجمهور ، اخرج من القاعة المحاضر محمولا على الايدى .

وللاسف ، كان من بين المستائين أرملـــة دوستويفسكى ايضا . لقد كانت آنّا غريغوريفنا تعتبر نفسها وزوجها الراحل – عن صدق – من ذوى القناعات المحددة ، والاهم ، المتماثلة ، لذا لم يكن بوسعها – رغم كل احترامها لفلاديمير صولوفيوف – ان تتفق مع مثل هذا التجديف .

من المنافى للعدل ان نلوم آنّا غريغوريفنا على انها لم تكن ، وهى تستنسخ مخطوطات دوستويفسكى ، تجد الفرصة لاستيعائها فلسفيا .

ان ما تجرأ فلاديمير صولوفيوف على البوح به امام الملأ ، ينطبق بالحرف الواحد تقريبا مع تأملات معلمه ومحدثه الراحل بهذا الشأن .

فيما دونه دوستويفسكى عن كفياتكوفسكى وبريسنياكوف تلى عبارة «ولكن لو كانت الكنيسة ، لما كان الاعدام» الكلمات التى سبق ان اوردناها آنفا وهى : «لا يجوز الخلط بين الكنيسة والدولة . وحقيقة ان هذا الخلط يجرى ببادرة طيبة لانها تعنى الميل الى الكنيسة» .

وكان صولوفيوف يقوم بهذا «الخلط» بالذات . بيد ان هذه «البادرة الطيبة» لم تحظ بفهم احد ، ناهيك عن ان تحظى بقبول : إذ لم يكـــن للحكم المطلق فـــى اشتباكه المستميت مـــع الثورة وقت للالتفات الى تفلسف صولوفيوف . لم تغفر السلطات لصولوفيوف هذا الفعل : فعلى الرغم من رسالته «التوضيحية» الى

الكسندر الثالث (٤٩) (والتي كرر فيها ، بالمناسبة ، حججه الاساسية) حرم حق القاء المحاضرات العلنية ، وما لبث ان ابعد ايضا عن التدريس فى جامعة بطرسبورغ . اما بشأن الجمهور غير المطلع على خفايا الامور فقد اعتبر كلمات الخطيب هذه مجرد دعوة الى الرحمة ، دون تعمق فى تعليلاتها الفلسفية المعقدة .

بينما كانت مسألة العفو عن مرتكبى حادث ١ آذار (مارس) ترتدى بالنسبة الى صولوفيوف مغزى عقائديا عميقا . اذ ان مثل هذه الخطوة «من مقام العرش الرفيع» كان من شأنها ان تبرر فى نظره وجود السلطة التاريخية الروسية بحد ذاته . والا — «فسوف نخرج ونبتعد عنها ونتبرأ منها» .

لم يكن صولوفيوف البتة سياسيا راديكاليا ، ولا يجوز — بطبيعة الحال — اعتبار كلماته دعوة متعاطفة مع الثورة . كلا ، انه مستعد ، شأن دوستويفسكى ، الى الاعتراف بالضرورة التاريخية للحكم الملكى الروسى . بيد ان فهمهما لطبيعة الحكم المطلق الاخلاقية كان يدخل فى تناقض شديد الوطأة مع ما كان عليه الحكم المطلق فى واقع الحال .

قال صولوفيوف فى خطابه : «ولكن اذا كان القيصر بالفعل تعبيرا شخصيا عن كيان الشعب بأسره ، وبالدرجة الاولى طبعا ، عن كيانه الروحى ، فلا بد له ان يستند بثبات الى المبادئ المثلى لحياة الشعب : فما يعتبره الشعب المعدل الاسمى لحياته ونشاطه ، يجب على القيصر ان يجعله مبدأ أسمى للحياة» .

ليس من شك بتاتا فى ان الفيلسوف قد قرأ بانتباه العدد الاخير من «يوميات كاتب» ، الذى صدر فى يوم دفن دوستويفسكى . ولا يستبعد ان هذا العدد بالذات كان عالقا فى ذاكرته عندما القى خطابه المفعم بالالهام والمجازفة ، فما ذكره الخطيب كان دوستويفسكى قد ادلى به حرفيا قبل ذلك بشهرين . «ان القيصر ليس بقوة خارجية بالنسبة الى الشعب . . . القيصر تجسيد له ولمجمل افكاره وآماله ومعتقداته» .

ولكن لو كانت الحال على هذا النحو ، فـ«لما كان الاعدام» .

ولكن الاعدام جرى : لم يسمح القيصر الروسى بـ«الخلط» بينه وبين تلك «الكنيسة» التى تحدث عنها دوستويفسكى ،

والتى حاول صولوفيوف ان «يدفعه» اليها ، تلك الكنيسة التى لم يكن لها وجود الا فى مخيلتهما .

ولا يستبعد ان تكون آنّا غريغوريفنا واحدة من اولئك الذين قاموا بابلاغ بوبيدونوستسيف ، الوصى الرسمى على اطفالها ، بما حدث فى قاعة جمعية التسليف (رغم انه كان هناك ، دون شك ، مبلغون آخرون) . حتى ان احدى معارف آنّا غريغوريفنا ، وكانت قد حضرت هى الاخرى المحاضرة ، انبرت عندما رأت استياءها الى الدفاع عن صولوفيوف ، وذكّرتها بأن دوستويفسكى كان – رغم كل شيء – يماهى بينه وبين محبوبه أليوشا كارامازوف .

وهنا حدث امر يثير الدهشة .

«كلا ، كلا ، – عارضت آنّا غريغوريفنا بحرارة ، – ان فيودور ميخائيلوفيتش كان يرى فى شخص صولوفيوف ليس أليوشا ، بل ايفان كارامازوف» .

يبدو اعتراض آنّا غريغوريفنا وكأنه يناقض الرواية المعتمدة منذ وقت طويل . فما دخل ايفان هنا ؟ ولكن ، من جهة اخرى ، ليس لدينا ايما مسوغات لعدم التصديق بكاتبة المذكرات . ان لاعتراف آنّا غريغوريفنا الذى افلت فى لحظة انفعال شديد ركيزة جادة وخطيرة فى نصوص دوستويفسكى نفسه . فما يتحدث عنه «المنظر» ايفان كارامازوف فى صومعة الشيخ زوسيما ، يحاول المنظر الآخر فلاديمير صولوفيوف «تطبيقه فى الواقع العملى» : بالنظر للمشانق الست التى اقيمت فى ميدان سيمولينسكويه بوليه .

وكان هذا يبدو خديعة للنفس .

الفصل الثالث

النبى – فى وطنه

صنف السلاح

فى صيف عام ١٨٧٩ سجل وزير الحربية ميلوتين بعد عودته مع اسرة الامبراطور من القرم ما يلى : «. . . لقد صادفت فى بطرسبورغ مزاجا غريبا ، فحتى الاوساط الحكومية العليا تتحدث عن ضرورة اجراء اصلاحات جذرية ، وتتردد حتى كلمة «الدستور» ، وما من احد يؤمن بمتانة الاوضاع القائمة» .

اشرف العام على الانتهاء : ولم يكن يرى بعد ايما مخرج .

يستخلص ولى العهد (الكسندر الثالث المقبل) فى مفكرته الشخصية ، بما يعرف عنه من ميل الى التحديد ، استنتاجا مفاده ان «افظع واكره السنوات التى شهدتها روسيا فى وقت ما هى عام ١٨٧٩ ومطلع عام ١٨٨٠» .

ستة عشر حكما بالاعدام وثلاث محاولات جريئة لاغتيال الامبراطور – ان روسيا لم يسبق لها ان شهدت مثل هذه الاحصائيات .

وقعت عملية الاغتيال الاخيرة فى اواخر السنة ، ولم تكن تشبه أيا من المحاولات السالفة .

فى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ، وبعد الساعة العاشرة مساء ، انفجرت عبوة ناسفة عند الفرسخ الثالث من سكة حديد موسكو – كورسك : وسمع دويها فى مدينة العرش الاولى (٥٠) . وجرى مد سلسلة اللغم المزروع تحت خط السكة الحديد مباشرة من دار تقع على مقربة منها . وكان الكسندر بارانّيكوف ، جار دوستويفسكى المقبل ، يود القيام شخصيا بربط اسلاك شريط التفجير ، لكنه لم يكن يعرف تشغيل الجهاز ، لذا اوكلت العملية لشخص آخر (من يدرى ، ربما كان جهله بالكهربائيات هو الذى انقذه فى وقت لاحق من حبل المشنقة المحتوم) .

مر قطار الامبراطور بادئ ذى بدء : وكان الانحراف عن القضبان من نصيب القطار الثانى ، وهو قطار الحاشية . وابتسم

الحظ مرة اخرى للامبراطور : ففى العادة كان القطاران يتحركان بترتيب معاكس .

وجرى فى هذا الحادث لاول مرة استخدام الديناميت .

كان هذا أمرا حديثا وغير مألوف فالخناجر والعيارات النارية الرومانسية قد تراجعت امام السلاح الجديد المثير للفزع تراجعا واضحا . ودخلت اللغة الروسية مفردة جديدة هى «الديناميتجى» .

. . . لقد باغت العام الجديد ١٨٨٠ الناس بمفاجأة .

فى اليوم الاول منه اصيبت آنّا غريغوريفنا بنوبة برد مصحوبة بقدر خفيف من السعال والحمى . وما لبث ان انعكس مرضها هذا على العمل : فعلى الرغم من ان الكتابة الليلية استمرت على وتيرتها ، تراكمت الاوراق المسودة تراكما منذرا فى المكتب . وكانت العادة ان يملى النص من هذه الاوراق المسودة وشبه المسودة على آنّا غريغوريفنا التى كانت تعيد كتابته بطريقة الاختزال ، ثم تعود لنسخه بمنتهى العناية .

كانت هيئة تحرير «البشير الروسى» تطرى على خطها .

فى تلك الاثناء اقتربت المواعيد الاخيرة : فعدد كانون الثانى (يناير) يصدر عادة فى اواخر الشهر ، والجزء التاسع من «الاخوة كارامازوف» كان يجب ان يسلم الى هيئة التحرير فى موعد لا يتجاوز السادس عشر من كانون الثانى . واقتضى الامر ان ترسل الى موسكو رسائل تطمينية اى اعتذارات عن التأخير غير المتعمد . عدا عن ذلك ، نما الجزء التاسع من الكتاب بحد ذاته – «التحقيق الاولى» – الى خمس ملازم عوضا عما هو متوقع (١,٥ ملزمة) : خاتمة الليلة المجنونة فى موكرويه ، استجواب ميتيا المصحوب بالمداهمة والتعرية ، وكذلك عدد غفير من التفاصيل المتعلقة بالقضية – كل هذا كان يقتضى تصويرا مكثفا .

وكان الوقت ضيقا جدا .

اقتضت الحال ان تركن جانبا الرسائل التى بقيت دون جواب ، كما اقتضت التخلى عن اكثر الزيارات ضرورة ، وقد شكا دوستويفسكى يوم ٨ كانون الثانى (يناير) ، معتذرا بأدب عن حضور دعوة مسائية لاحتساء قدح شاى ، قائلا : «وفى حياتى كلها فوضى مخيفة» .

كانت الدعوة قادمـــة من دار الكونتيسة س . تولستايا ، ارملة الشاعر اليكسى تولستــوى (٥١) . وكان دوستويفسكى يهوى التردد على هذه الاسرة الصديقـــة ، لذا فقد سارع الى ذيارة صالون الكونتيسة ، حالمـــا أرسل الدفعة التالية مـــن «كارامازوف» الى موسكو .

. . . فى نفس تلك الليلـــة ، عندمـــا كان فيـــودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى عائدا من دار الكونتيسة تولستايا ، كانت جمهرة من رجال الشرطة تداهم احدى شقق العمارة رقم ١٠ فى زقاق سابيورنى . واستقبلت الشقة المداهمين بالرصاص . واتضح ان القوى غير متكافئة بتاتا : هكذا جرى اقتحام المطبعة الاولى لمنظمة «ارادة الشعب» . وقـد تسنى لمنضد الحروف ابرام لوبكين البالغ من العمر ٢٨ سنة (الملقب باسم «بتيتسا» («الطير»)) ان يطلق النار على صدغه قبل ان يقع فى قبضـــة رجال الشرطة .

لقد ابتدأت السنة بعيارات مسدس نارية .

. . . وشن شتـــاء سنة ١٨٨٠ شطره الثانى . وتماثلت آنّا غريغوريفنا سريعا للشفـــاء من نزلة البرد (لم تكن تهوى الرقود طويلا) ، وعادت الحياة تدريجيا الى مجاريها .

كانت الليـــالى ، مثلمـــا هى الحال دائمـــا ، مخصصة لـ«كارامازوف» . وفى النهـــار ، عادة بعد الساعة الثانية ظهرا (كان رب البيت يأوى الى فراشه فى حوالى الساعـــة السابعة صبـــاحا ويفيق فى وقت متأخر) يتوافد شتى الزوار . وكانت تستأثر بقدر لا يستهان به من القوى الامسيـــات الادبية التى اخذت موضتها تتنامى باطراد ، بصرف النظر عن غياب الهدوء السياسى .

تقول آنّا غريغوريفنـــا : «ان مهارة فيودور ميخائيلوفيتش فى القراءة كانت تجتذب الجمهور باستمـــرار ، واذا كان معافى فهو لم يكن يرفض قط المشاركة فيها ، مثلما كان مشغولا فى ذلك الحين» .

ولنفترض ان ليس **القراءة** وحدهـــا هى التى كانت تجتذب الجمهور .

كانت الامسيات الادبية ظاهرة جديدة نسبيا . فقد اخذت تقام منذ الستينات ، لكنها لم تغد سمة دائمة ومشهودة لحياة المجتمع الا منذ وقت قريب . وكان يضطلع باقامتها الصندوق الادبى (٥٢) واكاديميــــة الجراحة الطبية والجامعـــة والدورات التربوية والمدارس الثانويــة ، وكانت ترتدى – فى العادة – طابعا خيريا . اذ كان ريعها يذهب الى المستشفيات ودور الايتام والطلبة المحتاجين وشتى المؤسسات التعليمية ، الخ . .

وبطبيعة الحال ، لم يكن ثمة حتى من يفكر بتقاضى اجر عن اتعابه : فالمشاركة كانت تعتبر واجبا اجتماعيا مباشرا .

ولم يغد عادة بعد ارسال قصاصات ورق او طرح اسئلة على المتحدثين . لهذا كانت وظائف الكتاب تقتصر ، عادة ، على الالقــاء : قراءة مقتطفات مـــن مؤلفاتهم او من نتاجات الآخرين (بطبيعة الحال ، كانت النصوص تعرض تمهيديا على هذا النوع او ذاك من الرقابة) . اما المستمعون فقد كانت تتاح لهم فى مثل هذه الامسيات فرصة وحيدة هى رؤية كاتب «حى» : وهو امر لا يستهان به ، اذا اخذنا بالاعتبار هيبة لقب الاديب الفائقة فى روسيا .

كان اسم دوستويفسكى طوال موسمى الشتاء الاخيرين يظهر فى احيان غير نادرة على اعلانات بطرسبورغ . كانوا يناشدونه ويعقدون عليه الآمال ويطمحون الى مساهمته . وكان هذا النوع الجديد تماما من النشاط بالنسبة اليه يتطلب قدرا لا يستهان به من الجهود ، الروحية والبدنية على السواء (وكانت هذه الاخيرة تغدو ملموسة اكثر لانــه لم يكن فى هذه الحالة يجيد العناية بنفسه **وينفق كل قواه** رغم اضطراب صحته) .

والحقيقة ان هذا النشاط كانت له جوانب ممتعة . فهتافات الاعجـــاب التى كانت (منذ ربيـــع عام ١٨٧٩) ترافق ظهوره باستمرار فى الامسيات الادبية (وسنتطرق الى ذلك لاحقا) ، والتى كانت تبدو وكأنها تجرى على الضد من القالب الصحفى الذى نشأ بشأنه ، وكذلك نمو شعبيته البطىء ولكن غير المتوقف – كل هذه العوامل الخارجة – بالتعبير الصارم – عن نطاق الادب خلقت جوا ادبيا جديدا . وتغيرت مكانته ككاتب ، كما تغيرت مكانته الاجتماعية . ولم تكن هذه التطورات للوهلة الاولى ملحوظة بهذا

القدر الكبير ، لكنها هى التى مهدت الى درجة كبيرة لتألقه الظافر فى موسكو .

«السبابة المرفوعة بحماسة» الضرورية – فى مفاهيمه – لكل نشاط فنى ، هذه السبابة اصبحت منذ الآن قادرة على ان تتشخص فى ذاته . فكل ما بات يقوله اصبح الآن يقرن بالكيفية التى يلقى بها : بنبرة صوته ، بتعابير وجهه ، بحركاته وايماءاته . واخذت الكلمة تتحد بمبدعها امام انظار الجمهور : وكان هذا **التحول** المرئى يفوق – بطبيعة الحال – القراءة «الخالصة» . ان «منصة الخطابة» كانت تتجاوب وطابع موهبته ، ولكنه لم يمتلك ناصيتها حرفيا الا فى آخر فترة .

خصص كل شهر كانون الثانى (يناير) ۱۸۸۰ تقريبا لـ«كارامازوف» ، ولكن تسنى للكاتب فى اواخر فصل الشتاء ان يسترد قليلا انفاسه (لم تظهر الاجزاء التالية من النص الا فى عدد نيسان (ابريل) من «البشير الروسى») . ولئن كان فى مطلع العام ، وهو المشغول فى العمل حتى الرقبة ، يرفض بأدب ، ولكن بصلابة ، المشاركة فى امسية الصندوق الادبى **المهيبة** ، فقد بات الآن مستعدا للظهور على مسارح متواضعة جدا .

فى ۲ شباط (فبراير) كان من المقرر ان يشارك فى امسية تقام فى ثانوية البنات فى حى كولومنا . وكان القلق يساور منظم الامسية : لعله ينسى ؟ فطمأنه دوستويفسكى قائلا : «اذا حدثت عاصفة هوجاء او فيضان او ما شابه ذلك ، فلن يكون بمقدوره الحضور طبعا . ولكن فى الاغلب الظن سيكون كل شىء على ما يرام» .

ان الفيضانات فى بطرسبورغ لا تحدث فى شباط (فبراير) : وعليه كان قول الكاتب مجرد نكتة ، وهى دليل على حسن مزاجه .

تقول آنّا غريغوريفنا فى ذكرياتها : «ان سنة ۱۸۸۰ ابتدأت بالنسبة لنا عموما فى ظروف مواتية : فصحة فيودور ميخائيلوفيتش بعد رحلته الى ايمس فى العام الماضى (۱۸۷۹) قد تحسنت ، فيما يبدو ، كثيرا ، وتضاءلت كثيرا نوبات الصرع . وكان صغارنا اصحاء تماما . وحققت «الاخوة كارامازوف» نجاحا لا ريب فيه ، حتى ان فيودور ميخائيلوفيتش المعروف بصرامته الشديدة الدائمة تجاه النفس كان راضيا جدا عن بعض

فصول الرواية . وتحققت فكرة المشروع التى كانت تساورنا (تجارة الكتب) ، وحظيت مطبوعاتنا بطلب جيد ، وكل الامور بوجه عام كانت تجرى بصورة لا بأس بها . كل هذه الظروف ، مجتمعة ، اثرت تأثيرا ملائما على فيودور ميخائيلوفيتش ، وكان مزاجه النفسى رائقا ومنشرحا» .

فى شتاء عام ١٨٨٠ لم يكن دوستويفسكى يشاطر «الجهات العليا» تشاؤمها العميق حتى ولا بادنى قدر . ان ما يشغله امر مغاير تماما .

«المزاج» ليس بالكلمة الموفقة تماما . كان من الاصح هنا التحدث عن شعور اشبه بالانتظار . انتظار تغير قريب ومحتوم فى المقدرات : لا الشخصية ، بل العامة .

ان هذا الشعور وما يرتبط به من نظام للتصورات القيمية يختلفان اختلافا ملحوظا عن وضعه الذهنى والروحى فى مطلع العقد المقترن فى احيان كثيرة باحكام قطعية باتة ، وبقسوة المواصفات الادبية والفكرية ، وبشدة الانزعاج واللاتهادف مع «الغريب» .

يمكن - بطبيعة الحال - تفسير مثل هذا التطور بتلك النهضة الروحية الهائلة التى عاشها مؤلف «الاخوة كارامازوف» خلال اعوامه الاخيرة ، وبانغماسه الابداعى الجبار . هذا الامر يفسر الكثير ، لكنه لا يفسر كل شىء . كما كانت هناك اسباب اخرى لا تقل خطورة .

لقد كتب دوستويفسكى منذ عام ١٨٧٨ عندما شرع فى تأليف «كارامازوف» يقول لاحد معارفه : «ثمة وقت عظيم الآن بالنسبة لروسيا وها أن حياتنا قد افضت الى حد ممتع للغاية» . وهو يطرى على مكاتبه لان هذا يشعر بانتمائه «الى كل ما يجرى ويحيا وما هو ملح ، وما ينبض بالحياة المستمرة» . اذ يمضى دوستويفسكى الى القول : «فأنا ، مثلا ، كذلك أرى بالضبط هذا الرأى ، رغم اننى لا أنتمى - من حيث الميول - لا الى جيل الستينات ولا حتى الى جيل الاربعينات . ولعل السنوات الحالية تحظى لدي بمزيد من الاعجاب بما قد انجز بشكل ظاهر عوضا عما كان فى الماضى لغزا مثاليا غامضا» .

ان الاحساس بـ«عظمة الوقت» سمة طاغية من سمات

دوستويفسكى فى سنواته الاخيرة . اما ادراك ان «كل روسيا تقف عند نقطة نهائية متأرجحة على الهاوية» ، فلا يدفع به الى كآبة سوداوية ولا يحولـــه الى شخص ينفر من البشر . على العكس ، ان هذا الشعور بالذات يرغمه على توخى الحل بحماسة . فهو لا يشيح عن المستقبل ، ولا يتهرب منه ، بل يسير لاستقباله بوجه مفتوح .

ان دوستويفسكى فى سنواته الخمس الاخيرة متفائل تاريخى يراهن كليا على المستقبل .

مفاجآت المسرح

آذار (مارس) ١٨٧٩

اقيمت فى قاعة مجمع النبلاء (٥٣) فى بطرسبورغ امسية لصالح الصندوق الادبى : وكانت مثل هذه الامسيـــات تحظى باكبر قدر من اهتمام الجمهور . لقد ذكر احد معاصرى الكاتب : «ان برنامج الحفــل كان يضم باقة من اسماء الكتاب اللامعة ، بحيث لو تكررت الامسية ثلاث مرات لغصت القاعة فى كل مرة بالجمهور» .

كان دوستويفسكى يزاول القراءة ، مثلما يفعل دائما ، فى مستهل القسم الثانى من البرنامج (كان يهوى الخروج على المسرح بعد الاستراحة ، عندما يصمت الجمهور متصفحا فقرات البرنامج) . وفى الآونة الاخيرة اخذ يظهر امام الجمهور أكثر فاكثر . بيد ان مشاركته هذه المرة كانت متميزة . وليس بسبب حضور منافس قديم ، انما كان هناك سبب آخر على قدر عظيم من الخطورة .

انهـــا المرة الاولى التى تقرأ فيهـــا امام الملأ «الاخـــوة كارامازوف» .

ها قد مر شهران على نشر الرواية فى «البشير الروسى» . ولم يتسن بعد تكوين رأى واضح فيها : كانت هناك تأويلات

مختلفة . ولم تظهر بعد تحليلات شاملـة فى الصحافة . ولكن كانت هناك بعض الاحكام والطروحات .

من بين جميع شخوص الرواية لم تستقطب بعد جل اهتمام النقاد سوى شخصية غروشنكا ، «الحسناء الغامضة» . فقد كتب الناقد سكابيتشيفسكى (٥٤) : «ان غروشنكا هذه لا تزال بعد مختبئة فى الضباب ، لكنها لن تلبث – بطبيعة الحال – ان تظهر على الصفحات التالية بكامل تألقها ، وسيتضح دون شك انهـا مهوسة ، هى الاخرى ، رغم ذلك سوف تجتذب الى شباكهـا المغرية ليس فقط الاب وابنه دميترى ، بل وسائر الاخوة ، ولا يستبعد ان تغرى حتى الراهب المؤمن اليكسى . . .» .

من الملفت ان ردود الفعل الصحفيـة الاولى هذه قد تنبأت سلفا بأحد احتمالات مواصلة «الاخوة كارامازوف» : انبعاث الاصل الكارامازوفى فى نفس اليوشا ، وقصة غرامه مع غروشنكا وما الى ذلك . والحقيقة ان احدا من النقاد لم يتكهن بعد باحتمال آخر هو : اليوشا السائر الى منصة الاعدام .

ومثلما كان متوقعا ، اعطت صحيفة «غولوص» («الصوت») (٥٥) الليبرالية الواسعة الانتشار تقويما فاترا جدا للروايـة الجديدة . فقد كتب فيهـا ناقد لم يذكر اسمـه ان «الاخوة كارامازوف» تترك انطباعا غريبا جدا . ونحن نركن جانبا ظهورها بحد ذاته فى موسكو ، على صفحات مجلة مكروهة شديدة التحيز . فلكاتبى الروايات الرائجة ، كمـا هو معروف ، ليس ثمة وطن فيما يتعلق بالاتجاهات والاحزاب الصحفية . ولكننا نلحظ فى روايـة السيد دوستويفسكى بالذات . . . تحيزا . فمن وراء دوستويفسكى – كاتب الروايات الرائجة ، ربمـا بصورة غير ملحوظة بالنسبة للمؤلف نفسه ، يلوح دوستويفسكى – الكاتب الصحفى» .

كان هذا اتهاما قديما تسنى له ان يغدو مألوفا . ولكن اذا كان الفصل بين الفنان والمفكر يجرى فى الماضى ، عادة ، حسب مبدأ الجنس الادبى (مثلا ، كل ما هو «غير روائى» ينشر فى «يوميات كاتب» كان يوضع فى الماضى بعناد نقيضا لما هو «روائى» فى الروايات) ، فأن الفاصل الآن بات يوضع داخـل

الادب الروائى نفسه ، حيث يتبادل «الكاتب الرائـج» و«الكاتب الصحفى» بالاماكن دوريا ، حسب تصورات الناقد المتميزة .

ومضت «صوت» **الامس** الى القول ان لدى مؤلف «كارامازوف» «نجد كل شخص متعلم اما سافلا واما مريضا نفسيا» . وهذا يعنى فى حالة **اليوم** الارتياب ازاء ذلك الجمهور بالذات الذى اجتمع اليوم فى القاعة .

ولم تكن هناك ايما ثقة بأن هذا الجمهور سوف ينظر بعين الاستحسان الى الرواية الجديدة .

كان بامكان الكاتب ان يتصرف بنجـاح مؤكد : كأن يقرأ شيئا من كتاباته القديمة المجربة التى حظيت بنجاح ثابت على المسرح . تستعيد آنّا بافلوفنا فيلوسوفوفا ذكرياتها قائلة : «فى عشية هذه الامسيـة التقيت بدوستويفسكى وتوسلت اليه ان يقرأ اعتراف مارميلادوف من «الجريمـة والعقاب» . فرمقنى بنظرات ماكرة جدا وقال :

– سوف اقرأ لكم ما هو افضل من ذلك .

فألححت عليه متسائلة :

– ماذا ؟ ماذا ؟

– لن اقول لك» .

واختار للقراءة الحديث الطويل الاول بين الاخوين دميترى واليوشا كارامازوف .

يشير كل من تسنى له ان يرى دوستويفسكى على المسرح الى «عدم صلاحيته للمسرح» . قامة قصيرة ، حركات خرقاء ، غياب الابهة . ولم يكن يتصف بمـا جرت العادة على تسميته بوسامة الممثلين . علاوة على ذلك ، كان صوته ضعيفا يتخلله فى احيـان كثيرة سعال جاف (كان انتفـاخ الرئتين والتدخين المستمر يفصحان عن نفسيهما) .

«كان يبتدئ بخمول مضجر ، – هكذا يعبر عن **انطباعه** الاول شاهد عيان لا يميل مطلقا الى دوستويفسكى . ويبدو انه لـم يكن وحيدا فى هذا الرأى . اذ يصف شاهد آخر ما يجرى على النحو التالى : «خيل الي ان المستمعين الذين كانوا حاضرين فى القاعة لم يكونوا يفهمون بادئ ذى بدء انه كان يقرأ لهم ، لذا كانوا يتهامسون فيما بينهم :

- معتوه ! عبيط ! غريب . . .

وكان صوت دوستويفسكى يطغى على هذا الهمس بانفعال حماسي مشحون . . .» .

كان يضطر الى قهر وتغيير مزاج القاعة .

«ولكن حين بلغ الامر الى اعتراف دميترى كارامازوف تغير كل شيء دفعة واحدة . تجمد الجمهور . . . لم يسبق لى ان سمعت شيئا كهذا . فاختلاجات صوته ، حيثما يقتضى الامر ، والوتيرة السريعة فى مشهد الانتحار (او بالادق محاولة الانتحار الفاشلة التى اقدم عليها العقيد - والد كاتيرينا ايفانوفنا - **المؤلف**) ، والتسرع المميز فى المشهد الاكثر درامية - كل هذا كان أمرا لا يحاكى» .

يكتفى شاهد العيان بنقل الاحساس العام الذى يؤكده ايضا باقى المستمعين : «فقد كانت القاعة كلها منفعلة . اتذكر كيف كان ينتفض ويتأوه بعصبية شاب لا معرفة لى به يجلس بجانبى ، وكيف كان يتضرج ويشحب وينفض رأسه بتشنج ويعتصر اصابعه وكأنه يمنعها بمشقة من التصفيق على غير ارادة منه» .

رغم ذلك دوى التصفيق حتى قبل ان تنتهى القراءة . «وكان التصفيق وكأنه قد ايقظ دوستويفسكى . فقد انتفض ومكث هنيهة فى مكانه بلا حراك ، ودون ان يرفع عينيه عن المخطوطة . بيد ان التصفيق راح يتعالى ويطول . عندئذ نهض . . . وانحنى للجميع ، ثم جلس لمواصلة القراءة» .

ويكتب احد شهود العيان : «عندما فرغ من القراءة ، كان الجميع مذهولين . واستمر الصمت قرابة نصف دقيقة ، ثم دوى تصفيق هز القاعة ولم يتوقف طوال ربع ساعة» .

واستدعي الى المسرح بالتصفيق خمس مرات .

فما هى اسباب هذا النجاح ؟ أهى فى شخصية الكاتب نفسه ، التى اثرت ، بالطبع ، تأثيرا عظيما على الجمهور ، أم فى المزايا الفنية للنص المقروء ، أم فى أمر آخر لم تجر تسميته ، لكن الجمهور كان يعيه وعيا مضببا ؟ بطبيعة الحال ، كان المفعول الجمالى بحد ذاته مؤثرا على ما فيه الكفاية . ولكن من الواضح انه ليس الوحيد الذى قرر هذا النجاح . ففى آخر الامر كانت لدي

دوستويفسكى روايات اخرى تحوى صفحات لا تقل تأثيرا عن هذه ، وقد قرأها من على خشبة المسرح ، لكنه لم يحقق فى الماضى قط نجاحا كهذا .

كان السر يكمن فى الوقت .

كان الجمهور الروسى عام ١٨٧٩ ، الجمهور المتجاوب مع كل تحرك روحى يدرك برهافة حس فى الخطوط المعيشية والغرامية للرواية الجديدة ذلك المغزى «العالمى» الخفى الذى اخذ يصبح جزءا من لحم ودم الجيل ، من الحياة نفسها التى تعثرت فى جريانها الرتيب ووضعت ، كما كان دوستويفسكى يهوى القول ، السؤال التالى «عند الجدار» : ما العمل ؟

اخذ الجمهور يصغى بنهم لمحاورات آل كارامازوف «غير الطبيعية» .

وراح يتنبأ بالمستقبل فى دوستويفسكى .

ضيف صعب المراس

لم يكن لدى دوستويفسكى ما يكفى من اللباقة (كما لدى تورغينيف ، مثلا) لتجاذب اطراف حديث علمانى «لائق» ، ولم يكن قادرا كتولستوى على احتواء محدثه بخفة (محدثه بالذات ، وليس المستمع له) واخضاعه لارادته دونما ضغط . وكان هو نفسه يشكو من ان «ليس لديه فن الايماء» ، بما فى ذلك - كما يتضح - فن الايماء اللغوى الذى يساعد على التقيد بصيغ الحديث المعروفة . لم يكن يستطيع التحدث الا عما يقلقه اكثر من الامور الاخرى فى اللحظة الراهنة . وما كان بمقدور كل فرد ان يحتمل هذا المستوى من الاختلاط : لذا كان يمكن ان تنشأ حوله تجاويف فارغة .

ان اسلوب كلامه المألوف ، كما يقول ستراخوف (٥٦) ، هو مخاطبة محدثه «بصوت منخفض يكاد يكون همسا ، ريثما لم يستثره أمر ما بصفة خاصة ، عندها كان يستعيد الالهام ويرفع صوته رفعا حادا» . وقد انعكست هذه الخاصية الشخصية المحضة ، فيما يبدو ، على ابداعه . وهذه «الارتفاعات في الصوت»

(بعد «الوضعية» المتريثة بشكل مقصود) كانت تميز بصفة خاصة «يوميات كاتب» .

ان مؤلف الروايات «المتعددة النغمات» فى المجتمع شخص يتسم بمناجاة الذات : فهدفه لا يتمثل فى اقناع محدثه بقدر ما يتمثل فى الادلاء برأيه وشرح ما لديه من رموز للايمان والتأكد من اقواله مرة اخرى . تقول ميكوليتش (٥٧) : «لا أتذكر انه كان يدخل فى مجادلات ، رغم ان العديد من ضيوف آل شتاكنشنايدر (٥٨) كانوا يختلفون معه ويفكرون بصورة مغايرة تماما لتفكيره» .

وليس فى لغته اليومية انتقالات رتيبة أو صيغ مخففة تبيح امكانية المساومة . فحواره متقطع ، حاد الزوايا ، لكن مناجاته جامحة ومهيمنة . لم يكن يتقيد بأدب الحديث . «فاذا لم يعجبه رأى من الآراء المطروحة ، تراه يجاهر بذلك صراحة وبما يكفى من الحدة ، لكننى لا اتذكر ان احدا قد عارضه» .

هذا الامر يصعب تفسيره للوهلة الاولى . فهو الذى يعتبر احد ابرع فنانى الحوار ، ومن يجيد مصادمة وجهات النظر المتضادة فى رواياته وينحت من هذه المصادمات المفعول الفنى الروائى المطلوب نحتا دقيقا ، و«يتلاعب» بالفكر كالجدلى المرهف لعبا متفانيا ، ويطبقه «فى الواقع العملى» بلا كلل ، نراه متعصب الرأى لا يتسامح فى الاختلاط الفكرى القريب ، ومغلقا امام الجدل المتكافىء ، وأصم ازاء ما هو غريب . فأى تعدد نغمات هنا يا ترى . . .

ولكن الا تعتبر نزعة المناجاة الظاهرية هذه لدى دوستويفسكى هى الوجه الآخر لصراعه الروحى الداخلى ؟ أولم يمر فى الماضى عبر كل هذا الطيف النغمى كيما يتوقف عند نغم واحد ، ان تختار نوتة من شأنها ان تقاوم بصلابة كل الموسيقى الجلية بالنسبة له والكامنة فيه ؟

فى هذه الحالة تكون المناجأة ايضا وسيلة لاقناع الذات .

انه ليس بحاجة الى محدث مثلما هو بحاجة الى مستمع ، ذلك ان جميع الاعتراضات المحتملة معروفة ومبتوت بها ومتخطاة (او تبدو متخطاة ، على الاقل) ، والضرورة تقتضى اقناع المستمع من اجل اقناع الذات .

«كان يشرع فى التفكير بصوت عال ، - يتذكر فسيفولود صولوفيوف (٥٩) (شقيق فلاديمير صولوفيوف وابن المؤرخ سيرغى صولوفيوف) ، - وبحماسة والهام عن مصائر البشر المقبلة ، وعن مصائر روسيا» .

ونشير الى ان فكره يتجه على الدوام نحو المستقبل ، الذى يعتبر بالنسبة له مجالا لا يقل واقعية البتة عن الحاضر . وهو يفضل التطرق الى مواضيع عالمية كبيرة ، وتبرز فى احاديثه بصورة «اكثر مباشرة» واكثر صحافية مما فى رواياته . كما أن ذلك القلق العالمي الذى تجلى فى رواياته لم يفارقه شخصيا قط .

يمضى صولوفيوف الى القول : «كانت هذه الآمال احيانا غير قابلة للتحقيق ، وكانت استنتاجاته تبدو فى بعض الاوقات متضاربة . لكنه كان يتحدث بقناعة حارة وبالهام ، وفى نفس الوقت بنبرة تنبؤية كثيرا ما تجعلنى انا الآخر اشعر باختلاجات الاعجاب ، واتابع بنهم آماله وصوره الفنية وتساؤلاته وتضميناته واصب مزيدا من الوقود فى خياله» .

ومن الطريف ان الاختلاط بدوستويفسكى كان يثير لدى صولوفيوف مشاعر شبيهة بتلك التى كانت تعتريه عندما يطالع مؤلفات الكاتب . «وكانت هذه هى نفس الاحاسيس التى كانت تساورنى فى تلك السنوات ، عندما كنت اوغل فى مطالعة رواياته قبل ان اتعرف به . كانت اشبه بالخدر اللذيذ المؤلم ، اشبه بتعاطى الحشيش» . وكان مستوى التوتر عاليا جدا ، حتى اذا ظل المستمع سلبيا : «بعد ساعتين من مثل هذا اللقاء كنت كثيرا ما أنصرف من حضرته مهزوز الاعصاب ، مصابا بالحمى» .

«اللقاء» - انه لمبالغة . بطبيعة الحال ، انه لقاء من حيث الشكل فحسب ، ذلك ان الواعظ لم يكن بحاجة الى مناقش .

صولوفيوف يتحدث عن اللقاءات المنفردة . بيد ان دوستويفسكى يتصرف بالضبط نفس التصرف امام الناس . «انه لم يخلق بالطبع لاجل الاختلاط بالمجتمع ، لاجل الصالونات» . هنا لا يمكن توقع سوى احتمالين : إما الانطفاء التام والانسحاب من الحديث العام (المصحوب بـ«فعلة» غير متوقعة وغير لائقة احيانا تستهدف العودة اليه) ، واما استقطاب انتباه الجميع اليه والى ما ينطق به .

ان تورغينيف «امام الجمهور» راو ممتاز ، متوقد الذهن ، روح المجتمع . وتولستوى ليس غريبا - هو الآخر - عن هذا الجنس الادبى (لكنــــه ، بخلاف تورغينيف ، لا يغوى الغمز او الاغتياب) . وكلاهما - عادة - لا يجعلان من نفسيهما «ثقلا» على الحديث العام . كما ان تورغينيف وتولستوى لم يكونـا - فى حياتهما الشخصية - بحاجـــة الى منصة خطابة (عندمـــا يلقى تولستوى «مواعظه» فى حلقة اسرته او امام زوار غرباء ، يفعل ذلك فـــى اغلب الظن - بحكم العادة - متحاشيا الانفعـالات النفسية الشديدة ، ومن دون اسهاب) .

اما دوستويفسكى فبحاجة الى «منصة خطابة» ، ذلك ان لغته الحماسية ، والكونية الاحتواءات ، اعلى على الدوام بعدة درجات من متوسط «حرارة الحديث» . ولانه شخصيا لا بارد ولا فاتر ، بل حار .

بورتريت الكاتب من الباطن

. . . كانت الكاتبة المقبلة ميكوليتش تتفحص الضيوف وهى جالسة عند آل شتاكنشنايدر . «لقـــد حولت طرفى على غير ارادة منـــى من محيّا ستراخوف الهادئ البـــرىء الى وجـــه دوستويفسكى المعـــذب المتهيـــج بتشنّج ، ذى العينيـــن المتوقدتين وفكرت : «أى اتفـاق فى الرأى بينهمـا ؟ اولئك كانوا يحبون ما هو موجود ، وهو يحب ما يجب ان يكون . اولئك يتمسكون بما هو موجود وما كان فى الماضى ، وهو يستميت فى سبيل ما سيأتى او - على الاقل - ما يجب ان يأتى . ولئن كان ينتظر ويتعطش بهذا الشكل لما يجب ان يأتى ، فمعنى هذا انه ليس راضيا تماما عما هو موجود» .

ان اول ما يدهش مراقبتـــه هو التباين الخارجى ، بيد ان هذا الاختلاف المرئى مع ما حوله يرمز بالنسبة لها الى اختلاف داخلى .

سنتطرق لاحقـــا الى هذا الاختلاف الاخير ، ونكتفى الآن بالتوقف عند مسألة اخرى .

كيف كان يبدو دوستويفسكى فى سنواته الاخيرة ؟

تكتب ميكوليتش : « . . وجه غير جميل ، شاحب شحوبـا

ينم عن المرض ، ذو لحية صهباء وجبين ذكي متغضن وعينين ثاقبتين» . ودوستويفسكي البالغ من العمر ٥٨ سنة يبدو بالنسبة لها ، وهي ابنة الثالثة والعشرين ، «شيخا واهنا شاحب الوجه» . ربما يكون هذا الانطباع خادعا ؟

لقد تعرف فسيفولود صولوفيوف على دوستويفسكي عام ١٨٧٣ . «كان امامي شخص مربوع القامة ، نحيف لكنه واسع المنكبين يبدو اصغر كثيرا من اعوامه الاثنين والخمسين ، ذو لحية صهباء وجبين عال ، خفّ شعره الناعم الرقيق ولكن لم يمسسه الشيب ، ذو عينين بندقيتي اللون ، صغيرتين شفافتين ، ووجه غير جميل يبدو بسيطا للوهلة اولى . ولكن هذا ليس سوى انطباع اولي خاطف . وقد انطبع هذا الوجه على الفور والى الابد في ذاكرتي ، وكان يحمل بصمات حياة روحية فائقة» .

وعلى الرغم من ان صولوفيوف يلمح في دوستويفسكي معالم بعض البلى البدني («كانت بشرته رقيقة ، شاحبة ، وكأنها من شمع») ، يترك البورتريت الذي يصوره انطباعا عن القوة والطراوة .

كانت آنّا غريغوريفنا التي تعرفت على زوجها المقبل عام ١٨٦٦ ، عندما كان في الخامسة والاربعين من العمر ، تظن بادئ ذي بدء انه اصغر سنا بكثير . «منذ النظرة الاولى بدا لي دوستويفسكي هرما كفاية . ولكن ما ان دخلنا في الحديث ، حتى اصبح اصغر سنا ، فخيل الي انه من المستبعد ان يكون قد تجاوز الخامسة او السابعة والثلاثين . كان متوسط القامة ، منتصبها . وكان شعره الكستنائي الفاتح والمائل حتى الى الشقرة مدهونا بكثافة ومصففا بعناية» .

انه يغدو اصغر سنا حين يتكلم ، ذلك ان لغته لا «تحجب» حياته الداخلية ، بل على العكس ، انها تصور أصغر التحركات الروحية (تقول ميكوليتش : «ان تعابير وجهه العصبي المتحرك كانت تدل دلالة واضحة على انه يفكر بكل عبارة يقولها») .

لقد رأت ف . تيموفييفا دوستويفسكي لاول مرة في نفس العام الذي رآه فيه فسيفولود صولوفيوف ، وبالتالي قبل ما تراه ميكوليتش بسبع سنوات . آنذاك ، كان لها من العمر ،

شأنها شأن ميكوليتش – ثلاثة وعشرون عاما ، وستغدو هى الاخرى فى وقت لاحق كاتبة معروفة . ونظرتها النسائية ثاقبة جدا ، لذا فهى تضيف الى البورتريت الذى رسمه صولوفيوف تفاصيل مهمة .

«كان رجلا شاحبا جدا – شحوب اديمى ينم عن المرض – تجاوز سن الشباب ، رجلا متعبا جدا أو مريضا ذا وجه قاتم مرهق ، مغطى بشبكة من الظلال المدهشة التعبير والناجمة عن حركة عضلاته المكبوحة بشكل متوتر ، وكأن كل عضلة على هذا الوجه ذى الوجنتين الغائرتين والجبين العريض المرتفع مفعمة بالهام المشاعر والافكار» .

ويشخص صولوفيوف وتيموفييفا سمة ادهشتهما دهشة قوية هى الالهام ، علما بأنه ليس بالالهام المسرحى المتقصد من النمط «الرومانسى» ، بل هو الهام «باطنى» دفين .

وتذهب تيموفييفا الى القول : «ان هذه المشاعر والافكار كانت تندفع اندفاعا جامحا الى الظهور ، بيد ان ما كان يمنعها عن ذلك هو الارادة الحديدية لهذا الرجل النحيف والمرصوص فى آن معا ، ذى المنكبين العريضين ، الهادئ والواجم . كان يبدو وكأنه مغلق بمفتاح – بلا أية حركات ولا ايما ايماءات – باستثناء شفتيه الدقيقتين الشاحبتين اللتين تتحركان بعصبية حين يتكلم» .

ولا يستخدم أى كاتب مذكرات فى الحديث عن دوستويفسكى سنة ١٨٧٣ كلمة «شيخ» .

بوجه عام ، كانت سنة ١٨٧٣ محظوظة من حيث كثرة المذكرات : فعن دوستويفسكى ، محرر «المواطن» (٦٠) ، يشهد ايضا ميخائيل الكسندروفيتش الكسندروف ، مرتب الصحف فى المطبعة التى كانت تضطلع بطبع هذه المجلة .

يكتب الكسندروف : «اقول بالمناسبة اننى لاحظت مرارا فى وقت لاحق ان فيودور ميخائيلوفيتش كان يود التظاهر امام من لا يعرفه من الناس بأنه رجل نشيط ومعافى صحيا (أليس لهذا السبب بدا لآنّا غريغوريفنا وفسيفولود صولوفيوف أكثر نضارة مما هو عليه فى الواقع ؟ – **المؤلف**) ، مشددا لاجل ذلك على نغمية وتعبيرية صوته .

– هل منضدو الحروف عندكم جيدون ؟ – سألنى فيودور ميخائيلوفيتش بصوت مفتعل التوتر ، ولكن لم يكن من الصعب أن يلاحظ المرء فيه تصدع الشيخوخة» .

ان السن تفصح عن نفسها ، بالدرجة الاولى ، **فى الصوت** ، عندما يحاول المرء بمجهـــود ارادته ان يتخطى الارهاق البدنى القديم .

يمضى الكسندروف فى وصفه قائلا : «لقد بدا لى من النظرة الاولى قاسيـــا وشخصا غير مثقف بتاتا من النمط المعروف للجميـــع جيدا ، بل على الاكثر شخصا بسيطـــا لا يخلو من فظاظة . . . وقد ادهشتنى بالدرجة الاولى نمطية مظهره الروسية الشعبية المحضة . . .» .

يقول ستراخوف ان دوستويفسكى «بالرغم من جبينه الكبير وعينيه الرائعتين ، كانت لـه ملامح جندى ، أى قسمات وجه شعبى بسيط» . وتكرر تيموفييفا هذا الوصف بالحرف الواحد تقريبا : ان وجه دوستويفسكى يذكرهـــا «بجندى من عداد اولئك الذين جردوا من رتبهم . . . وبالسجن والمستشفى» . ومن دون اتفاق مسبق معهما يقول فسيفولود صولوفيوف : «لقد سبق لى عدة مرات ان رأيت فى السجون وجوها تترك مثل هذا الانطباع . كان هؤلاء من الطائفيين المتعصبين * الذين حكموا بالحبس الانفرادى لمدة طويلة» .

كان مظهر تورغينيف وتولستوى يجمع بشكل مدهش بين الملامح الروسية الشعبيـــة البسيطة وسمات الارستوقراطيـــة الراقية . بينما كانت هذه الاخيرة لا وجود لها بتاتا فى مظهر دوستويفسكى . ومـــا يعدل «بساطتـــه» هو روحيته الخالصة ، وليس أى شىء آخر .

مع حلول سنة ١٨٨٠ يجرى تشيّخ دوستويفسكى البدنى الملحوظ ، وفى الوقت ذاته تبرز وتتجلى بمزيد من القوة طبيعته الروحية .

فى عام ١٨٨٠ اصبحت كلمة «الشيخ» تنطبق عليه تماما : فهو يبدو فى سِنّه الحقيقية .

---

* يقصد بذلك طائفة الطواشية الدينية .

ولا يبقى سوى ان نشاطر الفنان كرامسكوى (٦١) أسفه «لعدم وجود بورتريت فى الوقت الاخير يضاهـــى ما رسمه بيروف (٦٢)» . وكان هذا البورتريت (سنة ١٨٧٢) يحظـــى باعجاب كبير لدى دوستويفسكى نفسه . تؤكد آنّا غريغوريفنا ان بيروف «تمكن من التقاط التعبير الاكثر تمييزا له الذى كان وجه الكاتب يكتسبه عندما ينغمر فى افكاره الروائية» . ولكن كان ثمة هواة يدعون «الجمهور الى زيارة معرض اكاديمية الفنون ومشاهدة بورتريت دوستويفسكى الذى رسمه بيروف ، كبرهان مباشر على انه انسان معتوه المكان اللائق به هو دار المجانين» .

ويرى كرامسكوى ان وجـــه دوستويفسكى خلال السنوات الاخيرة «اصبح اعظم تأثيرا واكثر عمقا وتراجيدية» . وتوكيدا لاقواله يشير الفنان الى احدى صور دوستويفسكى الفوتوغرافية الاخيرة . وقد التقطت هذه الصورة فى موسكو يوم ٩ حزيران (يونيو) ١٨٨٠ ، أى فى اليوم التالى بعد «خطابه البوشكينى» .

ان الصورة الفوتوغرافية التى التقطها بانوف (٦٣) من اكثر صور دوستويفسكى اثارة للدهشة ، ولعلها الاكثر مطابقـــة له . فعلى الرغم من كل ما يعتريها من نواقص تقنية ، نراها تنقل نقلا فنيا تقريبا «هندسة وجهه» : حتى ليخيل احيانا ان البورتريت من صنع رسام تكعيبى . اذ لا نجد اى خط خفيف هلامى ، بل نجد كل قسماته محددة بصراحة ، حادة الزوايا ، ناتئـــة العظام . وعيناه غائرتان الى درجة بحيث لا تكاد ترى من تحت محجرى عينيه الصلبين . كما أن غياب تناظر الوجه يزيده شبهـــا بالتصوير الزيتى الحديث .

ولا يمكن للمرء ان يلاحظ فى أى بورتريت فوتوغرافـــى لدوستويفسكى تركيزا روحيا وقوة داخلية كالتى يلاحظ فى صورة عام ١٨٨٠ .

غرائب العبقرية

ولكن ، ثمة امر غريب : ان حامل هذه القوة الفائقـــة لم يُعنَ كثيرا ، فيما يبدو ، باحاطة «أناه» الروحية بايما صفات لصيقة تنم عن الابهة الظاهرية . على العكس : ان سلوكه العادى

كان يبدو وكأنه يهدم عن قصد تلـــك الصورة الرفيعة للمفكر والنبى التى يلازم التصور عنها تلقائيا وعى المثقفين الروس .

تقول شتاكنشنايدر : «انه لم يكن يعى تماما طاقته الروحية ، ولكن كان لا بد له ان يشعر بها ومن ان يرى انعكاسهـــا فى الآخرين ، ولا سيما فى السنوات الاخيرة من حياته . وهذا بحد ذاته يكفى لجعل المرء يفكر كثيرا بنفسه . على انه لم يكن يفكر كثيرا بنفسه ، والا لما نظر بمثل نظرات المذنب هذه فى عيون الآخرين عندما يكثر من الكلام السليط ، ولتفوه بمثل هذا الكلام السليط بصورة مغايرة . لقد كان رجلا مريضا ونزقا ، وسبب كلامه السليط هو النزق وليس الغطرسة . ولو لم يكن كاتبا عظيما ، بل شخصا عاديا ومريضا ايضا ، لكان فى اغلب الظن نزقا كذلك ويصعب تحمله احيانا ، ولكن ما كان لاحد ان يلحظ ذلك ، لان احدا ما كان سيلحظه هو نفسه» .

ان تولستوى وتورغينيف - ولا سيما فى الحقبة الاخيرة من العمر - لم يكونا يسمحان لنفسيهما قط بالقيام بفعائل يقوم بها دوستويفسكى . وهذا لا يعنى البتة ان سلوكهما كان يتسم بنوع ما من التقصد او التشخص المسرحى : مجرد ان كلا الكاتبين كان يعرف دوره الاجتماعى جيدا . ولم يكن تفوتهما قط معرفة من هما فى واقع الحال .

ودوستويفسكى يحاول هو الآخر الا ينسى ذلك . غير انه رغم كل شىء «ممثل اجتماعى» سيىء ، فصراحته تفوق الحد الادنى اللازم من قابلية التمثيل (التشخص) : ومن هنا تأتى الاحباطات .

بطبيعة الحال ان المرض يشوه الشخصية تشويها شديدا . ولكن عزو كل «انحرافاته» الى الصرع ، كما يفعل البعض فى الغالب ، امر خاطىء . ففى سلوك دوستويفسكى ثمة جوانب يمكن ان تسمى بالبنيوية : وهى تنشأ من التركيب النفسى العام لشخصيته ، ولا يلعب المرض فى هذا المضمار سوى دور «ثانوى» .

ان العديـــــد من كاتبى المذكرات الذيـــن كتبـــوا عن دوستويفسكى يشخصون خاصية عامة واحدة . اذ تشير المذكرات الى ذلك الانطباع الثقيل الذى كان مؤلف «الجريمة والعقاب» يتركه عند التعارف الاول (وكان هذا الامر ايضا من نصيب رفيقة حياته

المقبلة) . فهو لم يكن يجيد التظاهر عن قصد بالوسامة او ان يحظى بالاعجاب مباشرة ، شأن تورغينيف ، مثلا (صحيح ان شتاكنشنايدر تقول انه «فى اول زيارة له ، وحول مائدة العشاء ، باشر بالحديث فسحر الجميع» ، لكنها تضيف على الفور : «كل كلمة «سحر» لا تعبر حتى تعبيرا وافيا عن الانطباع الذى تركه . فالارجح انه سبى عقول الجميع ، وسلب البابهم» . و«سلب الالباب» هذا الذى يزاوله هو نفسه يعتبر فى الوقت ذاته احد ابرز وأهم ملامح عمله الفنى) . ولم يستطع حتى اواخر حياته اتقان صيغ الاختلاط «المحايدة» والمنطوية على المجاملة ، أى حتى مع معارفه الطارئين . ان معدل «انجراره» (أو ، كما قال عالم الفسلجة اوختومسكى ، «تلبس وجه الشخص المقابل») فائق حقا . ولئن «اعترف» بمحدثه ، فسوف يحل — عادة — التقارب معه الذى يفوق مستواه الحد السيكولوجى الادنى اللازم لمواصلة التعارف البسيط .

ويؤكد فسيفولود صولوفيوف : «انه كان حنونا للغاية ، وعندما يغدو حنونا ، يجتذب الآخرين جاذبية لا تقاوم» . وفى الاختلاط الشخصى الحميم والوثيق كان يمكن ان يتجاور «الموعظى» بنجاح مع الاهتمام الصادق بالشخص المقابل ، مشفوعا بـ«الدخول» فى التفاصيل الصغيرة والدقيقة من شواغل حياته (بهذا التعاطف الوجدانى الهائل كان دوستويفسكى ينصت لكل تفاصيل قصة غرام فسيفولود صولوفيوف) . انه معلم اعتراف ليس فقط فى المسائل الاجتماعية او «المصالحات» : اذ كانوا يراجعونه فى مسائل شخصية محضة ، وحميمية جدا فى بعض الاحيان (فمراسلاته المستفيضة وغير المنشورة فى جزء كبير منها تقدم امثلة مدهشة على مثل هذا النوع من المصارحات) .

وكان ميله الى محدثه ، فضلا عن كل الامور الاخرى ، قد يرتفد احيانا بمثابرة على تقديم الحلوى التى كان هو نفسه يهواها كثيرا : البرقوق الملكى المجفف ، الفالوذة الطرية ، العنب ، الزبيب . كان يحب اكرام الضيف ، ولا يشرع فى حديث عملى معه دون ان يعرض عليه الحلوى والسجائر والشاى (وهو الامر الذى ادهش آنّا غريغوريفنا الصارمة ، عندما قدمت اليه لغرض العمل) .

«لحظة ، حبيبى ! – هذا ما كان يردده كثيرا حين يتوقف فى اثناء الحديث . . . ان هذه الكلمة الحنون فعلا يحبها الكثير جدا من الروس ، لكننى لم أر حتى الآن قط من كان ينطق بها بمثل هذه الرقة والصفاء» ، – هذا ما يفيد به فسيفولود صولوفيوف.

كان دوستويفسكى ، كما اسلفنا ، عديم التصنع : ففى حفلات الهواة لدى آل شتاكنشنايدر كان يمكن ان يدخل فى حالة «افتتان ايجابى» عندما يرى نيقولاى نيقولايفيتش ستراخوف مرتديا بدلة راهب اسبانى : «يا للجمال ! برافو ، ستراخوف ! يحيا ستراخوف !» . وكان هو نفسه مستعدا للمشاركة فى المسرح المنزلى (كان على الدوام ، بالمناسبة ، يرغب فى اداء دور يتطلب قدرا عظيما من الانفعالات ، كدور عطيل ، مثلا) .

كان يصغى الى الموسيقى ، ويبدو وجهه ، كما تفيد ميكوليتش التى كانت تراقبه خفية ، «على درجة عظيمة من الطيبة والبساطة والهدوء» .

ان بالامكان التنبؤ بسلوك المشاهير الى درجة قد تزيد او تقل من الدقة : فالشخص المتواجد باستمرار فى «محط الانظار» يكوّن لنفسه قالبا معينا من السلوك .

فى هذا المضمار لا يمكن التنبؤ بسلوك دوستويفسكى .

تقول شتاكنشنايدر : «كان يدهشنى فيه على الدوام كونه لا يعرف قدر نفسه بتاتا ، ويذهلنى تواضعه . وهذا بالذات هو منشأ سرعة تأثره الفائقة ، او بالاحرى انتظاره الدائم لاحتمال ان احدا سيسىء الآن اليه . وكثيرا ما كان يرى حقا الاساءة حيثما لا يستطيع الشخص الآخر الذى يترفع على الآخرين بالفعل ان يفترضها او ينوى عليها . ولم يكن يتصف كذلك بصلافة متأصلة او مكتسبة نتيجة الشهرة والنجاحات الباهرة ، لكنه يبدو احيانا وكأن كرة من الغيظ قد تدحرجت الى صدره وانفجرت ، وكان عليه ان ينفث هذا الغيظ ، رغم انه كان يصارعه على الدوام . وكان هذا الصراع يتجلى على محياه – فقد درست جيدا قسمات وجهه من خلال كثرة لقاءاتى معه . وعندما الحظ حركات شفتيه المتميزة ، والتعبير المذنب فى عينيه ، كنت اعرف على الدوام ليس ماذا سيحدث بالذات ، بل أن شيئا ما بغيضا سوف يتلو ذلك» .

على ان هذا «البغيض» قد يكون بريئا تماما . فقد وضعت شقيقة شتاكنشنايدر المتزوجة طفلا (كانت لها شقيقة اخرى ارملة تشاجر معها دوستويفسكى منذ وقت قريب) . وبطبيعة الحال ، جرت مناقشة هذا الحدث العائلى بحرارة فى حفل يوم السبت الدورى . «كان دوستويفسكى يجلس بجنبى – كعادته – صامتا . وفجأة لمحت شفتيه قد شرعتا فى الحركة ، وعيناه تنظران الي بنظرة تنم عن الذنب . فأدركت على الفور ان كرة الغيظ قد تدحرجت الى صدره . لقد اراد شيخنا الغريب الاطوار ان يبتلعها ، ولكن يبدو انه لم يتمكن . «هل الارملة وضعت طفلا ؟» – تساءل بصوت خفيض وابتسم ابتسامة مذنب . قلت له مبتسمة : «اجل ، هى التى ولدت . وكما ترى فهى تتجول فى الغرفة ، اما شقيقتى الاخرى ، غير الارملة ، فترقد فى السرير والطفل بجنبها» . رأى ان المسألة قد سويت تسوية ملائمة : فقد ارضى نفسه دون ان يسىء الي او يسبب لى الاذى ، – فضحك هو الآخر ، ليس ضحكة مذنب ، بل بانشراح» .

ان لذاعة الكلام «العادى» المتعلق بتوافه الامور هى التى انقذت الموقف . صحيح ان هذا التنفيس السيكولوجى كان يمكن الا يحدث : «فى بعض الاحيان كان يفلح فى التغلب على نفسه ، وفى ابتلاع الغيظ ، لكنه فى مثل هذه الحالات كان يتحول الى شخص واجم ، صامت ، لا مزاج له» .

انه سريع الانفعال للغاية ، لكنه فى الوقت ذاته سريع العفو . علاوة على ذلك ، انه سهل الانقياد ، لذا كانت يلينا اندرييفنا شتاكنشنايدر ، وهى امرأة ذكية وطيبة القلب ، تعرف ذلك حق المعرفة وتستغله بأدب . «شيخنا الغريب الاطوار» (لم يكن احد سواها ينعت دوستويفسكى بهذا النعت !) – فى هذا التعريف البيتى تماما يكمن تعلق روحى ثابت كان لا بد لدوستويفسكى بطبيعة الحال ان يشعر به .

انه سريع العفو حتى فى تلك الحالات ، حين يتعلق الأمر بـ«القناعات المقدسة» : ومهما كان ذلك مدهشا ، فهو على هذا النحو . الشرط الوحيد هو صفاء طوية محدثه وطبعا بعض الميل اليه ، بطبيعة الحال .

يلاحظ ستراخوف : «. . . كان فيودور ميخائيلوفيتش

يدهشنى على الدوام برحابة تعاطفه وقدرتـــه على تفهم وجهات النظر المختلفة والمتضادة» . ان اعتراف ستراخوف هذا يبدو مباغتا بعض الشىء فى ضـــوء التصور الشائـــع عن تعصب دوستويفسكى الفكرى ، لكننا نجد ما يؤكد هذا الاعتراف ايضا فى مصادر اخرى .

انه يستطيع العفـــو عن شتى ضروب الاقوال بشرط واحد هو : اذا ما بدرت عن اصدقاء .

فى سورة الجدل كانت منتقدتـــه الازلية آنّا بافلوفنـــا فيلوسوفوفا (تسترجع ابنتها ذكرياتها قائلة : «كلاهما لم يكن قط يجيد الجدل ، لذا تراهما يحتدان ، ولا يصغى احدهمـــا للآخر ، بحيث كانت طبقة صوت فيودور ميخائيلوفيتش تصل الى اعلى الدرجات») تهتف بأسى فى بعض الاحيان : «اذن ، اهنئك ، ابق مع «ربك الارثوذكسى» ، ممتاز !» – وعوضا عن ان يتأذى دوستويفسكى ، تراه «فجأة يضحك ضحكة عالية وبشوشة قائلا : «آه ، يا آنّا بافلوفنا ! ما لنا نحتد واياك ، وكأننا صبيان !»

الفصل الرابع

فى حلقة الاسرة

افراح الوالد

يقول دوستويفسكى فى رسالة الى ستراخوف : «آه ، يا عزيزى المحترم نيقولاى نيقولايفيتش ، لماذا لم تتزوج ، ولماذا ليس لديك طفل . أقسم لك ان هذا هو موطن ثلاثة أرباع السعادة فى الحياة ، وليس للباقى اللهم الا الربع» .

ويقول فى رسالة الى فيلوسوفوفا : «الاطفال عذاب ، لكنهم ضروريون ، فمن دونهم ليس للحياة من هدف . . . انا اعرف اناسا رائعين روحيا ، متزوجين ، ولكن ليس لهم اطفال – فما هى النتيجة : رغم توفر مثل هذا العقل ، ومثل هذه الروح نراهم يشعرون على الدوام بشىء يعوزهم ، ثم (والله اقول الحق) انهم لا يكادون يفقهون شيئا فى مسائل الحياة ومهامها السامية» .

اصبح دوستويفسكى أبا فى وقت متأخر : اذ كان فى السابعة والاربعين ، عندما وضعت آنّا غريغوريفنا ، وهى فى الحادية والعشرين من العمر ، طفلها الاول .

وكان ذلك فى جنيف .

كان شديد القلق على نتيجة الوضع ، يهرع لاستدعاء القابلة ، ويصلى بحرارة . وعندما رزق ببنت لم تكن لهنائه حدود . حتى ان القابلة همست للوالدة انها لم تر خلال ممارستها الطويلة أبا «بمثل هذا القلق والاضطراب» .

تكتب آنّا غريغوريفنا : «لحسن حظى الحقيقى كان فيودور ميخائيلوفيتش أبا بالغ الرقة : كان يحضر دوما عند تحميم البنت ، ويساعدنى ، ويقوم شخصيا بلفها فى لحاف من قماش البيكه يدبسه بدبابيس انجليزية ، ويحملها ويهدهدها على ساعديه ، يهجر اشغاله ويهرع اليها حالما يتناهى صوتها الى مسمعه . وكان اول سؤال يطرحه حين يفيق او عندما يعود الى

البيت هو : كيف صونيا ؟ أهى معافاة ؟ هل نامت ، هل أكلت جيدا ؟ كان فيودور ميخائيلوفيتش يقضى ساعات كاملة جالسا الى سريرها ، يغنى لها تارة ، ويحدثها تارة اخرى . . .»

توفيت صونيا بعد مضى ثلاثة اشهر اثر اصابتها بالتهاب رئوى . وعانى الاب هذه الوفاة ما لا يقل عن معاناة والدتها : «كان يأسه عاصفا ، وتراه يبكى وينتحب كالنساء ، وهو يقف امام جسد حبيبته المسجى ، ويغطى وجهها الشاحب وكفيها الصغيرتين بقبلات حارة . ولم أر فى حياتى قط يأسا عاصفا كهذا» .

وبطبيعة الحال ، كانت آنّا غريغوريفنا تنتحب هى الاخرى . فبعث جيرانهم الذين علموا بمصابها بمن يطلب منها ان تفعل ذلك بصوت اوطأ : اذ كان البكاء الروسى السافر يؤثر على اعصاب اهالى جنيف الكظومين .

غادرت اسرة دوستويفسكى جنيف المقيتة ، واذا به يشرع لاول مرة ، وهو الكاره للشكوى من القدر ، فى التشكى لآنّا غريغوريفنا ، ويعدد كل آلامه واحباطاته : «لم يكن قط ، لا فى الماضى ولا فى وقت لاحق يعدد بمثل هذه التفاصيل الصغيرة والمؤثرة احيانا تلك الاساءات المريرة التى سببها له فى حياته اقرباؤه والاعزاء عليه من الناس» .

كان وقع وفاة الطفل الاول والوحيد شديدا وكأنه فتح صماما ما : لقد تحمل دوستويفسكى الاشغال الشاقة وفقدان زوجته الاولى وشقيقه ، ولم يكسر شوكته العوز والفاقة والمياومة الادبية ، وها هو المغرم بقصة ايوب فى الكتاب المقدس يشرع ، أخيرا ، فى ندب حظه .

فنراه يكتب بهذا الشأن الى الشاعر مايكوف (٦٤) ، قائلا : «وحتى اذ رزقت بمولود آخر ، فلست افهم كيف سأحبه ، ومن اين لى هذا الحب ؟ انا بحاجة الى صونيا . وانا لا أستطيع ان افهم انها لم تعد موجودة واننى لن اراها ابدا» .

انه ليس بحاجة الى طفل بوجه عام ، بل هو بحاجة الى طفل بعينه . هكذا يجيب النقيب الركن سنيغيريوف (٦٥) الذى يوشك على فقدان ابنه ايليوشا ، ردا على جواب ابنه المواسى بتبنى

«صبى جيد آخر» بعد وفاته ، قائلا : «لا أريد صبيا جيدا ! لا أريد صبيا آخر !» .

بعد وفاة صونيا بعام ونصف العام تقريبا ظهرت الى النور ابنته الثانية – لوبا (أو ليليا ، كما كانوا ينادونها فى الاسرة) . وقد ولدت فى دريزدن . يبلغ دوستويفسكى صديقه مايكوف قائلا : «. . . الطفلة كبيرة الجسم ومعافاة وجميلة جدا» (عندما كبرت لوبوف فيودوروفنا ، اصبحت امرأة غير كبيرة الجسم وغير جميلة جدا ، بل سقيمة جدا) .

فى عام ١٨٧١ عادت الاسرة الى الوطن ، بعد أربع سنوات من الغياب . وبعد وصولها الى بطرسبورغ بثمانية ايام وضعت آنّا غريغوريفنا طفلها الثالث . كان فى هذه المرة صبيا ، واطلق عليه اسم والده (فيودور) .

كان دوستويفسكى أبا جيدا . وتقول ابنته انه انشغل بتربية الاطفال فى وقت مبكر جدا ، («فى حين كان معظم الآباء يحتفظون بأبنائهم فى غرف الاطفال») ، دون علم منه بأن علم التربية الحديث سوف يلغى بوجه عام وفى وقت قريب جدا الحد الزمنى الادنى للعملية التربوية .

على انه لم يكن يطمح بدور المربى حصرا : ففى حالة الضرورة كان يؤدى وظائف الحاضنة بارتياح ظاهر .

عندما انكسرت يد لوبا وهى فى الثانية من العمر (التأم العظم بصورة غير صحيحة واقتضى الامر اجراء عملية عاجلة) هجر والدها اعماله وعاد بصحبة زوجته وابنته المريضة من ستارايا روسا الى بطرسبورغ . . . كان يقف وراء باب ردهة العمليات حيث ينحنى الجراح فوق جسد ابنته ، وحالما تعدى الخطر سارع بالعودة ، لا لاجل تحاشى المزيد من الشواغل ، بل لرعاية ابنه الذى فى شهره العاشر بغياب والدته .

نرى دوستويفسكى يطلب بأن تشترى للاطفال فى اعياد الميلاد شجرة كبيرة ووفيرة الاغصان ، فيعتلى هو نفسه كرسيا ليعلق فوقها نجمة ويوقد الشموع . ونراه يرفع على ذراعيه صغيره المتشاقى ويجلسه على الزلاقة الصغيرة ويسهر بجنبه الى منتصف الليل منتظرا ريثما يهدأ الصبى ويغفو .

وتمضى ابنته الى القول : «كلما تقدم بنا العمر ، ازداد هو

صرامة ، لكنه كان معنا عطوفا على الدوام ، عندما كنا لا نزال صغارا . وكنت انا فى طفولتى عصبية جدا وكثيرة البكاء . ولاجل تسليتى اقترح والدى علىّ ان اراقصه . فأزاح أثاث غرفة الضيوف جانبا ، واتخذت والدتى ابنها رفيقا لها ، ورحنا نرقص معا» .

من الصعب ان يتصور المرء دوستويفسكى راقصا : اصعب كثيرا ، مثلا ، من ان يتصوره على منصة الخطابة فى قاعة مجمع النبلاء . فالقالب المطبوع في الوعي – أى الانسان الذى له وجه نبى واجم – لا ينسجم مع الجو المنزلى الحميم .

كانت آنّا غريغوريفنا تشكو من ان معظم كاتبى المذكرات يصورون زوجها قاتما ومتجهما : بينما تعرفه هى من جانب مغاير تماما .

كان حقانيا ، وكما تقول ابنته ، «لم تخطر على باله فكرة ان احدا يرغب فى خداعه» . (يقصد بهذا ال«احد» طبعا اقرباؤه : ذلك انه كان ينظر الى الاغراب نظرة ارتياب بالغ) . اما هو نفسه فلم يكن يخادع الا فى ١ نيسان (ابريل) ولا يجوز القول ان هذه الخدع كانت تمتاز بروح ابتكار متميزة . ففى ذات مرة طلب من آنّا غريغوريفنا ان تنتشل من فراشه جرذا كان قد دعسه ليلا . فتوجهت آنّا غريغوريفنا بصحبة صغارها الفضوليين الى غرفة زوجها ، لكن كل تحرياتها ذهبت عبثا . فعادت لتسأله : «وأين رميت هذا الجرذ ؟» . «انها كذبة نيسان !» – اجاب دوستويفسكى فرحا بخديعته «الماكرة» .

وافظع ما فى احلامه هو ان ابنه فيديا لا يسقط من النافذة مجرد سقوط ، بل يهوى الى الاسفل «متقلبا» . ويمكن القول ان صور وشخوص احلام دوستويفسكى تندرج فى اطار منظومة عمله الفنى .

ترى فيم يفكر حين ينظر الى الاطفال ؟

«الطفل يمكن البوح له بكل الامور . . .»

تكتب سوسلوفا (٦٦) (التى ترحّل معها دوستويفسكى اوائل الستينات في ارجاء ايطاليا) : «حينما كنا نتناول الغداء ، قال

وهو يتطلع الى صبية كانت تتلقى دروسا : «تصورى صبية كهذه مع شيخ ، وفجأة يقول نابوليون ما : «ابيدوا المدينة بأسرها» . هكذا كانت الاوضاع على الدوام فى العالم» .

وكثيرا ما يصور الاطفال فى رواياته ، وباحترام . مثلا ، اليوشا كارامازوف يتحدث مع كوليا كراسوتكين حديث الند للند ، دون ما يعرف عن الكبار من لهجة المعذرة والتسامح . ان «الطفل يمكن البوح له بكل الامور» — هذه هى القاعدة ، كما تفيد آنا غريغوريفنا ، التى كان يتقيد بها زوجها فى احاديثه مع الاطفال .

الطفل يمكن البوح له بكل الامور ، ذلك — حسب قول دميترى كارامازوف — ان «الكل طفل» . و«الطفل» هو الصورة النموذج والصورة الاصل للبشرية ، كما ان البشرية نفسها طفل نسى طفولته .

كانت لديه خطة : «**رواية عن الاطفال ، عن الاطفال فحسب ، وعن بطل — طفل** . . . مؤامرة اطفال لانشاء **امبراطوريتهم الطفولية** . جدالات اطفال عن الجمهورية والنظام الملكى» .

وفى مجادلات الاطفال ، كما فى مجادلات الكبار ، يدرج اكثر الامور التهابا : فمن اليسير ان يتصور المرء كوليا كراسوتكين الذى أتى ذكره وهو يتحدث «عن الجمهورية والنظام الملكى» .

وهذا يعنى ان معاشرته للطفل تتسم بنوع متميز من الجدية . كلا ، انه يخاطب الاطفال كأطفال .

يروى إ . بوبوف (الذى سيغدو عضوا فى منظمة ارادة الشعب) انه حين كان طالبا كثيرا ما كان يرى دوستويفسكى متنزها فى باحة كنيسة فلاديميرسكايا . وذات مرة جلس بوبوف اليه على مسطبة .

«كان ثمة اطفال يلعبون امامنا ، واذا بصغير يصب من قدح خشبى قالبا من الرمل على طرف معطف دوستويفسكى المنشور على المسطبة . فالتفت دوستويفسكى الى الصغير قائلا :

— ماذا أستطيع ان افعل الآن ؟ لقد صنعت كوليتش (٦٧) ووضعته على معطفى . والآن لا يجوز حتى النهوض .

اجاب الصغير :

— ابق جالسا ، وسأجلب المزيد .

وافق دوستويفسكى على الجلوس ، بينما راح الصغير يصب على معطفه من مختلف الاقداح والاكواب الخشبية المزيد من الرمل حتى بلغ ما صنعه قرابة نصف دزينة من الكوليتش . وفى تلك الاثناء سعل دوستويفسكى بقوة . وكان سعالـــه آنذاك خطرا وشديد الوطأة . ثم اخرج من جيبه منديلا ملونا بصق فيه ، وليس على الارض . فسقطت اذيال معطفه من على المسطبة ، وانهارت «الكوليتشات» . استمر دوستويفسكى فى سعاله . . . وعاد الصغير راكضا .

– أين الكوليتشات ؟

– لقد اكلتها ، كانت لذيذة جدا . . .

ضحك الصغير وهرع مرة اخرى ليجلب الرمل . . .»

تصف آنّا غريغوريفنـــا رحلـــة الاسرة عام ١٨٧٧ من بطرسبورغ الى محافظة كورسك ، حيث تقع ضيعـــة شنقيقها . وكانت تدور آنذاك رحى الحرب الروسية التركية . لذا كان القطار يتوقف طويلا فى محطات الطرق الحديد كى تمر القطارات الحربية .

تقول آنّا غريغوريفنا : «عند تذكر هذه الرحلة الطويلة اقول ان مـــا كان يدهشنى على الدوام هو ان فيودور ميخائيلوفيتش الذى ينفعل بسهولة فى الحياة اليومية ، كان رفيق طريق مريحا وصبورا : فهو يوافق على كل شيء ، ولا يطرح ايما مطالب او اعتراضات ، بل على العكس ، كان يسعى بكل ما فى وسعه الى ان يخفف عنى وعن الحاضنات هموم الصغار الذين يتعبون سريعا أثناء السفر ويشرعون فى التشاقى . وكنت انبهر حقـــا لقدرة زوجى على تهدئة الطفل : فما ان يشرع احد الاطفال الثلاثة (فى عام ١٨٧٥ ولد ابنهما الاخير اليوشا – **المؤلف**) فى التشاقى ، حتى يبرز فيودور ميخائيلوفيتش من ركنه . . ، ويرفع الطفل على ذراعيه ويهدئه على الفور . وكانت لدى زوجى قدرة متميزة على التحدث مع الاطفال والانغماس فى اهتماماتهم وكسب ثقتهم (وهذا حتى مع الاطفال الغرباء الذين يصادفهم عرضا) ، وعلى اثارة اهتمام الطفل بحيث يغدو هذا بلمح البصر مرحا ومطيعا . وانا أفسر ذلك بحبه الدائم للصغار ، الذى كان يوعز له كيف ينبغي في مثل هذه الحالات ان يتصرف» .

لقد حفظ أرشيف الكاتب آثار هذا التعاشر مع الاطفال (او بالاحرى تعاشر الاطفال معه) : قصاصات ورق كتبت عليها يد طفولية خرقاء :

«بابا ، خذنى معك الى الحمام .

فيديا»

«بابا ، صباح الخير هل ستذهب اليوم للتنزه فى الحديقة .

فيديا»

(وعلى ظهر الورقة : الى فيودور ميخائيلوفيتش)

«بابا العزيز انا احبك .

لوبا»

«بابا قدم لى هدية .

فيديا»

وقد كتبت آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «ان مثل هذه المظاريف المطالبة بتقديم هدية كثيرا ما كانت تقدم الى فيودور ميخائيلوفيتش» .

وحفظ الارشيف ايضا رسالة حقيقية ، وهى عبارة عن ورقة صغيرة كتبت عليها سطور كبيرة مائلة طولا وعرضا . ويتضح ان لوبا ، وهى فى العاشرة من العمر ، قد عنونتها الى أيمس ، حيث كان والدها يتعالج فى صيف عام ١٨٧٩ .

«والدى العزيز كيف صحتك كلنا والحمد لله بخير ونقدم عند يوريك مسرحية من حكايات كريلوف (٦٨) «اليعسوب والنملة» (انا سأكون النملة ويوريك اليعسوب) ثم «الديك والوقوق» وسأكون انا الديك وانفيسا الوقوق و«جوقة الغناء» التى سيكون فيها فيديا الدب وداعا يا بابا ابنتك لوبا» .

وتحمل هذه **الوثيقة** ملحوظة ارشيفية مقتضبة :

«عثر عليها متحف دوستويفسكى فى كتاب الانجيل العائد لدوستويفسكى» . وهذا يعنى انه كان يحفظ «شخبطة» لوبا فى الكتاب الذى اهدته اياه عقيلات الديسمبريين (٦٩) فى سيبيريا : وكان هذا الكتاب على مكتبه .

ويضم الارشيف ايضا رسائل اطفال معنونة الى آنّا غريغوريفنا . وفى احداها تبلغ لوبا امها عما كانوا يفعلون فى غيابها : «ذهب فيديا مع بابا بعد السيارة (أى بعد عودتهما من

محطة القطار حيث ودعوا آنا غريغوريفنا - **المؤلف**) الى متنزه المدينة قرب المتنزه الملكى وشاهدا كيف تطلق المناطيد . وعادا من هناك سيرا على الاقدام» .

وعندما كان آنّا غريغوريفنا ان تغادر ستارايا روسّا كان الاطفال يبقون تحت رعايته . وكان هو يؤدى واجباته اداء رائعا : «ان معدته تعمل جيدا ، وهو يتسخ جيدا وبعناية . مظهره مرح جدا» ، - هكذا يبلغ آنا غريغوريفنا مدركا أية معلومات بالتحديد تعتبر مهمة بالنسبة لوالدة فيديا وهو فى شهره العاشر .

حتى انه يكلف زوجته بمهمات كالتى تكلف بها الزوجة عادة زوجها : «ان فيديا ليست لديه قبعة . فقبعته الصيفية تمزقت تماما (وكانت ليليا تخيطها له) ، ثم انها لا تلائم الموسم . اما الكاسكيت (المدهنة جدا) فقد انخلعت حافتها . حبذا لو تجلبين له اخرى جديدة . ففى محلات غوستينى دفور ، بالقرب من الكنيسة الصغيرة ، فى مخزن لعب الاطفال الواقع فى الركن كانت هناك كاسكيتات ضباط رخيصة ذات شارة سعر الواحدة روبل» .

كل هذا الكلام كتب فى آب (اغسطس) ١٨٨٠ ، أى فى غمار العمل على «كارامازوف» .

فى غرفة الضيوف وفى غرفة الاطفال

لم يكن لدى اطفال دوستويفسكى لا مربيات ولا معلمون : لذا كان على والدهم ان يضطلع بهذه الوظائف .

تروى لوبوف فيودوروفنا كيف اقام لهم والدهم اول امسية ادبية . فقد اعلن انه سيقرأ لهم بصوت مسموع «قطاع الطرق» لشيللر . ولاجل ارضاء الوالد اكسبت البنت وجهها مظهرا وكأنها تثمن جدا عبقرية شيللر . بيد ان شقيقها الساذج اغض صراحة . «وعندما تطلع دوستويفسكى الى الحاضرين صمت ، ثم قهقه وراح يضحك على نفسه . وقال بحزن لزوجته : «انهم لا يستطيعون فهم ذلك ، اذ لا يزالون صغارا جدا» .

لقد استوعب هذا الدرس مع شيللر ، لذا راح يقرأ لهم

حكايات روسيـــة وقصص بوشكين وليرمونتوف و«تـــاراس بولبا» (٧٠) . «وبعد ان تكوّن ذوقنا الادبـى بهذا القدر او ذاك ، اخذ دوستويفسكى يقرأ لنا قصائد بوشكيـــن واليكسى تولستوى (٧١) ، وهما الشاعران اللذان كان يحبهما اكثر من سواهما» .

كان اول كتاب اهداه لابنته هو مؤلف كارامزين «تاريخ روسيا» – كتاب طفولته . وكان يهوى تفسير الصورة المرفقة بالكتاب : فكان يقدم تفسيرات للاحداث التاريخية .

وجرت تربية الاطفال على أدب الكبار مباشرة : اذ لم تكن فى روسيا آنذاك تقريبا ايما كتب جيدة للاطفال .

ولسبب ما لم يكن يقرأ لهم قط شيئا من مؤلفاته .

لقد طلب من آنّا غريغوريفنا أن تقرأ للصغار فى غيابـه والتر سكوت وديكنز – هذا «المسيحى العظيم» ، على حد قوله . وكان منذ طفولته يحب هذين الكاتبين ، ولا سيما الاخير .

ورغب فى الاضطلاع بدور فى مسرحية هواة ، ممـا سبب ارتياحا كبيرا للاطفال الذين كانوا يراقبون تدريباته البيتية : اذ تمضى لوبوف فيودوروفنا فى سرد ذكرياتها فتقول : «ومثلما هى الحال دائما ، شغف شغفا عظيما بالفكرة الجديدة ، وراح يؤدى الدور بجدية بالغة ، فيهب من الارض واقفا ، وكأنه قد سقط عند دخوله الغرفة ، ويلوح بيديه وينشد» .

ونراه يصطحب الاطفال ايضا الى المسرح الحقيقى . ولم يكن يميل الى الباليه ، بل يفضل الاوبرا .

الكتاب ، المسرح ، الصلاة الكنسية – تلكم هى الهبـات التى تنطوى ، فى رأيه ، على الغبطـــة والحبور وتفتح امـــام الاطفال عالم الجمال . ولكنه لم يكن يبخل ايضا بأنواع اخرى من الهدايا .

لم يكن يعود قط من رحلاته بلا هدايـا : وهو فى هـــذا المضمار لا يخلو له وفاض . ويندر ان تمر نزهاته اليومية بلا ارتياد حوانيت الفواكه والحلويات : كان يشترى الحلويات على الدوام ، ولا يندر ان يدفع عنها آخر ما لديه من نقود .

ومن المفترض ان النفقات الفائضة عن اللزوم كانت تثيـر

استياء خاصا لدى آنّا غريغوريفنا بما يعرف عنها من تقتير ، الامر الذى كان بدوره يزعج زوجها . وبامكاننا أن نرصد اصداء مثل هذا الاستياء المتبادل فى مذكرات ب . كوزنتسوف الساذجة ولكنها لا تخلو من اثارة للاهتمام (وهو صبى يعمل فى خدمة آل دوستويفسكى) .

يكتب كوزنتسوف : «ان فيودور ميخائيلوفيتش كان يحب جدا تناول وجبة غداء لذيذة . وكان يحب جدا الدرّاج ، أى اكثر ما يحبه بين الطيور ، لكن آنّا غريغوريفنا كانت بخيلة جدا ، وكثيرا ما تعكر مزاجه ببخلها . ذات مرة اشترى ف . م . نفسه الوانا كثيرة من الطعام ، ونشب بسبب ذلك شجار كبير ، فراح ف . م . يصرخ ويدربك بقدميه قائلا : «انت لا تكتفين بشيء وتتظاهرين دوما بالفقر» .

وبالمناسبة ، فأن عدالة اقوال كوزنتسوف تجد ما يؤكدها فى بعض العبارات التى افلتت من قلم دوستويفسكى ، وذلك فى رسائله الرقيقة جدا الى زوجته . ففى رسالة بعث بها عام ١٨٧٢ يقول : «اقبل الصغيرين لوبا وفيديا . أرجو ان تطعميهما بصورة افضل . آنيا ، لا تبخلى بلحم البقر» . وبعد ثمانى سنوات نجده يكتب فى رسالة بعث بها من اعياد بوشكين : «قبّلى الصغار بحرارة لقاء ما سجلوه من حواش رائعة ، واشترى لهم من كل بد بعض الهدايا ، أتسمعينى ، يا آنيا . فحتى الاطباء يصفون الحلوى للاطفال» .

وتدل هذه النبرات الرسائلية على ان حياة آل دوستويفسكى العائلية الهانئة بوجه عام كانت بعيدة عن العيش الرغيد .

فى حديثه عن الهدايا يستند الى الاطباء : فلاجل الاطفال نجده يلجأ الى هيبة العلم . وقد يعنى هذا انه استنفد سائر الحجج . لذا نبيح لانفسنا ان نصدق بقول كوزنتسوف : «لم يكن ف . م . رقيقا جدا مع زوجته ، وهو يصر على رأيه دائما بصلابة» .

وهو يرسل بانتظام معونة نقدية الى صديق له يعانى الفاقة ، دون ان يبلغ زوجته بذلك : لقد كانت لديه بعض الاسرار الصغيرة التى يخفيها عنها .

بيد ان حياته العائلية باسرها كانت تنطوى على سر دفين .

كان لديه ، وهو العامل ليلا ، نظامه الخاص الذى لا ينطبق ونظام الاسرة . انه يقطن فى شقة بلدية متواضعة او فى دار صغيرة من الدور الروسية القديمة ، حيث امكانيات الخلـــوة الابداعية محدودة جدا ، بيد ان نمط حياة اسرته لا ينعكس على عاداته الفردية المستقرة انعكاسا يسبب الارتخاء .

تكتب ابنته : «اننى لم أر والدى قط لا بالروب ولا بالنعل المنزلى . فمنذ الصباح كان يرتدى لباسه اللائق ، لذا نراه فى حذائه الطويل الرقبة وربطة عنقه وقميصه الابيض الجميل ذى الياقة المنشاة» . قد يرتدى بدلـــة قديمة (على انـه يحرص باستمرار على ارتداء ما يصنعه خيرة الخياطين) لكنه كان على الدوام يرتدى ملابس داخلية بيضاء ناصعة كالثلج (الامر الذى انتبهت اليه زوجته فى اول لقاء لهما) . وكان ينظف بدلاته بنفسه . وفى الاصباح كان يرتدى قمصلة بيتية قصيرة .

كان يوم عمله يبتدئ فى وقت متأخر : فى الثانية عشرة او الواحدة ظهرا . اذ كان يـــأوى الى فراشه حين تهم اسرتـــه بالنهوض . تقول ابنته انه كان فى الاصباح يقوم بتماريـــن رياضية ، ثم يغتسل طويلا فى غرفة زينته : «كان يستهلك فى عمليات اغتساله المتقنة قـــدرا كبيرا من الماء والصابـــون والقولونيا» .

كان اثناء الاغتســـال يترنم بأغنيـــة «لا توقظها فـــى الاسحار . . .» على انه كان ينشد هذه الاخيرة حين يكون مزاجه رائقا . أما فى اغلب الاحيان فقد كان فى الدقائق الاولى بعـــد استيقاظه لا يحب الكلام .

كان يقوم شخصيا باعداد الشاى او القهوة لنفسه : وهـــو يفضلهما بتركيز فائق .

يقول كوزنتسوف : «كان يتناول شايه وفطوره بمفرده ، ولم تكن آنّا غريغوريفنا تتجاسر على الدخول حين يتناول شايه وفطوره . وكنت انا ازاول عملى فى غرفة مجاورة لغرفة الطعام . وكان ف . م . يستدعينى صائحا : «بيتيوشكا» او «بييـــر» ، «تعال اشرب شايا» او «اشرب قهوة» ، ثم يصب لى قدحا مركزا

ويقول : «كل واشرب» . فى بادئ الامر لم اتجرأ ، فقال : «ما داموا يستدعونك ، فعليك ان تأتى» — وهكذا كنت اتنـــاول الفطور يوميا مع فيودور ميخائيلوفيتش» ، — يختتم كوزنتسوف قوله فخورا بما حظى به من تقدير .

على ان «بيتيوشكا» البالغ من العمر ١٧ سنة لم يكن محدثه الوحيد بعد نهوضه . ففى اثناء شرب الشاى صباحا بالذات كان دوستويفسكى يهوى التحدث الى الصغار عن همومهم وشؤونهم .

وكان يحضر دائما مآدب الغداء المتأخرة : فالحديث الـذى يدور حولها عام ولا يتجاوز مستوى فهم صغار افراد الاسرة .

ولم يكن لدى دوستويفسكى منزل من منـــازل النسب : فالدار التى اشتراها فى الاعوام الاخيرة كانت «غريبة» وليست موروثة وفى بطرسبورغ كان على الدوام يغير شققه (غيّــــر منها عشرين شقة بالضبط) . وكان حلمه الكبير ان يشتــرى ضيعة و«يشد» نفسه الى الارض . غير ان هذا الحلم لم يكتب له التحقق . ففى غضون تنقلاته فى رحاب الحياة المعادية لــه على الدوام لم يكن ينشدّ ويتعلق الا بالبشر : أقربهم الى نفسه .

انه متأصل فى اسرته تأصلا حقيقيا ، ولا يستطيع فصل ذاته عما اصبح جزءا منه هو نفسه — وليس فقط بالمعنى المعيشى بل وبالمعنى الروحى ايضا .

وحضوره فى اسرته لا يناقض نمط الحياة المنزلية العام . الى جانب ذلك كانت اسرته تقبل كل ميوله الفردية وتراعيهـــا وتحترمها .

كان دوستويفسكى الذى يحب تصوير الناس غير المرتبين صارم الترتيب والهندام فى اعماله . تقول لوبوف فيودوروفنا : «كان مكتبه مرتبا ترتيبا هائـــلا . فالصحف وعلب السجايــــر والرسائل التى كان يستلمها والكتب التى يأخذها للافادة منها — كل هذا كان يجب ان يوضع فى محله . وكان أدنى قدر من الفوضى يستثيره» .

كانت تستثيره حتى بعض التوافه كبقعة ستيارين طارئـة على قمصلته المنزلية : فهى تعيقه عن التركيز ، لذا لا يستطيع الشروع فى العمل قبل ان يزيلها نهائيا .

ان اداءه المتقن لزينته الصباحية وحسن هندامه المنــزلى

والنظام النموذجي على مكتبه - بكل هذا كان دوستويفسكى يبدو وكأنه نقيض لما يصوره من فوضى .

لكن هذه الفوضى تقتحم حياته العائلية ايضا .

فى ١٦ أيار (مايو) ١٨٧٨ توفى ابنهما الاخير أليوشا ، وهو فى الثالثة من العمر . وكانت وفاته مباغتة ، فى نوبة صرع : ولم يسبق ان ظهرت عليه اعراض هذا المرض من قبل . وقال الطبيب الذى فحص الصبى المريض مطمئنا ذويه : ليس هناك أى خطر . لكن دوستويفسكى الذى خرج لتوديع الدكتور عاد «شديد الشحوب» وجثا صامتا على ركبتيه عند سرير ابنه .

وعلمت آنّا غريغوريفنا فى وقت لاحق ، ان الدكتور ابلغ زوجها بأن الصبى بدأ يحتضر .

لقد اذهلته هذه الوفاة بشدة . تقول آنّا غريغوريفنا : «لقد كان يحب أليوشا حبا يكاد يكون جنونيا وكأنه يشعر بانه سيفقده قريبا» . وكان قد حظر على الاولاد الكبار دخول غرفة والدهم بلا دعوة ، بينما كان هذا مسموحا لأليوشا الصغير ، تقول لوبوف فيودوروفنا : «انه كان يصرخ بلغته الطفولية : «بابا ، زيزي» فيترك ابى «عمله ويجلس الصغير على ركبتيه ويخرج ساعته ليقربها من اذن الصبى» .

لقد راعه ان يمرت ابنه بمرض لا يخفى انه ورثه منه . وتمضى آنّا غريغوريفنا الى القول : «ان فيودور ميخائيلوفيتش كان ، كما يستدل من جميع الشواهد ، هادئا وتحمل بشجاعة النائبة التى حلت بنا ، لكننى كنت اخشى من ان ينعكس كبته هذا لالمه الممض كالقدر المحتوم على صحته المتدهورة اصلا» .

انه يبكى «كالامرأة» عندما يموت ابنهما الاول ، لكنه لا ينبس ببنت شفة حين يموت ابنهما الاخير .

ان الطفل لدى دوستويفسكى يشكل على الدوام معيار العدالة البشرية والربانية .

يقول ايفان كارامازوف مخاطبا اليوشا : «اسمع ، اذا كان على الناس جميعا أن يتعذبوا لينالوا بعذابهم هذا الانسجام الابدى ، فما ذنب الاطفال ، قل لى من فضلك ؟»

ويطلق دوستويفسكى اسم ابنه الراحل على بطله الاثير : تقترب الرواية من خاتمتها ، لكن المؤلف لا يعرف بعد انها ستكون روايته الاخيرة .

الفصل الخامس

ازمة السلطة

«لا بد من القيام بشيء»

. . . كان شتاء عام ١٨٨٠ يمر ببطء . وكان كبار موظفي الامبراطورية (رئيس هيئة الوزراء ، مدير الشرطة العام ، وزير الحربية ، الخ .) يجتمعون فى الاماسى فى القصر الشتوى تحت رئاسة الامبراطور نفسه وفى القصر الرخامى (٧٢) عند الامير الاكبر قسطنطين نيقولايفيتش . وكانت حلقة المدعوين ضيقة جدا ، والاجتماعات محاطة بسرية شديدة . وقد امتلأت العاصمة بالاشاعات . ولكن لم يحدث ايما شيء جوهرى .

وكانت تجرى فى وسط ضيق مناقشة المشاريع القديمة والمتواضعة جدا لاصلاح مجلس الدولة . ولكن حتى هذه المحاولة الوجلة لاجراء التطويرات لم تتكلل بالنجاح .

وقد دون ولى العهد الذى كان يحضر الاجتماعات فى مفكرته : «ان كلا المشروعين قد رفض بالاجماع لاسباب عديدة . . ، والسبب الرئيسى هو ان هذا الاجراء لم يحظ برضا احد اذ كان من شأنه ان يشوش قضايانا الداخلية المشوشة اصلا ، وان يكون رغم ذلك الى حد ما خطوة اخرى من بواكير الخطوات نحو الدستور» .

هكذا يعتقد ولى العهد الكسندر الكسندروفيتش .

ويسجل والده المتربع على العرش يوم ٢٩ كانون الثاني (يناير) بنفس القدر من الايجاز فى دفتر ملاحظاته : «اجتماع مع كوستيا (اى الامير الاكبر قسطنطين نيقولايفيتش - **المؤلف**) ومع الآخرين . قررنا الا نفعل شيئا .

وساد الاعتقاد بعد مداهمة المطبعة السرية فى زقاق سابيورنى ان الاجرام قد بدأ بالانحسار .

لكن الانفجار دوى يوم ٥ شباط (فبراير) .

كان للانفجار من القوة ما جعل دويه يفلت من ميدان القصر الشتوى ويتسرب عبر طاق الاركان العامة وينطلق فى جـادة نيفسكى ويـرتطم على الشاطئ الآخر من نهر نيفا بجدران قلعة بطرس وبولص ، ليتردد صداه فى العواصم الاوربية كافة .

كان هذا هو الديناميت .

ولو لم ينس ستيبان خالتورين (٧٣) ، وهو يغادر قبـو القصر الشتوى بعد ان أشعل فتيل العبـوة ، ان يغلق وراءه الباب لاتجهت كل قوة الانفجار نحو الاعلى ، ولبلغ هدفه . ولكن رغم ذلك سقط الكثير من الضحايا : عشرة قتلى وحوالى خمسين جريح من جنود حرس البلاط التابع للفوج الفنلندى ، الموجودين فى غرفة الحرس الواقعة بين القبو وغرفة طعام القيصر .

كان مقررا ان يبتدئ الغداء فى السادسة . لكن الضيف - الامير غيسينسكى - الذى ذهب ابناء القيصر لاستقباله فـى محطة القطار ، لم يصل فى الموعد . وحالف الحظ الكسنـدر الثانى للمرة السادسة : فقد دوى الانفجار عندما تجاوز ارباب البيت والضيوف عتبة غرفة طعام القيصر .

فى اليوم التالى كتب الامير الكسندر غيسينسكى الى زوجته فى المانيا يقول : «لقد ارتفعت ارضية الغرفة وكأن ذلك بتأثير زلزال ، وانطفأ الغاز فى الرواق ، وساد ظلام دامس وانتشرت فى الهواء رائحة بارود وديناميت لا تطاق» .

وفى صالة الغداء ، هوت الثريا على المائدة العامرة مباشرة .

وهرعت عشيقة الامبراطور الاميرة دولغوروكايا صارخة من مخدعها السرى . أما عقيلته الشرعية - الامبراطورة - فلـم تسمع شيئا لانها كانت تغط فى نوم عميق .

وكتبت الصحف مرتاعة : «ديناميت فى القصر الشتـوى ! اعتداء على حياة القيصر الروسى فى عقر داره ! كان هذا اشبه بكابوس . . . اين الحد ومتى توضع نهاية لهذه الوحشية ؟»

وفى الكنيسـة الارثوذكسية فـى باريس حضر ايفـان سيرغييفيتش تورغينيف صلاة عرفان .

لقد صعق الانفجار الجميع : فجسارة منفذيه ، وأبرز ما فى

الامر ، جبروتهم ، قد اشاعا هلعا غريزيا . وابرق السفراء الروس فى الخارج الى بطرسبورغ ، دون ظل من الفكاهة ، باشاعات تتحدث عن عزم المهاجرين الثوريين على تجهيز خمسمائة منطاد محملة بالديناميت للهجوم على العاصمة الشمالية .

وكتب احد معاصرى تلك الاحداث : «ان بامكان المرء حين يرى الانقاض التى خلفها الانفجار ان يقول انها انقاض النظام الملكى فى روسيا» .

وهذا حكم سابق لاوانه بعض الشىء بيد ان التبعات السياسية للكارثة كانت تهدد فعلا بأن تكون اكبر خطرا من الحطام المرئى .

ان العاصمة لم تشهد قط بلبلة كهذه .

كان الناس ينتظرون اعظم الاهوال مع حلول يوم ١٩ شباط (فبراير) . وراحوا يتحدثون عن رسائل يدّعى ان اصحابها هددوا باحراق بطرسبورغ و«باقامة العاب نارية لم تشهدها حتى عهود نيرون» .

وحدث اضطراب كبير فى بنك الدولة : فقد تراءت للبعض ضربات جوفية صماء . فشرعوا فى الحفر حتى بلغوا المياه الجوفية . وراح البوليس يراقب بصرامة ان تكون صهاريج الماء فى البيوت مملوءة : كانوا بانتظار انفجارات فى مصنعى الغاز والخراطيش . وكما يقول احد معاصرى الاحداث ، فان وجوه الناس كانت «تغدو اشحب من الشحوب نفسه» حين يسمعون دويا ما فى الشارع (قبل ١٩ سنة - وفى يوم ١٩ شباط (فبراير) ايضا ، وهو يوم اعلان بيان تحرير الفلاحين - اثار الثلج المنهار من سطح القصر الشتوى الاضطراب فى القصر : فقد تصوروا دوى الانهيار على انه اطلاقة مدفع ، فظنوا : «لقد ابتدأت !») «كان يبدو الجميع وكأنهم يعانون تأثير كابوس مخيف ولا يستطيعون التفكير فى شىء آخر» .

وقبيل حلول ١٩ شباط (فبراير) اعرب الكثير من اهالى بطرسبورغ الموسرين عن رغبتهم فى مغادرة مدينتهم كيما يتسنى لهم ، على حد تعبير مجلة «العصر الحديث» ، «ان يعيشوا احداث هذا اليوم فى مكان بعيد رائع» .

وانتشرت اشاعات تفيد بأن جادة نيفسكى وشارعى مورسكايا

وفورشتادسكايا (٧٤) ملغومة . يقول احد كاتبى المذكرات : «ان هذا الاسبوع المشهود كان ممتعـــا جدا لانه أثار هياج برجوازية بطرسبورغ باسرها . اذ كان الجميع يخافون اما على حياتهم او على ممتلكاتهم» .

فكيف كانت حال دوستويفسكى فى هذه الايام ؟

كانت مثلما هى على الدوام . فمؤلف «الشياطين» العصبى ، المريض ، السريع الانفعال للغاية لم يكن رغم كل ذلك مـــن الجبناء . فنراه يحتفظ برباطة جأش تامة فى لحظة من المفترض ان تكون من لحظات الخطر الفعلى الداهم ، رغم انه يبدو تجسيدا للوعى الآخرى ، ينتظر الجوائح العالمية ويتنبأ تنبؤا رهيبـا بهلاك قريب للحضارة الاوربية .

فى ١٧ شباط (فبراير) كان عيد ميلاده . وجرى الاحتفال به بشكل متواضع ، فى حلقة الاسرة ، ولم تلحظ ايما علائم للبلبلة .

مر يوم ١٩ شباط (فبراير) بهدوء نسبى . ولم تحـدث حرائق او انفجارات . واكتفى بايقاد الزينة الضوئية من الشموع واللافتات والطغريات القيصرية . وطافت الشوارع جموع كثيفة من المتنزهين . يقول احد شهود العيان : «ان الكناسين الذيـن لم يبارحوا اماكنهم كانوا وحدهم يرددون ان شيئا ما معلق فى الهواء ومن المنتظر ان يحدث» . ومر الامبراطور فى شـارع بولشايا مورسكايا فى عربة مغلقة محاطا بطوق كثيف مـــن الحرس القوزاقى . وتعالى هتاف «هورا» طويل . وقالت أمرأة من عامة الناس : «كان سيمر فى عربة مكشوفة ، لكنها غيـــر مناسبة للاوضاع الحالية» .

فهل ينسجم مؤلف «الاخوة كارامازوف» مع هذا «الزمـــن الكئيب» ؟

«فى حالة اندلاع الثورة . . .»

يقول الكونت دى فولان (٧٥) (وهو شخص على ما يكفى من القناعات المحافظة) فــى مؤلفه «صور من الماضى» : «قـال عنه

سوفورين : «انه فوريرى» (٧٦) . وهو محق تماما . فمن يقرأ لدوستويفسكى يشرع فى المطالبة باصلاح جذرى للنظام الاجتماعى ولا يكتفى بالبرلمانية البرجوازية . انما سيطرح المسألة طرحا مباشرا كى لا يكون هناك فقر» .

ان «الاصلاح الجذرى» شيء اكبر من مجرد «الاصلاح» . فهو يقتضى اعادة بناء تامة ليس للعلاقات الاجتماعية فحسب ، انما ايضا للعلاقات الانسانية المحضة .

وينقل دى فولان قول دوستويفسكى بأنه «كان ذات يوم من البتراشفيين ، لكنه شفى منذ وقت طويل ، وبات يكره الآن الثوريين كافة من كل قلبه» . لنفترض ان محدث الكونت قد نطق فعلا بهذا الكلام (كان **بامكانه** تماما ان يقولها) . غير ان علاقات دوستويفسكى مع الثورة الروسية كانت اعقد بما لا يقاس من تقويماته الذاتية .

يكتب الكونت : «فى حالة اندلاع الثورة سوف يلعب دوستويفسكى دورا كبيرا» .

فماذا يقصد صاحب هذا التصريح المذهل حقا ؟ (مهما بدا الامر غريبا فلقد ظل هذا التصريح مجهولا عمليا : فلم يتسن لنا العثور على اى استناد اليه فى المراجع) . اغلب الظن انه لا يقصد به تلك الحالة المغرية بأن يذهب دوستويفسكى شخصيا الى المتاريس ، او ان يذهب – عملا بـ«كرهه» للثوريين – لمقاومة المتاريس . المقصود هو أمر مغاير تماما هو دور دوستويفسكى المركزى فى ذلك الموقف الاخلاقى المقترح الذى يمكن ان تخلقه الثورة الروسية .

انه رجل التطرف ، رجل المسائل المتطرفة ، لذا فهو الذى سوف «تقذفه» الكارثة الاجتماعية ، بالطبع ، الى مقدمة مسرح التاريخ ، وعليه بحكم القدر ان يلقى نفسه فى أتون الاهواء والصراعات الاجتماعية الملتهبة .

ويقصد بذلك ، طبعا ، وفى المقام الاول ، هيبته الروحية الفائقة .

يمضى دى فولان الى القول : «لقد استحوذ على عقول الشباب . فهو يخاطب قلب المرء ويعلى من شأنه ، ووعظه المعاناة والعذاب يلائم مزاج الشبيبة العام اكثر من أى شيء

سواه . ان شيدرين (٧٧) هو فولتيرنا ، اما دوستويفسكى فهو روسّونا ، وسينعكس تأثيره بعد عشرين او ثلاثين عاما» .

ان هذا التنبؤ بالغ الدلالات ، شأنه شأن مقارنة دوستويفسكى بروسو بمقصد المخاض التاريخى . ولكن يحق لنا أن نتساءل عن أمر آخر .

لماذا «موعظة المعاناة والعذاب» بالذات ، أى بالضبط ما يلام عليه دوستويفسكى ، عادة ، هى التى «تلائم مزاج الشبيبة العام» ؟ أليس السبب هو ان هذه الموعظة تتجاوب مع الحاجة الخفية الجامحة التى لا فكاك منها الى «التضحية بالنفس فى سبيل الحقيقة» ، مع ما وصفه دوستويفسكى ، اذا ما تذكرنا ، بأنه «سمة الجيل القومية» ؟

ان قراء دوستويفسكى الشباب ينظرون الى المعاناة والعذاب ليس فقط كوسيلة للتطهر الخلقى الشخصى ، بل وكواجب اجتماعى . ويخلص دى فولان الى القول : «. . . ان تعاليم دوستويفسكى ثورية كتعاليم المسيح ، رغم ان هذه الاخيرة تعطى ما لقيصر لقيصر» .

ان الحكومة الروسية تبدو فى تصور دوستويفسكى ليست اقل ذنبا ممن توجه اليهم ضرباتها التى لا تعرف الرحمة . فالثورة الروسية والرجعية الروسية تنبعان ، فى رأيه ، من منبع مشترك واحد . والسبب الرئيسى لكليهما هو الانقطاع المزمن عن الشعب . وترتب على ذلك ان الاحتراب بينهما لن يفضى الى شىء : انه امر لا طائل تحته لانه لا يستأصل جذر الشر .

دوستويفسكى لا يتعاطف مع الحكومة التى تلجأ الى التدابير الغاشمة بنفس القدر الذى لا يتعاطف فيه مع ضغوط الارهابيين الشديدة الصارمة . انه يرفض القبول باصطراعهما كضرورة تاريخية .

ان دوستويفسكى يضمر حله الخاص للمعضلة .

تعارف فى يوم الاعدام

انقلاب عسكرى

فى ١٥ شباط (فبراير) ١٨٨٠ ظهر فى صحف بطرسبورغ مرسوم تأسيس اللجنة التنفيذية العليا لحماية نظام الدولة والطمأنينة العامة . وكلفت اللجنة بوجوب «وضع حد لعمليات الاغتيال المتكررة بلا انقطاع خلال الآونة الاخيرة ، التى يقوم بها مجرمون اوباش من اجل زعزعة نظام الدولة والنظام العام فى روسيا» .

لقد خرجت الحكومة من صدمتها التى استغرقت اسبوعا بعد الانفجار فى القصر الشتوى . واقيمت ، اخيرا ، الدكتاتورية التى كانت «موسكوفسكيه فيدوموستى» تدعو اليها بلا كلل .

بيد انها كانت دكتاتورية من نوع متميز . وكانت القضية تتلخص فى أسم عـَلـَم ، فقد اصبح الكونت ميخائيل تاريلوفيتش لوريس - ميليكوف رئيسا للجنة التنفيذية العليا .

وقد اجتذب الكونت ، وهو من اسرة ارمنية عريقة وجنرال مقاتل ، وقاهر كارس (٧٨) منذ وقت قريب ، انتباه روسيا ليس فقط بسبب انتصاره هذا . فبعد تعيينه محافظا عسكريا لخاركوف عام ١٨٧٩ ، اتاح له دهاؤه تحاشى اعدام اى شخص فيها (ليس على غرار زملائه فى كييف واوديسا وبطرسبورغ) ، الامر الذى ضمن له اعجاب الليبراليين الذين اذهلتهم هذه الحقيقة .

كانت الصلاحيات الممنوحة له غير محدودة تقريبا . فقد منح سلطة «القيام باصدار كل الاوامر واتخاذ كل التدابير التى يعتبرها ضرورية بوجه عام . . . سواء فى بطرسبورغ او باقى مناطق الامبراطورية» . واصبح قائدا عاما فى مدينة بطرسبورغ . وباتت تحت أمرته الشعبة الثالثة وسلك الشرطة . لقد تحول

هذا «الشخص الطارئ» ، البعيد عن البلاط وغير المعـــروف تقريبا فى الاوساط الحكومية العليا ، الى حاكم فعلى لروسيا . وقد اعترف هو نفسه فى وقت لاحق قائلا : «ان ما من شخص وقتى كانت له مثل هذه السلطة الشاملة» .

فى ١٥ شباط (فبراير) دوّن الجنرال كيـــرييف (٧٩) - نائب الامبراطور - فى يومياته : «انها دكتاتورية مطلقة . ومـا العمل ، فان كان الامبراطور الحالى عاجزا عن تدبير امره مـــع العدميين ، فليقم بتدبيره شخص آخر . ولعل من المحرج ان يقوم الامبراطور باصدار احكام الاعدام» . ثم يكرر الجنرال (بلا تفاصيل) نفس هذه الفكرة فى رسالة الى شقيقته : «ان منـــح لوريس سلطة القيصر تقريبا يعتبر اشبه بالتنازل عن العرش ، ولكن - على صعيد آخر - ما العمل ؟» .

كان تأسيس اللجنـــة التنفيذية العليا اشبه بالانقـــلاب العسكرى «من الاعلى» .

وحرص لوريس - ميليكوف منذ خطواته الاولى على تبيان كونه سيستخدم السلطة الممنوحة له بقدر معين من الحـــذر . وكان نداؤه «الى سكان العاصمة» قد صيغ بنبرة حازمة ، لكنها - فى الوقت ذاته - تلميحية .

فقد اعلن الجنرال : «اننى انظر الى اسناد المجتمع باعتباره القوة الرئيسة القادرة على مساعدة السلطة فى استئناف حيـــاة الدولة بالمجرى الصحيح الذى تتضرر نتيجة توقفه مصالـــح المجتمع نفسه اكثر من أى شيء سواها» .

هذه هى المرة الاولى التى يخاطب فيها المجتمع مخاطبـــة انسانية . علاوة على ذلك ، كانت المخاطبة تنطوى على رجاء . ولم يكن الناس قد اعتادوا مثل هذه اللهجة .

هكذا ابتدأت «دكتاتورية القلب» .

مخاوف وآمال

كيف ، يا ترى . كان موقف دوستويفسكى من هذا الانعطاف الحاد فى حياة الدولة ، ومن لوريس - ميليكوف نفسه ؟

ان اول ما يقلقه هو : فى يد من ستكون الامور . فهو يسائل بالحاح سوفورين («وكأننى اعرف شيئا» ، - يعلق الاخير بتواضع) ، : «هل المحيطون بلوريس اناس جيدون ، وهل من يرسلهم الى المحافظات اناس جيدون ؟ . انه امر عظيم الاهمية . فالناس الجيدون موجودون ، والاختيار متاح» .
ان ما يقلق دوستويفسكى ، مثلما هى الحال دائما ، ليس الشكل بل الجوهر ، أى الجانب الانسانى المحض من المشكلة . وليس من المهم كثيرا بالنسبة اليه ان تكون هذه او تلك من القرارات جيدة او رديئة : فهو يريد ان يعرف **من** سيقوم بتطبيقها فى واقع الحياة .

انه يشعر بما يمكن ان يوصف بالقلق التاريخى . انه يرغب فى التيقن من الاهلية التاريخية لقائد الدولة الجديد ، ومن عمق فهمه القائم على المراجعة للحياة الروسية . فلا يتخلف دوستويفسكى عن سوفورين فى التساؤل : «أهو يعرف لماذا يجرى كل ذلك ، أيعرف الاسباب معرفة راسخة ؟ . .» .

بعبارة اخرى : أيفهم لوريس رسالته بالمعنى التقريبى المباشر فقط ، أى كمكافحة مباشرة للاجرام ، أم تراه يحوز القدرة على التعمق فى الامور وادراك المشكلة التى يهاب به ان يعالجها ، ليس فى مقولات التفكير المألوف ، الدارج ، البيروقراطى المحض ، بل فى سياق مجمل التاريخ الروسى . «فهم يريدون عندنا أن يروا مجرمين فى كل شى» . - يضيف دوستويفسكى بغيظ ، ويبدو ان انفعاله فى هذه الحالة موجه ضد من يفترض اجتثاث الجريمة نفسها بمجرد اجتثاث «المجرمين» .

رغم ذلك ، وبصرف النظر عن كل مخاوفه وتحفظاته ، كان يعقد الامل . «اننى أتمنى له (للوريس - ميليكوف - **المؤلف**) كل الخير والنجاح . . .» .

فى ٢٠ شباط (فبراير) ، كما يفيد سوفورين ، «كان منشرح الاسارير بشكل غير مألوف» . ويؤكد ناشر «العصر الحديث» الذى مكث عنده ساعتين انه «كان فرحا بالهدنة» (هكذا بالضبط كان يفهم الاحداث الاخيرة !) ، وينظر بتفاؤل كبير الى المستقبل : «سوف ترى ، أن عصرا جديدا سيبتدئ . انا لست نبيا ، لكنك سترى . ان نظرة الجميع اليوم باتت مغايرة» .

هذا ما يقوله سوفورين فى مذكراته . ولنعد الآن الى ما دونه فى يومياته عن تلك الاحداث .

فى ٢٠ شباط (فبراير) قام سوفورين بزيارة الى دوستويفسكى . «كان يشغل شقة بائسة . وجدته جالسا الى طاولة مستديرة فى غرفة الضيوف ، ومنهمكا بتعمير السجائر . وكان وجهه اشبه بوجه رجل خرج توا من الحمام ، او بارح توا المسطبة التى كان يتحمم فوقها . كان يبدو وكأنه يحمل بصمات التعرق . واغلب الظن اننى لم اتمكن من اخفاء دهشتى ، لانه بادرنى حين رآنى وبادلنى التحية قائلا :

– كنت منذ قليل فى نوبة المرض . أنا سعيد ، سعيد جدا .

ثم واصل حشو سجائره» .

وبطبيعة الحال ، دار الحديث عن الانفجار الاخير فى القصر الشتوى (لم يكونا قد علما بعد بمحاولة الاغتيال اليوم) . «عند مناقشة هذا الحدث توقف دوستويفسكى عند موقف المجتمع الغريب من هذه الجرائم . فالمجتمع يبدو وكأنه يتعاطف معها ، او الاقرب الى الحقيقة انه لم يكن يعرف جيدا كيف ينظر اليها» .

ولننتبه الى ان الحديث يتعلق بالتقدير الخلقى للاحداث .

المسيح والديناميت

«قال : – تصور اننا نقف معا عند نوافذ مخزن داتزيارو ونتطلع الى واجهاته . وبقربنا يقف شخص يتظاهر بالتطلع . انه ينتظر امرا ما ويتلفت حواليه . وفجأة اقترب منه على عجل شخص آخر وقال له : «سوف ينسف الآن القصر الشتوى . لقد ادرت محرك السيارة» . ونحن نسمع هذا الحديث . تصور اننا نسمع هذا الحديث ، وانهما مهتاجان بحيث لا يقدران تناسب صوتهما مع الاحداث . فماذا كنا سنفعل ؟ هل كنا سنتجه الى القصر الشتوى للتحذير من الانفجار أم سنراجع البوليس ، سنراجع عريف البلدة (٨٠) كي يلقى القبض عليهما ؟ أكنت ستفعل ذلك ؟

– كلا ، لن افعل . . .

— وانا ايضا . لماذا ؟ لانه امر هائل . انه جريمة . ربما كان بوسعنا ان نحذر» .

يكتب احد الباحثين السوفييت : «لو قارنا تردد دوستويفسكى هذا بموقفه النزيه والشجاع للغاية فى اثناء الاستجوابات السياسية عام ١٨٤٩ ، لكان علينا أن نأسف لانحطاط الخلق الاجتماعى لهذا الروائى العظيم» .

من الجدير بنا ان نحذر من تقديم مثل هذا الاستنتاج الحازم ، ذلك أن «التردد» يدل على عكس ذلك تماما : اى على مدى الاهتمام الحار المكثف بمعضلات «الخلق الاجتماعى» بالذات .

لقد تصرف دوستويفسكى فى عام ١٨٤٩ بالفعل تصرفا نزيها وشجاعا : لقد تصرف وفق ما تمليه عليه قناعاته . ولم يش بأى من رفاقه ، ولم يتبرأ من أى شىء كان يؤمن به ايمانا صادقا .

اما الآن ، فى عام ١٨٨٠ ، فهو «ينمذج» موقفا اخلاقيا مغايرا تماما ، وبالتحديد : كيف يجب التصرف تجاه الخصوم السياسيين فى لحظة خطر الموت المزدوج ، الخطر — أولا — بالنسبة لهم انفسهم ، وثانيا — بالنسبة للآخرين (ومن ضمن ذلك ليس فقط بالنسبة للقيصر : ان الـ١٠ قتلى والـ٥٠ جريحا من جنود الفوج الفنلندى ليسوا بالكمية الضئيلة فى شروط هذه المسألة التى يضعها الكاتب امام نفسه) .

يجرى تناول احتمالين : مجرد الذهاب «للتحذير» . كى يصار بذلك الى تفادى الانفجار وهلاك الناس ، او مراجعة «عريف البلدة» كيما يلقى القبض على المجرمين .

ويجرى رفض كلا هذين البديلين فى التفكير .

هنا يجدر بنا ان نعود مرة اخرى الى الجدل الذى خاضه قبيل وفاته مع كافيلين .

لقد اوردنا آنفا ما دونه الكاتب عن ان المفتش الذى «يقوم باحراق الهراطقة» حسب ما تمليه عليه قناعاته لا يجوز اعتباره انسانا ذا اخلاق حميدة . وبعد بضع صفحات يعود دوستويفسكى مجددا الى هذا الموضوع .

«انت لا تعتبر اراقة الدم امرا اخلاقيا ، لكنك تعتبر اراقة

الدم حسب ما تمليه القناعة امرا مسايرا للاخلاق . ولكن ، عن اذنك ، لماذا تعتبر اراقة الدم أمرا منافيا للاخلاق ؟»

هذه هي المعضلة الاخلاقية لروديون راسكولنيكوف .

وبالفعل : اذا كانت «اراقة الدم حسب ما يمليه الضمير» (أي عملا بالقناعة الداخلية) أمرا مسموحا به (وهذا ما يعتقده راسكولنيكوف) ، فمن المسموح به مبدئيا أن تجرى أية اراقة للدماء ، ذلك أن المرء يستطيع على الدوام ان يجد «قناعات» مناسبة . فالقتل يمكن ان يبرر باعتبارات الجدوى القصوى ، لكن القتل بحد ذاته لا يغدو فى نتيجة ذلك فعلا اخلاقيا .

«ان الخلقى ، – يسجل دوستويفسكى ، – هو فقط ما ينطبق مع احساسك بالجمال وبالمثال الاسمى الذى تجسد فيه هذا الجمال» .

ان الجانب الجمالى هو الذى اهلك راسكولنيكوف : فعندما تجاوز العتبة الخلقية ، تعثر بها بالذات – الفى نفسه «قملة جمالية» . وألم مصير مماثل ايضا بستافروغين فى رواية «الشياطين» («ان القبح قاتل ، – همس تيخون خافضا طرفه» ، – بعد ان اصغى للاعتراف عن ماتريوشا) .

ان الاخلاقية التى لا تنطبق مع المثال الاسمى للجمال تهدد مشايعها بالابادة الذاتية .

«ان المثال الاسمى والنموذج الاخلاقى لدىّ واحد هو المسيح ، – نورد مرة اخرى ما سجله الكاتب فى دفتره الاخير . وانا اتساءل : هل كان سيحرق الهراطقة ؟ ، – كلا . معنى هذا ان احراق الهراطقة يعتبر عملا منافيا للاخلاق» .

وهو يضع امام هذه العبارة ، على الحاشية ، علامة « λβ » ، ثلاث علامات زائد وعلامتى تعجب .

فى جداله مع كافيلين يستخدم دوستويفسكى أمثلة تاريخية . فأحراق الهراطقة هو عصر المفتش الاكبر ، «ليل القرون الوسطى» . ولكن تتوفر لديه امثلة اكثر حداثة ايضا .

يسجل دوستويفسكى ما يلى : «عفوكم ، اذا كنت (أرغب) حسب ما تمليه قناعتى ، فهل يعقل اننى انسان يتحلى باخلاق حميدة ؟ إني انسف القصر الشتوى ، فهل هذا من الاخلاق بشيء؟»

لنقم بتجربة في ذهننا . ولنحاول ان نطبق على هذه الحالة نفس المعيار الذى يستخدمه دوستويفسكى نفسه .

المسيح ينسف القصر الشتوى – انه أمر يبدو مروعا .

ولكن ، هل يبدو افضل كثيرا منه المسيح الذى يشي الى البوليس بمن يقوم بنسفه ؟

يتضح ان هذه المعضلة تستعصى على الحل .

يقول دوستويفسكى فى حواره مع سوفورين انه قلّب ذهنيا كل الاسباب التى من شأنها ان تدفعه على الوشاية بمدبرى الانفجار . «انها اسباب وجيهة وحصيفة ، ثم راجعت الاسباب التى من شأنها ألا تسمح لى بذلك . واتضح ان هذه الاسباب تافهة تماما . انه مجرد الخوف من ذيوع صيتى كواش» .

باعتقادنا أن دوستويفسكى فى الحالة الاخيرة يكتم بعضا من الامر . فالاسباب التى «لم تسمح له» بذلك لم تكن كلها «تافهة» .

لقد ورد فى نفس الدفتر الذى اقتبسنا منه ما يلى : «. . . احيانا ، يكون من الاكثر مسايرة للاخلاق أن لا يتبع المرء قناعاته ، وبامكان المؤمن ان يحتفظ بقناعته تماما ، ويمتنع عن تلبية شعور ما ، ولا يرتكب الفعل» .

ان الوشاية – حتى اذا كانت مناسبة للقناعات – لا تغدو فى نتيجة ذلك قيّمة جماليا . و«جمال» الخيانة لا يعوض عن «قباحة» القتل .

فكيف كان يجب ان يتصرف المسيح (او أليوشا كارامازوف ، وهو امر أيسر لنا ان نتصوره) ، لو الفى نفسه عند مخزن داتزيارو ؟ هل كان سيقوم شخصيا بالقبض على المجرمين أم يستدعى عريف البلدة ، اى ان يشرك «قيصر» فى القضية ؟ أم يندفع نحو القصر الشتوى ويلقى حتفه مع مدبرى التفجير ؟

لم يكن ثمة مخرج من هذا الوضع .

«لو قدر لى القيام بذلك لما غفر لى الليبراليون . كان من شأنهم ان يسومونى سوء العذاب وان يرمونى فى احضان اليأس» ، – هكذا ينقل سوفورين قول دوستويفسكى . هنا يطرح سبب خارجى ، وغير رئيس من حيث الجوهر . الارجح

ان ضمير الكاتب ، أى التردد الاخلاقى ، كان بمقدوره ان يرميه «فى احضان اليأس» .

ولكن ليس من المصادفة ان يأتى الكاتب على ذكر الليبراليين . فموقف المجتمع الليبرالى من الارهاب السياسى قد وفّر بازدواجيته الذريعة لتذكر سلوك ايفان كارامازوف الذى غادر قبيل اغتيال ابيه الى تشيريماشنيا . ان مثل هذا الموقف الخلقى لا يطاق بالنسبة الى دوستويفسكى . ولكن ما لا يطاق ايضا ، كما اسلفنا ، هو فكرة احتمال الوشاية السياسية (التى لا تنطبق بتاتا مع «الاحساس بالجمال») .

لذا تبقى مسألة تقرير المصير الاخلاقى الشخصى مفتوحة .

. . . فى تلك الساعات التى كان دوستويفسكى يتجاذب خلالها اطراف حديثه الطويل مع ناشر «العصر الحديث» ، لم يكونا قد علما بعد بأن شوارع بطرسبورغ تشهد أمرا له علاقة مباشرة بحوارهما الجارى .

فتح النار على الدكتاتور

فى حوالى الساعة الثانية من ظهر يوم ٢٠ شباط (فبراير) كان الكونت لوريس-ميليكوف عائدا الى داره . توقفت عربة رئيس اللجنة التنفيذية العليا عند زاوية شارعى بولشايا مورسكايا وبوتشتامتسكايا ، عند البيت الذى يقطن فيه الكونت . واستعد عرفاء البلدة الواقفون عند مدخل البيت اداء للتحية . وكاد ميخائيل تاريلوفيتش يعتلى طنف الدار ، وعلى حين غرة ، كما جاء فى تقارير الصحف ، «برز شخص ممزق الاسمال ، قذر الهندام ، من الجانب الايمن واندفع باتجاه الكونت ، ثم دس مسدسه فى خاصرته اليمنى ، فى موضع اقرب الى الفخذ . . . واطلق النار ، ثم رمى المسدس من يده على الفور» .

لم يصب لوريس-ميليكوف حتى بجرح . ولم ير الجنرال المقاتل ممكنا الهرب من أرض المعركة .

وكتبت الصحف : «ان الكونت . . . لم يفقد قط رباطة جأشه ، بل القى معطفه وقفز الى الرصيف لأجل القبض على

المجرم» . لكن هذا كان قد القي القبض عليه : واقترن القاء القبض ، طبعا ، بالضرب . واتجه الكونت الى داره بعد ان قال للحاضرين مازحا ان الرصاص يعجز عن اصابته . وجرى تقييد المجرم وسوقه : فى ابان ذلك طلب هذا تزرير سترته كى لا يصاب بالبرد .

اتضح ان المعتدى فى الرابعة والعشرين من العمر ، ويدعى ايبوليت اوسيبوفيتش ملوديتسكى ، من فئة الكسبة فى محافظة مينسك ، وهو يهودى معمّد .

لقد قام ملوديتسكى بعمله على مسؤوليته : بمعنى ان منظمة «ارادة الشعب» لم تصادق على هذا التصرف . وكان الفاعل يروم توجيه ضربته يوم ١٩ شباط (فبراير) بالذات ، لكنه ارجأ التنفيذ يوما واحدا ، لأنه لم يكن يعرف لوريس-ميليكوف بالوجه .

عوضا عما كان منتظرا فى ايام الاحتفالات اليوبيلية من انفجارات وحرائق وغيرها من النوائب المريعة ، دون رصاصة واحدة فقط ، وحتى هذه الرصاصة اليتيمة لم تصب هدفها .

رغم ذلك ترك الحدث انطباعا قويا للغاية فى روسيا وفى الخارج على السواء .

تقول كاتبة الروايات الرائجة س . سميرنوفا فى يومياتها : «ان الصحف الاجنبية تفيد بأن رصاصة ملوديتسكى قد كلفت روسيا ١٢ مليونا . وتذكر ايضا أن مسألة سقوط عائلتنا * لم تعد سوى مسألة وقت . توقعات نشوب ثورة فى روسيا بنافد الصبر ؛ رسوم فنطازية تصور الانفجارات والقاء القبض على العدميين» .

وكتبت الصحف الاجنبية عن سقوط العائلة اما الصحف الروسية فقد راحت تنحو باللائمة على البوليس لتريثه : «لقد تكررت القصة المعروفة مع رجال البوليس : فقد قاموا باداء التحية فى حين كان عليهم ان يقبضوا على المجرم وان ينتبهوا الى من كان على مقربة منهم» .

فكيف كان موقف دوستويفسكى من الحدث ؟

---

* يقصد بها العائلة المالكة — **المترجم** .

يفيد سوفورين : «ان محاولة اغتيال الكونت لوريس – ميليكوف قد كدرت مزاجه . وكان يخشى ردود الفعل . «لا سمح الله اذا جرى انعطاف نحو المسلك القديم» .

لو امعنا التفكير لوجدنا هذه الافادة كثيرة المداليل . فهي ترينا ما الذى كان دوستويفسكى يخشاه بالدرجة الاولى . بطبيعة الحال ، انه لا يؤيد عمليات الاغتيال ، بيد ان استياءه فى هذه الحالة موجه ليس نحو المجرم ، بقدر ما هو موجه نحو الصفة غير المناسبة (بشكل واضح) للفعل الذى اقترفه . انه يخشى التبعات ، يخشى الاعمال الجوابية من قبل السلطات ، ويتحدث عن الدور الذى يمكن ان يلعبه (ولا يزال يلعبه ، كما نعلم) الارهاب السياسى : كمقدمة لمد رجعى سياسى .

ولكن ، هناك ايضا جانب آخر ، لم يجر الانتباه اليه من قبل .

يقول سوفورين فى مذكراته : «فى ابان الجرائم السياسية عندنا كان يخشى خشية شديدة حمام الدم ، حمام الدم الذى يقيمه الشعب الذى سيكون المنتقم للمتعلمين من الناس .

ويقول :

– انت لم تر ما رأيته . وانت لا تعلم ماذا يمكن ان يفعله الشعب حين يغضب . لقد شهدت احداثا فظيعة ، فظيعة حقا» .

ربما ينبغى ان تعزى هذه المخاوف ، هى الاخرى ، الى مخيلة دوستويفسكى المعتلة ؟

ولكن اليكم ما قاله فى تلك الايام من شباط (فبراير) مراقب محايد وحاضر الذهن كالكونت دى فولان . «لقد مر هذا الاسبوع (يقصد الاسبوع الذى سبق يوم ١٩ شباط – **المؤلف**) بهدوء ، لكنه ترك اثرا فى عقول الناس ، كما لم يمر دون أثر فى حياة الناس التاريخية . . . الحرية والقيصر – ذلكم ما تكوّن فى عقولهم . سادة القوم هم من يرغب فى اغتيال القيصر لانه اعطى الحرية . وهذه البذرة التى القتها يد مقتدرة قد ينبت منها شبح غول رهيب . . .»

شبح الثورة المضادة .

ويمضى دى فولان الى القول : «. . . ان ثمة دمدمة صماء تشيع بين اوساط الشعب بأن جريرة الانفجار (فى القصر الشتوى

- **المؤلف**) تقع على الوجهاء والسادة ، وبأن عمال المصانع سوف يقلبون بطرسبورغ رأسا على عقب ، وسيقومون بضرب كل من يرتدى الزى الالمانى (٨١) . . . والجميع يتصورون مدى الغضب الذى سيستولى على الشعب» .

«انت لا تعلم ماذا يمكن ان يفعله الشعب حين يغضب . . .» ، - هكذا يرد دوستويفسكى على الاحداث .

فعن أى عنف يدور الحديث ؟

هذا ليس فقط رفضا لما أسماه بوشكين بـ«التمرد الروسى العبثى والعديم الرحمة» ، وليس فقط نفورا طبيعيا من الطوارئ الدموية العمياء .

ان هذه الكلمات تنطوى على رعب فى مواجهة الاستفزاز فى مواجهة الارهاب الابيض ، العفوى او الموجه من الاعلى ، فى مواجهة فانديا (٨٢) .

اجل ، لقد كان دوستويفسكى معارضا للتدابير الثورية . بيد ان مؤلف «الشياطين» كان يخشى الثورة المضادة بقدر لا يقل عن خشيته من الثورة .

«لا سمح الله اذا جرى انعطاف نحو المسلك القديم» .

«المسلك القديم» المطوق بصف طويل من المشانق هو ما جرى الانعطاف نحوه نهائيا بعد عام واحد على ١ آذار (مارس) . الا ان دوستويفسكى لم يشهد هذا الانعطاف .

على ان مشنقة واحدة كانت قد نصبت .

شاهد الاعدام

كانت محاكمة ملوديتسكى سريعة . ففى مساء اليوم ذاته ، اى ٢٠ شباط ، انتهى التحقيق . وفى العاشرة والنصف من صباح اليوم التالى مثل المتهم امام محكمة الدائرة العسكرية لسانت - بطرسبورغ التى اصدرت حكمها فى الواحدة ظهرا . وفى ٢٢ شباط اعدم ملوديتسكى .

وحضر دوستويفسكى الاعدام .

فما هى الدوافع التى حملته على القيام بذلك ؟ وما الذى حمله على النهوض فجرا (هو الذى اعتاد العمل ليلا والاستيقاظ فى وقت متأخر) ، والتوجه قبل ان يشفى بعد من نوبة الصرع الاخيرة الى حقل سيميونوفسكويه ليحضر الاعدام ويراه ويغدو **شاهد عيان** له ؟

فى ٢٦ شباط (فبراير) ، اى بعد اعدام ملوديتسكى بأربعة ايام ، سجل الامير الاكبر قسطنطين قسطنطينوفيتش فى دفتر يومياته انطباعاته عن الامسية التى اقيمت عنده - «بحضور دوستويفسكى ولفيف من السيدات» .

يقول ق . ر * المقبل : «بما اننى كنت اتحرج من استقبال السيدات فى منزلى ، قامت الماما (٨٣) بدعوة الضيوف الى جناحها المخصص للاستقبال ، اما هى نفسها فلن تحضر ، بالطبع ، بسبب مرضها .

. . . ابتدأت الامسية فى الساعة التاسعة ، من المكتب القرمزى الركنى ، وكانت امسية ناجحة جدا . وقمنا خلالها ، على حد تعبير ليف تولستوى ، بتقديم دوستويفسكى الى محبيه كصحن طعام فاخر» .

فى هذا الجو البلاطى الانيق فتح دوستويفسكى بحضور سيدات المجتمع الراقى باب حديث لا يليق بالحضور بتاتا : عما رآه **هناك** .

ويذهب رومانوف الشاب الى القول : «لقد ذهب دوستويفسكى لمشاهدة اعدام ملوديتسكى . ولم يعجبنى هذا الامر . ولو كنت محله لكرهت ان اكون شاهد مثل هذه القضية اللاانسانية . لكنه اوضح لى انه كان معنيا بكل ما يتعلق بالانسان واوضاع حياته وافراحه وآلامه . واخيرا ، ربما كان يرغب فى ان يرى كيف يقتاد المجرم الى الاعدام كى يعيش مرة اخرى ذهنيا انطباعاته الشخصية . كان ملوديتسكى يتطلع حواليه وتبدو عليه اللامبالاة . وقد فسر فيودور ميخائيلوفيتش

---

* ق . ر . - تحت هذا الرمز المستعار نشر الامير الاكبر قسطنطين رومانوف قصائده الشعرية .

ذلك بأن الانسان فى مثل هذه اللحظات يسعى الى طرد فكرة الموت ، وترد على باله فى الاغلب مشاهد مفرحة ، وينتقل الى بستان حياتى ملىء بالربيع والشمس . وكلما اقتربت النهاية ، اصبح تصور الموت الذى لا مفر منه اكثر الحاحا وايلاما . ان الالم المقبل وعذاب الاحتضار ليسا مخيفين : المخيف هو الانتقال الى تشخص مجهول آخر . . .»

ان حفيد نيقولاى الاول ، قسطنطين قسطنطينوفيتش ، يسوق كلمات دوستويفسكى نفسه ، وينقل انطباعاته . ونحن نرى ان محدث الامير الاكبر صريح معه بما فيه الكفاية . ولكن ، من الواضح انه يفضل التزام الصمت بشأن بعض الامور مما شاهده .

فلنحاول استحضار الصورة بأكملها .

انتشرت اشاعة اعدام ملوديتسكى قبيل حلول مساء يوم ٢١ شباط : ونقول اشاعة لأن صحف الصباح لم يتسن لها الاخبار عن الاعدام المقبل . بينما كان النجارون يزاولون عملهم فى ساحة عرضات سيميونوفسكويه .

وفى ٢١ شباط ، واغلب الظن قبل بواكير الانباء عن الحكم الذى اصدرته المحكمة (او على الاقل قبل الاعلان عن موعد ومكان الاعدام) كتب غارشين (٨٤) البالغ من العمر ٢٥ سنة رسالة موجهة الى لوريس-ميليكوف .

يقول الكاتب الشاب مخاطبا الدكتاتور : «يا صاحب المعالى ، اغفر عن المجرم ! ان فى سلطتك ان تتجنب قتل حياته الانسانية . . . تذكر جثث الخامس من شباط الممزقة . تذكرها ! ولكن تذكر كذلك ان الافكار ، الكاذب منها والصادق لا تغيرها المشانق والاشغال الشاقة ، ولا الخناجر والمسدسات والديناميت ، لكن ما يغيرها هو آيات افكار الذات الخلقى . فأغفر لرجل حاول اغتيالك ! وبذا ستعدم ، او بالاصح ، سوف ترسى بداية اعدام **فكرته** التى ارسلته الى القتل والموت ، وبذا ستجهز تماما على القوة الاخلاقية لمن وضع فى يده المسدس الذى صوبه أمس الى صدرك الكريم» .

لقد علم غارشين بموعد تنفيذ الاعدام قبل ان يبعث برسالته . لذا نراه يضيف ما يلى : «لقد بلغ سمعى الآن ان

الاعدام سيتم غدا . أيعقل ذلك ؟ يا صاحب السلطة والعزة ! اتوسل اليك فى سبيل هذا المجرم ، فى سبيلى وسبيلك ، فى سبيل الامبراطور ، فى سبيل الوطن والعالم باسره ، فى سبيل الله» .

لم تكن هذه حتى صرخة ، بل هى ولولة روح ريعت واستولى عليها الهلع .

يصعب القول اذا ما كان دوستويفسكى قد علم يوما مـا بهذه الرسالة . ولكن كان بوسعه ان يعلم بأمر آخر هو الاحداث التى وقعت بعد ارسال رسالة غارشين وما لبث ان ذاع صيتها فى الاوساط الادبية .

فى ليلة ٢٢/٢١ شباط اتجه غارشين (الذى يبدو انه شك فى مدى تأثير رسالته) الى دار لوريس-ميليكوف مرتديا معطفا من الفراء «باذخا» مستعارا ، وتم استقباله ، على الرغم من تأخر الوقت .

. . . اى حديث دار بينهما – ذلك ما لا يعلمه احد . فثمة رواية تفيد بأن غارشين جثا على ركبتيه منتحبا ، وراح يتوسل الى لوريس-ميليكوف ان يصفح عن ملوديتسكى ، ورواية اخرى تدعى انه هدده قائلا انه اخفى تحت اظفاره فقاقيع تحوى سما ، ولا يكلفه شيئا ان يخدش الكونت فيبعث به الى العالم الآخر .

لقد افلح لوريس-ميليكوف الجميل المعاملة ، الذى يجيد كسب عطف الآخرين ، فى تهدئة غارشين ، فعاد هذا الى منزله آملا ان الجنرال القادر على كل شىء سوف يتخذ اجراء ما . وفى تلك الاثنـــاء كانت الاستعدادات الاخيرة على وشك الانتهاء فى حقل سيميونوفسكويه .

. . . اخذ الناس بالتجمع منذ السابعة صباحا : وقـــدرت الصحف عدد المتجمعين بحوالى «ستين الفا» . وشغل النـــاس سطوح المنازل والاهداف العالية فى ميدان الرمى بساحـــة سيميونوفسكويه ، بل واعتلوا حتى سقف عربات سكة حديـد قرية القيصر .

كانت المشنقة المصنوعة من ثلاث عوارض وعمود العـــار المنصوب بجنبها مصبوغين – حسب الاصول – باللون الاسود . وعلى مقربة منهما اقيمت منصة لممثلى السلطة الذين لم يتريثوا

فى المجىء ، وهم : رئيس البلدية زوروف ، وموظفو محكمة الدائرة العسكرية وغيرهم من المسؤولين .

واصطفت فى مربع حول المشنقة اربعة كتائب من حرس المشاة يتقدمها فصيل من قارعى الطبول . ومن جهة المربع الخارجية اصطفت سرية من خيالة الشرطة .

كان على المشهد العام (باستثناء بعض التفاصيل) ان يذكر بيوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ .

. . . فى الشتاء الماضى كان دوستويفسكى ضيفا عند بولونسكى (٨٥) القاطن فى شقة على زاوية شارعى نيقولايفسكايا وزفينيغورودسكايا ، تطل على ساحة عرضات سيميونوفسكويه .

«اقتاد صاحب البيت بنفسه دوستويفسكى الى النافذة المشرفة على ساحة العرضات وسأله :

— اتعرفها ، يا فيودور ميخائيلوفيتش ؟

انفعل دوستويفسكى من القلق . . .

— اجل ! . . اجل ! . . كيف لى ان لا اعرفها ؟ . .»

بعد مضى سنوات طويلة سجلت آنّا غريغوريفنا عند هذا الموضع من رواية «الابله» ، حيث توصف عملية الاعدام ، الملاحظة التالية : «بالنسبة لفيودور ميخائيلوفيتش كانت شديدة الوطأ للغاية ذكرياته عما عاناه ابان تنفيذ الحكم الصادر عليه فى قضية بتراشيفسكى ، وكان نادرا ما يتطرق الى هذا الموضوع . رغم ذلك تسنى لى ان اسمع ثلاث مرات هذه القصة ، وبما يكاد يكون نفس العبارات التى نقلت بها فى الرواية» .

وسمع ضيوف بولونسكى احدى هذه القصص .

« — البرد ! . . كان البرد فظيعا !! وهذا ابرز ما فى الامر . اذ لم يكتفوا بخلع معاطفنا ، بل خلعوا سترنا ايضا . . . بينما الصقيع كان عشرين درجة تحت الصفر .

يؤكد شاهد عيان كان حاضرا فى الساحة وقتذاك ، يوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ ، ان دوستويفسكى «لم يكن شاحب الوجه ، وقد اعتلى منصة الاعدام بما يكفى من السرعة ، واغلب الظن انه كان متعجلا اكثر مما كان منسحقا» . بل وحتى كان متحمسا ، كما يفيد شاهد آخر : «قال مخاطبا سبيشنيوف

بالفرنسية : «سوف نكون مع المسيح» . فأجابه هذا بالفرنسية ساخرا : «سنكون حفنة من رفات» .

في اثناء تلاوة الحكم بزغت كرة الشمس الحمراء من خلال حجب الضباب الزمهريري ، وتلألأت اشعتها على قباب كنيسة سيميونوفسكايا . قال دوستويفسكي مخاطبا دوروف (٨٦) : «لا يعقل ان يعدمونا» . فأشار هذا بيده صامتا الى عربة مغطاة بقماش هُباية : كان يظن انها تحمل توابيت (بعدئذ اتضح انها تحمل ملابس المحكومين) .

. . . في ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٨٠ لم يكن ثمة زمهرير :

كان الصباح رماديا كئيبا وموحلا . وكان الناس ينتظرون بتمهل . في اليوم التالي كتبت مجلة «الصوت» : «كانت مئات المسطبات والكراسي والصناديق والبراميل والسلالم تشكل ما يشبه الاصطفاف المربع حول القوات . . .» . وقد زعم احد شهود الاعدام ، وكان قد جلب معه ناظورا ، وبالتالي قد تسنى له ان يرى التفاصيل جيدا ، ان «الجمهور المتأنق» كان قليل العدد ، وان «هؤلاء المتفرجين كانوا اكثر عددا في الصفوف الاولى» .

كان دوستويفسكي موجودا في الساحة .

ربما يكون قد تاه بين جمهرة العامة من الناس ، وربما كان بين «الجمهور المتأنق» ، اي اقرب الى منصة الاعدام . وهذا في آخر الامر ليس بالكثير الاهمية . فالمهم امر آخر هو : **لماذا** كان هناك .

فضلا عن الاسباب الظاهرة جدا التي اقتادته الى هذا المكان المعروف اليه بهذا القدر ، وفضلا عن رغبته في «ان يرى كل ما يتعلق بالانسان وكل اوضاعه في الحياة» ، من يدري ، ألم يكن هناك سبب آخر ، خفي ؟ ألم يبرق في ذهنه أمل جنوني : ان الاعدام سوف يوقف في الدقيقة **الاخيرة** ؟

فلقد كانت هناك مسوغات لمثل هذا الامل .

قبل ذلك – في غضون القرن الجاري باسره – لم تشهد بطرسبورغ سوى عمليتي اعدام علنيتين (من مجموع اربع عمليات تم تنفيذها) : في ٣ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٦ اعدم كاراكوزوف شنقا ؛ وفي ٢٨ أيار (مايو) ١٨٧٩ اعدم صولوفيوف

(اما الديسمبريون ودوبروفين فقد اعدموا خفية فى القلعـــة) .
بيد ان العاصمة حفظت كذلك فى ذاكرتها جيدا مسرحيتى اعدام .
وكان دوستويفسكى ضحية اولاهما .

جاء فى سيناريو اعدام البتراشيفيين المصادق عليـه من قبل صاحب الجلالة : عند الخروج من العربات يجب ان يستقبلهم القس بحلة الدفن والصليب والكتاب المقدس ، وان يقتادهـم وهو محاط بالحرس على امتداد الجبهة ، ثم امام الجزء الوسطى من الحرس» .

سيقول دوستويفسكى فيما بعد : «لا يعقل ان يمكنهم المزاح حتى مع الصليب !» . يتضح انهـم **تمكنوا** من ذلك : لقد ادى القس دور الممثل الثانوى الصامت .

تحت قرع الطبول الذى يمزق الهواء الزمهريرى خلعوا عنهم «ملابس السجن» والبسوهم اثوابا طويلة بيضاء .

وورد فى السيناريو ايضا : «ويقتاد الى الاعمدة المجرمون : بتراشيفسكى ومومبيللى وغريغورييف معصوبى العيون . وبعد شد وثاق المجرمين الى الاعمدة يتقدم صوب كل منهم لمسافـة ١٥ خطوة ١٥ جنديا ، وبحضور نواب الضباط ، ببنادق معبأة . ويبقى المجرمون الآخرون تحت الحراسة» .

دوى ايعاز «التسديد» فرفع الجنود بنادقهم . ولـــم يبق سوى ايعاز «إرمِ !» .

لم تنطق الا هذه الكلمة القصيرة ، اما باقى الطقوس فقد نفذت بالكامل .

كتب دوستويفسكى الى شقيقه مساء اليوم ذاته : «استدعينا ثلاثة ثلاثة . وكنت انا ضمن الدفعة الثانية ، وبالتالى لم يبق امامى من الحياة سوى ما لا يزيد عن دقيقة . . . واخيرا ، قرعوا وقف التنفيذ ، واعادوا المقيدين الى العمود ، ثم تلوا علينا . . . الاحكام الحقيقية» .

ان وصف اعدام البتراشيفيين ، بوجه عام ، معروف جيدا . فى حين قل من يعرف مسرحية اخرى تذكر جدا من حيث اخراجها بمسرحية عام ١٨٤٩ . وينبغى الاعتقاد ان مدبريهـــا اخذوا بالاعتبار هذه التجربة الفريدة ، تجربة التنكيل بالبتراشيفيين .
بيد ان هذا يتطلب حديثا خاصا .

في صباح بطرسبورغي باكر ، يوم ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ اقتيد الى حقل سمولينسكويه (حيث سيعدم شنقا صولوفيوف بعد ثلاث عشرة سنة ، ثم سيشنق بعده بسنتين مدبرو عملية ١ آذار (مارس) المحكومون بدعوى كاراكوزوف (اما كاراكوزوف نفسه فقد اعدم قبل ذلك بشهر) . واوقف ايشوتين (٨٧) الاحدب الصغير (كان وحده المحكوم بالاعدام) تحت المشنقة ، بينما سيق الباقون الى اعمدة العار .

بعد ثلاثة عشر عاما ، وفي اثناء اعدام ملوديتسكي ، تسترعي لحظة اجراء الطقوس السابقة للاعدام بالذات اهتماما خاصا لدى مؤلف «الابله» ، وهي الرواية التي تستحضر بدقة ، وبالاستناد الى «مادة اجنبية» ، مشهدا مماثلا بالضبط .

بطبيعة الحال ، ان كل عمليات الاعدام متشابهة فيما بينها . ولكن ليس لدينا معلومات تفيد بان مؤلف «الابله» قد حضر الاعدام بالمقصلة . بينما كانت الامثلة **المحلية** في متناول اليد .

كان دوستويفسكي قارئ صحف مفرط الاهتمام ، لذا كان العديد من المضامين ينتقل الى رواياته مباشرة من حوادث الصحف .

يصف احد شهود اعدام ايشوتين ما جرى كما يلي : «قاموا بلفّه في كيس ابيض ، والقوا الانشوطة على رقبته ، علما بانه انحنى بشكل جعله اشبه بفخذ خنزير مقدد حي . وكان هذا مشهدا شائنا . وابقوه في الانشوطة عشر دقائق . . .» .

ولعل حتى هذا التريث كان مبيتا بشكل محكم : اذ كان يراد منه ابراز النتيجة .

«. . . وفجأة تعالت هتافات بين الجمهور : «جاء الساعي ، جاء الساعي ! لقد صفحوا عنه !» . وبالفعل ، فقد دخل الساعي الحكومي الى الاصطفاف المربع على مركبة عادية ذات زنبركات مسطحة يجرها حصانان كالتي يستخدمها السعاة الحكوميون عادة في ارجاء المدينة . وكان يمسك بيده ورقة يلوح بها عاليا فوق رأسه» .

لقد كانت السلطات تعرف جيدا المؤثرات المسرحية .

ويروى الشاهد فى الصحيفة قائلا : «خلع الجميع قبعاتهم . فقد امتدت ايديهم اليها على غير ارادة منهم ، عندما جرى تلفظ كلمات الرحمة !»

«وسرعان ما سحب الحبل ذو الانشوطة من حلقته ، فهوى بلمح البصر ، مما اثار انفجار بهجة صاخية بين الناس . . . وكانت رحمة العاهل موضوع الاحاديث العام» .

لقد تكررت القصة ، وبتفاصيل لا تقل شناعة عن الحالة الاولى . فقد نال ايشوتين الذى تقرر بعطف من صاحب الجلالة ان ينفى للاشغال الشاقة المؤبدة دقائقه العشر علاوة عليها . وعندما أُخرِجت رقبته من الانشوطة قال له الجلاد بنبرة أبوية : «ماذا ، الا تكررها ثانية ؟» .

لقد صُفح عن البتراشيفيين فى اللحظة الاخيرة ، وفى اللحظة الاخيرة **استعاد** ايشوتين حياته . أفليس مباحا ان يأمل المرء ان الاعدام **لن ينفذ** فى هذه المرة ايضا ، وان ملوديتسكى التعيس ينتظره ، فى اسوأ الاحوال ، نفس مصير اسلافه **المحظوظين** .

لقد دعا فسيفولود غارشين الى الرحمة والعطف . وهذه الفكرة لم تكن تبدو عصية التنفيذ فى ايام لوريس-ميليكوف الاولى .

من الواضح ان اعدام يوم ٢٢ شباط كان الاعدام الوحيد الذى شهده البتراشيفى السابق عن كثب : ففى ٣ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٦ كان فى موسكو ، وفى ٢٨ أيار (مايو) ١٨٧٩ كان فى ستارايا روسّا ، وبالتالى لم يكن بمقدوره حضور الدقائق الاخيرة من حياة كاراكوزوف وصولوفيوف .

ولكن ماذا كان يفعل فى يوم اعدام ايشوتين الذى لم يتم ؟ هنا نجد تطابقا مدهشا . ومما لا يقل اثارة للدهشة انه ظل غير ملحوظ حتى هذا الحين .

ان الرابع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ يوم بالغ الاهمية فى حياة دوستويفسكى . ففى هذا اليوم تعرف على زوجته المقبلة آنّا غريغوريفنا سنيتكينا .

لقد عرض العمل لدى دوستويفسكى على آنّا غريغوريفنا يوم الاثنين الموافق ٣ تشرين الاول (اكتوبر) معلمها ب . م . اولخين الذى كان يدرسها طريقة الاختزال الكتابية .

وعندما سلمها عنوان الكاتب اضاف اولخين ، كما تذكر آنّا غريغوريفنا ، ان عليها «ان تكون هناك من كل بد فى الحادية عشرة والنصف ، لا قبل ذلك ولا بعد ، بل فى الوقت الذى حدده» . وتضيف آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «وكان هذا تعبيرا مألوفا لدى فيودور ميخائيلوفيتش الذى كان بسبب عدم رغبته فى اضاعة الوقت على انتظار احد ، يحبذ تحديد ساعة معينة للقاء ويضيف دائما خلال ذلك : «لا قبل الموعد ولا بعده» .

وكان موعد اعدام ايشوتين فى الثامنة صباحا .

لقد كنا بحاجة الى هذا العرض الزمنى البسيط كى نتناول احتمالا نظريا هو : هل كان بمقدور الكاتب ان يحضر الاعدام .

من الناحية النظرية كان بمقدوره ان يفعل ذلك : اذ كان سيتسنى له ان يعود فى الحادية عشرة والنصف الى بيته فى زقاق ستوليارنى . اما تصور مثل هذا الاحتمال فهو امر صعب جدا من الناحية العملية : اولا ، كان يستيقظ فى وقت متأخر ، ثانيا ، كان موعد الزيارة قد حدد سلفا . وعليه فمن المستبعد ان يكون قد غادر المنزل قبل الحادية عشرة والنصف .

ومن المعروف اى انطباع تركه دوستويفسكى على آنّا غريغوريفنا . ولكن ، لنقرأ ما كتبته مرة اخرى بامعان : «لقد بدا لى غريب الطور جدا : محطما ، مسحوقا ، متعبا ، مريضا ، لا سيما وانه قد ابلغنى الآن انه يعانى من مرض هو الصرع» .

ان مظهر دوستويفسكى وحالته النفسية يمكن ان يفسرا تماما : فقد كان لديه فى ذلك الوقت ما يكفى من الهموم والمشاغل .

بيد ان آنّا غريغوريفنا التى درست فى وقت لاحق زوجها دراسة جيدة ، تفيد بانه كان فى هذا اليوم مهموما فوق المعتاد . «كان يبدو مهموما ، بل وحتى ليخيل الىّ انه كان عاجزا عن استجماع شتات افكاره . فقد همّ بضع مرات بالتمشى وكأنه نسى اننى اجلس فى حضرته ، واغلب الظن انه كان يفكر بأمر ما ، حتى لخشيت ان اشوش عليه مرة اخرى» .

مشتت الذهن ، ممتعض («كان ، بوجه عام ، غريب الطور ، تخاله فظا تارة وفائق الصراحة تارة اخرى») ، يعانى وطأة امر ما : كل هذا ليس بالامر غير المعهود عنه . لكنه ، كما سنتيقن

لاحقا ، كان يعانى حالة نفسية مماثلة تماما بعد اعدام ملوديتسكى ايضا .

وتعقب آنّا غريغوريفنا : «وأخيرا ، ابلغنى انه عاجز الآن عن الاملاء ، ثم سألنى ألا استطيع ان اعود اليه اليوم فى حدود الساعة الثامنة مساء» . وهذا ما اتفقنا عليه .

ما هذا ؟ ان الهدف الاساسى من هذا اللقاء (الاملاء) الذى كان يجب على كليهما ان يستعدا للقيام به بافضل صورة لم يتسن بلوغه . أفليس السبب هو ان ظرفا ما اضافيا (طارئا) قد اثر على احدهما ، فضلا عن كل الاسباب الاخرى ؟

ان ما حدث مساء ذلك اليوم يؤكد هذا الافتراض .

فى تمام الساعة الثامنة كانت آنّا غريغوريفنا عند دوستويفسكى مرة اخرى . لكنه فى هذه المرة ايضا لا يسارع الى الشروع فى الاملاء ، بل يفتح ابواب احاديث شتى لا علاقة لها بالموضوع : كان يسألها عن اسرتها ويستفسر عن تربيتها وتعليمها وما الى ذلك . واخيرا - «بدأ يتحدث عن نفسه» .

فما الذى رواه الكاتب ابن الخامسة والاربعين للفتاة بنت العشرين ربيعا التى رآها لاول مرة فى حياته (اذا استثنينا لقاء الصباح) ، والتى ظلت حتى هذا الحين شخصا غريبا تماما بالنسبة اليه ؟

لقد شرع ، كما تفيد محدثته ، فى الحديث عن افظع ذكرياته . روى «كيف وقف ربع ساعة تحت وطأة الخوف من الاعدام وكيف لم يتبق من حياته سوى ٥ دقائق ، وأخيرا كيف عاش هذه الدقائق ، وكيف خيل اليه ، ان ما تبقى من حياته ليس ٥ دقائق بل ٥ اعوام كاملة ، ٥ قرون . كل هذا العمر المديد» . ثم تلى ذلك التفاصيل المعروفة .

تقول آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «**لسبب** ما (التشديد لى - **المؤلف**) تطرق الحديث الى البتراشيفيين والاعدام» .

ونحن نبيح لانفسنا ان نتساءل ايضا : لاى سبب ؟

وتخلص آنّا غريغوريفنا (فى يومياتها) الى القول : «لقد روى لى فيديا فى تلك الامسية امورا كثيرة جدا ، وقد ادهشنى بصفة خاصة انه كان صريحا معى صراحة عميقة وتامة . فمن المفترض انه انسان منغلق فى مظهره ، واذا به يقص علىّ كل

مـا لديه بمثل هذه التفاصيل وبمثل هذا الصدق والصراحة ، بحيث بات حتى من الغرابة ان اتطلع اليه» .

ما الداعى لذلك ؟ ولماذا عنّ له فجأة ، وهو الانسان الذى يشق عليه الانسجام مع الغرباء ، الانسان غير الميال الى البوح السريع بمكنونات روحه ، ان يعترف امام هذه المخلوقة الفتية التى تصغى بصمت لاعترافاته الرهيبة ؟ واضح انه لم يكن يتباهى امامها **بذلك** . ناهيك عن انه كان يكره تذكر هذه الحادثة ، وعن ان آنّا غريغوريفنا ، كما نعلم الآن ، لم تسمعها عن لسانه الا ما لا يزيد على ثلاث مرات .

بطبيعة الحال ، يمكن تفسير كل ذلك بكلمة واحدة هى : الوحدة (وهذا ما تفسره به آنّا غريغوريفنا) .

ان الوحدة تدفع بالمرء الى تصرفات غريبة . ومن الناحية النفسية نجد من اليسير على الفهم (وحتى من الطبيعى) ان يكشف المرء «فجأة» عن اخطر اسراره الدفينة لانسان لامعرفة له به مطلقا .

كل هذا صحيح . ولكن ، أليس من المناسب ان نضيف **الآن** الى كل الاسباب المذكورة سببا آخر ؟

بصرف النظر عن انه كان فى ذلك اليوم او لم يكن موجودا فى حقل سمولينسكويه (ومن الصعوبة بمكان ، كما تأكدنا ، ان نتحقق من هذا الامر بموثوقية مطلقة) ، كان لا بد له ان يعلم بالحدث الدرامى الجارى .

فى لقائه الصباحى الاول مع آنّا غريغوريفنا ، كان عاجزا عن استجماع شتات افكاره وتمالك نفسه والشروع فى العمل ، لانه كان يتذكر ما حدث **هناك** توا (فقد لم يتسن لنبأ العفو آنذاك ان يصل الى زقاق ستوليارنى) . ذلك ان عمله ذاته كان يتطلب الهدوء النفسى ، كما كان يطيب له ان يردد .

وفى مساء اليوم نفسه يطالعنا مشهد مغاير تماما .

نجده اكثر بشاشة وميلا الى الاختلاط والحديث . لقد تغير مزاجه بشكل واضح . بطبيعة الحال ، فى الساعة الثامنة مساء كان قد علم بنبأ العفو . ولكن هل كان هذا النبأ دافعا لاعترافه ؟ وهل كان بالامكان ألا يدهشه تشابه الوضعين والنتيجة وتقارب المصيرين الخفى ؟ أوليس لهذا السبب ايضا وردت قصة

اعدام البتراشيفيين ، وهو ان الحديث قد تطرق الى احداث الصباح ؟

آنّا غريغوريفنا لا تذكر ايما كلمة بهذا الصدد . ولكن من العبث ان نبحث لديها عما يذكر بما كان يفعل زوجها فى صباح يوم ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٨٠ . ذلك ان مذكرات آنّا غريغوريفنا بحد ذاتها قابلة للجدل ازاء ذلك التقليد الذى كان آنذاك على قدر كاف من الهيبة ، والذى كان ينظر الى دوستويفسكى من منظور عبقريته «السرية» ، «المنحرفة» و«المريضة» . ومن شأن هذه اللمسة البيوغرافية المعبرة (مؤلف «الشياطين» **يتفرج** على عملية الاعدام شنقا !) ان تضع ذرائع اضافية فى يد انصار وجهة النظر الجذابة هذه .

بيد ان التزام الصمت بشأن «اعدام» ايشوتين كان يمكن ان يمليه دافع آخر ذاتى جدا ووجيه تماما .

كان الرابع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ يوما عظيما ومضيئا فى حياة آنّا غريغوريفنا بحيث لا يجوز ربطه – حتى فى المذكرات الشخصية – بأمور من شأنها ان تعكر صفوه . ولا سيما حين يتعلق الامر بجريمة سياسية : فلم تكن آنّا غريغوريفنا تميل الى «السياسة» لا فى مفكراتها ولا فى مذكراتها .

ولكن يصعب التخلى عن فكرة ان أسم ايشوتين ، حتى لو لم يجر النطق به بصوت مسموع ، فقد كان يحوم فوق رأسيهما فى يوم وساعة تعارفهما الاول . ان هذا الحدث الخطير وطنيا قد ظلل بداية علاقاتهما الشخصية ، وتسرب – ان جاز القول – الى المعنى الباطنى ليومهما الاول .

بعد خمس عشرة سنة سوف تستاء آنّا غريغوريفنا من نداء فلاديمير صولوفيوف الى الغاء اعدام مدبرى عملية ١ آذار (مارس) : لقد نسيت الكثير من الامور .

ولكن آن الاوان لان نعود الى ملوديتسكى .

«. . . بشان رأس مقطوع ! . .»

اجل ، لقد آن الأوان لأن نعود الى **لقائهما** . ولكن يجدر بنا فى البدء ان نذكر سببا آخر يوضح لماذا كان احدهما صبيحة يوم ٢٢ شباط (فبراير) فى ساحة سيميونوفسكايا .

قبل عشر سنوات ، فى صيف عام ١٨٧٠ ، قرأ دوستويفسكى فى دريزدن مقال تورغينيف الوسوم «اعدام تروبمان» : فقد نشر فى عدد حزيران (يونيو) من مجلة «بشير اوربا» (٨٨) .

ثم كتب الى ستراخوف يقول : «قد يكون لك رأى آخر ، يا نيقولاى نيقولايفيتش ، لكن هذا المقال المزوّق والدقيق قد أثار استيائى . لماذا تراه يستحى ويؤكد انه لم يكن يمتلك الحق فى ان يكون هناك ؟ اجل ، بالطبع ، اذا كان قد ذهب فقط لمشاهدة مسرحية ؛ بيد ان الانسان ، على سطح الارض ، لا يمتلك الحق فى التنصل وتجاهل ما يجرى على الارض ، وهناك اسباب **اخلاقية** لذلك... Home sum et nihif humanum ... والخ .» .

أليست هذه هى الفكرة التى يكررها – بالحرف الواحد تقريبا – على الامير الاكبر فى عام ١٨٨٠ ؟

فى كانون الثانى (يناير) ١٨٧٠ اعدم بالمقصلة فى باريس شخص شاب نسبيا ، يدعى تروبمان ، وهو قاتل زاول القتل بقسوة وبرودة اعصاب . وأثارت محاكمته فى ذلك الوقت ضجة كبرى . واتيحت لتورغينيف (بمعونة اصدقائه الباريسيين) فرصة نادرة هى ليست فقط حضور عملية الاعدام نفسها ، بل كذلك الدخول فى زنزانة المحكوم ومشاهدة زينته قبيل الموت ومرافقته الى المقصلة . ويصف تورغينيف ليلة الارق التى قضاها فى عشية الاعدام فى بيت مدير السجن ، والجمهور المحتشد فى الساحة ، واخيرا ، تروبمان نفسه . يقول تورغينيف : «اما بخصوصى فقد شعرت بأمر واحد ، وهو بالذات اننى لم اكن امتلك الحق فى التواجد حيثما كنت ، واننى لا أجد العذر فى أية اعتبارات سيكولوجية وفلسفية» .

يقول دوستويفسكى : «هناك اسباب اخلاقية سامية» .

اما بالنسبة لتورغينيف فى موقف كهذا فلا وجود لمثل هذه الاسباب . فمؤلف المقال يركز الاهتمام بالدرجة الاولى على احاسيسه الذاتية . ولا يفوته خلال ذلك ان يعيد الى الاذهان انه تخلى عن فنجان الشوكولادة الصباحى الذى تكرم بتقديمه اليه رب البيت ، أى مدير السجن .

على ان اللحظات الاخيرة من حياة تروبمان قد صورت بموهبة فائقة .

اقتيد المجرم الى المقصلة ، «وهجم عليه رجلان ، كما تهجم العناكب على ذبابة» ، «وفجأة هوى على وجهه» ، «ترافست قدماه» . «لكننى ، – يقول المؤلف ، – اشحت بوجهى فى هذه اللحظة – ورحت انتظر – والارض تميد ببطء تحت قدمى . . .»

نحن هنا ليس فقط ازاء موقفين اخلاقيين مختلفين . ازاء حالتين مختلفتين من تقبل الواقع ، وابرز ما فى الامر ، ازاء نظامين عروضيين . فدائرة تورغينيف الجمالية لا تضم تصوير الدميم (بما فى ذلك الموت الدميم) . اما فى جمالية دوستويفسكى فالدميم يكافئ «كل شيء سواه» : فالموت لديه (كما لدى تولستوى ، بالمناسبة) ظاهرة كبيرة الاهمية اخلاقيا وجماليا . وربة الجمال لدى دوستويفسكى لا تغض الطرف حيثما تغمض عينيها ربة الجمال لدى تورغينيف : وبديهى ان مواضيع التصوير خلال ذلك لا تتطابق .

ويضيف دوستويفسكى فى رسالته الى ستراخوف : «ان الامر الاكثر اثارة للسخرية هو انه يشيح فى آخر الامر ولا يرى كيف يجرى الاعدام فى اللحظة الاخيرة : «انظروا ، ايها السادة ، كم لدىّ من لطف التربية ! لم اتمكن من تمالك نفسى !» على انه يفضح نفسه : وفى النتيجة نجد الانطباع الرئيس عن المقال هو العناية الفاضحة الى اقصى درجة من الدقة والحساسية ، بنفسه وكماله وطمأنينته ، وكل هذا بشأن رأس مقطوع !»

ليس ثمة ادنى شك فى ان دوستويفسكى قد رأى يوم ٢٢ شباط **كل شيء** . ومهما كانت معاناته الشخصية ، فمن الواضح انها لم تكن موضع همومه الرئيس . وليس اعتباطا ، على حد قول عالم الفسلجة الروسى اوختومسكى ، انه كان يجوز «تلبس وجه الشخص المقابل» ، اى القدرة الجبارة على الانغراس فى حالة الآخرين وعالمهم النفسى ، وعلى «رؤية «الوجود» المكافئ لذاته سواء فى العالم او فى الشخص المجاور له» .

وقد رأى مثل هذا الوجود المكافئ لذاته فى ملوديتسكى : فلقد اقترب هذا الوجود من نهايته امام عينيه .

. . . طافوا بملوديتسكى عبر المدينة باسرها منقولا على مركبة عالية سوداء يجرهـا حصانان . كان يجلس وظهره الى الحوذى ، وكانت يداه موثقتين بأحزمة الى المسطبة الحديدية . وعلى صدره تتأرجح لوحة سوداء كتب عليهـا باحرف بيضاء : «مدان بالجريمـة العظمى» . ومن تحت صف ازرار رداء السجن الاسود كان يلوح قميص ابيض . اذ كان قبل يوم واحد يخشى ان يصاب بالبرد ، بينمـا اصبح الآن ينظر الى ذلك نظرة لامبالاة .

يقال انهم سمحوا له باحتساء الشاى قبل مغادرة القلعة .

من خلال غمغمة الجمهور الرتيبة كانت تتعالى قهقهة ونكات ، يفيد احد شهود العيان بأنها كانت «احيانـا ماجنة جدا» . (بعد مضى عام واحد ، عندما سيقومون باعدام مديرى حادث ١ آذار الخمسة ، سوف يستقبل الجمهور الاعدام بصمت مطبق) . وتدافع الجمهور وراء الموكب الذى كانت تختتمه عربة نقل : اذ كان على حوذيها ان ينقل الجثة الى موقع الدفن مباشرة .

كان ملوديتسكى لا يزال حيا .

يتذكر شاهد الاعدام (الذى جلب ناظورا معه) : «كان وجه هذا الرجل ذى اللحيـة الشقراء والشاربين الاشقرين نحيفـا ومصفرا . وكان منحرف القسمات ، حتى قد خيل الىّ بضع مرات ان ابتسامة ترفّ عليه» .

ويفيد مراسل مجلة «الصوت» : «ان وجهه كان مغطى بشحوب مخيف ، ويتميز انتفاضه تميزا حادا بسبب عتمة ملابسه . كانت عيناه تسرحان بقلق فى الفضاء وكان حاجباه الاسودان الكثيفان المنحدران الى انفه يضفيان عليه مظهرا قاتما وغاشما يخفف من حدته احيانا طيف من السخرية وابتسامة مضغوطة على الشطر الايمن من فمه الدميم الشكل» .

وعن هذه الابتسامـة تحدثت ايضا مناشير منظمة «ارادة الشعب» السرية . فقد وصفتهـا بـ«الابتسامة البطولية» . هكذا اصبحت تعابير الوجه فى موقع الاعدام حجة سياسية .

. . . ان دوستويفسكى المنقاد الى عالـم الثورة الروسية

الذى يجهلـــه ، والذى حاول تصوير هذا العالم فى «الشياطين» و«المراهق» ، ولـــم تفته ايمـــا تفاصيل للعمليات السياسية الجارية ، دوستويفسكى العارف لكل ملابسات اعدام جاره فى ستارايا روسّا - دوبروفين - رأى لاول وآخر مرة كيف يتصرف على منصة الاعدام ممثل الجيل الجديد **الذى سبب له هذا القدر العظيم من العذاب** : الشخص الذى يزيـــد عمره قليلا على عمر أليوشا وايفان كارامازوف .

جىء بملوديتسكى الى الساحة فى الساعة العاشرة وأربعين دقيقة . ويفيد احد كاتبى المذكرات ان الجلاد ايفان فرولوف (هو نفس ذلك الجلاد : لـــم يكن فى كل روسيا احد سواه فى ذلك الوقت) باشر بعمله : «رجـل فارع القامة ، قوى ، ممتلئ الجســـم وحسن الهندام (كان يرتدى لباسا داخليـــا دافئا - المؤلف) اقترب بهدوء ، و«بحمية» ، كمـــا يقولون ، من الرجل الواهن المتعب المربوط الى مقعده والمتوتر الاعصاب ببشاعة . ففك وثاقه ، لكنه لم يطلق يديه من الاحزمة ، بل على العكس احكم شدها . بعد ذلك اقتاده بنفس «الحميـــة» وبصورة تكاد تكون لطيفة ، وهو يمس مسا خفيفا ظهره ، مثلمـــا يفعل رب البيت البشوش احيانا ، عندما يدعو ضيفه الى الطعام» .

مكث ملوديتسكى واقفا عشر دقائق عند عمود العار ، وهو ينصت الى قرار الحكم وينتظر النهاية . ربما خطرت فى باله ، شأن المحكوم بالاعدام فى «الابله» ، افكار غريبة و«غير مكتملة» : «هذا الذى يحدق ، ثمة ثؤلولة على جبينه ، والجلاد قد صدأ حد ازراره السفلى» . (اما مؤلف «الابله» نفسه فقد انحفر عميقا فى ذاكرته **آنذاك** كيف قام قارئ الحكم بعد الفروغ من تلاوته بطى الورقة ودسها فى جيبه .)

. . . فى مدخل بيت الجنـــرال يبانتشين يخوض الاميـــر ميشكين حديثـــا مع الخادم . ويروى الامير عملية الاعدام التى شهدها فى ليون : يجرى اقتياد المجرم (كما هى الحال مـــع تروبمان فى مقال تورغينيف) الى المقصلة .

يقول ميشكين : «ما الذى يحدث للنفس فى تلك الدقيقة ؟ ، ما هذه التشنجات التى تصير اليها ؟ هذه اهانة للنفس ، ليس

الا ! ولقد قيل مع ذلك : «لا تقتل !» فما بالهم يقتلون رجلا لانه قتل ؟ لا . هذا شيء لا يمكن ان يقبله الانسان» .

هذا رفض تام لمؤسسة الاعدام - بارتكاز واضح على نص من الكتاب المقدس («لا تقتل») وبنفي ضمني لنص آخر («العين بالعين») .

الا تساعدنا احكـام الامير ميشكين على الاجابة عن السؤال الفرضي المطروح اعلاه : حول موقف دوستويفسكي المحتمل من اعدام مديري حادث ١ آذار ؟

يمضي الامير الى القول : «. . . ان قتل انسـان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينـه وبين الجريمة نفسها . ان القتل بموجب الحكم افظع كثيرا من جريمة القتل التي ارتكبها ذلك القاتل . ان الانسان الذي يقتله القتلة ، اذ يذبحونه ليلا في غابة . . . ، يظل الى آخر لحظة بأمل ان ينجو . . . اما هنـا ، في الاعدام ، فان الامل الاخير ، الامل الذي يجعل احتمال الموت اسهل عشر مرات يُنتزع منك **بالتأكيد** ؛ فالحكم والادراك بأنك لن تنجو حتما ، في هذا العذاب الرهيب كله ، وليس في الدنيا عذاب اشد هولا من هذا العذاب» .

ولنتذكر ان ملوديتسكي بالمعنى القانوني الصارم لا يعتبر حتى قاتلا : وهذا ما يجعل القصاص اشد وطأة بما لا يقاس من الجريمة .

لقد عاني دوستويفسكي وطأة الاعدام ثلاث مرات : عاناها فعليا («من الداخل») يوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ ، وعاناها روائيا في «الابله» ، ثم عاناها فعليا (ولكن «من الخارج») يوم ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٨٠ .

لقد ارهبه تصرف ملوديتسكي ، ولا يقل منه ارهابا تصرفهم مع ملوديتسكي . هنا سرى مفعول تكافل المحكومين بالاعدام بغض النظر عن المعتقدات السياسية . وقد الفى دوستويفسكي نفسه في الساحة ليس فقط لانه كان يرغب في التأكد من انطباعاته الذاتية «بعين اخرى» ، بـل كان هذا اشبه بالواجب المعنوي ، الواجب الذي يؤديه شخصيا .

لقد جاء في «الابلـه» ان «الشيء الاليم الفظيع انمـا هو الاعدادات . قراءة قرار الحكم بالاعدام ، الباس المحكوم عليه ،

ايثاقه بالحبال ، اصعاده على الصقالة – تلك هى البرهة الرهيبة» . بطبيعة الحال ، حتى الموت يطيب امام الملأ : هل يقصد بذلك الموت الطارئ ، ام ان مغزى هذا المثال يشمل ايضا القتل المقصود المخطط له سلفا ؟ الا يزيد حضور «الملأ» بحد ذاته ، هذا الفيض المرئى من الحياة المادية المتجسدة ، من هول الانتقال «الى تشخص مجهول آخر» ؟ ألا يؤكد الوجود ذاته حتمية العدم التى لا مرد لها ؟ «هم عشرة آلاف نفس ، ولا يعدم احد منهم ، بينما اعدم انا !» – هكذا ينقل الامير ميشكين افكار المحكوم عليه الاخيرة ، ويستبعد احتمال الشك فى ان تكون احاسيس المؤلف الذاتية هى التى انعكست هنا .

يتساءل ميشكين : «من ذا الذى قال ان الطبيعة الانسانية تستطيع ان تتحمل تعذيبا كهذا التعذيب دون ان تهوى الى الجنون ؟ فيم ايقاع اذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم ؟ . . المسيح نفسه قد تكلم ايضا عن هذا العذاب ، عن هذا الخوف ! لا ، لا يجوز ان يعامل كائن انسانى معاملة كهذه المعاملة !»

تورغينيف ينقل خوف المتفرج ، بينما ينقل دوستويفسكى عذاب المحكوم عليه بالموت . وفى كلتا الحالتين يبدو الاعدام منفرا : ولكن اذا كان المتفرج قادرا بالفعل على النفور (على «ان يشيح بوجهه» كما فى «اعدام تروبمان») ، فليس بامكان المعدوم ان يفعل ذلك .

يؤكد شاهد عيان ان ملوديتسكى انحنى بضع انحناءات وهو يودع الناس ، اما الصحف التى نضطر فى هذه الحالة الى التصديق بها اكثر ، فلا تذكر مثل هذه التفاصيل . عندما اقترب القس بصليبه من المحكوم عليه ، «بدا الجمهور وكأنه تجمد . والقس الذى يبدو ان قلقه كان شديدا خاطب المجرم بصوت خفيض . . .» وفى البداية شرع ملوديتسكى «يومئ بيديه» (ألم تكن تلك محاولة ، على غرار محاولة دوبروفين ، لرفض تقبيل الصليب ؟) ثم نطق ببضع عبارات واطبق على الصليب بشفتيه .

يقول مراسل «العصر الحديث» : «ان وجهه كف عن الالتواء بابتسامته التى كان يحاول ان يصطنعها قبل ذلك . لقد كان قد خرج عن طوره» . قام فرولوف ومساعدوه بالباس ملوديتسكى

قلنسوة بيضاء غطت وجهه ، ورداء من الخيش ، وشدوا وثاق يديه من الخلف . ثـم القى الانشوطة على رقبته وأوقفه على المسطبة .

فى هذه اللحظـــة الاخيرة كان الامل لم يضع بعد . لكن الساعى لم يصل ، والطبول قرعت دربكة الاعدام ، عوضا عن وقف التنفيذ .

«بعد لحظة . . . طرح الجلاد المسطبة من تحت اقدام الجسد المتشح بالبياض ، واختلج الحبل وتوتر ، فتأرجحت فى الهواء جثة المجرم . . . كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة وثمانى دقائق بالضبط» .

استغرق احتضار ملوديتسكـى المصحوب بتشنجات قوية اثنتى عشرة دقيقة بالكامل . ولم تضن الصحف بوصف المشهد وصفا بالغ الدقة . وفى الثانيـــة عشرة والنصف جرى تفكيك المشنقة (كان يجب ارجاع الصقالة واعمدة العار الى القلعة ، بعد انتهاء الحاجة اليها) ، وما لبثت الساحة ان استعادت مظهرها المألوف .

سجل الكسندر الثانى بخطه المنمنم فى مفكرته مـــا يلى : «تم اعدام ملوديتسكى فى الساعـــة الحادية عشرة فى ساحـة عرضات سيميونوفسكويه – كل شىء على ما يرام» .

فى ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٨٠ كتبت الكونتيسة أ . تولستايا ، ارملة رئيس اكاديميـــة الفنون (٨٩) الى ابنتها تقول : «عدت لتوى من آل دوستويفسكى ، وقد وجدته متكدرا ، مريضا شديد الشحوب . لقد اثر فى نفسه تأثيرا قويا (كمتفرج) اعدام المجرم يوم ٢٢ شباط (فبراير)» .

ان كلمات الكونتيسة البالغة من العمر ٦٣ سنة تذكر تذكيرا مدهشا بالوصف الذى اعطته لدوستويفسكى آنّا غريغوريفنـــا ابنة العشرين ربيعا فى يومياتها : تقصد بذلك مـــا دونته يوم ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ ، فى يوم اعدام ايشوتين .

انه لم يتغير كثيرا خلال السنوات الثلاث عشرة المنصرمة .

قبل بضعة ايـام فقط كان «منشرح الاسارير بشكـل غير مألوف» (أ . ى . سوفورين) ، مفعمـــا بأزهى الآمال («سوف ترى ، ان عصرا جديدا سيبتدئ . انا لست نبيا ، لكنك سترى .

ان نظرة الجميع اليوم باتت مغايرة») ، اما الآن ، بعد الاعدام ، فقد بات مرتابا ، واجما ، منسحقا ، مستعدا للانفجار لاتفه سبب .

انه يتحدث عن الاعدام فى نفس يوم تنفيذه ، وبعد اربعة ايام رواه للكونتيسة تولستايا ، وبعد اسبوع للامير الاكبر . ان الانطباع الذى خرج به من ساحة عرضات سيميونوفسكويه لا يبارحه . ان هذا الموضوع يشغله اكثر من اى شىء سواه .

لـــو قيض لاليوشا كارامازوف ان يلقى حتفـــه على منصة الاعدام ، لكان ليوم ٢٢ شباط (فبراير) دون شك دور بـارز فى هذا المضمار .

«الاخوة كارامازوف» : «كان سيعدم . . .»

التضحية والتكفير

واكب السنوات الاخيرة من حياة دوستويفسكى ظهور نمط جديد من الناس على مسرح التاريخ الروسى كانت حياتهم الذاتية هى الورقة الاقوى فى صراعهم مع الحكومة . وكان هذا النمط من الناس يطالب ، هو الآخر ، بثمن مماثل : وكانت هذه المقايضة القاتلة تجرى امام انظار المجتمع الذى كان يتطلع الى هذا الصراع غير المتكافئ ، دون ان يعلم كما يجب ما اذا كان عليه ان يعجب به ام يستاء منه ، ودون ان يبذل ادنى محاولة للانخراط فيه .

وكان النمط الجديد من المجرمين السياسيين ، كما اسلفنا ، يختلف اختلافا شديدا عن «الشياطين» الذين صورهم الكاتب فى مستهل العقد : كانت تفصل بينهما **روح التضحية** ، والاستعداد الفورى لتسديد اعلى ثمن ممكن عن قناعاتهم الذاتية .

لذا نجد دوستويفسكى يسجل فى دفتر ملاحظاته الاخير : «ليس متينا الا ما يجرى تحته الدم» . بيد ان الاوغاد قد تناسوا ان ما هو متين يتوفر ليس لدى من يريقون دماءهم ، بل لدى من تراق دماؤهم . ذلكم هو قانون الدم على الارض» .

هذه ملاحظة تقبل الجدل : فالعبارة الاولى المحصورة بين علامتي التنصيص تفترض رأيا غريبا شديد العداء .

فمن هم «الاوغاد» الذين يجادلهم دوستويفسكى ؟

كان «الشيطان» الرئيس – بيوتر فيرخوفينسكى يعتبر الدم شيئا مهما ، شيئا موحدا» . ويقصد بذلك دم **الآخرين** .

لم يكن للارهاب – حتى الاكثر «نزاهة» – ان يثير لدى مؤلف «الجريمة والعقاب» ادنى قدر من الاعجاب . الاغلب ان

العكس هو الصحيح . ولكن ، هـــل كان هذا الرفض الاخلاقى يشمل **شخصية** من كان يرفع السلاح مجازفا بحياته ؟
تلكم هى المسألة .

رواية ذات تتمة

فى ٢٦ أيار (مايو) ١٨٨٠ ظهر فى مجلة «نوفوروسيسكى تلغراف» الصادرة فى اوديسا النبأ التالى : «من بعض الاشاعات عن المضمون اللاحق للرواية («الاخوة كارامازوف » – **المؤلف**) ، وهى اشاعات انتشرت فى اوساط بطرسبورغ الادبية ، لا يسعنى الا القول بأن اليكسى يصبح بمرور الوقت معلما ريفيا ، ثم يصير به الامر تحت تأثير عمليات نفسية خاصة تمور فى سريرته ، الى الاقتراب حتى من فكرة اغتيال القيصر . . .»

ان هذا المؤلف المغفل الاسم (وقع المقال بحرف Z) ليس فقط يؤكد ضمنيا ما سجله سوفورين فى مفكرته اليومية ، بل وحتى «يزيده قوة» : اذ ليس مجرد «جريمة سياسية» بل «فكرة اغتيال القيصر» . ومن هنا تغدو مفهومة عبارة سوفورين «ولأعدم شنقـــا» (نوضح : اذا كان Z يتحدث عن الفكرة فحسب ، فان سوفورين يتحدث عن «الجريمة السياسية» كحقيقة واقعة . وثمة ناحية اخرى : ان قاتل القيصر المقبل اليوشا كارامازوف يجب – اذا اخذنا بقول «نوفوروسيسكى تلغراف» – ان يصبح معلمــــا ريفيا . وقد كان صولوفيوف ، هو الآخر ، معلما ريفيـــا فى وقت ما) .

من المثير للدهشة ان تتجرأ صحيفة علنية كبرى فى أيار (مايو) ١٨٨٠ على ابلاغ القراء بمثل هذه التفاصيل المثيرة . ولا يقـــل اثارة للدهشة ان هذا قد جرى فى حياة دوستويفسكـى ويمكننا الافتراض نظريا انه كان على علم بهذا المقال .

بطبيعة الحال ، لم يكن من شيم دوستويفسكى ان يستطيب طريقة التصرف التى اختارهـــا بطل روايته الاثير . ولكن هل كف الكاتب عن حبه له ؟ انه امر مشكوك فيه جدا . فحقيقة ان افدح جريمة سياسية كان يجب ان يقوم بارتكابها «شخص كان

محبا للبشر منذ نعومة اظفاره» ، وبطل يتمتع بصفات اخلاقية فائقة ، ان هذه الحقيقة على ارفع قدر من الدلالات . فالشخص «الافضل» و«المصطفى» حسب مسطرة دوستويفسكى الاخلاقية يرتكب «أسوأ عمل» حسب مسطرة الدولة والقانون .

ينبغى الظن ان بوبيدونوستسيف (كشخص غير رسمى) لو علم بنوايا دوستويفسكى الابداعية ، لتطيّر منها . بيد ان مثل هذه الخاتمة للرواية مرفوضة رفضا مضاعفا بالنسبة للمدعى العام الاعلى للسينود المقدس (شغل بوبيدونوستسيف هذا المنصب فى أيار (مايو) ١٨٨٠) . وكان بين الثوريين عدد لا يستهان به من ابناء الوسط الدينى وطلبة المدارس الدينية وما الى ذلك . اما ان يضطلع مطيع سابق (اى الشخص الذى كان يستعد لاداء الخدمة كراهب) بدور قاتل القيصر فتلك حالة لم يسبق لها مثيل من قبل ، وهى تكيل طعنة نجلاء لهيبة الكنيسة .

ومهما ارتكب اليوشا كارامازوف فى مستقبله الروائى ، فمن المشكوك فيه ان تكون هذه الافعال قادرة على الغاء وسامته الشخصية ، او ان تضع موضع الشك النقاء الاولى لطبيعته الاخلاقية فتحجب عنه بذلك اعجاب القراء . ذلكم هو المنطق الفنى للرواية ذاتها . فأليوشا لم يعد ذلك «المنتحر الاعمى التعيس» : ان المفترض هنا هو شعور أكثر تعقيدا من الرأفة .

ان اليكسى فيودوروفيتش كارامازوف ، «الحالى» و«المقبل» على السواء ، لا يمت من حيث تركيبه السيكولوجى ، ولا يمكن – بالطبع – ان يمت بصلة الى بيوتر ستيبانوفيتش فيرخوفينسكى ، او الى نيتشايف (٩٠) وجماعته ، اى الى «الشياطين» . فالثورة بالنسبة الى نيتشايف اشبه بالفن لاجل الفن ، فهى تستطيع ليس فقط استخدام الانسان كوسيلة عمياء فى خدمة مصالحها «العليا» ، وانما هى «أسمى» من الاخلاق بوجه عام . كما ان التماس الموهوم لـ«جماعتنا» («الشياطين») مع العالم الغامض لـ«الزمر الخماسية» السرية لا يداهن كبرياءها الريفية فحسب ، بل يغدو أشبه بوسيلة للتخلص من عقدها السيكولوجية

اما اليوشا فقضية اخرى .

«لقد اراد ان يمرره عبر الدير ويجعله ثوريا . كان سيرتكب جريمة سياسية ، ولكان سيعدم . كان سيبحث عن الحقيقة ، ولكان سيصبح فى بحثه هذا ، بالطبع ، ثوريا . . .» هكذا يسرد سوفورين فى «دفتر يومياته» احدى الخطط غير المنفذة لتتمة «الاخوة كارامازوف» .

الى هذا الحين كان يعرف خمس من هذه الخطط المبيتة . اما نحن فنود الاشارة الى خطة اخرى – **سادسة** .

نجد اشارة الى هذه الخطة لدى سوفورين نفسه ، وذلك فى مذكراته المعروفة على نطاق واسع . ولئن كانت اسطر اليوميات التى اوردناها آنفا قد دونت بعد وفاة دوستويفسكى بست سنوات (فى عام ١٨٨٧) ، فان المذكرات المذكورة نشرت «والآثار لا تزال طرية» ، فى يوم وفاة الكاتب .

يقول سوفورين : «كان يراد لأليوشا كارامازوف ان يصبح بطل الرواية التالية التى اراد (دوستويفسكى – **المؤلف**) ان يكوّن فيها نمط الاشتراكى الروسى ، ليس ذلك النمط الدارج الذى نعرفه والذى نما على تربة اوربية تماما» .

كانت كلتا افادتى سوفورين تعتبران على الدوام احتمالا واحدا روى مرتين لتتمة «الاخوة كارامازوف» . فى الوقت الذى كان فيه هناك احتمالان .

وبالفعل . ففى الحالة الاولى (فى «دفتر اليوميات») كان اليوشا المقبل ، حسب منطق الاشياء ، هو نفس ذلك «النمط الدارج» القادر على ارتكاب «جريمة سياسية» . فهو يسير على نفس الطريق الذى سلكه اسلافه ، وبنفس النتيجة . «كان سيعدم» .

وفى الحالة الثانية نجد اليوشا «اشتراكيا روسيا» ، اى اشتراكيا بروحية دوستويفسكى نفسه . اذن ، فهو يؤيد «الحل الروسى (اى الاخلاقى) للمسألة» الذى يُدّعى ان من غير الممكن فى ظله حتى الحديث عن ارتكاب «جريمة سياسية» ما .

على هذا النحو نرى ان سوفورين يتحدث لا عن تتمة واحدة ،

بل عن تتمتين مختلفتين فعليا لرواية «الاخوة كارامازوف» . وكل منهما تناقض الاخرى .

فاما يكون سوفورين قد اشتبه ، واما . . .

واما ليس فى ذلك ايما تناقض . ان اليوشا ، هذا الشخص ذو الروح النقية منتهى النقاء ، «المحب للبشر منذ نعومة اظفاره» ، المفترض ان يكون بعيدا كـل البعد عن مشاغل وهموم الثورة الروسية ، كان من **البديهى** ان يسلك طريقها الوعر .

«ولكـان سيعدم» . كان سيشاطر كاراكوزوف ودوبروفين وصولوفيوف مصيرهم .

وفى ظل ما كان يتراءى من البدائل الكثيرة لم يكن هناك الا مخرج فعلى واحد .

فهل قرر مبتكر «الاخوة كارامازوف» «لنفسـه» اى طريق بالذات قد اعده لبطله ؟

ان من الصعوبة بمكان الاجابة عن هذا السؤال . فالمعروف ان افكار المضمون لدى دوستويفسكى كانت فى سياق تجسدها روائيـا تشهد شتى ضروب التحولات . لذا ينبغى التحدث عن خطط تنفيذه هذه او تلك منها بمنتهى الحذر ، وبصيغة الفعل المنصوب .

ومهما يكن من امر ، فان المؤلف كان يشغله بشكل جاد كلا البديلين اللذين ابلغ عنهما سوفورين فى حينه .

على ان البدائل المحتملة الاخرى لم تكن سرا هى ايضا .

تروى ميكوليتش انهـا كانت فى خريف عام ١٨٨٠ تحل ضيفـة على ى . شتاكنشنايدر ودخلت فى حديث معهـا عن دوستويفسكى .

«وكيف صحته ؟» – «سيئة . انه كثيرا ما يمرض ، ويعمل كثيرا . انـه يواصل آل كارامازوف . الآن سيحدث سقـوط اليوشا» .

ان هذه الافـادة المهمة لم يشر اليهـا قط باحثو ادب دوستويفسكى . صحيح ان هناك لمسة غير دقيقة : فى خريف عام ١٨٨٠ مـا كان بامكان دوستويفسكـى ان يواصل «آل كارامازوف» . فقـد قرر التوقف لمدة عامين ، وراح يستعد فى ذلك الوقت لنشر «يوميات كاتب» . على هذا النحو ، كانت

ى . شتاكنشنايدر قد ابلغت ميكوليتش ليس عن عمله على تتمة الرواية ، بل - اغلب الظن - عن مشاريع تتمتها .

تبدو اشارة شتاكنشنايدر (٩١) (التى سجلتها ميكوليتش) الى «سقوط» اليوشا المقبل وكأنها تؤكد رواية اخرى من الروايات التى وصلتنا (وهى تعتبر ، بالمناسبة ، الرواية الاقل موثوقية) : استيقاظ الجذر الكارامازوفى فى نفس اليوشا ، وقصة غرامه مع غروشنكا ، الخ . وربما كان هذا هو المقصود . ولكن ليس هناك ايما تعليقات على كلمة «سقوط» لدى ميكوليتش . لهذا الى جانب السقوط بمعناه الروائى ، لم يكن من الخطأ افتراض أمر آخر : السقوط كأنحطام اجتماعى وحياتى ، ككارثة سياسية . ومهما يكن من امر ، فمن غير الجائز استبعاد مثل هذا الافتراض .

تمضى شتاكنشنايدر الى القول : «يخيل الىّ ان هذا الجزء سيكون امتع من الاول» . ومما لا شك فيه انها كانت على علم بالكثير من التفاصيل .

وهكذا نرى وجود روايات مختلفة فى وقت واحد منذ حياة دوستويفسكى .

وبديهى ان نتساءل : ألم يكن دوستويفسكى هو نفسه الذى مهد لنشر هذه المعلومات المتضاربة كفاية ؟ فلدينا الآن كل المسوغات لأن نفترض ان هذا هو ما كان بالفعل . علاوة على ذلك : يمكننا ان نتصور متى وفى ظل اية ظروف جرى ابلاغ سوفورين عن احد البدائل التى تعنينا (وبالتحديد المتعلق بأليوشا «الانجيلى») .

احاديث حول مائدة عشاء متأخر

منذ وقت قريب (فى عام ١٩٨٠) نشرت تسجيلات يومية لكاتبة طواها النسيان اليوم هى س . سميرنوفا . فى عام ١٨٨٠ كانت سميرنوفا فى الثامنة والعشرين من العمر . تقول آنّا غريغوريفنا : «ان فيودور ميخائيلوفيتش كان على صداقة مع صوفيا ايفانوفنا سميرنوفا ، وكان يشيد بموهبتها الادبية» . ونضيف انه حتى كان فى بعض الاحيان يقدم لها بعض العون

فيما يهمها من شؤون النشر . وكانت هى بدورها تدعم تواصله مع مسرح الكسندروفسكى (ببسيط العبارة كانت ترجو زوجها ان يترك لآل دوستويفسكى تذاكر لارتياد المسرح) .

فى ٢٩ شباط (فبراير) ١٨٨٠ ، فى النصف الثانى من النهار ، زار دوستويفسكى سميرنوفا التى ابلغته ، من بين ما ابلغته به ، انها لا تستطيع - بسبب انشغالها - ان تكون مساء عند سوفورين (حيث يجرى الاحتفال بمناسبة الذكرى السنوية الرابعة لصدور مجلة «العصر الحديث») . فأنصرف دوستويفسكى . وعلى اثره ظهر سوفورين الذى راح يحاول اقناعها بالحضور . وكتبت سميرنوفا واعدة : «ان سوفورين كان مبتهجا جدا ، وقد قبّل يدى» .

لو كان ذلك ممكنا ، لما وجدنا ، نحن القراء الفضوليين لمذكرات الآخرين ، ايما اثم فى «تقبيل يد» صوفيا ايفانوفنا : فبفضل موافقتها آنذاك على الحضور تتوفر لدينا الآن شهادة عظيمة الاهمية .

. . . التقى ثانية فى المساء . وحول مائدة العشاء المتأخر (التى اقيمت بعد انتهاء الحفل المنزلى) كانت سميرنوفا تجلس بين دوستويفسكى وسوفورين ، وعلى هذا النحو الفت نفسها - على غير ارادة منها - شاهدة (او بالاحرى طرفا) فى حديثهما .

«كان دوستويفسكى مندهشا لحضورى . وحول مائدة العشاء روى لسوفورين عن نفسه انه اشتراكى روسى ، وان من العبث ان يفوتهم ذلك فى الشطر الاول من «الاخوة كارامازوف» ، حيث ادلى بهذا الرأى عندما أوضح ماذا تعنى الاشتراكية الروسية . . .»

فى حديث كهذا كان يمكن ، بالطبع ، ان يجرى التطرق ايضا الى تتمة الرواية : علما بأن هذا التطرق كان يمكن الا يقتصر على ما كان مفترضا للاعداد القريبة المقبلة من «البشير الروسى» (فهذا ايضا بات معروفا لنا اليوم) ، بل وللمستقبل الابعد . ذلك ان موضوع «الاشتراكية الروسية» ما كان له ان ينال المزيد من التطور الا بالنظر لما سيكون عليه مستقبلا مصير اليكسى فيودوروفيتش كارامازوف . وما دام الامر كذلك ، فمن المحتمل ان ينص ما دونته سميرنوفا على احد تلك الاحاديث

التى يستند اليها سوفورين فى مذكراته (رغم ان طرفى الحديث كان يمكن – بالطبع – ان يعودا مرارا الى هذا الموضوع) .

ان دوستويفسكى يشدد على انـــه «اشتراكـــى روسى» . وهذا التشديد الملح يتجاوب مع اعتراف اصم (لم يتم فك الغازه) ادلى به سوفورين نفســه : «اقول عرضا ان مثل دوستويفبسكى السياسية كانت واسعة ، ولم يتخل عنها منذ ايام صباه» .

ويشهد بذلك شهادة «عرضية» ايضا الكاتب الاول لسيرة حياة دوستويفسكى وهو اوريست فيودوروفيتش ميللر (٩٢) : « . . . انه لم يكف قط عن كونه اشتراكيا بالمعنى الانسانى الواسع لهذه الكلمة» .

ولئن كان دوستويفسكـــى «مرتدا عن القضية الثوريـــة» (كرافتشينسكى) ، فينبغى لنـــا ان نتفق على ان «ارتداده» هذا يحمل طابعا غريبا .

ان دوستويفسكى – الخصم المؤمن فى خصومته للثـــورة (ولكل اشكال العنف الثورى) ، يبقى الى جانب ذلك وفيا صادق الوفاء لاهدافها **السامية** . لقد اراد ان يجسد ايمانه فى المأثرة الحياتية لاليوشا كارامازوف ، وان يستغل مصيره للتدليل على **الطريق** المنشود : العثور على بديل لطريقــه الذاتى – «لكان سيعدم» .

ولكن نشأت هنا عقبة ، يبدو انها منيعة .

نوايا ابداعية فى ضوء الارهاب

ان اليوشا كهذا لم يكن له وجود فى الطبيعة من قبل . فقد كان هذا النمط الروحى (كمـــا افترض دوستويفسكى) فى بدء ارتسام معالمه فى واقع الحياة . اما اولئك «الاشتراكيون الروس» الذين كانوا فقد سلكوا الطريق المباشر الى منصة الاعدام .

لقد مثلت امام مؤلف «الاخوة كارامازوف» المعضلة التالية : اما الاكتفاء بخلق شخصيـــة مثلى واحدة (ما يشبه «ابله» الثورة الروسية) ، او ان يجسد فى اليوشـــا المقبل تلك المصائـــر

الانسانية الفعلية التى كان المعاصرون يصطدمون بخاتماتها المفجعة على مدى السنوات الاخيرة .

«لكان سيعدم» .

واضح ان كلتا الفكرتين كانتا موجودتين بشكل متواز . وقد انعكست هذه التذبذبات الابداعية فى الروايتين المختلفتين اللتين يوردهما سوفورين .

ولكن الا يجوز للمتوازيات (مثلما يحدث لدى دوستويفسكى) ان تتقاطع فى آخر الامر ؟

قد يبدو للوهلة الاولى ان الفكرة عن اليوشا الذى يرتكب «جريمة سياسية» (ولنصطلح على تسميتها بالرواية Z من روايتى سوفورين) قد انبثقت بعد الفكرة عن «الاشتراكى الانجيلى الروسى» .

لقد ابتدأ العمل على الرواية فى عام ١٨٧٨ (رغم انه كان يضمرها ، بالطبع ، قبل ذلك الحين) . وهذا يتطابق زمنيا مع التجليات الاولى للارهاب السياسى فى روسيا . وكان مثل هذه التجليات ترتدى فى عام ١٨٧٨ بعد طابعا منفردا ومبعثرا (كما كانت منفردة ايضا اعمال البطش الحكومية : حادثة اعدام واحدة فى السنة) . بيد ان السنتين التاليتين (١٨٧٩–١٨٨٠) شهدتا موجة جبارة من الارهاب المتبادل . اذ يعزى الى هذه الفترة اكبر عدد من محاولات الاغتيال (من ضمنها اربع محاولات لاغتيال القيصر) ، وبالتالى اكبر عدد من حوادث الاعدام (احدى وعشرون حادثة) . وليس ثمة ما يفوق الاحتمال فى ان اليوشا المقبل «يصير حتى الى فكرة اغتيال القيصر» : فالفكرة ، ان جاز القول ، كانت تحوم فى الهواء .

جاء فى مقدمة المؤلف : «ان وصف الحياة لدى واحد بينما هناك روايتان . الرواية الرئيسة هى الثانية ، وهى نشاط بطل روايتى فى الوقت الراهن . اى بالتحديد فى اللحظة الحالية الجارية» .

لقد اعطت «اللحظة الجارية» (اى الاعوام ١٨٧٨–١٨٨٠) للمؤلف مادة غزيرة لتفضيل احدى الروايتين .

ان الارهابى – مزاول العمل السرى (وهو المحكوم بالموت

فى معظم الحالات) يكاد يغدو ابرز واهم شخصية فى حياة روسيا السياسية .

لقد ادخل الواقع تعديلاته على خطط دوستويفسكى الابداعية .

ونكرر ان هذا ما قد يتراءى ، ذلك ان الحاصل فى حقيقة الامر هو ان الواقع لم يكن يُدخل تعديلات ، بقدر ما كان يؤكد نواياه الابداعية . وبامكاننا ان نسوق حججا تشهد لصالح ان فكرة اليوشا - قاتـــل القيصر كانت حاضرة لدى دوستويفسكى منذ البداية .

وهذا ما يدل عليه بالدرجة الاولى تشابه الالقاب الذى جرى رصده فى حينــه : كارامازوف - كاراكوزوف . ولكن عدا عن التشابه اللفظى كان بالامكان ان نشير ايضا الى تناغمات اخرى لا تقل اهمية .

فى مسودة المقدمة غير المنجزة لروايــة «الشياطين» نجد الآتى : «ان الفكرة الشعبية فى كيريللوف هى التضحية بالنفس على الفور فى سبيل الحقيقة . وحتى المنتحر الاعمى التعيس فى حادث ٤ نيسان (ابريل) كان فى حينه يؤمن بحقيقته (يقال انه ندم بعدئذ ولله الحمد !) ولم يختبئ مثل اورسينى ، بل قاوم وجها لوجه» .

اذن ، كان من المقرر ان يذكـــر كاراكوزوف فى مقدمة «الشياطين» ! علاوة على ذلك ، كان تصرفه يقرن - بهذا الشكل او ذلك - بـ«الفكرة الشعبية» .

كان هذا امرا يفوق المعقول . اذ كان من المتعذر نشر شيء كهذا . أفليس هذا هو ما حال دون اتمام المقدمة ؟

ثم يلى ذلك فى المسودة : «التضحية بالنفس وبكل شيء فى سبيل الحقيقة - تلك هى سمة الجيل القومية . فلتباركه يا رب ولتسبغ عليه فهم الحقيقة . ذلك ان مجمل المسألة هو ما الذى ينبغى ان يؤخذ على انه الحقيقة» .

ربمـــا كان يراد لهذا النص ان يتصدر «الشياطين» ، لان الفكرة المعلن عنها هنا لم تشهد فى الرواية ذاتهـــا تطويرا ملموسا .

ولكن بعد عشر سنوات تتعـــالى لدى دوستويفسكى فكرة ليست بالغريبة بتاتا : « . . . لقد كان لحد ما شابا من عهدنا

الاخير ، اى كان نزيها بطبيعته ، يطالب بالحقيقة ، يبحث عنها ويؤمن بها ، وبعد ان استوثق منها بات يطالب باسهام فورى فيها بكل ما لنفسه من قوة ، يطالب بمأثرة سريعة مقرونة برغبة اكيدة فى التضحية بكل شيء ، حتى ولو بالحياة» .

على هذا النحـو نجد الكاتب قد اعاد فى مواصفات اليوشا كارامازوف بالحرف الواحد تقريبا ما ذكره سابقا فى مقدمته غير المنجزة لرواية «الشياطين» .

ونشير الى ان اليوشـا ، حسب قول المؤلف ، «كان لحد ما شابا من عهدنا الاخير» (اى ليس من جيل اواسط الستينات ، عندما تجرى احداث الرواية ، بل من جيل اواخر السبعينات) . ويترتب على ذلك ان اليوشا كارامازوف يعتبر بادرة نمط جماعى لجيل اواخر السبعينات ، ذلك النمط الذى انعكست فيه بوضوح «سمة الجيل القومية» * .

ولاجل «المأثرة السريعة» كان اليوشا مستعدا للتضحية «حتى بالحياة» . وفى ضوء روايـــة سوفورين – Z – يرتدى هذا القول الكثير من الدلالات .

والحقيقة ان بعد هذا القول ببضع صفحات نجد تلميحا من نوع مغاير تماما كما لو كان يشير الى رواية سوفورين الثانية (المسرودة فى مذكراته) : «اختار اليوشا طريقا مضادا للجميع ، ولكن بنفس ذلك التعطش الى المأثرة السريعة» .

ان «الطريق المضاد للجميـــع» هو «الاشتراكية الروسية» بعينها . ويتضح ان المؤلف حين باشر بالرواية لم يكن قد توقف نهائيا بعد على اى من بديلى التتمة .

وهكذا تركت فرصة امام اليوشا .

لغز عبارة التصدير

من المفترض ان يحوز كـــلا البديلين المقترحين فرصـــا متكافئة تقريبا من حيث القدرة . بيد ان الرواية تحتوى ايضا

* ان الاحداث فى «الاخوة كارامازوف» ، حسب ارشـــادات المؤلف ، تدور فى حدود عام ١٨٦٦ (اى فى عام محاولة الاغتيال التى قام بها كاراكوزوف) .

على اشارة اخرى (وهى بالغة الخطورة) الى احتمال خاتمة مفجعة بالذات . ومهما بدا الامر غريبا ، فلم تجر حتى الآن مراعاة هذه الاشارة .

انها العبارة التى صدر بها المؤلف لروايته :

«الحق ، الحق اقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها . ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير» .

ان عبارة التصدير مقتبسة من انجيل يوحنا . ولكن اذا انطلقنا من نص الرواية وحده ، فلن يتضح تماما مغزى هذه العبارة .

يقول المعلقون على مجموعة آثار دوستويفسكى الكاملة : «ان هذه العبارة تعبر عن امل الكاتب فيما ينتظر روسيا (والبشرية جمعاء) مستقبلا من تجدد وازدهار ، وهو ما يجب ان يحل على اثر التفسخ والانحطاط العام» .

ماذا فى وسعنا ان نقول ؟ انه شرح مقبول ، ولكنه - باعتقادى - ليس بالشرح الكافى بتاتا .

اولا ، ان«التفسخ والانحطاط» (بالمعنى الذى يستخدمهما به المعلقون) لا يعنيان بعد **الموت** ، بل يعنيان ، فى اغلب الظن ، وجودا واهنا غير مكتمل القيمة . بيد ان الانجيل الرابع لا يقصد وهن الحياة ، بل دمارها وتلاشى هذا الشكل من الوجود . فالحبة التى تقع فى الارض لا «تتفسخ» ولا «تصير الى الانحطاط» بل تموت : فالموت وحده ، وليس اى شىء سواه ، يرسى بداية الحياة الجديدة ، المنبعثة . لذا ف«التجديد» (وحتى «الازدهار» إن اردتم) يعنى حسب فكرة الكاتب الوجود المنبعث ، وليس المحوَّل .

لكن الانبعاث يتطلب قربانا تكفيريا .

ويهيأ لى ان عبارة التصدير لرواية «الاخوة كارامازوف» تعزى ليس فقط الى نص الرواية الذى نعرفه ، بل ولكل الثنائية المفترضة عموما . عندئذ يغدو واضحا مغزاها الدفين : ان استشهاد اليوشا على منصة المشنقة هو التكفير . فالذى يدر «الثمر الكثير» هو استشهاد بطل الرواية * .

---

* فى متن الرواية يكرر زوسيما عبارة التصدير . فردا على سؤال اليوشا لماذا سجد الشيخ لدميترى ، قال ذلك انه يستبصر مصيره :

ولكن اذا كان الامر على هذا النحو ، فلسوف يدخل تصدير رواية «الاخوة كارامازوف» فى علاقات معقدة مع تصدير آخر لرواية اخرى .

«وكان يرعى هناك فى الجبل قطيـــع كبير من الخنازير ، فسألوه ان يأذن لهم بالدخول فيها ، فأذن لهم . فخرج الشياطين من الرجل ودخلوا فى الخنازير ، فوثب القطيـــع من الجرف الى البحيرة فغرق . فلما راى الرعاة ما جرى ، هربوا ونقلوا الخبر الى المدينة والمزارع . فخرج الناس ليروا ما جرى . وجاؤوا الى يسوع ، فوجدوا الرجل الذى خرج منه الشياطين جالســـا عند قدمى يسوع ، لابسا صحيح العقل . فأستولى عليهم الخوف . فأخبرهم الشهود كيف أَبرأ المَمْسوس» .

ان إبراء الممسوس **معجزة** . فهو يتخلص بشكل خارجى من مرضه الداخلى . اما ان الشياطين قد خرجت منه ، فليس فى ذلك خدمة جليلة ذاتية ، شخصية .

الشياطين تدخل فى حيوانات نجسة فتهلك هذه الاخيرة . وما هذا الا قربان وثنى .

ان المضمون الوارد فى انجيل لوقـــا لا يمت بصلة الى الامثولة التى يسردها انجيل يوحنـــا . على ان الاقتباسين من الانجيلين يقدمان – فى سياق ادب دوستويفسكى الروائى المتأخر – فى حوار شديد التوتر : فهما لا يتمم بعضهما بعضا بل يمارى احدهما الآخر .

«لقد تقيأت روسيا هذه الدناءة التى اتخموها بها ، وبطبيعة

«ولقد ارسلتك اليه يا اليوشا آملا ان تستطيـــع طلعتك الاخوية ان تساعده بعض المساعـــدة . ولكن مصيرنـــا جميعـــا هـــو بين يدى الرب (ثم يلى ذلك نص عبارة التصدير – **المؤلف**) . احفظ هذه الحقيقة . . . اليك رأيى فيك : سوف تترك الدير ، وسوف تعيش فى العالم كراهب» . وبالنظر لكون بطل الرواية الرئيس (حسب ما جاء فى مقدمة المؤلف) هو اليوشا ، وهو الذى وجهت اليه عبارة «احفظ هذه الحقيقة» ، فينبغى الاعتقاد بان زوسيما يستبصر مصيره **هو** – اى اليوشا – ومما له دلالته ان عبارة التصدير تتكرر عندما ارسل اليكسى هاديا الى **الناس** .

الحال ، لم يعد فى هؤلاء الاوغاد الذين تقيأتهم ايما شيء روسى» ، – هذا ما كتبه دوستويفسكى الى مايكوف بتاريخ ٢١/٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٧٠ موضحا فكرة روايته المقبلة .

ربما ليس فى بيوتر فيرخوفينسكى «ايما شيء روسى» (رغم انه امر مشكوك فيـــه جدا : فهو ايضا وليـــد شرعى للحياة الروسية) . الا ان مثل هذا الزعم لا ينطبق بتاتا على اليوشـــا كارامازوف . صحيح ان الجريمة التى يعتزم ارتكابها لا يمكن من حيث عبثها الفكرى والقانونى (وحتى من حيث «لاروسيتها» إن اردتم) ان تقارن بتاتا بأغتيال شاتوف : انها «اشد فظاعة» بما لا يقاس . بيد ان اثم «الشياطين» فى الجريمة «العادية» ، حسب المنطق الفنى لكلتا الروايتين ، يفوق اثم اليوشا المفترض فى جريمته «فوق العادية» .

ذلك ان المنابع الاخلاقية لهاتين الفعلتين مختلفة .

ان اغتيال شاتوف جاء فى نتيجة حسابات وكذب ومكيدة غاشمة . فهم يريدون توطيد سمعة «جماعتنا» بدمه . كمـــا ان القتلة خلال ذلك ، اذا كانوا يجازفون نسبيا : على اية حال انهم لا يجازفون بحياتهم (فكانت جرائم القتل الجنائية ، حسب قوانين الامبراطورية الروسية ، لا يعاقب عليها بالاعدام) .

ان ما كان على اليوشا ان يرتكبه ، وفق رواية سوفورين Z ، يعتبر من وجهة نظر الدولة اعتداء مباشرا عليها بالذات : ومن شأن ذلك ان يكون إثما شديد الوطأة لا يستحق ادنى قدر من التساهل ، ويتطلب اقصى درجات العقاب . ولكن حتى مثل هذا الاثم ، كما اسلفنا ، ما كان بامكانه ان يغير تغييرا جذريا موقف القراء من بطل رواية «الاخوة كارامازوف» .

تماما ، مثلما لم يُحرم راسكولنيكوف بقتله العجوز المرابية حرمانا نهائيا لا من اعجاب المؤلف ، ولا من اعجاب القراء .

ان القتل (باستثناء حالة الدفاع عن الضعيف من جور القاتل) كريه على الدوام بالنسبة لدوستويفسكى . والامر من الناحية الاخلاقية سواء لديه تماما من سيكون الضحية : شاتوف ، ام اليونا ايفانوفنا ، ام القيصر الروسى .

بيد ان الحالتين الاخيرتين (اليونا ايفانوفنا والكسندر الثانى) تنطويان على سمة مشتركة .

ان جرم راسكولنيكوف هو نفس تلك الجريمة **النظرية** كأغتيال القيصر . علما بأن كلا هذين الجرمين غير مغرضين فكريا (على الاقل فى التدقيق الاول) .

من الواضح ان راسكولنيكوف ، وكذلك اليوشا كارامازوف المقبل يبيحان لنفسيهما «اراقة الدم حسب ما يمليه الضمير» .

يقول ستراخوف فى رسالة بعث بها الى تولستوى بعد عدة ايام من محاولة اغتيال القيصر الروسى التى نجحت ، اخيرا : «ياله من مصاب ، يا ليف نيقولاييفيتش الفائق العز . . . لقد اغتالوا اغتيالا لأنسانيا الشيخ الذى كان يحلم بأن يصبح القيصر الاكثر ليبرالية واحسانا فى العالم . انه **قتل نظرى** ، لا حسب ما يمليه الحقد ، ولا حسب ما تمليه حاجة فعلية ، بل لانه من حيث **الفكرة** امر جيد جدا (التشديد لى – **المؤلف**)» .

لقد كتبت هذه الرسالة بعد حوالى شهر من رسالة اخرى ابلغ ستراخوف فيها تولستوى بوفاة دوستويفسكى . وفى هذه المرة لم يأت ذكر اسم دوستويفسكى : غير ان معضلة «الجريمة والعقاب» كانت بادية للعيان .

يذهب ستراخوف الى القول : «كى يثوب الناس الى رشدهم لا بد من كوارث مهولة وخراب مناطق بكاملها . لا بد من حرائق وتفجيرات تشمل مدنا بأكملها ، ولا بد من سوط الملايين منهم . اما الآن فليس ثمة سوى براعم» .

انه لأمر مدهش : فاعدام الامبراطور الروسى يثير لدى ستراخوف سلسلة من التداعيات المماثلة لتلك التى تنشأ فى حلم راسكولنيكوف الأخروى (من الايمان بالآخرة) بعد قتله العجوز المرابية . ان ما يقوله ستراخوف هو نسخة (لكنها شاحبة حقا) من مقطع مناسب فى «الجريمة والعقاب» .

لقد كتب دوستويفسكى مقتل اليونا ايفانوفنا قبل محاولة اغتيال القيصر الاولى ببضعة اشهر .

لقد سبق ان تحدثنا عن رد فعل دوستويفسكى على محاولة

الاغتيال التى قام بها كاراكوزوف . ولقد تركت المحاولة الثانية ايضا انطباعا فى نفسه لا يقل عن الانطباع الذى تركته المحاولة الاولى .

فى عام ١٨٦٧ علم الكاتب فى دريزدن برصاصة بيريوزوفسكى (البولندى الذى قام بمحاولة فاشلة لاغتيال الكسندر الثانى فى باريس) . وتفيد آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها بان اشاعات كانت تروج فى المدينة «بادعاء ان الجريمة قد ادركت غايتها» .

«قررنا على الفور التوجه الى قنصليتنا . وكان فيودور ميخائيلوفيتش شديد الانفعال . كان فى منتهى القلق ويكاد يعدو فى الطريق ، وكنت انا اخشى ان تحدث له نوبة على التو (وهذا ما حدث فى نفس تلك الليلة)» .

تجدر الاشارة الى ان دوستويفسكى استقبل الحدث بشكل شخصي جدا ، وكأن المقصود هو ليس الامبراطور ، بل شخص من اقرباء الكاتب . بيد ان هذا الموقف الشخصى العميق من الهزات الوطنية كان من الصفات المميزة لدوستويفسكى الى ابعد الحدود .

تقول آنّا غريغوريفنا ان زوجها كان يعتبر الكسندر الثانى من ذوى الاحسان اليه بسبب السماح له بالعودة من سيبيريا واعادة ما ورثه من صفة الانتماء الى طبقة النبلاء . وهذا هو ما كان فى اغلب الظن . ولكن يستبعد ان تكون هذه المشاعر هى وحدها التى املت شدة رد فعله .

تكتب آنّا غريغوريفنا : «انه كان من المعجبين المتحمسين بالكسندر الثانى لاقدامه على تحرير الفلاحين ، ولما قام به من اصلاحات لاحقة» . وباعتقادنا ان هذا هو اهم ما فى الامر .

لقد كان دوستويفسكى يرى فى القتل العنفى المحتمل للقيصر ، الذى اقدم بمحض ارادته الخيرة (هكذا كان يعتقد الكاتب) على تحرير خمسة وعشرين مليونا من رعاياه ، عين الجريمة السياسية .

لقد اوجد اصلاح سنة ١٨٦١ (٩٣) ، فى رأى دوستويفسكى ، سابقة تاريخية فائقة الاهمية . اذ كان ذلك مثالا على التخلى الطوعى عن الجور التاريخى الازلى ، وعلى الحل السلمى

للنزاع الاجتماعى المنذر بويلات مروعة . بهذا المعنى كان تحرير الفلاحين يبدو وكأنه الخطوة الاولى نحو «الحل الروسى للمسألة». اذ كان هذا العمل الذى طبق من الجهات العليا يلمح بامكانية اقامة نظام سوف يكون مؤسسا على العدل ، وليس على اى شىء سواه .

ان الموت العنفى لالكسندر الثانى الذى كان دوستويفسكى يربط بشخصه تحرير الفلاحين وامكانية تطبيق الاصلاحات اللاحقة - التى لا تقل راديكالية عن تلك الخطوة ، - فمن شأن هذه النتيجة - فى رأى الكاتب - ان تعنى نهاية افتراضاته الكونية النطاق (او ارجاءها لمدة طويلة على اقل تقدير) .

ومن الامور الاكثر دلالة انه اوكل القيام **بذلك** الى بطله الاثير * .

كتب دوستويفسكى الى مايكوف فى عام ١٨٧٠ يقول : «ان الشياطين خرجوا من الفرد الروسى ودخلوا فى قطيع الخنازير ، اى أشباه نيتشايف وسيرنو-صولوفيوفيتش (٩٤) وسواهم . فغرق هؤلاء او سيغرقون فى اغلب الظن . اما الفرد الذى برأ ، الذى خرج منه الشياطين ، فيجلس عند قدمى المسيح» .

وهذا ما لم يحدث .

«قانون الدم على الارض»

اتضح فى اواخر العقد ان الثورة الروسية لم تسلك طريق نيتشايف . علاوة على ذلك : ارتسمت فى صفوف اتباعها بمزيد من الحدة تلك «السمة القومية للجيل» التى تنبأ بها قبل عشر سنوات .

كان بالامكان طرد الشياطين من الفرد الروسى . ولكن كان من غير الممكن طرد الفرد الروسى **نفسه** .

---

* بما ان احداث الجزء الثانى من الثنائية كان يجب ان تدور بعد ثلاث عشرة سنة (اى فى اواخر السبعينات) ، فمن الواضح ان عملية الاغتيال التى يفترض ان يقوم بها اليوشا ما كان لها ان تصادف الا فى فترة حكم الكسندر الثانى . ومن البديهى ان محاولة الاغتيال كان يجب ان تنتهى بالفشل : اذ لم يكن بمقدور دوستويفسكى ان يصور موت القيصر وهو لا يزال حيا يرزق !

لم يكن الا بمقدوره هو ان ينقذ نفسه . اذ لم يعد بالامكان «التنصل» من الثورة الروسية بتقديم القربان الوثنى : اى باغراق الخنازير فى البحيرة . وكان يراد لقربان اليوشا كارامازوف التكفيرى ان يرمز الى ان صفوة المصطفين هى التى تقدم فدى لحل المسألة الرئيسة فى الحياة الروسية ، الا وهى «ما الذى ينبغى اعتباره الحقيقة» .

لقد دخل التصدير لرواية «الاخوة كارامازوف» فى صراع سرى مع التصدير لـ«الشياطين» .

لقد حكم على اليوشا كارامازوف ان «يحمل بنفسه» عبء التجربة التاريخية للعقدين الاخيرين . وكان بمقدوره ان ينال الهيبة الروائية لا بموعظة «الاشتراكية الانجيلية» (ولا بالموعظة عموما : كالتى ينطق بها عند صخرة إليوشا) ، بل بالعمل وحده .

كان من المتعذر **استمالة** كوليا كراسوتكين وسائر «الصبيان الروس» . ولكن كان لا يزال بالامكان **اقناعهم** ، وذلك بثمن الاستشهاد الذاتى .

«ولكن اذا ماتت تأتى بثمر كثير» .

وكان موت اليوشا على منصة الاعدام هو الذى يجب ان يغدو **عملا** له .

ولشد ما يدهش هو ان نتيجة كهذه كان يمكن ان تكون فى نفس الوقت توكيدا للبديل الروائى الآخر ، اى بشأن «الاشتراكى الروسى» .

لقد جرى افتراض حل روائى «جنونى» .

كان على اليوشا فى الرواية الثانية ان يلقى حتفه فى سبيل تلك الفكرة بالذات التى كان يهاب به – حسب «مهمة مهمات» هذه الرواية – ان يدحضها . بيد ان افكارا كهذه لا تدحض بالكلام . بل لا يجوز التمارى معها الا بالحياة .

ومثلما هى حال روديون راسكولنيكوف ، اجرى اليكسى كارامازوف التجربة على نفسه .

لقد اقتضى دحض نظرية راسكولنيكوف مصير راسكولنيكوف نفسه . واقتضى تخطى فكرة اليوشا كارامازوف (الفكرة التى قادته الى المشنقة) حياة اليوشا كارامازوف .

وكان ذلك برهانا من النقيض .

وهنا نعود مجددا الى ما جاء فى مفكرة الكاتب الاخيرة **عن الدم** .

«. . . ما هو متين يتوفر ليس لدى من يريقون دماءهم ، بل لدى من تراق دماؤهم . ذلكم هو قانون الدم على الارض» .

من المفترض ان لا جدال فى هذا القول : فالثوريون هم الذين يريقون دماء الآخرين . اذن ، فما « هو متين» ليس لديهم .

ولكن – «التضحية بالنفس وبكل شيء فى سبيل الحقيقة هى سمة الجيل القومية» . وفى اواخر السبعينات ارتسمت هذه السمة كسمة جماعية .

كشف النقاب عن مسائل صعبة ومؤلمة الى ابعد الحدود ، وبالذات بالنسبة الى التقويمات الاخلاقية . فمن كان يريق دماء الآخرين ، كان فى الوقت ذاته يضحى بدمه ، حاكما بوعى قام على نفسه بالهلاك (ان روح التضحية هذه سمة مميزة لجميع الاعضاء البارزين فى منظمة «ارادة الشعب») .

وكانت السلطة هى الاخرى تريق دماء الآخرين : اذن ، ف«ما هو متين» ليس لديها ايضا . لقد كان «قانون الدم» فى روسيا اشبه بتربيع الدائرة (مسألة مستعصية على الحل) .

لذا كان ينبغى كسر هذه الدائرة .

كان على اليوشا كارامازوف ، باعتلائه المشنقة ، ان ينير بدمه طريقا آخر ، بلا دماء . ولو تم ذلك لكان استشهاده تكفيرا مزدوجا .

هنا يبرز السؤال التالى : هل كان ثمة ما يدعو الى التوقف بمثل هذه التفاصيل عن كل هذه الامور التى لا وجود لها ؟ ان ايا من بدائل الرواية الثانية لم يحصل على تجسيد روائى . ولا يمكن سوى ان نخمن اية تتمة (او خاتمة) ستكون لحياة اليوشا كارامازوف والابطال الآخرين لو قدر لهذه الرواية ان تكتب . ربما كان اليوشا سينهى ايامه فى دير محاطا بالاطفال الذين يعكف على تربيتهم وتهذيبهم ، مثلما افترضت ذلك احدى نوايا المؤلف الابداعية التى صانها لنا الزمن . لهذا ، أليس من الاسهل التحدث عما هو موجود ؟

كل هذا صحيح . وما كان لنا ان نجازف بسبر اغوار مجال المجهول والمتكهن ، لو لم يدفعنا الى ذلك دوستويفسكى نفسه .

فقد كتب مقدمة الرواية يقول : «. . . ولكن الضير فى ان وصف الحياة لدىّ واحد ، بينما هناك روايتان . الرواية الرئيسة هى الثانية ، وهى نشاط بطل روايتى فى الوقت الراهن ، اى بالتحديد فى اللحظة «الحالية الجارية» .

وتلقى الرواية «الرئيسة» الثانية ظلا لامرئيا على الاولى ، وفى هذا الظل لا نجد ابطال «الاخوة كارامازوف» المختلقين فحسب ، بل نجد ايضا المؤلف الذى اختلقهم .

ولنجمل النتائج .

مما لا شك فيه انه كان هناك عدد من الافكار الاوليـــة للرواية «الرئيسة» ، وان هذه الافكار نشأت اساسا **قبل** البدء بالكتابة . ولكن مما لا شك فيه ايضا ان احداث السنتين ١٨٧٩ -١٨٨٠ كانت قادرة على ان تحول بشكل جوهرى هذه المخططات ، وان تضعف بعض خطوط المضمون وتقوّى سواها ، وان تقوم بغربلة البدائل وترفع رفعا حادا من فرص بديل واحد منها .

يجرى اجتماع خطتين متباينتين وتداخلهما .

فمن جهة ، كان اليوشا الرواية «الرئيسة» يجسد الاندفاع الامثل للثورة الروسية ، ومن جهة اخرى ، كان يتصرف حسب منطقها التاريخى الفعلى .

ورغم التناقض الواضح لهذه الشخصية المفترضة «فقد حافظت على وحدتها الداخليـــة العميقـــة . ففى الاخ الاصغر من الاخوة كارامازوف ، الذى كان يكافح فى سبيل الانسجام العالمى ، وفى الوقت ذاته يبيـــح لنفسه - فى سبيل نفس هذا الانسجام - «اراقة الدم بما يمليه الضمير» جرى وضع اليد على لحظة الحق . لقد تجلى فى شخص اليوشا - الناسك وقاتل القيصر - وجهان للثورة الروسية .

كان لابد لاليوشا ان «يتعذب» .

الاشغال الشاقة كوسيلة تربوية

المعاناة لدى دوستويفسكى ليست فقط لحظة تطهير (التهاب الغشاء المخاطى) ، بل هى ايضا لحظة خلق يفقد العالم بدونها عمقه واكتماله الطبيعى .

السعادة تشترى بالعذاب : انـــه الثمن . بيد ان الانسان نفسه لا يستطيـــــع هو الآخر الاحساس بـ«اكتماله» الا بعبوره المعاناة . والمعاناة خلاقة لا لشيء إلا لانها تصنع من الانسان شخصية وتقربه من سائر الناس المعانين . وعليه فان «صنع الذات» و«تجاوز الذات» او بعبارة اخرى تربية الذات لا يمكن ان تتم من دون صراع روحى شاق .

والمعاناة روحية من حيث طبيعتها . لقد كان منصفا ذلـــك المفكر الروسى الذى قال انه ليس ثمة صراع مطلق بين الروح والجسد : فهو فى التحصيل الأخير اشتباك بين روح وروح .

فى احدى المذكرات يصادفنا المشهد التالى :

ذات يـــوم مر دوستويفسكى على مؤلف المذكرات (وكان فلاديمير صولوفيوف جالسا عنده) . «كان فيودور ميخائيلوفيتش ينعم بمزاج هادئ ، ويتكلم بنبرة وادعة ويلفظ ببطء شديد الكلمة تلو الاخرى . . . الامر الذى كان معهودا عنه باستمرار فى الايـــام الاولى التى تعقب النوبـــة . . . وكان فلاديمير سيرغييفيتش يروى امرا ما ، وفيودور ميخائيلوفيتش يصغى دون معارضة ، لكنه قرب بعد ذلك اريكته من اريكة صولوفيوف ، ووضع يده على كتفه قائلا :

– آه ، يا فلاديمير سيرغييفيتش ، يا لك من انسان طيب كما أرى . . .

– اشكرك يا فيودور ميخائيلوفيتش على مديحك . . .

– تريث فى الشكر ، تريث ، – قـــال دوستويفسكـــى معارضا ، – لم اقل بعد كل ما عندى . اضيف الى مديحى انك بحاجة الى نحو ثلاث سنوات من الاشغال الشاقة . . .

– رحماك يا رب ! على اى ذنب ؟

– على انك لا تزال بعد منقوض الطيبة . لو قدر لك ذلك ، لكنت آنذاك ، بعد الاشغال الشاقة ، مسيحيـــا رائعا وطاهرا تماما .

هل يمكن الركون تماما الى صحة هذه الافادة ؟ ان مخاطبـــة دوستويفسكى لصولوفيوف بلا تكلف لتجرح السمع : اذ لم يكونا قط على مثل هذا التقارب . اما بشأن الحوار المذكور بحد ذاته ، فهو لا يبدو بعيدا كل هذا البعد عن الحقيقة .

ويختتم كاتب المذكرات هذا المشهد قائلا :

«ضحك صولوفيوف ولم يعارض» ، معتبرا ما قاله دوستويفسكي مجرد نكتة .

انها نكتة بالطبع ، ولكن ينبغي الاعتراف بانها نكتة بعيدة عن المرح .

ربما كان قول دوستويفسكي ذا علاقة ليس بشخصية فلاديمير صولوفيوف بقدر ما له علاقة بما كان ذاك يرويه له ؟ وربما كان عقل صولوفيوف اللامع والبارد ، وولاؤه للعبة الجدلية المجردة وخصائص تأمله للعالم غير المشفوع دائما بدفء المشاعر القلبية الحية ، - ربما كان كل ذلك - رغم اعجاب دوستويفسكي الاكيد بالفيلسوف الشاب - قد اوحى له ببعض المخاوف ؟ (لنتذكر هتاف آنّا غريغوريفنا بان فلاديمير صولوفيوف ليس النسخة الاصل لأليوشا ، بل لايفان كارامازوف .) ألم يكن محدث صولوفيوف يروم التلميح لهذا الاخير بان الطروحات الذهنية الفلسفية الدقيقة - مهما كانت جيدة - تكتسب مغزى مغايرا تماما ومقياسا مغايرا تماما اذا كانت مشفوعة بالمعاناة الشخصية ، وبتجربة النفس المضنية ؟

«مقلب» على ارفع مستوى

اهواء صاحبة السمو

فى ربيع عام ١٨٨٠ تباطأ العمل على «الاخوة كارامازوف» تلقائيا (لقد افصحت عن نفسها كثرة مشاركات الكاتب المسرحية) . واقتضى الامر التقدم بطلب مهلة . وفى ٢٩ نيسان (ابريل) جلس دوستويفسكى لتحرير رسالة الى لوبيموف ، محرر المجلة .

«مهما بذلت من جهد ، لن يتسنى لى ان امد عدد أيار (مايو) المقبل من «البشير الروسى» بشىء . . . ولم استطع الكتابة . . . لانهم هنا لا يدعون لى الفرصة بتاتا للكتابة ، لذا لابد من الهرب باسرع وقت من بطرسبورغ» .

لا يذكر دوستويفسكى فى رسالته الى لوبيموف سوى سبب واحد يدفعه الى «الهرب من بطرسبورغ» . بينما هناك سبب آخر : فقد كان الكاتب قد قرر السفر الى موسكو لحضور حفل افتتاح تمثال بوشكين ، الذى دعى لحضوره بالحاح .

وكان عليه ان يصل موسكو ليس خالى الوفاض ، أى ينبغى له ان يؤلف **نصا** . وهو يولى اهتماما فائقا لهذا النص غير المكتوب بعد (والذى كان لاجله مستعدا حتى للانقطاع عن الرواية) .

كان ينبغى له ان «يهرب» الى ستارايا روسّا باسرع وقت ممكن .

فمتى غادر بطرسبورغ يا ترى ؟

عند محاولة الاجابة عن هذا السؤال تتكشف اشياء غريبة للغاية .

فى ٥ أيار (مايو) ١٨٨٠ كتبت أ . تولستايا الى ابنتها ما يلى : «استلمت أمس رسالتك . . . ودون ان اتريث دقيقة

واحدة حملت رسالتك الى دوستويفسكى ، وحسنا ما فعلت . ففى صباح هذا اليوم غادروا الى بيتهم الريفى فى ستارايا روسّا» .

على هذا النحو ، كانت اسرة دوستويفسكى يـوم ٤ نيسان على ثقة من انها ستغادر فى صبيحة اليـوم التالى (وفى الخامس منه تفترض تولستايا انهم قد سافروا) .

بيد ان دوستويفسكى يكتب الى بوبيدونوستسيف يوم ١٩ أيار : «قبيل مغادرتى بطرسبورغ (قبل اسبوع واحد بالضبط)» . . . الخ . اذن ، فالمغادرة التى كان مقررا ان تتم يوم ٥ أيار قد ارجئت على حين غرة ، ولم تتم الا فى ١٢ أو ١٣ منه . اما ستارايا روسا فقد وصلها آل دوستويفسكى فى موعد لا يتعدى ١٤ أيار .

فما هى الظروف غير المنظورة التى أخرت دوستويفسكى فى العاصمة اسبوعا كاملا ؟ ان ما يتيح الاجابة عن هذا السؤال هو الوثيقة التالية :

«يوم الاحد ، ٤ أيار .

فيودور ميخائيلوفيتش المحترم . اسمح لى ان اتطاول مرة اخرى على حريتك وأرجوك التفضل الينـــا مساء يوم الخميس ، الساعة التاسعة .

والقضية هى ان قراءتك يوم الاحد الماضى ، فى الحفل الذى اقيم لصالح جمعية جيورجيوس قد حظيت باعجاب خاص لدى صاحبة السمو ، زوجة ولى العهد ، فحدثتهــا رغبة فى التعرف عليك عن كثب . وستكون عندى يوم الخميس المصادف ٨ أيار ، واذا لم ترفض قراءة شىء من مؤلفاتك ، وحسب اختيارك بطبيعة الحال ، فسنكون شاكرين لك جزيل الشكر . سوف نمضى الامسية فى حلقة ضيقة . . .

آمل الا يكون هناك ما يمنع حضورك الذى سيسرنا مسرّة صادقة .

المخلص من الاعماق
قسطنطين»

من الواضح تماما أن رسالة الامير الاكبر التى استلمهـــا دوستويفسكى يوم ٤ أيار قد غيرت من نواياه القريبة ، لذا

فقد جرى تأجيل السفر الذى كان تقرر ان يتم يوم ٥ منه .
ولكن لماذا لم يتصرف متلقى هذه الرسالة مثلما تصرف قبل عام واحد ، حين تلقى دعوة سموه ، لكنه فضل المشاركة فى حفل الصندوق الادبى على القيام بتلك الزيارة ؟ فان مبررات رفضه فى هذه المرة كان من شأنها ان تكون وجيهة تماما وهى سفره مع اسرته بكاملها الى ستارايا روسّا وغيابه الفعلى عن بطرسبورغ . صحيح ان عذره آنذاك كان اجتماعيا محضا ، اما الآن فهو عذر شخصى محض . عدا عن ذلك ، كان رومانوف الشاب يكاد يصر (فى حدود المجاملات الارستوقراطية ، طبعا) بقوله : «آمل الا يكون هناك ما يمنع حضورك . . .» الخ . .
بيد ان موافقته ، باعتقادنا ، لم تكن مرهونة بذلك ، بل كانت القضية ترتهن بشخص الضيفة ، زوجة ولى العهد ماريا فيودوروفنا .
لقد جىء بالاميرة الدنماركية ماريا - صوفيا - فريدريكا - دغمارا الى روسيا ، وهى فى الثامنة عشرة من العمر ، فى عام ١٨٦٦ (كان انتظار وصولها هو الذى سرّع فى اعدام كراكوزوف) . وفى عام ١٨٨٠ كان لها من العمر ٣٢ سنة (سوف تشهد فى حياتها الثورات الروسية الثلاث ، واعدام ابنائها واحفادها رميا بالرصاص ، وستوافيها المنية فى الدنمارك عام ١٩٢٨) . وتكاد تكون ماريا فيودوروفنا الوحيدة بين الامبراطورات الروسيات التى تمكنت من الاحتفاظ بوفاء زوجها ذى المقام الاسمى . لقد كان الكسندر الثالث يراعى جدا الطبع القوى والمستتر لابنة ملك الدنمارك .
ان حضور الامبراطورة المقبلة التى اعلنت دون مواربة عن رغبتها فى التعرف على مؤلف «الاخوة كارامازوف» قد اسبغ على الامسية المبيتة مغزى خاصا .

عند سُلّم العرش

ان الطريق الى القمة يمر ، كما هو معروف ، عبر النساء . ولكن ما حاجته الى سلوك هذا الطريق ؟
يروى كوزنتسوف ، وهو الصبى الذى كان يخدم فى اسرة

دوستويفسكى (كان يساعد آنّا غريغوريفنا فى تجارة الكتب) بسذاجة : «ان فيودور ميخائيلوفيتش كان يحضر الامسيات الادبية ، ونادرا ما يدعوه جلالة الامبراطور الكسندر الثانى (الامر الذى لم يحدث قط ، بالمناسبة - **المؤلف**) والامير الاكبر قسطنطين قسطنطينوفيتش . وكانوا ينقلونه فى عودته بمركبات البلاط ، وكان بعد ذلك يبدو راضيا جدا» .

لقد تعامل الخبراء المختصون مع هذه القضية بقدر اكبر من الجدية .

فى عام ١٩٣٤ نشر ل . غروسمان (٩٥) عن علاقات دوستويفسكى بالاوساط الحكومية العليا (رسائل بوبيدونوستسيف وفيليبوف (٩٦) ، وبطاقات دعوات الامير الاكبر قسطنطين ، الخ) . وقد صدم نشر هذه المواد بعض الباحثين . اذ اعتبرت الصلات الشخصية بممثلى العائلة المالكة اثما مضاعفا لمؤلف «رسائل من بيت الموتى» .

يقول غروسمان : «ان القيصرية فى جيلها الثالث ، التى حكمت على دوستويفسكى بالاعدام والاشغال الشاقة ، لم تكتف بأن رفعت عنه كل الشكوك فى نمط افكاره المعارض ، بل اخذت ترفعه الى مقام المعبر عن نواياها وآرائها الاساسية . اذ يتعامل احفاد نيقولاى الاول ببالغ الاحترام مع دوستويفسكى ، سعيا منهم الى ان يصونوا لقضيتهم السياسية حليفا كبيرا ومؤثرا هو اشهر كتاب الرعيل الاقدم من الروائيين الروس» .

ان كل شىء فى هذا الادعاء المؤثر يجانب الصواب .

ذلك ان السلطة لم تكن هى وحدها التى كانت تسعى الى «ان تصون لقضيتها السياسية» المدافع عن المهانين والمذلين (الذى لم يخن قط ، بالمناسبة ، **قضيته** هذه) ، بقدر ما كان هو شخصيا يحاول توجيه هذه السلطة صوب الطريق الذى كان يعتبره السبيل الوحيد الصائب .

ان نظرية دوستويفسكى الاخلاقية التاريخية التى دافع عنها بشدة واصرار مذهل فى «يوميات كاتب» وفى «الاخوة كارامازوف» وفى خطابه البوشكينى لم تكن تتجاوب بتاتا مع السياسة الرسمية الفعلية . بل العكس ، كانت تدخل معها فى نزاع شديد يستعصى على الحل . وكانت اهداف دوستويفسكى «العليا» تستنكر ، فى

الواقع ، المهام القريبة والبعيدة لذلك النظام الذى كان يراد لها ان تنفذ فى اطاره . ولم يكن بوسع النظام نفسه سوى ان يشعر بذلك . فما كان يسمح به لدوستويفسكى فى مجال الفكر الروائى ، فى مجال «ما هو سام وجميل» ، فى عالم التجريدات الاخلاقية العقيم ، كان يلقى تصديا فوريا فى لحظة «الانتقال» . ان مثل هذا المزاج العقائدى كان يمكن ان يرقق قلب اصحاب الامر والنهى ، لكنهم لم يكونوا يعترفون له بحق واحد هو ان يغدو فلسفة **حياة** .

ان غروسمان يتوهم توهما شديدا حين يقول ان «حكومة اواخر آل رومانوف كانت تنتهج خطها السياسى بروحية وصايا دوستويفسكى» ، وان «سنوات الثمانينات والتسعينات هى عصر التنفيذ الرسمى» لافكاره ، وبالتالى فهو يتحمل «جزءا من المسؤولية» المترتبة على سياسة الحكم القيصرى الروسى الداخلية والخارجية . حقا أن دوستويفسكى لا يستحق هذا التكريم . فمن المشكوك فيه جدا ان يكون الكسندر الثالث قادرا على ان يطمح بدور وريثه الروحى .

لكن السؤال هو : هل كان سيأبى مؤلف الخطاب البوشكينى ان ينقل الى القيصر المقبل جزءا من هذا التراث على الاقل ؟

عندما كان بوبيدونوستسيف يحثه بحذر على التقارب مع الاسرة الحاكمة ، كانت له نواياه دون شك . اذ كان يرضيه تماما ذلك الدور الذى سيفرده غروسمان فى وقت لاحق لدوستويفسكى . بيد ان الصعوبة تتمثل فى ان المنفذ المرشح لذلك لا يقبل بهذا الدور . أنه يلعب **لعبته** .

غروسمان محق فى مسألة واحدة فقط هى ان دوستويفسكى كان يريد بالفعل ان تنفذ الاسرة الحاكمة الحالية ، ولا سيما المقبلة ، برنامجه الاخلاقى . انه يحلم باعادة تكوين النظام الملكى الروسى بروح قناعاته الدينية والاخلاقية . ولئن كان بوبيدونوستسيف يرغب فى ان يجعل منه حليفا لما هو **قائم** ، فانه يسعى الى ان يصبح الملهم لما هو **آت** .

عندما يستجيب الكاتب لدعوات الامير الاكبر المتأدبة على الدوام ، انما يسعى وراء هدفه الدائم . وبطبيعة الحال ، ما كان لامر ان يساعد على تنفيذ هذا الهدف كالتأثير الشخصى المباشر

على من كان الكاتب مستعدا لان يودع لديه مثله السامية ، ومن كان مصيرها اللاحق مرتهنا به بقدر لا يستهان به .

لقد كان حضور زوجة ولى العهد فى صالون الامير الاكبر يفتح طريقا **مباشرا** الى «سلم العرش» : وكان على دوستويفسكى ان يحاول القيام بمـا لم يتسن القيام بـه لا لكارامزين ولا لبوشكين .

ولاجل هذا كان من المجدى والنافع تأجيل السفر الى ستارايا روسا .

المجهولة الغامضة

يُفهم من رسالة قسطنطين قسطنطينوفيتش ان الامبراطورة المقبلة قد استمعت لدوستويفسكى يوم ٢٧ نيسان (« فى يوم الاحد الماضى ») . ولكن اين وفى اية ظروف ؟

يقول الامير الاكبر «فى الحفـل المقـام لصالح جمعيـة جيورجيوس» . ونحن لا نعلم شيئا عن هذا الحفل .

تورد ابنة دوستويفسكى - لوبوف فيودوروفنـا - فى مذكراتها حكاية مثيرة للفضول بشأن تعارف والدها مع زوجة ولى العهد . وهى تفيد بأن والدها قرأ مشهدا من «كارامازوف» فى امسية حضرتها ماريا فيودوروفنا : وهو المشهد الذى يصور احدى النساء اللاتى أتين الى الشيخ زوسيمـا وهى تنوح على ابنها الصغير المتوفى . وتقول لوبوف فيودوروفنا : «انها (اى زوجة ولى العهد - **المؤلف**) كانت هى الاخرى قد فقدت فى يوم ما ابنا صغيرا لم يغب عن بالها . وبعد سماع قراءة والدى اخذت زوجة ولى العهد تبكى بصوت عال متذكرة صغيرهـا المتوفى . وعندما فرغ دوستويفسكى من القراءة التفتت الى النساء اللاتى نظمن الحفل وقالت انها تريد التحدث اليه» .

ثم تروى لوبوف فيودوروفنا ان النساء المذكورات آنفـا (وتضيف : واللاتى «كن لا يتسمن كثيرا بالذكاء») ، اقدمن على المكر ، علما منهن بطبع دوستويفسكى الارتيابى ، وخشية ان

يرفض تلبية رغبة صاحبة السمو ، فأبلغنه بأن «هناك شخصية ممتعة» تود التعرف عليه . فسألهن دوستويفسكى مستغربا :

« – من هذه الشخصية الممتعة ؟

– سوف تراها بنفسك . . . انها ممتعة جدا . . . هيا معنا ! – اجابت الفتيات واستولين على والدى ، واقتدنه ضاحكات الى غرفة استقبال صغيرة . ثم ادخلنه الى الغرفة واغلقن الباب وراءه . تعجب دوستويفسكى تعجبا شديدا لهذا السلوك الغامض . وكانت غرفة الاستقبال الصغيرة التى الفى نفسه فيها مضاءة بمصباح ضعيف الانارة مغطى بحجاب . وكانت ثمة امرأة شابة تجلس بتواضع الى طاولة صغيرة . فى هذه الفترة من حياته لم يعد والدى يطيل النظر الى النساء الشابات . لذا فقد حيى المرأة المجهولة كما يحيّى الرجال عادة امرأة يلتقونها فى صالون واحدة من معارفهم ، وبما أنه ظن بأن الشابتين اللعوبتين قد ضللتاه ، فقد غادر الغرفة من باب يقع فى الطرف المقابل .

. . . بعد مضى ربع ساعة اندفعت نحوه الشابات اللاتى اقتدنه الى باب غرفة الاستقبال الصغيرة ، واخذن يمطرنه بالاسئلة من باب الفضول :

– ماذا قالت لك ؟ ماذا قالت ؟

– من هى ؟ – تساءل والدى مندهشا .

– كيف تقول من هى ؟ زوجة ولى العهد بالطبع !

– صاحبة السمو ؟ ولكن ، أين هى ؟ اننى لم أرها . . .»

ان مذكرات ابنة دوستويفسكى لا ينبغى التصديق بها الا بحذر كبير : هذا امر معروف للباحثين كافة . ذلك ان لوبوف فيودوروفنا تتوهم كثيرا ولا تعتمد دائما على حقائق موثقة . ففى ربيع عام ١٨٨٠ لم تكن قد اكملت بعد الحادية عشرة من العمر ، ويستبعد انها كانت آنذاك تعرف وتحفظ ما ابلغت به القراء بعد مضى اربعة عقود ، أى فى عام ١٩٢٠ . ولكن ربما كانت معلوماتها تستند الى روايات عائلية او تنبع من تلك الاوساط التى كانت كاتبة المذكرات تتوق اليها طوال حياتها ؟

ان آنّا غريغوريفنا تلتزم الصمت إزاء هذه القضية . صحيح انها تأتى – هى الاخرى – على ذكر زوجة ولى العهد ، ولكن

بشأن موضوع آخر تماما . فهى تقول فى معرض حديثهـا عن مشاركة دوستويفسكى يوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٠ فى حفل اقيم لصالح مأتم القديسة كسينيا فى دار الكونتيسة مينغدين (٩٧) : «. . . فى اثنـاء الاستراحـة دعى فيودور ميخائيلوفيتش الى الغرف الداخلية ، نزولا عند رغبة الامبراطورة (المقبلة – **المؤلف**) ماريا فيودوروفنـا التى شكرت فيـودور ميخائيلوفيتش على مشاركته فى القراءة ، ومكثت تتحدث اليـه ردحا طويلا من الوقت» .

ويفترض المحدثون من الباحثين ان آنّا غريغوريفنا تتحدث هنا عن اللقاء الاول بين دوستويفسكى وماريا فيودوروفنا . عدا عن ذلك ، لقد توهمت آنّا غريغوريفنـا – حسب اعتقادهـم – فى التاريخ ، فقد اقيم هذا الحفل فى واقع الحال يوم ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٩ .

ان كلا هذين الاستنتاجين مجانب للصواب .

ان آنّا غريغوريفنا لا تدعى بتاتا ان لقاء ٢٢ كانون الاول كان اللقاء الاول بينهما . اما بشأن الحفل نفسه فقد ورد ذكره بين مشاركات دوستويفسكى الاخرى عام ١٨٨٠ : وكلها ذكرت بشكل صحيح تماما . عدا عن ذلك ، كان لابد لاحداث **الاسابيع الاخيرة** من حياة دوستويفسكى (وما كان قد مر بين اللقاء الاول فى دار الكونتيسـة مينغدين ويوم وفاته سوى اكثر من شهر بقليل) ان تنطبع بوضوح خاص فى ذاكرة ارملته .

واخيرا ، نأتى على ذكر الناحية الاكثر جوهريـة . لو كان اللقاء مع ماريا فيودوروفنـا قد جرى يوم ٢٢ كانون الاول ١٨٧٩ ، لما كان لرسالة قسطنطين قسطنطينوفيتش المؤرخة فى ٤ أيار (مايو) ١٨٨٠ ايما معنى . فالحاصل فى هذه الحالة ان من يرغب فى «التعرف عن كثب» على مؤلف «كارامـازوف» هو نفس الشخص الذى سبق ان تعرف عليه قبل نصف عام (بل وحتى تحدث اليه ردحا طويلا من الوقت) .

ان سمو الاميرة تحدثت الى دوستويفسكى يوم ٢٢ كانون الاول ١٨٨٠ كشخص سبق لها ان تعرفت عليه شخصيا . اما المشهد الذى تورده لوبوف فيودوروفنا فمن غير الجائز ان ينسب الى هذا اليوم .

اذن ، فزوجة دوستويفسكي وابنته تقصدان لقاءين **مختلفين** .

وعلى صعيد آخر ، من غير المعقول ان تختلق لوبوف فيودوروفنا روايتها المسلية : فحديثها يضم خصائص مميزة جدا .

يدعي قسطنطين قسطنطينوفيتش ان صاحبة السمو قد استمعت لقراءة دوستويفسكي «يوم الاحد الماضي» ، اي في ٢٧ نيسان (ابريل) ، ويبدو ان «المقلب» الذي ترويه لوبوف فيودوروفنا قد جرى في هذا اليوم بالذات . بينما لا نعلم نحن الا بامسية **واحدة** يوم ٢٧ نيسان ، وهي الامسية التي اقيمت في مجمع النبلاء حيث لم يكن بوسع صاحبة السمو ان تحضر .

فكيف يمكن حل هذا التناقض ؟

ينبغي الافتراض ان دوستويفسكي حضر يوم ٢٧ نيسان **امسيتين** وليس امسية واحدة . وكان يمكن للامسية الثانية ان تقام **في وقت متأخر** من مساء ٢٧ نيسان ، في احد صالونات بطرسبورغ الارستوقراطية . وقد توجه دوستويفسكي الى هناك من مجمع النبلاء مباشرة . وحضور زوجة ولي العهد في هذه الحلقة المختارة محتمل جدا .

ويؤكد هذا الافتراض تأكيدا تاما ما ترويه لوبوف فيودوروفنا لاحقا : «لم يسبب هذا اللقاء الفاشل نفورا لدى سمو الاميرة . وكانت هي على علم باواصر الصداقة بين دوستويفسكي وسمو الامير قسطنطين ، لذا فقد توجهت الى هذا الاخير برجاء ان يعرّفها بوالدي . وقام سمو الامير على الفور بتنظيم امسية دعا اليها دوستويفسكي وابلغه سلفا بمن سيلتقيه في بيته . وكان ابي محرجا بعض الشيء لانه لم يعرف صاحبة السمو التي كانت صورها الفوتوغرافية آنذاك معلقة في جميع المواجهات . وقد قبل الدعوة وحرص على ان يكون لطيف المعاملة . . .»

لقد **حرص** على ان يكون لطيف المعاملة : انه لم يَكن يفلح دائما في ذلك .

في ٨ أيار (مايو) سجل صاحب الحفل في مفكرته اليومية ما يلي : «قرأ ف . م . من «كارامازوف» . وصبت صاحبة السمو الشاي . اصغت باهتمام بالغ وظلت معجبة اعجابا شديدا . طلبت من ف . م . ان يقرأ اعتراف الشيخ زوسيما ، وهو احد اعظم

مؤلفاته (فى اعتقادى) . ثم قرأ بعد ذلك «الصبى فى حضرة المسيح عند شجرة عيد الميلاد» . كانت يلينا (٩٨) تبكى ودموعها الغزيرة تجرى على وجنتيها . كما اخضلت مقلتا صاحبة السمو هى الاخرى» .

انه يقرأ وهو فى حضرة المعشر «الاسمى» ، قصة عن اطفال اكواخ بطرسبورغ : هذا – ان اردتم – فعل من افعال علم التربية الاجتماعى .

بيد ان السفر الى ستارايا روسّا قد ارجئ ليس فقط لاجل استدرار دموع صاحبة السمو . فقد كانت لدى المؤلف ، كما اسلفنا ، «مهمة عليا» ذاتية ، ومن الواضح انه كان يظن بأنه قد اقترب يوم ٨ أيار (مايو) من تنفيذ «مهمة المهمات» هذه .

تقول ابنته : «لقد ترك دوستويفسكى لديها (أى ماريا فيودوروفنا – **المؤلف**) انطباعا عميقا . وقد اكثرت لزوجها فى حديثها عنه بحيث اعرب ولى العهد عن رغبته فى التعرف على والدى . . . لقد كان الكسندر الثالث المقبل شديد الاهتمام بكل محبى التراث الروسى الذين كانوا ينتظرون منه اصلاحات كبرى . وكان دوستويفسكى يرغب هو الآخر فى التعرف عليه ، كى يعرض عليه افكاره بشأن المسألتين الروسية والصقلبية (السلافية) . . .»

انه يحرص على ان يكون لطيف المعاملة مع زوجة ولى العهد ليس لدوافع ما شخصية او لمقاصد التقرب الى البلاط . رغم ان ذلك لم يكن يخلو من قصد : فقد كانوا ينتظرون بالفعل اصلاحات من الكسندر الكسندروفيتش . ولسوف يرحل دوستويفسكى دون ان يعلم ابدا ان هذه الاصلاحات ، بحكم سخرية القدر المحزنة فى مثل هذه الحالات ، سوف تدخل مدونات التاريخ الوطنية بلاحقة «مضادة» .

ولسوف يأتى الحديث عن لقائه الاول والاخير مع ولى العهد .

ان لوبوف فيودوروفنا لا تحدد ما الذى كان والدها يرغب فى الادلاء به تحديدا لقيصر روسيا المقبل . ولكنها كانت على علم محدد بنواياه ذاتها .

ان موضوع الحفل الذى اقيم فى دار الامير الاكبر (واضح انه كان لقاءهما الاخير) يتطلب خاتمة .

فى الرسالة التى كتبهـــا دوستويفسكى ليلة ٢٧/٢٨ ايار (مايو) فى فندق «لوسكوتنايا» بموسكو (التى وصلهـا لحضور حفل افتتاح تمثال بوشكين) يروى لزوجته آنّا غريغوريفنا وقائع زيارته لكاتكوف . فقد تحدثا عن «كارامازوف» . ثم ارتأى المؤلف ابلاغ ناشرها بنبأ فوق العادة .

«لقـــد رويت لكاتكوف كيف تعارفت فى دار الكونتيســـة مينغدين ومن ثم فى بيت قسطنطين قسطنطينوفيتش . لقد دهش دهشة تنم عن الارتياح ، وتغيرت تعابير وجهه تماما» .

لقد دهش كاتكوف بالنبأ (يؤكد كاتب الرسالة انها دهشة تنم عن «الارتياح») ، واستقبله كخبر من الدرجة الاولى .

ان تعابير وجه رئيس تحرير «موسكوفسكيه فيدوموستى» لم تتغير دونما سبب .

وكان تعارف مُكاتب «البشير الروسى» مع زوجة ولى العهد (ومن المحتمل حتى مع ولى العهد ذاته فى المستقبل) يمكن ان يعنى انخراط دوستويفسكـــى بشكل مباشر فى ميدان السياسة الكبرى .

لقد كانت لدى كاتكوف ، من جهـــة ، مسوغات الابتهاج : فدوستويفسكى ، حليفه الرسمى ، عن طريقه كان بامكانه – هو كاتكوف – ان يبلغ غاياته . ومـن جهة اخرى ، كان عليه ان يحاذر .

ذلك ان مؤلف الخطاب البوشكينى المقبل هو اقل من يستطيع تنفيذ نوايا الآخرين . انه اصيل منتهى الاصالة ، والاهم من ذلك ان احدا لا يستطيع التكهن سلفا بتصرفاته . وهو لا يذعن لايما رقابة او تحكم ايديولوجى . وكان تأثيره (وكاتكوف كان يعرف جيدا قوة هذا التأثير) يمكن ان يؤدى الى نتائج تختلف اختلافا تاما عن توقعات كاتكوف الذاتية .

ومهما يكن من شيء ، كان ينبغى اخذ هذا الامر الجديد بعين الاعتبار .

يقول دوستويفسكي فى رسالته : «لقد خرج لتوديعى الى بهـو المدخل ، واثار بذلك دهشة اسرة التحرير التى رأت كل ذلك من الغرفـــة المجاورة ، ذلك ان كاتكوف لا يخرج ابـدا لتوديع احد» .

ان ناشر «البشير الروسى» متحفظ فوق العادة . فقد خرج اليوم ليودع ليس فقط مكاتبه الدائم ، انما ليودع ايضا شخصية عظيمة الشأن .

انه لا يعلـــم اية شخصية عظيمة – ولكن بمعنى مغايـــر تماما – سوف يغدو ضيفه بعد بضعة ايام فقط .

الفصل التاسع

اشهر خطاب فى التاريخ الروسى

ألعاب برلمانية

ان اعياد بوشكين عام ١٨٨٠ تعتبر حدثا استثنائيا لا من حيث احياؤها فحسب ، بل – بالدرجة الرئيسة – من حيث مغزاها التاريخى «المفاجئ» . فقد اثارت ابتهاجا جنونيا ، وتمخضت عن آمال لا تقل عنه جنونية . انها ارغمت الجميع على التأمل بامعان فى الماضى والمستقبل . كما كانت تمثل ، اخيرا ، «اسمى آيات الطبيعة» .

بعد افتتاح تمثال بوشكين بشهر واحد كتب ب . هايديبوروف (٩٩) انه لو قرأ امرؤ خطابات موسكو «فى غرفته لقال عن ابتهاجاتنا الموسكوبية بأننا قد اصبنا بالجنون» . وينتهى ناشر صحيفة «نيديليا» الى القول : «لعل الامر كان كذلك بالفعل . سوى انني لا امانع فى ان اصاب بالجنون على هذا النحو ولو مرة واحدة اخرى فى حياتى» .

قبل الانفجار الذى قطع عهد حكم الكسندر الثانى العاصف بأقل من سنة وقع حدث يلقى ضوءا فنطازيا ليس فقط على المشاركين المباشرين فيه ، بل ويكشف عن اعماق سحيقة من الحياة الروسية . وتبدو هذه الومضة اشد خطفا للابصار اذا علمنا ان على اثرها تقريبا قد اطبق ظلام ابتلع شخوص هذا الحدث ولم يعد يتيح سوى التكهن باحتمال خاتمة تاريخية مغايرة .

الى جانب بوشكين اصبح شخص آخر بطلا رئيسا لهذه الاعياد .

تتذكر احدى النساء اللاتى قدر لهن ان يستمعن لدوستويفسكى فى هذا اليوم قائلة : «يبدو من حيث الانطباع الخارجى ان لا شيء يمكن ان يضاهى ذلك اليوم المصادف

٨ حزيران (يونيو) ١٨٨٠ ، عندما دوى فى قاعة مجمع النبلاء (١٠٠) الفسيحة الغاصة بجمهور المثقفين هدير عظيم بحيث خيل ان جدران المبنى سوف تنهار» .

لم يسبق قط ان اثارت خطبة امام الملأ مثل هذه العاصفة .

الصالونات وغرف الاستقبال وقاعات الطعام – تلكم هى حقول نشاط الادباء الروس . ولم يسبق لا لبوشكين ولا لغوغول ولا لبيلينسكى (١٠١) ان القوا خطابات امام جمهور حاشد . ولم يكن ليف تولستوى هو الآخر يمثل امام الجمهور الا فيما ندر .

فى عام ١٨٨٠ خاطب كاتب روسى لاول مرة المجتمع الروسى المتعلم ليس «عن طريق الادب» فحسب ، بل من على منبر اجتماعى «حقيقى» : منبر اكتسب ، بحكم الظروف ، طابعا وطنيا عاما . ولاول مرة تطرق خطاب يلقى بمناسبة خاصة (أدبية) الى مسائل عالمية .

كانت اعياد بوشكين تختلف اختلافا كبيرا عن تلك الاحتفالات الوطنية التى الفتها روسيا والتى لم يكن سواها ممكنا فى روسيا : اعياد التتويج ، تقديس الكنائس ، عودة القوات الظافرة ، مولد عضو جديد فى الاسرة المالكة ، الخ . . وكل الاحتفالات المذكورة وما شابهها كانت تقيهما الدولة على الدوام ، وكانت تبدر منها : فالسلطة ، والسلطة وحدها هى التى كانت مصدر وهدف المهرجانات العامة العلنية .

هكذا كانت الحال على الدوام ، وهكذا – كما كان يتهيأ – سوف تكون على الدوام : اذ لم يكن الحكم المطلق يعتزم التنازل لكائن من كان عن احدى ابرز صلاحياته . وجاءت احتفالات موسكو لتزعزع «عن غير قصد» هذا التقليد الحكومى الضارب فى القديم : كانت تبعات مثل هذا «الاختراق» تبدو مغرية للغاية .

كتبت مجلة «بشير اوربا» : «ان اعياد موسكو كانت أول عيد ادبى اجتماعى منذ عهد الامير ريوريك (١٠٢) ، سواء من حيث مناسبته او من حيث احياؤه» ، وقد «اكتسب من الحجم والاتساع ما كان يليق بالاحداث الوطنية» .

ان حادث الاغماء «التاريخى» الشهير الذى لم تنس ان تذكره ، فيما يبدو ، اية صحيفة روسية ، واى من كتاب المذكرات المتأخرين ، وهو حادث اغماء «شاب» اندفع الى المسرح

وهوى فاقد الوعى عند قدمى دوستويفسكى ، - ان هذا الحادث الذى كان من المفترض ان يعتبر طبيا محضا لم يجسم فحسب نجاح كاتب «الخطاب» فى فن الخطابة ، بل وكان تعبيرا «فسلجيا» الى منتهى الحدود عن الصدمة التاريخية العميقة التى كان يعيشها المجتمع الروسى .

ان الخطاب البوشكينى لا يدرك كنهه بمعزل عن الملابسات التاريخية الفعلية التى تمخضت عنه . علاوة على ذلك : ان انتزاع نص «الخطاب» من السياق الاجتماعى الفعلى «يحوّر» النص نفسه تحويرا ينطوى على قدر كبير من المفارقات .

ان ايا من مؤلفات دوستويفسكى لم يثر فى عهده هذا القدر الكبير من ردود الفعل : فقــد اثــار هذا النص الذى لا يتجاوز حجمه ملزمة طباعية واحدة كما هائلا من التعليقات والتقويمات والاعتراضات والتنديد ، كما طفحت به الصحافة الروسية بكل معنى الكلمة طوال عدة اشهر .

وكتب الكثير عن الخطـــاب البوشكينى ايضا بعد وفـــاة دوستويفسكى .

رغم ذلك ، وعلى حد تعبير الكاتب ، «يبقى ثمة سر كبير» .

لقد تحولت اعياد بوشكين الى ما يشبه برلمانا للمثقفين الروس ، اما على الصعيـــد الوطنى العام فقد تحول الى «ممهدة للبرلمان» .

وفى جو الازمة الوطنية العامة اخذ هذا العيد المبيت يكتسب مزيدا من الطابع السياسى الواضح . وكان المقصود ، بطبيعة الحال ، هو تجريب القوى فحسب ، بيد ان هذا **التجريب** النظرى فى ظروف روسيا (من المناسب هنا ان نتذكر راسكولنيكوف) كان يمكن ان يسفر عن تبعات تطبيقية غير متوقعة بتاتا .

منــذ ان اعتلى سدة الحكــم لوريس - ميليكوف - «نائب الامبراطور» - وهو الرهان الاخير لالكسندر الثانى فى صراعه مع الثورة ، تغير النهج الحكومى : لقد أدت «دكتاتورية القلب» ، مهما كانت الاعتبارات التكتيكية التى استرشد بها ملهموها ، - الى انحسار معين فى العسف الادارى وطغيــان الرقابة وما الى ذلك .

لقــد كان ربيع وصيف عام ١٨٨٠ فترة تاريخية قصيرة

لاسترداد الانفاس ، ونوعا من توازن القوى بين الثورة والرجعية . فبعد انفجار شباط (فبراير) فى القصر الشتوى ، وهو الانفجار الذى هز مخيلة مجايليه ، بدا ارهاب «ارادة الشعب» وكأنه توقف ظاهريا . وتوقف كذلك ارهاب «الجهات العليا» . وتكون انطباع بان كلا الطرفين يترقب . وكان يمكن ان يفهم هذا بمثابة اشارة او تلميح الى الاستعداد للحوار .

اما مسألة الى اين سيتجه البلد وباية صورة بالضبط سيتم هذا الانتقال فقد بقيت مفتوحة .

كان الليبراليون الروس يشعرون باقتراب يومهم الاغر : فالصراع الذى لم يشاركوا فيه ايما مشاركة تقريبا بات ينذر بالانتهاء لصالحهم .

جسدان فى جلباب ابيض

فى اليوم الذى اعقب افتتاح التمثال كتبت مجلة «العصر الحديث» تقول : «لا تزال ترتسم فى الذاكرة اعمال القتل والاغتيالات التى مارسها المتعصبون ، ولم تنمح بعد صورة المشنقة القاتمة» .

كانت اعياد بوشكين وليمة للروح ، لكنها وليمة فى زمن الطاعون . بيد ان هذه الاعياد كانت (كما اعتقد الكثيرون) يمكن ان تكون رمزا للابراء .

. . . فى صبيحة يوم ٦ حزيران (يونيو) هطل مطر ناعم ، ثم توقف ، غير ان الطقس ظل رماديا . «لقد قام اربعة من المصورين الفوتوغرافيين منذ ساعة مبكرة من الصباح بنصب اجهزتهم فى نقاط مختلفة» . (وللاسف ، أين هذه الصور ؟) . كان المندوبون يرتدون بدلات حفلات رسمية علقوا فى عراوتها شارات (كتب عليها بماء الذهب الحرفان أ . ب . *) ، وهم يحثون الخطى الى الكنيسة العليا لدير الرقود المقدس ، حيث كان مطران موسكو ماكاريوس يقيم القدّاس على روح الميت .

---

* الحرفان الاولان من كلمتى الكسندر بوشكين – المترجم .

كانت زوجة سوفورين الشابة تصلى على روح بوشكين وقد اغرورقت عيناها بالدموع متأثرة بروعة القدّاس وغناء المنشدين الساحر . وفجأة مس شخص كتفها . «حولت طرفى قليلا ، وقد ظننت ان احدا يطلب ، كالعادة ، نقل شمعة الى الايقونة . واذا بيد فارغـــة . فرفعت رأسى ، – ويا للهول – فرأيت فيودور ميخائيلوفيتش ، كمـا هو دائمـــا ، يتطلع فى عينيّ بعينين لامعتين نافذتى النظرات ويهمس : عندى لك رجـاء كبير . . . ولكن عدينى بان تلبّيه» .

واقتاد آنّا ايفانوفنا المرتبكة باتجاه الدهليز الجانبى ، مكررا «أتعدينى ؟» وظننت انه سيرجوها الآن ان تنقله بمركبتها ، لذا قالت باسمة انها ستلبى رغبته بسرور . «فتناول يدى وضغطها فى كفه بقوة وقال : «اسمعى ما سأقوله ! اذا وافتنى المنية ، احضرى جنازتى وصلّـى لاجلى مثلما صليتِ لاجل بوشكين ! لقد راقبتك طوال الوقت ، فهـل ستفعلين ؟ أتعدينني ؟» ودون ان يلتفت الى تلعثمها وارتباكهـا كرر بضراوة : «أتعدينني ؟» . فوعدته .

وخرج الى الساحة المزدانة باعلام حمراء وبيضاء وزرقاء ، والغاصة بوفود ورشات المدن ومندوبين يحملون اكاليل زهور . وكان الجمهور الغفير يضج ضجة صماء فى الشوارع المتاخمة ، وشغل الناس سطوح المبانى . وتحت رنين الاجراس وانغـــام النشيد سقطت ببطء ستارة القنب التى تداعبها الريح الى قدمى النصب .

هنا ينبغى التوقف والعودة بالذاكرة الى الوراء .

العودة بالذاكـرة الى الوراء ، ورؤية كيف كان قبل بضعة اشهر يقف هو ايضا فى الساحة ، وسط حشد قوامه خمسون الف شخص ، لكنه اجتمع فى الحقيقة لسبب مغاير . كان ذلك يوم ٢٢ شباط (فبراير) : يوم اعدام ملوديتسكى .

حشدان **وحدثان** لا يربط بينهمـــا ظاهريا ايمـــا رابط ، ويرمزان لطرفى نقيض ، طرفى عام ١٨٨٠ المحفور فى ذاكرته . ففى شباط كانت هناك احدى الفورات الاخيرة لموجة الدم ، موجة الارهـــاب الحكومى الآيل الى الخمود . وفـــى حزيران (يونيو) – الابتهـــاج المحتدم وصرخات الاعجاب والعناق والدموع – هو

الفورة الاولى لموجة اخرى متصاعدة : هى تلك الوحدة المنشودة التى خيل انها باتت قريبة ، باتت على وشك الحلول ، باتت «على الابواب» .

آنذاك ، فى ساحة عرضات سيميونوفسكويه ببطرسبورغ ، والآن فى ساحة تفيرسكايا بموسكو ، شمخ جسمان ملفعان **بجلبابين ابيضين** : بيد انهم آنذاك كانوا يقومون بالباس الجلباب ، أما الآن فهم يقومون بخلعه ، فيسقط ببطء ليكشف عن «مُحيّا النبل النحاسى» لذلك الذى كان عليه ، كما بسحر ساحر ، ان يضع حدا لتناحرات ازلية .

حالات اغماء في القاعة

استغرق الخطاب الذى القاه دوستويفسكى يوم ٨ حزيران (يونيو) ١٨٨٠ فى قاعة مجمع النبلاء بموسكو زهاء ٤٥ دقيقة . اما الحديث عنه فلا يزال مستمرا طوال مائة عام .

ويخبر دوستويفسكى آنّا غريغوريفنا بكلام متقطع ليلة الثامن من حزيران ، اى فى عشية خطابه ، قائلا : «يبقى علىّ تصحيح الخطاب وتحضير البياضات ليوم غد . غدا ساقدم عرضى الاول والرئيس . اخشى الا انال من النوم ما يكفى . اخشى حدوث نوبة» .

لم تحدث نوبة : لقد اغمى على آخرين .

كان من المقرر ان يتحدث أكساكوف (١٠٣) اولا ، لكنه حين رأى قلق دوستويفسكى الذى كان ، على حد تعبير اوسبينسكى (١٠٤) ، «يجلس بخشوع كاتما انفاسه قرب المسرح ومنصة الخطابة ، ويدون شيئا ما فى دفتره» (ألم يكن يدخل تعديلات على النص حتى اللحظة الاخيرة ؟) . نقول : حين رأى أكساكوف ذلك القلق غير المرئى للآخرين تنازل له عن دوره .

ولنترك الحديث لمجايليه .

د . لوبيموف (١٠٥) : «نهض دوستويفسكى واخذ يجمع اوراقه ثم تقدم ببطء نحو منصة الخطابة مواصلا بانفعال تقليب اوراقه ، وهى - كما يبدو - قوائم خطابه التى نقول بالمناسبة

انه لم يستخدمها تقريبا بعد ذلك . لقد بدا لى متضمر الوجه منذ يوم امس . كانت بدلته السوداء المخصصة للحفلات متدلية ، كما على المشجب ، وبات قميصه مدعوكا وربطة عنقه البيضاء الرديئة العقدة تكاد تنفرط تماما . وكان علاوة على ذلك يجرجر احدى ساقيه» .

اوسبينسكى : «عندما جاء دوره ، ارتقى منصة الخطابة «بخشوع» ، ولم تمض خمس دقائق حتى انبسط سلطانه على كل القلوب وعلى كل الافكار ، على كل نفس من نفوس الحاضرين فى الاجتماع ، دون استثناء . وتحدث ببساطة ، تماما كأنه يتحدث الى اشخاص يعرفهم ، دون ان يجهد نفسه فى اطلاق عبارات رنانة ، ودون ان يلقى رأسه الى الوراء . كان يقول للجمهور ما يخطر فى ذهنه عن بوشكين ببساطة ، وباسلوب مفهوم ، دون ادنى قدر من الاستطرادات او الاشارات الفائضة عن اللزوم . . . لقد وجد ممكنا – ان جاز القول – ان يأتى ببوشكين الى هذه القاعة كى يبلغ على لسانه الحشد المجتمع هنا بامور ما فى وضعه الراهن ، فى شواغله الراهنة ، فى كربه الراهن» .

ستراخوف : «حالما شرع فيودور ميخائيلوفيتش فى الكلام ، تحيرت القاعة وسادها الصمت . ورغم انه كان يقرأ نصا مكتوبا ، لم تكن تلك قراءة ، بل كان ذلك كلاما حيا نابعا بصدق ومباشرة من قرارة نفسه . اخذ الجميع يصغون اليه وكأن احدا لم يقل قبل ذلك الحين ايما شيء عن بوشكين . . . وما زلت اسمع حتى الآن كيف كان يتعالى فوق الجمهور الحاشد والكاتم انفاسه صوته المتوتر المفعم بالمشاعر : «اذعن ، ايها الانسان الابى ، اكدح ، ايها الانسان الخامل !»» .

فاسيليفسكى (١٠٦) : «لقد اعتلى المنبر قلقا ، منفعلا ، شاحبا . كان المرء يحس فيه بواعظ ومتعصب ملهم ذى مزاج شرس . . . كان صوت دوستويفسكى ضعيفا بطبيعته ، لكنه قرأ . . . قراءة رائعة . . .» .

ميخنيفيتش (١٠٧) : «ولكن هنا قد اعتلى منصة الخطابة رجل رديء المنظر ، نحيف ، مقوس الظهر ، ذو وجه جاف يفتقد الى الوسامة ، كورق الرق الاصفر ، وذو عينين غائرتين عميقا تحت

جبين بارز حرثته التجاعيد . اعتلى المنبر بخطوات خجلى خرقاء ، ثم انحنى فوق حامل النص . . . وفتح دفتره وطفق يقرأ بصوت ضعيف منهوك ، دون ايما حذلقات خطابية ، وكأنه يعتزم القراءة لنفسه وليس امام جمهور حاشد . . .»

حين تقرأ مذكرات معاصريه تجدهم يلاقون صعوبة فى التخلص من انطباع كونهم قد اصبحوا شهود معجزة .

وكان دوستويفسكى نفسه يعتبر ذلك معجزة ايضا .

«عندما اعلنت اخيرا عن **وحدة البشر العالمية** ، كانت القاعة حين اختتمت كلامى وكأنها قد اصيبت بهستيريا ، - ولم اقل لك عن الهدير وصرخات الاعجاب : كان بين الجمهور اشخاص لا اعرفهم يبكون وينتحبون ويعانق بعضهم بعضا **ويعاهد كل منهم الآخر** بانه سيغدو افضل ، **ولن يضمر احدهم حقدا للآخر ، بل سيكن له الحب** . لقد اختل نظام الاجتماع : واندفع الجميع نحوى الى المسرح : فنساء المجتمع الراقى والطالبات والامناء الحكوميون والطلبة - كل هذا الجمع كان يعانقنى ويقبلنى . . . واستمرت هتافات استدعائى نصف ساعة . . .»

تحليل النص

فى وقت لاحق سجل ستراخوف فى مذكراته : «ما زلت اسمع حتى الآن كيف كان يتعالى فوق الجمهور الحاشد الكاتم انفاسه صوته المتوتر المفعم بالمشاعر «**اذعن** ، ايها الانسان الأبى ، اكدح ، ايها الانسان الخامل !» .

جاء فى الخطاب : «**اذعن** ، ايها الانسان الأبى !»

فما الذى يدعو دوستويفسكى الى الاذعان امامه ؟

ربما كان المقصود هو الاذعان امام قوة خارجية ما ، امام هيبة الكنيسة او الدولة ؟ ام هو يقصد الاذعان الدينى المحض ، التخلى عن العالم ؟ ام انه يقصد - اخيرا - الاذعان كجمود روحى مطلق ، كرقود ، كهدوء وجدانى ؟

ان الفكرة التى توحد كل ابداع دوستويفسكى تبدو للوهلة الاولى بسيطة غاية البساطة ، وهى ان الحياة لا تعطى اعتباطا ،

و«رأس المال باسره» لا يقتنى بطريقة **آلية** . فالانسان كشخصية ليس وحدة مكتملة معطاة ، انه **عملية** تتطلب عملا روحيا لا يعرف الكلل («هنا الانضباط») . ان الانسان لا يحوز «حق البكورة» التلقائى : بل يجب ان «**ينصنع**» انسانا ، فالسعادة ليست شيئا جاهزا ، منزّلا بالنسبة للشخصية وانما هى **عملية** ايضا ، كمية متغيرة ترتهن بالانسان نفسه .

ان اعادة بناء العالم تلوح مرتبطـــة اوثق الارتباط بـ«اعادة بناء» شخصية الانسان .

بطبيعة الحال ، كل هذا عند توفر الرغبـــة يمكن عزوه الى ميدان اخلاقية الشخصية ، الى الميدان الذى يفترض ان يكون بمنأى عن الصراع الاجتماعى الفعلى . ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن هذه المعضلات لم تكن تقلق سوى بعض المفكرين كتولستوى ودوستويفسكى ، دون ان تشغل ايما مكانة فى الوعى الثورى الروسى .

ان الامر ليس كذلك .

«ليسأل كل انسان نزيه نفسه اذا ما كان هو مستعدا . واذا ما كان واضحا بالنسبة له ذلك التنظيـــم الجديد الذى نسير نحوه . . . وهل هو يعرف العملية (فضلا عن مجرد الهدم) التى يجب ان يختتم بها تحول الاشكال القديمـــة الى هذا التنظيـــم الجديد ؟ وليقل ، ان كان هو راضيا شخصيا عن نفسه ، اذا ما كان مستعدا ذلك الوسط الذى يتوجب عليه حسب مكانته ان يبادئ بالانخراط فى القضية» .

لقد قيلت هذه الكلمات قبـــل الخطاب البوشكينى بعشر سنوات . علما بأن الذى نطق بهـــا هو اشهر «جوّابى الآفاق الروس» . اذ يعنونها هيرتسن (١٠٨) الى «جوّاب آفاق» آخر هو باكونين (١٠٩) ، الانسان المتعصب فى وفائه لفكرته ، لكنه لا يرى شكلا آخر للعمل التاريخى سوى «مجرد الهدم» .

المقصود هنا هو النزاهة وصفـــاء الذهن والمسؤوليـــة الاخلاقية .

يقول هيرتسن فى رسالتـــه : «ان كل العالم البرجوازى المنسوف بالبارود ، حين يركد الدخان وترفع الانقاض ، يبتدئ من جديد **بعالم برجوازى ما** مع تغييرات مختلفة ، لانه **لم ينته**

داخليا وكذلك لأن لا العالم البانى ولا التنظيم الجديد لا يملكان من الاستعداد ما يكفيهما للتعزز والارتفاد ابان التطبيق».

لقد ورد فى «يوميات كاتب» لعام ١٨٧٧ : «من غير الجائز ان يصبح المرء انسانا دفعة واحدة ، بل ينبغى ان ينصنع انسانا . هنا الانضباط . . . ان المفكرين يجاهرون بالقوانين العامة ، اى بتلك القواعد التى تجعل الجميع على حين غرة سعداء دون ايما انصناع . حسب هذه القواعد ان تحل . وحتى لو كان هذا المثال الاسمى ممكنا ، لما جرى مع الناس **غير المكتملى الصنع** تطبيق اية قواعد ، حتى اكثرها وضوحا وانكشافا» .

يتحدث دوستويفسكى عن «الناس غير المكتملى الصنع» ، وهيرتسن يقول ان العالم القديم لم ينته «داخليا» أى فى صلب الانسان نفسه . وعليه فأن دوستويفسكى وهيرتسن يتحدثان عن شيئين متقاربين جدا .

ان هيرتسن فى اواخر حياته تشغله بشدة النواحى الاخلاقية من الانقلاب الثورى . لذا فهو يرى الشرط البالغ الضرورة لهذا الانقلاب فى ان تتوفر لدى الثوريين تحديدا تلك الصفات التى تساعد بالضبط – حسب رأى دوستويفسكى – على «ان ينصنع المرء انسانا» . يقول هيرتسن : «من غير الجائز تحرير الناس فى الحياة الخارجية اكثر مما هم احرار **داخليا**» . فمن غير الجهود الروحية الداخلية تكون العملية التاريخية مثيرة للشكوك .

ان «الانسان الأبى» لدى دوستويفسكى هو «الانسان الخامل» ، وليس الشخص المتسم بمزايا الكرامة الاجتماعية المفترضة . ففى مسعاه الى المثال العالمى الاسمى لا يفعل شيئا فى سبيل تقريب نفسه اليه . وهو «انسان خامل» ليس فقط بسبب عدم رغبته فى مزاولة العمل فى «ميدانه الطبيعى» ، بل كذلك بسبب عدم اكتراثه بـ«أناه» الاخلاقية ، بسبب خوفه من العمل الداخلى الجاد .

يقول دوستويفسكى فى «يوميات كاتب» : «قبل ان تعظوا الناس «كيف عليهم ان يكونوا» أرونا ذلك على انفسكم . طبقوا ذلك على انفسكم وسيتبعكم الجميع . ما الطوباوى وما المستحيل فى ذلك – لا أدرى ! . . . ان «تمالك النفس وتجاوز النفس» هو ما يكمن فيه «سر الخطوة الاولى» .

ان مثل هذا «الاذعان» يعنى العمل («انصناع الانسان») .
«ليس لدى الغجر ، ولا فى اى مكان آخر انسجام عالمى ، اذا كنت انت اول من لا يستحقه ، اذا كنت حقودا أبيا ، تطلب الحياة بالمجان حتى اذا كنت تفترض وجوب دفع ثمنها» .

ان «الاهداف السامية» لا تلغى بتاتا ، ولكن يعين لها ثمن باهظ . فاعادة بناء العالم ترهن ارتهانا صارما بالقيمة المعنوية لمن يقدم على مثل هذا الفعل .

لقد جرى لاول مرة فى الادب الروسى الكشف عن هذا الاقتران القطعى بين جانبى السلوك الاجتماعى «الداخلى» و«الخارجى» .

بطبيعة الحال ، لقد استطاع من كان يرغب فى ذلك ان يحول (وقد حول بالفعل ، كما سنرى) هذه الـ«اذعنْ» الى **نمط اصل** للثورة .

من المجانب للعدل الادعاء بان «الخطاب» يخلو من اية «ذرائع» فعلية لهذا الضرب من التأويلات . علاوة على ذلك : من الواضح ان دوستويفسكى نفسه كان يسعى الى ان يفهموه على هذا النحو «منذ التعامل الاول» معه . ولكن من المستبعد انه كان يتوقع ان يكون هذا «التعامل الاول» هو التعامل الاخير ايضا : لقد فهموه على هذا النحو **فقط** ، متجاهلين كل **ما تبقى** «بسبب انتفاء الحاجة» .

يشار فى الخطاب اشارة صريحة الى «جوّابى الآفاق الذين يلقون بانفسهم فى احضان الاشتراكية» ، وسارع المحافظون الى استغلال ذلك : فعلى السنتهم باتت «أذْعِنْ» تكتسب مغزى **مطلقا** ، وتحولت الى ما يشبه الحظر على اية محاولات تبذل فى سبيل بلوغ المثال العالمى الاسمى . وكان اقل ما يشغل بالهم هو الجانب الاخلاقى من موعظة دوستويفسكى : اذ لم يكن يهمهم سوى مغزاها السياسى الآنى ، **التطبيقى** .

وللاسف لم ينبر احد لمعارضتهم .

بيد ان خلاصة القضية هى ان صيغة دوستويفسكى سلاح ذو حدين .

حين رأى دوستويفسكى ان أليكو «يزاول بحقد التعذيب والاعدام جراء الاساءة اليه» ، نجده يضيف «على حين غرة» : «او حتى من الاروح انه حين يتذكر انتماءه الى احدى الطبقات

الاربع عشرة ، ربما سوف ينادى شخصيا (لان هذا قد حدث ايضا) بالقانون الذى يسمح بالتعذيب والاعدام ، ولسوف ينادى به حسبه ان ينتقم لما أُلحق به شخصيا من اساءة» . انها لكلمات ملغوزة .

لقد اسلفنا ان الدولة بالنسبة لدوستويفسكى هى نفس ذلك «الانسان الابى» ، شأن أليكو . والنظام الملكى الروسى الذى قسمه «العدمى» بطرس الاكبر الى اربع عشرة طبقة هو نفس «جوّاب الآفاق التاريخى» ذلك ، شأن أليكو نفسه . انه يتصف بنفس القدر من «الفنطازية» ، وبالتالى لا يمكن ان يتجسد فيه ، بالطبع ، مثال الشعب الاسمى .

الاخلاقية بصيغة الجمع

مع الاقرار بأن الخطاب البوشكينى ينطوى على «موعظة جبارة عن الاخلاقية الشخصية» يشير غرادوفسكى (١١٠) الى مؤلفه بأنه يخلو «حتى من التلميح الى المثل الاجتماعية العليا» .

يتفق احد المعلقين المعاصرين على الخطاب البوشكينى مع هذا الاستاذ الليبرالى اتفاقا لامشروطا فيقول : «ان اشارة غرادوفسكى الى تسلط المثل الاجتماعية العليا فى التاريخ على المثل الاخلاقية ينبغى الاعتراف بصحتها» .

الا يعتبر هذا الاتفاق متسرعا جدا ؟

ان الاعتراف بأن المثل الاجتماعية العليا فى التاريخ تتسلط على المثل الاخلاقية يعنى تجريد الاولى من مغزاها الذاتى . لذا فأن اعترافا كهذا يعتبر عابثا : فالمثال الاجتماعى الاعلى – بحكم كونه مثالا أسمى – لا يمكن ان يكون خارج النطاق الاخلاقى . وليس بالامكان سوق أى مثال على ان شكلا ما من اشكال الايديولوجيا قد شيد وجوده يوما على حجج تخرج على الاطار الاخلاقى . اما كونه قد لا يقتصر على هذه الحجج فتلك مسألة اخرى .

ليس المثل الاجتماعية فى التاريخ تتسلط على المثل

الاخلاقية ، بل أن **بعض** المثل الاجتماعية (وبالتالى الاخلاقية ايضا) يتسلط على **بعضها الآخر** .

يرد دوستويفسكى على غرادوفسكى قائلا : «ان مصدر قوة الفكر الاخلاقى العظيم ومصدر كونه يجمع البشر فى اتحاد متين للغاية هو انه يقاس ليس بفائدته الفورية ، بل لانه يوجه البشر نحو المستقبل . . . فبم تجمع انت البشر فى سبيل بلوغ اهدافك المدنية اذا لم يكن لديك الاساس فى الفكرة الاخلاقية الاولية العظمى ؟» .

ان المثال الاخلاقى للخطاب البوشكينى هو **فى الوقت ذاته** مثال اجتماعى ايضا . فلا يمكن اصلا ان يكون شيئا آخر التطلع «الى الوحدة العالمية الانسانية الاخوية الشاملة» . والصفة العالمية والانسانية الشاملة يعتبرها الكاتب بالنسبة للامة الشكل الوحيد لوجودها الاجتماعى . بينما تتحول المسائل الاخلاقية الفردية الى مجال السلوك الاجتماعى .

ويمضى دوستويفسكى الى القول : «فلتعلم ايها الاستاذ العالم ان المثل الاجتماعية المدنية بحد ذاتها ، باعتبارها غير مرتبطة عضويا بالمثل الاخلاقية ، بل هى موجودة فى ذاتها ، بهيئة شطر منفرد قطعته من كله المكتمل سكينتك العلمية ، وباعتبارها — اخيرا — قابلة لان تؤخذ من الخارج وتغرس بنجاح فى اى مكان جديد يحلو لك ، بهيئة «مؤسسة» منفردة ، اقول ان مثل هذه المثل لم يكن لها وجود قط من قبل ، ولا يمكن لها ان توجد !»

المقصود هنا هو تعذر تجزئة الاخلاق . فالقانون الاخلاقى واحد : ومفعوله لا يمكن ان يسرى «بما يناسب حالة بعينها» . ان مؤلف الخطاب البوشكينى لا يدلى لاول مرة بهذه الفكرة التى يدافع عنها باصرار مذهل : فهى موجودة فى «يوميات» عام ١٨٧٧ . «ما كان حقيقة للانسان كفرد ، فليبق حقيقة بالنسبة للامة بأسرها» .

ودوستويفسكى ليس وحيدا فى قناعته هذه .

قبل الخطاب البوشكينى بستة عشر عاما قدم ماركس فى البيان التأسيسى لجمعية العمال الدولية صيغا لاهم وابرز اهداف البروليتاريا . واحدى هذه الصيغ تتلخص فى «ان تكون قوانين

الاخلاق والعدل البسيطة التي يجب ان يسترشد بها الافراد فى علاقاتهم ، هى اسمى القوانين فى العلاقات بين الشعوب» .

ان «دمعة الطفل» فى هذه المجموعة من الاحداثيات الخلقية لها قيمة مطلقة .

الخطاب كأدب روائى

للخطاب البوشكينى عنوان ثانوى تصنيفى صارم هو : «صورة قلمية» . وكان بمقدور مؤلفه ان يضيف اليـــه بجرأة نعت : «فنطازية» .

ان بوشكين هو **الحجة الاخيرة** (ولربمـــا الوحيدة) للخطاب البوشكينى . ذلك ان بوشكين هو الشخص الاكثر فنطازية فى مجمل ما تمخض عنه الواقع الروسى . وبوشكين نفسه هو الواقع الاسمى (ولربما الوحيد) فى هذا الواقع .

يقول دوستويفسكى : «لو كان فكرنـــا محض فنطازيا ، فأن بوشكين هو – على الاقل – ذلك الاساس الذى تقوم عليه هذه الفنطازيا» . وما الاستشهاد ببوشكين مجرد اشارة الى تجربته الفنية . انه ايضا اشارة الى بوشكين **نفسه** ، الى شخصيته ، الى مجمل ما تتسم به **ظاهرته** من صفات عملاقة . بيد ان القضية هى ان «بوشكين نفسه» يبرز لدى دوستويفسكى بمثابة كمية فنية معينة .

فى غضون خمس واربعين دقيقة تسنى لدوستويفسكى ان **يقنع** روسيا بأهمية بوشكين العالمية ، وان يقنعها لا عن طريق البراهين المنطقية ، بل بقوة المنطق الفنى .

القضية هى على هذا النحو بالذات . دع عنك ان مؤلف «الخطاب» يحاول لدقيقـــة «التظاهر» بمظهر الباحث البيوغرافى (رغم انه يستدرك خصيصا بانـــه ليس ناقدا) ، ويقسم ابداع بوشكين الى «ثلاث فترات» ، ودع عنك انـــه «يرتدى لبوس» المؤرخ او الفيلسوف ، مثلا ، فى بعض الاحيان ، رغم ذلك فهو ليس الاول ولا الثانى ولا الثالث . انه ليس «سوى» من هو **فى واقع الحال** .

ولعل الخطاب البوشكينى كان اول محاولة لقراءة بوشكين «عالميا» ، محاولة لترجمته من السياق الادبى الى المجال الاخلاقى التاريخى .

بيد ان المفارقة تتلخص فى كون هذه «الترجمة» قد تمت بالوسائل **الادبية** بالذات .

«لقد توفى بوشكين وهو فى كامل تطور قواه ، ومما لا جدال فيه انه حمل معه الى اللحد سرا عظيما معينا . وها نحن الآن نحاول بدونه ان نفك لغز هذا السر» ، - هكذا اختتم دوستويفسكى خطابه . ويجرى «فك لغز السر» ليس عن طريق فك الالغاز المنطقى ، بل بمقولات التفكير الفنى .

يجرى تلقى بوشكين ومصيره بمثابة قيمة فنية معطاة ، بمثابة «اسطورة» تتمتع بحياتها الفنية الذاتية . والاستيعاب الاكثر تماثلا لهذه «الاسطورة» يجرى بصيغ تمت بالقربى لطبيعته الذاتية : أى تجرى معرفة الفنى عبر الفنى .

بالامكان تناول كل مقومات الخطاب البوشكينى كعناصر مترابطة فيما بينها لبنية تعبيرية واحدة ، حيث تكون لمفاهيم مثل «بوشكين» و«تاتيانا» (١١١) و«الشعب الروسى» و«جوّاب الآفاق» و«الانسان الكلى» الخ ، ليس فقط وظيفة «صريحة» صحفية مباشرة ، انما لها ايضا مغزى فنى «اضافى» . وهذه «الاضافية» بالذات هى التى وفرت الممهدات اللازمة لتقبل «الخطاب» بشكل «تعددى» كثير الجوانب ، ولخروجه عن اطر الجدل «التطبيقى» الآنى ، وصولا الى عمق تاريخى مغاير .

هكذا بالضبط جرى تقبل «الخطاب» فى لحظة القائه . وكان دوستويفسكى نفسه فى تلك اللحظة صورته الفنية المرئية «المتشيئة» . وبانفصاله عن النص قد تحول الى مجرد «مؤلف» (أو فى افضل الحالات الى «بطل روائى») : لقد «تعرى» النص . واكتسبت «اذْعِنْ» المجردة من **صوتها** الذاتى نبرة **غير نبرتها** : أى تحولت من صرخة امر تهديدية (حكومية !) الى موعظة راهب هامسة .

كانت طبيعة الخطاب البوشكينى الروائية عنصر اثارة بالنسبة لما يتنامى على اثره من عاصفة صحفية . فـ«الخطاب» الذى «تظاهر بمظهر» الادب الصحفى هو ما تم تلقيه بهذه الصفة . ولم يقم

منتقدو «الخطاب» (وما كانوا ملزمين بأن يقوموا اصلا) «بتعديل على النص» . لكنهم حين اجتزؤوا من «الخطاب» هذه او تلك من المقاطع وقاموا بدحضها دون عناء يذكر ، لم يكن بوسعهم الا ان يشعروا بنوع (ربما خفى) من عدم الرضـــا . اولا ، انعكس «الباقى» ، وهى ما افلت من عقال تحليلهم ، وثانيا ، اربكهم نجاح «الخطاب» المنقطع النظير (أليس هذا هو ما جعل منقديه يستخدمون مفاهيم شبه غيبية مثل «الكسوف» و«الجائحة» الخ) .

واقتضى الامر ان يجرى «توضيح» دوستويفسكـــى (على حد تعبير ايفان بيزدومنى (١١٢) ، بطل بولغاكوف ، لو قدر له ان يدلى برأيه) .

النص والمكنون

يقول دوستويفسكى فى رسالة بعث بها الى س . تولستايا (أرملة الشاعر اليكسى تولستوى) بعد الخطاب البوشكينى بأربعة ايام : «لا تقلقى ، سوف اسمع قريبا «ضحك الجموع الباردة» . فهذا ما لن يغفر لى فى المنعطفات والاتجاهات الادبية على اختلاف مشاربها» .

كان الامر يقتضى بذل جهد ارادى معين كى يتسنى – على حد تعبير غليب اوسبينسكى «ان يثوب المرء الى رشده بعد الفال الذى فتحه دوستويفسكى» . وليس عبثا انه أسمى مقاله الثانى عن الخطاب البوشكينى (والذى ارسله بعد مقاله الاول المتعاطف تماما) بعنوان «فى اليوم التالى» .

«فى اليوم التالى» كانوا وكأنهم استعادوا رشدهم . واقتضى الامر مقارنة الانسجام بالجبر . وابتدأ **تفكيك** المغزى الروائى لـ«الخطاب» ؛ فبديهى ان كل صلاته الداخلية قد اختلت ابان ذلك ، لذا فالمبنى الذى كان منذ وقت قريب يبدو شامخا قد انهار انهيارا مشينا ، لتعجب الباحثين الكبير .

وانحسر الجـــدل حـــول بوشكين الى السؤالين الروسيين الازليين : «ما العمل ؟» و«من المسؤول ؟»

لقد حاولوا العثور فى الخطاب البوشكينى على اجوبة «مباشرة» .

في عام ١٨٨٨ كتب تشيخوف الى سوفورين يقـــول :
«. . . انت تخلط بين مفهومين : **حل المسألة والطرح الصحيح للمسألة** . الا ان الثانى يعتبر الزاميا بالنسبة للفنان . فى «آنّا كارينينا» وفى «اوجين اونيغين» لم يجر حل أى سؤال ، لكنهما يحظيان برضاك التام لا لشيء ، الا لأن كل المسائل قد طرحت فيهما بشكل صحيح» .

لقد طرح الخطاب البوشكينى مسائله ، «متظاهرا» بانه يجيب عنها . كان هذا الخطاب خطا فنيا منقطا يشق عتمة التاريخ ، لكنه ليس سوى خط منقط . فما كان من المفترض ان يرضى الجميع لم يحظ برضا احد .

كان عام ١٨٨٠ يتعطش لايعازات ملموسة وينتظر ثمارا ملموسة وسريعة . كان يتطلب «صيغة الانتقال» .

ولكن هيهات . فما «اقترحه» دوستويفسكى لم يكن لا برنامجا سياسيا فعليا ولا ارشادا يتعلـــق بالتطوير الفورى للاعراف الاجتماعية . لقد كتبت مجلة «نيديليا» : «ان آراءه (أى آراء دوستويفسكى - **المؤلف**) تعانى نقص الروح العملية ، وتعوزها الدرجات الانتقالية الضرورية ، بطبيعة الحال . بيد انه لا تطمح اصلا الى الروح العملية : فهو كراديكالى مثالى ، ان جاز التعبير ، ينظر بعيدا الى الامام ويرى هناك نجما ساطعا ويدعو اليه ، وليس من شأنه ان يرشد الى الطريق : انه حامل المثال فحسب . أفهل هذا المثال معيب فى اساسه ، لأنـــه منقىّ من المخاليط الطارئة ؟ . . . ايها السادة ، ان القاء الوحل على مثل هذه الاشياء يعنى قيام المرء بتلويث نفسه» .

لم يلجأ مؤلف «الخطاب» الى استخدام «المفاهيم» ، بل استخدم جملة من المدلولات الفنية التى اعطت بمجموعها مردودا فنيـــا معينا . لقد كان الخطاب البوشكينى «نبوءة» ، شأنه شأن بوشكين نفسه .

لقد ادى «فك الغاز» «الخطاب» الذى اقدم عليه النقاد الروس الى استيعائه بمقولات التفكير الخارج عن الاطار الروائى : فكانت «الترجمة» غير مطابقة .

فهل يحق لاحد ان يتهم دوستويفسكى برفض قضية فعلية ، وبتعليل النفس باوهام جوفاء ، بل وحتى بكونه قد حول خطابه

الى «وعظ مبتذل جدا بالفناء التام» . وربما كان «رد الفعل الثانى» يتجاوب مع الخطاب البوشكينى بشكل اوفى من الفوران العفوى الاولى ؟

ولكن ليسوا اطفالا صغارا ، فى آخر الامر ، من كانت قاعة مجمع النبلاء الموسكوبى تغص بهم يوم ٨ حزيران : أيعقل ان دوستويفسكى قد تمكن من ان ينومهم جميعا «مغناطيسيا» ؟

كلا ، ان مستمع عام ١٨٨٠ لم يكن على هذا القدر من البساطة . وقد حدث ما كان يجب ان يحدث . ان بضعة من العوامل التى «مارست مفعولها» فى آن واحد قد اعطت مردودا كان من المتعذر التنبوء به سلفا .

ان الخطاب البوشكينى تركيز فنى لكل ما حاول دوستويفسكى التعبير عنه فى «يوميات كاتب» . وهو «يوميات» ايضا ، سوى انها تعميم روائى بلغ حده الاقصى الذى كان يسعى اليه على الدوام (لكنه فى الحقيقة لم يكن دائما يبلغه) . ومن دون «اصطفاف» ، من دون «انتظام» فى صورة صارمة ومكتملة لفهم موحد للعالم ، غير متناقض داخليا و«متقن الصنع» عقلانيا ، احتفظ الخطاب البوشكينى بوحدته المتكاملة المدهشة على صعيد مغاير . انه وحدة شاملة وجبارة لما كشف عنه فيه من **احساس بالعالم** . انه الصفة غير القابلة للتجزئة التى يتسم بها ما له من «صيغة امر قطعية» وما له من كيان وجدانى ومكنون روحى هائل . وهو – اخيرا – اجتماع كل الخطوط «الطرفانية» و«العالمية» فى بؤرة فنية واحدة هى بوشكين .

وانعكست فى «الخطاب» ابرز السمات المميزة لعبقرية دوستويفسكى المبدعة : قصوانيته الاخلاقية ، تلقيه المرهف للتاريخ الروسى والفرد الروسى ، حزنه وسورة انفعاله العالمى .

كل هذا كان لابد ان يشعر به الجمهور .

ولكن ، لو قُدّر للخطاب البوشكينى ان يلقى بعد عام او قبل عام من موعده ، لما كان له مثل هذا التأثير . ففى عام ١٨٨٠ كانت شحنته الروحية الذاتية مضاعفة بفعل الموقف الاجتماعى الفعلى . وكانت صفته الحماسية متناغمة مع شعور **الانتظار التاريخى** الملتهب . وهذا التطابق الروحى هو الذى اعطى هذا «المردود الرنان» .

ويمكن الافتراض ان خطاب دوستويفسكى كان يتجاوب ايضا مع التوقعات الحدسية التاريخية الابعد زمنيا . فقد برزت روسيا «محزونة ومتأوهة» على مقدمة المسرح العالمى : فقد كتب على الثورة الروسية ان تستوقف «حدقة العالم» . ليكن مصير روسيا قد نشأ «على خلاف ما أراده دوستويفسكى» : ان جسامة هذا المصير لم تخدع توقعاته الحدسية .

«لقد اعتلى اكساكوف (ايفان) المسرح راكضا واعلن للجمهور ان خطابى **ليس مجرد خطاب ، انما هو حدث تاريخى** ! كان السحاب يحجب الافق ، ولكن خطاب دوستويفسكى ، كشمس بازغة ، بدد كل شىء وانار كل شىء . ومنذ هذا الحين تحل الاخوة وينتفى الذهول» .

لذا كانت الصحوة اكثر مرارة بكثير .

عجائب التأويل

كتب اوريست ميللر : «ان تمثال بوشكين لم يجمعنا فى كل واحد الا لدقيقة واحدة ، ولا يبقى امام ميفستوفلس الروسى سوى ان يفرك يديه جذلا ويردد : « divide et impera » * .

فقد اصبح واضحا «فى اليوم التالى» ان الاعياد فى جوهر الامر لم تزد على انها اججت المشاعر فحسب .

ان «البرلمان» الروسى الاول لم يبرر الآمال التى عقدت عليه . فقد اتضح «فجأة» ان فئة المثقفين (ككتلة مكتملة) ليس بامكانها ان تغدو تلك القوة التاريخية القادرة على تزعم عملية التجديد القومى .

أليس هذا هو السبب الذى جعل دوستويفسكى يتجه ببصره فى «يومياته» قبيل وفاته صوب الجانب **الآخر** الذى لا يزال ممكنا — فى ظنه — ان يُنتظر منه الخلاص ؟ ان الشعب هو الرهان الاخير لمؤلف الخطاب البوشكينى .

كان دوستويفسكى نفسه يرغب طوال حياته فى ان يسمعه

---

* فرِّقْ تسُدْ .

الآخرون . وقد حدث هذا ، اخيرا ، عام ١٨٨٠ . وعلى الفور ظهرت الاتهامات الموجهة اليه بالهستيريا والعته وما الى ذلك من نعوت .

وفى عهد دوستويفسكى كان بالامكان أن يفهم ذلك على هذا النحو بالذات .

لقد كتب دوستويفسكى ذات يوم انه لو قُدِّر ابان زلزال لشبونة لشاعر محلى ان ينظم قصيدة «الهمس والانفاس الوجلة . . .» ، لقام اهالى لشبونة المستأوون باعدام هذا الشاعر التعيس امام الملأ (ولكنهم ، - يضيف دوستويفسكى - كانوا سيقيمون له فيما بعد تمثالا فى احد الميادين) . وها هو الآن قد الفى نفسه - على غير ارادة منه - فى مثل هذا الدور : ففى الفترة بين انفجارات قنابل «ارادة الشعب» كان يمكن للدعوة الى الكمال الخلقى ان تبدو سخرية جارحة .

ان كل بنية روائية غير وحيدة المدلول يمكن بهذا القدر او ذاك ان تؤوّل تأويلا وحيد المدلول . اذ يمكن عند توفر الرغبة ان تفسر «الحرب والسلام» و«آنّا كارينينا» و«الآباء والبنون» و«الجريمة والعقاب» (وقد جرى تفسيرها بالفعل فى احيان غير نادرة) بأنها مؤلفات رجعية . وديمومة مثل هذه السمعة ليست مرهونة بـ«المقاومة الداخلية» للنص فحسب ، بل ايضا بعوامل خارجية : وفى المقام الاول بتأصل هذه او تلك من وجهات النظر فى العرف الادبى التاريخى .

ان قصة استقبال الخطاب البوشكينى دراميـة وتنطوى على الكثير من العبر . اذ ان هذا الخطاب الذى استقبله **مستمعوه** باعجاب ، مَثُل «فى اليوم التالى» امـام **قرّائه** بصفة مغايرة تماما . وما ان ظهر الى النور حتى اصبح على الفور ورقة مؤثرة فى الصراع السياسى .

وجرى على الفور لعب هذه الورقة : فقد سارع الى تبنى «الخطاب» من لم يكن يتمتع اصلا بحق الابوة الروحية .

لقد اسلفنا ان دوستويفسكى قد بذل آخر محاولة فى الادب الروسى لمزاولة «الوصاية الروحية» على سلطة الدولة . فلماذا كانت النزعة ذاتها على هذا القدر من الحيوية والديمومة ؟

ان الحكم المطلق الروسى ، مهما بدا ذلك غريبا ، لم يتسن

له على مدى عهود طويلة ان يضع لنفسه ايديولوجيا مناسبة له ومثبتة «ادبيـــا» . فهو يبنى نشاطه الخلقى على التقاليـــد والتراث ، وعلى قوة الاستمراريـة التاريخية او – فى افضل الحالات – على الصيغ المؤثرة ظاهريا كصيغة اوفاروف . فالحكم المطلق ، كونه قيمة تاريخية معطاة ، لا ينطبق بتاتا مع مـــا «اقترحه» عليه – فى اوقات مختلفة – بوسوشكوف ودرجافين وكارامزين وبوشكين وغوغول ودوستويفسكى .

وفى لحظة الازمة (وهذه اللحظـة هى التى كانت فى عام ١٨٨٠) كان ممكنا ان يخيل ان السلطة – بحكم غياب «توجهها الفكـــرى» – سوف تتبنـــى وتصادق على احـــد المذاهب الايديولوجية «الغريبة» المقترحة عليها . وكان بامكان اتباع الفكرة السلافية ، من امثـــال ايفان اكساكوف ، والليبراليين «على طراز تورغينيف» ، ان يأملوا (وقد عقدوا الآمال بالفعل) ان يقع الاختيار عليهم لا على غيرهم .

وكان بمقدور دوستويفسكى هو الآخر ان يأمل ذلك . فهو يقترح «بديله» . بيد ان القبـول الجاد بمثـــال الخطاب البوشكينى كان من شأنه ان يعنى الانتحار بالنسبة للحكم المطلق .

لذا فقد فضل النظام الملكى فى روسيـــا برنامجا مغايرا تماما – هو برنامـــج بوبيدونوستسيف وكاتكوف – باعتباره افضل ما يتجاوب مع طبيعته التاريخية . وقد فعل ذلك فور ما احس بالثقة بالنفس .

ان ما تحدث عنه دوستويفسكـــى فى «يومياته» الاخيرة («استدعوا اصحاب الزبون * الرمادى» (١١٣)) قد دفن بسرعة عام ١٨٨٢ ، ولم يفعل ذلك سوى بوبيدونوستسيف وكاتكوف المذكورين : ان الانهيـــار النهائى لفكرة المجمع الملى اصبح كارثة ايضا بالنسبة «لحزبنـــا» (اذا مـــا نسب اليه ايفان اكساكوف) .

العمر لم يمتد بدوستويفسكى الى هذا الحيز . لكنه الآن ،

---

* الفلاحون فى العراق حصرا يستخدمون نفس هذا اللباس بنفس الاسم وهو اشبه بالقفطان – **المترجم** .

فى عام ١٨٨٠ ، كان **يلزم** بوبيدونوستسيف ويلزم كاتكوف . فهو حليفهما الرسمى ، وهو القوة الجادة الوحيدة من **طرفهما** . وليس عبثا ان تصر الصحافة المحافظة فى عشية اعياد بوشكين (وكأنها تستبق الزمن) على ربط اسمائهم معا . فقد كتبت مجلة «بيريغ» (١١٤) تقول : «ان أشخاصا كدوستويفسكى وكاتكوف سيكون بمقدورهم الرد على من يرغب فى انتهاج نزعات خلال الاعياد الشعبية» . وتذكر «بشير اوربا» بهذا الصدد : «ان المعجبين بالسيد دوستويفسكى يشعرون بحرج شديد عند رؤية اسمه فى هذا التحالف ، وفى هذا الدور التدجينى» .

لم يكن ، لا كاتكوف ولا بوبيدونوستسيف ، يرغب فى تأزيم الاختلاف بالرأى بأى حال من الاحوال . علاوة على ذلك : كان تخلى «اليسار» عن «الخطاب» يناسبهما تماما .

لذا نجدهما يسارعان الى وضع ختمهما عليه .

ظهر الخطاب البوشكينى فى «الوقائع الموسكوبية» . وهذا هو ما قرر فى الكثير مصيره اللاحق . فلم يكن يعنى الجمهور الواسع ان ظهوره على صفحاتها يكاد يكون مصادفة ؛ وان الاعتبارات المادية المحض كانت تلعب فى هذه المسألة دورا لا يستهان به بالنسبة لدوستويفسكى . ثم ان القراء لم يكونوا يرغبون اصلا فى معرفة تفاصيل كهذه . لقد اعتبر ظهور «الخطاب» فى صحيفة كاتكوف ايماءة سياسية ودليلا على التضامن الفكرى . وكان لابد لسمعة الصحيفة ان تنعكس ايضا على سمعة «الخطاب» .

كان «بامكانهما» ان يحتفلا بالنصر . لكن دوستويفسكى ، كما ذكر اوريست ميللر ، كان يختلف عنهما جذريا (ويضيف قائلا : رغم ان خطابه قد ظهر فى «الوقائع الموسكوبية» نزولا عند بعض الاهواء) .

فلماذا قبل كاتكوف ، اذن ، بـ«المقال» ؟ لقد عرض على كاتبه نشره قبل ان يسمعه او يقرأه . اما بعد النجاح الهائل الذى احرزه «الخطاب» ، فقد سارع بطبيعة الحال الى حيازة النص . (كتب دوستويفسكى الى آنّا غريغوريفنا يقول : «يجب نشر المقال ، ولكن أين ، فالكل يتلاقفونه !») . يقول ميللر : «لقد نشروا الخطاب ، ولكن من ذا الذى كان سيرفض خطاب دوستويفسكى ؟» .

ان اوريست ميللر محق كـل الحق . اذ لم يكن بمقدور كاتكوف ان يرفض ورقة رابحة كهذه .

ولكن كيف كان موقفه الحقيقى مما سارع الى نشره على هذا النحو ؟

تتوفر بهذا الصدد شهادة بالغة التعبير يخيل ان ذكرها لم يرد قط فى الادب .

لقد كتب ليونتيف (١١٥) يقـول : «ان كاتكوف دفـع له (لدوستويفسكى – **المؤلف**) لقاء هذا الخطاب ٦٠٠ روبل ، لكنه كان يضحك فى غيابه قائلا : «ياله من حدث جلل»» .

بهذا الشكل انغلقت الدائرة . يتضح ان المعسكر المحافظ لم يتبن الخطاب على انه **خطابه** . لقد كان الحلفـاء المحتملون (وليس جميعهـم اصلا) بحاجة الى هذا الخطاب كركيزة موقتة فحسب ، كورقة «تجىء اليها ايديهم» فى لعبتهم التكتيكية . وعندما يهاجـم ليونتيف بكل قواه الخطاب البوشكينى (فهو مؤدلـج «خالص» ، وليس سياسيا فعليـا ، انه يستطيع ان يبيح ذلك لنفسه) ، يسارع بوبيدونوستسيف (بحذر ، دونما تعليقات) الى ابلاغ دوستويفسكى باستياء ليونتيف . امـا كاتكوف ، الناشر الاول لـ«الخطاب» فيضحك عليه «خلف ظهر الكاتب» . ان «الخطاب» بالنسبة لهم جميعا «ليس حدثا» او هو – فى اسوأ الحالات – حدث يستحق كل انواع الذمائم .

ان الخطاب البوشكينى كان بالفعل حدثا مرموقا بالنسبة لروسيا .

زيارة الى ولى العهد

«دكتاتورية القلب»

كان النصف الثانى من عام ١٨٨٠ فترة هدوء نسبى .

كلا ، لقد استمر احتدام الاهواء الاجتماعية ، ولربما اقوى مما فى الماضى . وكانت الصحافة التى احست ببعض الانفراج – وهو انفراج نسبى جدا فى الحقيقة – مفعمة بالمشاريع والمقترحات والتلميحات والتعابير المجازية .

رغم ذلك كانت هذه فترة استراحة ، وعلى الاقل بمعنى ان اكثر من نصف عام قد مر دون ان تدوى انفجارات ، ودون ان يئز رصاص المسدسات . كانت «ارادة الشعب» تدخر قواها لاجل **عمل مركزى** . وفى غضون نصف العام هذا لم تحدث أية محاولة من محاولات الاغتيال ، ولم ينفذ أى اعدام .

كانت روسيا تترقب التغييرات بنهم .

كتبت احدى صحف بطرسبورغ فى أواخر العام : «ان التغييرات لا تثير ابدا ردود فعل فورية . على سبيل المثال ، اذا «انهمر غدا وابل من الاصلاحات» . . . فلسوف يبقى حتى فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى مثلما كان ، أى «الملازم الثانى» المتقاعد كما هو مسجل الآن فى قوائم الادارة العليا لشؤون الصحافة . . .»

وبالفعل ، فقد كانت كل الوثائق الرسمية تطلق على دوستويفسكى هذا اللقب بالذات : انه الرتبة الاخيرة التى بلغها فى الخدمة الرسمية . اما الانواع الاخرى من الخدمة فلم تكن تؤخذ بالاعتبار .

رغم ذلك كانت التغيرات تقترب .

فى ٦ آب (اغسطس) ١٨٨٠ وقّع الكسندر الثانى فى روبشا مرسوما اسميا اعلن فيه بلهجة لا تخلو من المهابة الاحتفالية ان

التدابير الطارئة قد فعلت مفعولها . وجاء فى المرسوم : «وفى نتيجة ذلك ارتأينا ما يلى :

١) اغلاق اللجنة التنفيذية العليا ونقل شؤونها الى وزارة الداخلية .

٢) الغاء الشعبة الثالثة التابعة لديواننا ونقل شؤونها الى صلاحيات وزير الداخلية . . .

٣) احالة مهام رئاسة سلك الشرطة الى وزير الداخلية وتخويله حقوق رئيس الشرطة» .

وعين فى منصب وزير الداخلية الكونت لوريس - ميليكوف .

وحين تخلى بابا عن دور «نائب الامبراطور» ، لم يقلل الكونت بتاتا من سلطته الفائقة . فهو اذ اصبح وزيرا «عاديا» ظل محتفظا بكل ما كان لديه تقريبا من حقوق الوزير فوق العادة . بل اكثر من ذلك : اصبح كل بوليس الامبراطورية - السرى والعلنى سواء بسواء - متركزا منذ اليوم فى قبضة واحدة .

وكان الخبر الاكثر اثارة بطبيعة الحال هو اغلاق الشعبة الثالثة التى كانت موجودة منذ عام ١٨٢٦ . انها خرجت محتفظة بكامل حرمتها من اصلاحات عقد الستينات . وقد صمدت امام كل الهزات والفتن التى عصفت بالدولة . وكانت تبدو بنفس القدر من الرسوخ الذى يتسم به النظام السياسى الذى تمخض عنها . وعندما انتشرت الشائعات بصدد اغلاقها ، راح المواطنون يتراهنون على ان هذا لن يحدث . حتى ان ولى العرش الكسندر الكسندروفيتش لم يصدق بواقعية مسألة كهذه .

رغم ذلك حدث هذا الامر .

كتبت «بشير اوربا» تقول : «. . . ان التاريخ سوف يجازى بالثناء مجازاة متباينة جدا اللجنة التنفيذية العليا التى جعلت نفسها فائضة عن اللزوم حتى قبل مرور نصف عام (على تأسيسها) . والشعبة الثالثة التى كان يكفيها لبلوغ هذا الهدف نصف قرن من الزمن» .

لقد جرى اغلاق الدائرة التى تعرف دوستويفسكى اقرب تعرّف بها منذ عام ١٨٤٩ . ومن يدرى ، فربما جرى الآن بالذات ، فى عام ١٨٨٠ ، عند تصفية جزء من شؤون الشعبة الثالثة الملغاة ، اتلاف مخطوطات مؤلفاته المبكرة التى حملها معه

فى تلك الليلة النيسانية المشهودة ، ولكنها ، على الضد منه – وهو الذى عـــاد بعد مضى عشر سنوات – توارت الى الابد فى مجاهل المبنى الواقع عند جسر تسيبنوى (١١٦) .

لقد جرى الغاء الشعبة الثالثة ، وخيل ان عهدا تاريخيا كاملا قد طواه الماضى معها الى الابد . وبدا ان بامكان المرء الآن ان يتنفس بمزيد من الحرية . ولم يتكدر احد من ان مديرية شرطة الدولة قد حلت محل هذه الدائرة : فقد بدأ تغيير الواجهة وكأنه تغيير للجوهر .

وافلح لوريس – ميليكوف فى تحقيق حلمه المنشود : فقد اصبح عمليا رئيس الوزراء . كان الكونت ميخائيل تاريلوفيتش يقوم بانقاذ الاسرة الحاكمة والكسندر الثانى شخصيا . ففى ٣٠ آب (اغسطس) وصل على عنوانه من ليفاديا (١١٧) مرسوم ملكى سام : «. . . انك حققت من النتائج الناجحة ما جعل ممكنا تخفيف مفعول التدابير الطارئة المتخذة مؤقتا ، ان لم يكن الغاؤهـــا كليا ، وبامكان روسيا اليوم ان تعود باطمئنان الى طريق تطورها الآمن . . .»

وقد سجل صاحب الجلالة الامبراطور بخط يده على النسخة الاصلية ما يلى : «المحب لك بصدق والشاكر لك الكسندر» .

ومنح الجنرال الذى تمكن دون اطلاق رصاصـــة واحدة ان يحرز هذا القدر الكبير من الانتصارات الباهرة اسمى وسام فى الامبراطورية الروسيـــة ، الا وهو وســام القديس اندريـــه بيرفوزفانّى (١١٨) .

على ان التثمين لــم يقتصر على خدمات الكونت المقدمة الى الدولة .

كان لوريس – ميليكوف من عداد القلة القليلة التى ايدت الامبراطور فى «قضيـــة السادس من تموز» : هكذا كان يسمى بلغة البلاط عقد القـــران السرى بين العاهل الذى ترمل مؤخرا وأبنة الامير يكاتيرينا ميخائيلوفنا دولغوروكايا (التى نالت لقب الاميرة يوريفسكايا) . وكانت خليلة الامبراطور القديمة – منذ عهد الدراسة فى معهد سمولنى ((١١٩) – وأم بنيه قد حصلت على وعد متين **بتسجيل** علاقتهما **رسميا** حالما ترحل زوجة القيصر الروسى المتوّجة الى العالم الافضل .

لقد اسدت حاشية الامبراطور المقربة ، ومن ضمنها اعضاء الاسرة المالكة ، النصح لالكسندر الثانى بالتريث لمدة عام على الاقل – من باب الاحتشام . بيد ان الكسندر كان يسابق الزمن للايفاء بوعده الملكى . اما الاميرة يورييفسكايا فقد كانت تحث صفيّها الذى كان اكبر منها سنا بحوالى ثلاثين سنة ، وكأنهـا قد حدست اقتراب الاول من آذار (مارس) . وما ان مر ٤٠ يوما على وفاة الامبراطورة ، حتى قام قس البلاط بمباركة العريسين .

وكانت للوريس – ميليكوف البعيد النظر علاقات ودية جدا مع بنت الامير يكاتيرينا ميخائيلوفنا .

فى ٢ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ كتب بوبيدونوستسيف الى احدى مكاتباته يقول : «لقـــد اقام (لوريس – ميليكوف – **المؤلف**) لنفسه بسرعة مدهشة ركيزتين احداهمـــا فى القصر الشتوى والاخرى فى قصر انيتشكـــوف (١٢٠) (أى عند ولى العرش – **المؤلف**) . وبذا اصبح لدى الامبراطور رمزا للضرورة وستارا للامن . . . وبعد رحيل الامبراطورة تعززت مواقعه اكثر لانه كان حلاّل عقدة اشد تشابكا فى الاسرة المتعكرة الصفو» .

واخذت زوجة الكسندر الثانى المرغنطية * تبدى مزيدا من التأثير فى سياسة الدولة . وكانت تحلـــم خلال ذلك طبعا بأن تغدو «حقيقية» .

مؤامرة ملكية غاية فى التطرف

لقد اثبت منذ وقت قريب ان الاميرة يورييفسكايا كانت لها مراسلات سرية مـــع اشخاص يطلقون على انفسهم نعت الرابطة السرية لمكافحة الاشتراكية . وكان اعضاء الرابطة ، اذا صدقنا برسائلهم الى الزوجة المرغنطية ، يعنون فى المقام الاول بحماية حياة زوجها المعظم . وهدفهـــم الرئيس هو مكافحة من يتطاول

---

* الزواج المرغنطى – زواج غير متكافئ بين شخص من اسرة مالكة وآخر من طبقة اجتماعية ادنى مقاما ، وهو لا يعطى الحق فى وراثة العرش – **المترجم** .

على هذه الحياة . ولانهم كفوا عن الاعتماد على سرعة تحرك شرطة الدولة ، فقد قرروا تشكيل منظمة خاصة بهم تعمل بسرية مُحْكمة ، وتتألف - كما ابلغوا يوريفسكايا - من اعضاء «لم يستول عليهم سبات العقول العام ، لذا قرروا انقاذ من هو فائق الجودة بالنسبة للشعب الذى لا اقرار له بالجميل» .

وهكذا ، فأن من كانت مشاعرها نحو الامبراطور ، كما ذكر اعضاء الرابطة فى رسائلهم ، لابد وأن توحى لهم بآيات الاحترام ، اصبحت جهة تتلقى ما يشبه «رسائل من سراديب العمل السرى» : وكان بالامكان ان تسمى هذه الاخيرة ، فى الحقيقة ، بـ«سراديب صاحب الجلالة» ، ذلك ان «مزاولى العمل السرى» انفسهم كان مصدر الهامهم هو الحماسة الملكية الصرف (رغم انها كانت ذات صبغة بوليسية اضطرارية) .

لقد كانت زوجة الكسندر الثانى المستورة ((«السرية» !) مؤهلة بحكم وضعها نفسه لمثل هذا النوع من الاتصالات .

وكان اعضاء رابطة مكافحة الاشتراكية صريحين كفاية مع الاميرة . مثلا ، قاموا بابلاغ «المستورة» دونما حرج بأنهم يعتزمون تحقيق اهدافهم عن طريق الاندساس فى اوساط المنظمات الثورية السرية ونسفها من الداخل .

هنا يجدر بنا أن نسوق افادة مثيرة جدا للفضول . وهى من نتاج يراع الجنرال والكاتب الصحفى المحافظ روسليسلاف فادييف .

«قدُم الى احد كتابنا الاوائل ، - يقول فادييف ، - شاب وروى له انه كان منذ وقت قريب عدميا غيورا وعضوا من اعضاء المحافل السرية ، لكنه حين قرأ الفضائح التى كشف عنها هذا الكاتب وقارنها بتجربته الشخصية ، خلص الى قناعة مفادها ان العدمية عندنا قضية مْتصنَّعة ، اجنبية ، ترمى حصرا الى اضعاف روسيا ، وانه ما دام قد علم بذلك ، فلم يعد بمقدوره ان يقف مكتوف الايدى تجاه مثل هذه الظاهرة . اما حين ايقن ، باعتباره من المتآمرين السابقين ، بعدم كفاية الوسائل الحكومية اللازمة لاجتثاث هذا البلاء فهو يقترح تأسيس جمعية من شأنها ان تفضح وتقتل معنويا عصابة العدميين امام انظار روسيا» .

فماذا كان رد الكاتب الذى لم يذكر فادييف اسمه على هذا

الاقتراح الرائع ؟ يفيد الجنرال انه «اعرب ، بطبيعة الحال ، عن تعاطفه الكامل مع نوايا العدمى الذى اهتدى الى سواء السبيل ، لكنه رفض تشكيل اية جمعية» .

واعرب الكاتب المذكور خلال ذلك عن اعتبارين . الاول هو ان اعضاء الجمعية المقترحة سوف يتعرضون لمحاسبة الشرطة التى تطارد كل اشكال «التجمعات غير الشرعية والدعايـــة غير المسموح بها» . والثانى هو ان اعضاء الجمعية ، فى حالة مصادقة السلطات على هذا المشروع المغرى ، «سوف يصبحون فى انظار الجميع اشبه بعملاء للبوليس وسيفقدون كل أهمية» .

وكان لطروحات الكاتب تأثيرهـــا : «ان الشاب الذى يكاد يكون مستعدا لمحاربـــة الشر» اضطر الى التخلى عن نوايـــاه المبتكرة ، لانه «لم يكن راغبا فى ان يصبح واشيا» .

بعبارة اخرى ، ان هذا العمــل الاستفزازى قد جوبه بأحزم صورة .

ثمة ما يسوغ الظن بأن الكاتب المُغْفل الاسم الذى تحدث اليـــه العدمى النادم لـــم يكن سوى فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى .

نقول : ان مكاتبى الاميرة يوريفسكايا الغامضين يذكرون فى رسائلهم ان هناك الآن «تحت رايات الرابطة الخفاقة» اثنين من الامراء الاعاظم وبعضا من اصدقـــاء لوريس - ميليكوف ، وكذلك احد اعضاء اللجنة التنفيذية العليا الخاضعة لأ'مرته (ألا يقصد به بوبيدونوستسيف ؟) . اذن ، فأعضاء الرابطة يقومون بتجنيد عملائهم من بين اصحاب المناصب العالية المتمتعين بنفوذ معين . ولكن ، لعـــل اسم دوستويفسكى لا يقل وزنا عن لقب الامارة الرفيع .

كان فى نية دوستويفسكى ان يكتب رواية عن عدمى تائب بالذات . وسواء كان الامر مصادفة او لا ، فان اختيار المبعوث للتفاوض معه كان موفقا جدا .

رغم ذلك منى المبعوث بفشل ذريع . اذ لم تكن لديه (وما كان ممكنا ان تكون) ايما فرص للنجاح . لقد كان دوستويفسكى يحبذ التحدث صراحة مع خصومه الفكريين .

غير ان مدلولات الاقتراح الذى عُرض على مؤلف «الشياطين»

لا تقتصر على صفته اللاأخلاقية المذهلة ، انما هى تتداعى مع تلك المعضلة الخلقية التى ناقشها دوستويفسكى فى حديثه المشهود مع سوفورين ، والتى انعكست فى مفكرته الاخيرة .

لقد اقترح «العدمى التائب» على دوستويفسكى التصرف حسب ما تمليه القناعات . بيد ان مثل هذا النمط من التصرف مرفوض رفضا مطلقا لدى محدثه ، ذلك انه لا يتطابق مع مثاله ، مع «شعوره بالجمال» ، انما يعتبر ايضا اهانة صريحة لهذا الشعور .

لقد أخطأ «الشرطة الهواة المتطوعون» العنوان خطأ باديا للعيان .

. . . فى ابان ذلك اختل مرة اخرى التوازن السياسى الذى صادف بلوغه الكثير من الصعاب : فقد اختتمت محاكمة الستة عشر ، واعتلى منصة الاعدام فى قلعة بطرس وبولص يوم ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) كفياتكوفسكى وبريسنياكوف .

بعد مضى اربعة أشهر سوف ترد «ارادة الشعب» على هذا الاعدام بقنبلتين على قناة يكاتيرينينسكى .

وفى ٧ تشرين الثانى تدون شتاكنشنايدر فى دفتر يومياتها : «ان الاعدام يترك انطباعا سيئا وشديد الوطأة حتى لدى غير الليبراليين . وليس من شيمنا مثل هذه الاشياء . . .»

على الاغلب ، فى هذه الايام بالذات سجل دوستويفسكى الملاحظة التى اوردناها آنفا عن كفياتكوفسكى وبريسنياكوف ، وقوله : «لو كانت الكنيسة لما كان الاعدام» . ويلوح انه فى هذه الايام بالذات أعمل الفكر مرة اخرى فى مصير بطله المقبل : بطل نفس تلك الرواية التى صدرت بطبعة منفردة بعد خمسة ايام من استشهاد عضوى «ارادة الشعب» اللذين اعدما مؤخرا .

«لن اقبل شيئا . . .»

فى ٩ كانون الاول (ديسمبر) يتقدم بوبيدونوستسيف خطيا بالشكر لمؤلف «الاخوة كارامازوف» على «هديته الجميلة» . ولم يكتف المدعى العام الاعلى للسينود المقدس بذلك : انه يوصى

ب«تقديم» الرواية الى وريث العرش الذى كان ، على حد قوله ، «ينتظر صدور هذا الكتاب ، كى يشرع فى مطالعته ، لانـه لا يحب قراءة المسلسلات» (ينبغى القول بهذه المناسبـة ان الكسندر الثالث المقبل كان احد اكثر القراء الروس صبرا ، لأن نشر «الاخوة كارامازوف» بل كذلك «الحرب والسلام» او «آنـا كارنينا» مثلا ، كان يستغرق سنوات عديدة) . واعرب المؤلف عن موافقته ، الا انه تريث فى تقديم الرواية : لم يجد للكتاب غلافا يليق بالمناسبة . فى تلك الاثناء انجز بوبيدونوستسيف «العمل التحضيرى» اللازم ، الامر الذى ابلغ به مكاتبه يوم ١٥ كانون الاول (ديسمبر) قائلا :

«فيودور ميخائيلوفيتش البالغ الاحترام . لقد ابلغت سمو الامير خطيا بأنك ستحضر غدا فى اواخر الساعة الثانيـة عشرة الى قصر انيتشكوف ، كى تقدم نفسك اليه والى عقيلته . أرجوك التفضل الى الطابق الثانى واشعار المرافق كى يبلغ عـن وصولك ، وبأننى قد احطت سمو الامير علما . بعدئذ ، عندما تنصرف عنه ارجوك ان تشعر خادم سمو الاميرة كى يبلغهـا عنك . هذه مسألة لا تتطلب جهدا» .

كان دوستويفسكى قد تعرف على احد الزوجين الساميين ، وبالتحديـد على سمـو الاميرة بالذات . وتذكـر لوبـوف دوستويفسكايا فى مذكراتها ان والدها قد ترك فى نفس الاميرة انطباعا عميقا ، و«انها قد اكثرت من الحديث عن والدى لزوجها بحيث اعرب سمو الامير عن رغبتـه فى التعرف عليه . فقـام بوبيدونوستسيف نيابـة عـن قسطنطين بتوجيه الدعوة اليـه لزيارته» . على هذا النحو ، اذا صدقنا باقوال لوبوف فيودوروفنا ، فأن المبادرة كان يمكن ان تأتى من قصر انيتشكوف نفسه .

لم يكن لدى دوستويفسكى ما يحدوه الى التهرب من هذا اللقاء : فقد كان ، كما اسلفنا ، يأمل ان «يدفع» الحكم المطلق بالاتجاه الذى كان يتصوره الاتجاه الوحيد الصائب .

وقد قام بزيارة قصر انيتشكوف يوم ١٦ كانـون الاول (ديسمبر) ١٨٨٠ .

بطبيعة الحال ، كان على الزيارة الاولى الى ولى العهـد ان ترتدى طابعا بروتوكوليا محض . بيد ان الزائر نفسه الذى لا

يجيد «الحركات المسرحية» ، افلح حتى هنا بدهاء فى التنصل من متطلبات مراسيم البلاط الصارمة .

تقول لوبوف فيودوروفنا : «لقد استقبله صاحب وصاحبة الجلالة معا (خارقيـــن بذلك «سناريـــو» بوبيدونوستسيف — **المؤلف**) وكانا لطيفى المعاملة مع والدى بشكل مدهش . ومن الامور المميزة جدا ان دوستويفسكى الذى كان فى تلك الفترة من حياته ملكيا غيورا ، رفض الانصياع لآداب البلاط وتصرف فى القصر مثلما تعوّد التصرف فى صالونات اصدقائه . (لنتذكر حديثه «غير المناسب» عن اعدام ملوديتسكى فى دار سمو الامير قسطنطين قسطنطينوفيتش — **المؤلف**) . كان يبادئ بالحديث وينهض عندما يجد ان الحديث قد طال كثيرا ، وحين ودّع سمو الاميرة وزوجهـــا غادر الغرفة مديرا ظهره ، مثلما كان يفعل دائما . . .»

من اين لابنة دوستويفسكى ان تعلم بكل هذه التفاصيـــل المعبرة ؟ بطبيعة الحال علمت بها من آنّا غريغوريفنا (التـى نقلت بدورها حديث زوجهـــا) . ولكن يستبعد ان يكـــون دوستويفسكى شخصيا هو الذى اعطى هذا التقويم الموضوعى «من موقع الشخص المراقب» لسلوكه الذاتى (اذ كان ممكنا ان يهيأ له أنه لم يخرج قط على قواعد مجاملات البلاط) . لهذا لا يستبعد ان يكـــون مصدر المعلومات التى توردهـــا لوبوف فيودوروفنا هو بوبيدونوستسيف الذى قام قيصر روسيـــا المقبل — بدوره — بابلاغـــه عن انطباعاته . تقول لوبـــوف فيودوروفنا : «لعل هذه هى المرة الوحيدة فى حيـاة الكسندر الثالث حين جرت معاملته كشخص عادى فان . ولم ينزعج جراء ذلك ، بل اخذ بعدئذ يتحدث عن والدى باحترام ولطف» .

ينبغى الافتراض ان بوبيدونوستسيف حين بيّت هـــذا اللقاء يستبعد ان يكون قد عقد الامل على انه سيعطى ثمـــارا سريعة ومحسوسة . كان همّـــه تسجيل سابقة واقتيـــاد دوستويفسكى الى الدرجة «ما قبل الاخيرة» من سلـــم السلطة ليجعـــل منه بذلك مـــا يشبه الرهينـــة السياسيـــة لدى النظـــام . فحسب منطق المدعى العـــام الاعلى ، بـــات على مؤلف «يوميـــات كاتب» ان يضع قصر انيتشكوف امام عينيه —

عن ارادة او عن غير ارادة منه – فى سياق نشاطه القريب .

ورغم احتمال ان دوستويفسكى كان يعقد شخصيا بعض الآمال على هذه الزيارة ، فمن المستبعد ان يكون الحديث خلال التعرف الى الزوجين الساميين قد تطرق الى تلك المواضيع التى كانت تلازمه خلال هذه الاشهر الاخيرة ، وهى : اعدام كفياتكوفسكى وبريسنياكوف (الذى جرى قبل هذا الاستقبال السامى بعشرين يوما ، واضطراب العقول العام ، واخيرا ، افتراضات الكاتب وتوقعاته التاريخية .

ولم يكن يروم من وراء هذا اللقاء ايما منافع شخصية . فلم يكن له ، هو الكاتب والانسان غير المرتبط بخدمة الدولة ، ما ينتظره من مكارم الدولة .

«انا لا اسعى الى شيء ولن أقبل شيئا ، وليس من شنيمتى اختطاف النجوم لقاء اتجاهى» – ألم يكن ظهور هذا القول فجأة فى مفكرته الاخيرة مرتبطا بزيارته لقصر انيتشكوف ؟

المفارقة الروسية

لم يكن ظهور مؤلف «الاخوة كارامازوف» فى محافل المجتمع الراقى وصالونات ارستوقراطية بطرسبورغ سوى صدى لذلك التقدير **الشعبى** العفوى الذى رفعه خلال السنتين او الثلاث سنوات الاخيرة الى ذُرى الموجة الاجتماعية . انه فى **اوج الموضة** . والمجتمع الراقى ، مثلما هى حاله دائما ، يتجاوب تجاوبا مرهفا مع هذه الموضة الدورية ، لاهيا عن كونه مضطرا – بحكم الظروف – الى التعامل مع محظيه **فى محفل المجتمع الراقى** بالذات ، وعن انه يصغى هذه المرة ليس لمزاج اللحظة الراهنة المتقلب ، انما لانفاس الخلود التى لا تكاد تكون محسوسة .

تمعن شتاكنشنايدر فى يومياتها الفكر فى اسباب مدى هذه الشعبية المباغتة .

ان كاتبة اليوميات تختلف اختلافا حازما مع من يميل الى عزو شهرة دوستويفسكى الراهنة الى اشغاله الشاقة . ففى ذلك الحين ، أى فى اوائل الستينات ، كان قد عاد توا من سيبيريا ، وكان قد نشر روايته «مذلون مهانون» (ثم نشر على

اثرها بفترة وجيزة «رسائل من بيت الموتى» ، بيد ان الجمهور ظل رغم ذلك ينظر اليه ببرود .

وتمضى شتاكنشنايدر الى القول ان شهرة دوستويفسكى لم تنجم عن الاشغال الشاقة ولا حتى عن رواياته ، «وعلى الاقل ، لم تنجم عنهـــا بالدرجة الرئيسة ، بل عن «يوميات كاتب» . فاليوميات هى التى جعلت اسمه معروفا لروسيا باسرها ، وجعلت منه معلم ومحبوب الشباب ، وليس الشباب فحسب ، بـــل وجميع من تعذبهم المسائـــل التى اسماها هاينه بالمسائـــل اللعينة» .

لقد جرى هنا التعبير عن حقيقة مدهشة .

وبالفعل : اذ لم يثر اى من روايات دوستويفسكى صـــدى اجتماعيا جبارا وتجاوبا حيا ومباشرا من قبل القراء كالذى اثارته «يوميات كاتب» الصحفية الاسلوب و«غير الروائية» شكليـــا . وبعد ان وضع مؤلف «الجريمة والعقاب» نفسه فى علاقات مباشرة مع جمهور روسيا القارئ ، وبعد ان شرع فى مخاطبته **بضمير المتكلم** وحاول هدم الحاجز الازلى الذى يفصل الكاتب عـــن القارئ ، بعدئذ فقط - وبصورة مباغتة حتى لنفسه - الفـــى نفسه فى بؤرة الاهتمام الاجتماعى الحامى .

وواضح اننا هنا ازاء احدى اطرف مفارقات الوعى الاجتماعى الروسى .

فى لحظة معينة كان الادب يغدو بمفرده **غير كاف** لعباقرة روسيا الثلاثة - غوغول ودوستويفسكى وتولستوى . فنراهم يشرعون فجأة فى السعى الى ما لا يفترض ان يزاولـــه الادب بتاتا : تراهم يرغبون فى اقامة توازن جديد بين الفن والواقع . وأهم ما فى الامر : انهم يريدون اضفاء **صورة فنية** جديدة على الواقع بحد ذاته . انهم يتعطشون الى الجمع بين مجرى الحياة العادية ومغزاها المثالى ، والى جعل هذا المغزى معدلا عالميـــا للسلوك . ان «مختارات من المراسلات مع الاصدقاء» لغوغول (١٢١) ، وكتابات تولستوى الصحفية المتأخرة و«يوميات كاتب» لدوستويفسكى - كل هذا يعتبر (بدرجة متباينة طبعا) تجسيدا لهذا الطموح القاهر .

انه اندفاع نحو القارئ «عبر» الادب .

لقد اصبح الامر الرئيس بالنسبة لغوغول ، ومن ثـــم لتولستوى ودوستويفسكى ، ما هو – فى اعتقادهم – «اكبر» من الادب ، أى **ابداع الحياة** . فيغدو تغيير تركيبة الحياة بحد ذاتها هدفا أسمى لهم .

لقد استقبل جمهور عام ١٨٨٠ دوستويفسكى بمثابة رجل اخذ على عاتقه هذه الرسالة المسكونية . فـ«ما هو خاص بالمعلم» (او «ما هو خاص بالنبى» ، ان اردتم) كان له من الاهمية والشأن ما لا يقاس مقارنة بـ«ما هو خاص بالكاتب المحض» . والحقيقة ان المعجبين بدوستويفسكى كان من المستبعد ان يستطيعـوا اعطاء صيغة واضحة ووافية لما يريد مؤلف الخطاب البوشكينى ان يعلمهم اياه (القيام بمثل هذه العملية ايسر كثيرا على اتباع تولستوى المقبلين) . غير انهم مستمعين ومشاهدين ، كانـوا يميزون بوضوح «السبابة المرفوعة بحماسة» . علما بأن هذه السبابة – وهذا امر جوهرى جدا – لم تكن موجهة الى اهداف بينية ، انما الى الاهداف العالمية النهائية المتنائية ، الى ذلك المدى المتجـــاوز للحدود ، حيث كان على الذئب ان يستلقى بجنب الحمل ، حسب النبوءة المعروفة (التى ليس من المصادفة ان يتذكرها ايفان كارامازوف فى حديثه مع اليوشا) .

كان دوستويفسكى يبدو وكأنه يجسد تلك البادرة العالمية المثالية التى تتناغم معها هذا القدر من التناغم اوتار الــــروح القومية الروسية . وكان لابد لاندفاعه التائق الى الكمال العالمى ان يستثير موجة جوابية – صادقة ، حارة ، شاكرة .

تقول آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «لقد قرر ان يهم من جديد بنشر «يوميات كاتب» ، لان كثيرا من الافكار التى تؤرقه قد تراكم لديه خلال سنوات الشغب الاخيرة ، بشأن وضـــع روسيا السياسى ، بينما لم يكن يستطيع الافصاح عنها بحرية الا فى مجلته» .

ثمة سُنّة داخلية فى كونه قد اصبح صحفيا خلال الساعات الانعطافية الحاسمة فى التاريخ الوطنى .

فنراه يدون فى اواخر عام ١٨٨٠ : «لقد سُلب (الفــــرد الروسى – **المؤلف**) كـــل شىء ، وصولا الى روح المبـــادرة المشروعة بحد ذاتهـــا . ان كل حقوق الفرد الروسى سلبية .

اعطوه شيئا ايجابيا وسترون انه سيكون محافظا كذلك . المهم ان يكون هناك ما تتسنى صيانته . أنه ليس محافظا لان ليس هناك ما تتسنى صيانته .

«ليس هناك ما تتسنى صيانته» ، - هل كان المحافظون سيتفقون مع مثل هذا الادعاء ؟ فهم بالذات من كان يفترض ان الذى يستحق الحماية والحفظ هو الموجود . لقد كانوا هم انفسهم جزءا غير قابل للفصل من النظام الذى يحرسونه . بينما يطرح دوستويفسكى المسألة طرحا مغايرا تماما : ان النزعة المحافظة فى روسيا لا يمكن ان تكون لها قوة فعلية لانها ليست مبنية على اسمى القيم المعنوية (السامية) . اما المبنى الذى ينبغى ان يصان صيانة حقيقية فلم يجر تشييده بعد .

فما هو البديل الذى يقترحه دوستويفسكى نفسه ؟ من المتعذر الاجابة عن هذا السؤال بشكل وحيد المدلول . ذلك ان دوستويفسكى المُعنى بالسياسة عناية نهمة يفكر بمقولات ليست سياسية بتاتا . ان «برنامجه» لا يندرج فى أى من النماذج الايديولوجية القائمة .

انه يعرف امرا واحدا : ان الانسانى (الانسانى الحق) والاجتماعى الذى هو شخصى خارق فى جوهره الدفين يجب ان يتطابقا .

ولكن ، هل يمكن تحقيق هذا التطابق ؟

لا احد ما خلا المسيح . . .

بامكان المرء ان يجد فى يوميات شتاكنشنايدر اصداء احدى المجادلات التى دارت فى صالونها يوم ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٠ .

فقد قال دوستويفسكى : «اذا كان المرء يعى وجوده ويستطيع القول : انا موجود ، فتلك هبة عظيمة . اما ان يقول : انا غير موجود ، وان يفنى فى سبيل الآخرين فلعل حيازة هذه السلطة هبة أسمى واكثر رفعة .

وتمضى كاتبة اليوميات الى القول : «هنا هب افيركييف (١٢١) الذى يبدو منذ فترة من الوقت وكأن ذبابة ، معادية لدوستويفسكى قد لسعته ، قائلا : «انها بالفعل لهبة عظيمة ، لكنها غير موجودة ولم يكن لها وجود لدى احد من قبل ، ما خلا واحدا لكنه كان الها» .

انبرى دوستويفسكى لمعارضته ، وهو امر - بالمناسبة - لا غرابة فيه . ذلك ان ما يعتبره افيركييف نوعا من «التطرف الانجيلى» ، او الحد الذى يفوق امكانيات البشر الفعلية يعتبر بالنسبة له ، أى لدوستويفسكى ، «نبوءة وهداية» تأسران النفس . ان هذا الامل ينجلى على الدوام فى رواياته ، وكذلك فى «يوميات كاتب» . ذلك ان «نظرية» العهد الجديد والممارسة البشرية الممكنة بالنسبة له لا تنفصل احداهما عن الاخرى بجدار لا يخترق .

بمعية التسامح اللانهائى مع نقاط الضعف فى الانسان يتقدم دوستويفسكى بمتطلبات رفيعة جدا الى الانسان نفسه .

هكذا اخذ دوستويفسكى يعارض افيركييف ، بيد ان هذا «لم يصغ لاحد واستمر يزعق بأن ليس ثمة احد ما خلا المسيح يفنى فى سبيل الآخرين . وقد فعل المسيح ذلك دونما الم ، لانه كان الها» .

ينبغى القول ان الملاحظة الاخيرة التى تعود فى جذورها الى وحدانية الرب القديمة ، الى المداخلات الثيولوجية لآباء الكنيسة ، لم تمر هى الاخرى دون معارضة من دوستويفسكى . فأبن الانسان الذى يرهبه عذاب الصلب (لنتذكر «دعاء الكأس») هو انسان حقيقى فانٍ وليس ممثلا مسرحيا ربانيا يهزأ «عن قصد» بمعذبيه ولا يطاله أى الم دنيوى ، هو مخلوق يقاسى ويتألم - ان مسيحا كهذا هو وحده الذى يمكن ان يكون مفهوما وقريبا الى نفسه مؤلف اسطورة المفتش الكبير .

انها لممتعة حقا تلك الاحاديث التى كانت تدور فى ايام الثلاثاء عند آل شتاكنشنايدر .

الوفاة فى كانون الثانى

البدء من الانسان

حل عام ١٨٨١ .

كان البلد على اعتاب احداث حاسمة : واعتقد الكثيرون انها لا تقل اهمية عن اصلاحات الستينات .

لم تستأنف عمليـــــات الاغتيال ، وانحسرت الاضطرابات الفلاحية ، وتنفست الصحافـــة الصعداء لاول مرة طوال سنين عديدة . وراحت تحتدم الاقاويل بشأن الاصلاحات القادمة قريبا .

لم يكن الكونت لوريس - ميليكوف يتجنب الشعبية ، اذ لم يعد بمقدوره الاكتفاء بجميل عطف المجتمع المتعلم . كان يظمـأ الى بعض الاعتراف بالجميل من قبل «العامة» . وكان بالامكان ان يبلغ مثل هذه الغاية بأسرع ما يمكن عن طريق الغاء ضريبـــة الملح التى يمقتها الشعب مقتا شديدا . صحيح ان الخزينة كانت تفقد جراء ذلك مبلغا يتراوح بين سبعـــة واربعة عشر مليونا . غير ان المنافع السياسية النابعة من اجراء كهذا كانت - فـــى رأى وزير الداخلية - تفوق كثيرا الخسائر الاقتصادية . وقـــد كتب فى تقريره الكامـــل الولاء الى الكسندر الثانى يقول : «ان مثل هذه المكرمـــة الجديدة الموزونة مـــن ذرى العرش سوف تستقبلها كل الطبقات والاصناف بامتنان اصيل صادق ، وسوف توطد تحالف القيصر مع الشعب» .

ويتحدث دوستويفسكى ايضا فى «يومياته» الاخيرة عـــن تحالف القيصر والشعب . بيد انه ليس مقتنعا بتاتا بأن التحالف المشار اليه آنفا يجب ان يرتكز على مبادئ الامتنان الاقتصادى . «القيصر هو الاب والشعب ابناؤه» - واذا كان الامـــر على هذه الشاكلة بالفعل فأن صلة **قربى** كهذه لا يعززها المال : انهـــا تقوم على اسس اخلاقية مغايرة تماما .

في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع القيصر بعد تردد الامر القاضي بالغاء ضريبة الملح : «رغبة منا ، في ساعة الشدة المترتبة على تلف المحصول . . . في ان نقدم الى شعبنا الذي كلفتنا به العناية الالهية دليلا جديدا على رعايتنا لرفاهيته . . .»

وكان خصوم لوريس – ميليكوف يلومونه على الضرر الذي الحق بمالية الدولة . وفي مفكرته الاخيرة يتطرق دوستويفسكي كذلك الى هذه المسألة .

فقد دون فيها : «تخفيف اعباء الشعب ، مثلا ، بالغاء الضريبة على الملح . فمن أين تؤخذ النقود ؟ ان هذا يقتضي من كل بد ، ودون ايما تأخير ، فرض ضريبة على الطبقات العليا كي يصار بذلك الى رفع الاعباء عن الطبقة الفقيرة» .

بطبيعة الحال ، لم يتضمن الامر القيصري حتى تلميحا الى تدابير راديكالية كهذه . وعلى صعيد آخر ، ان اشتداد المسألة الغذائية في العاصمة والارتفاع المطرد لاسعار مبيعات القمح بالمفرق (الامر الذي كان يضيق في المقام الاول على المعدمين) – كل هذا قد ارغم الحكومة على القيام بمثل هذه الخطوات غير المألوفة .

في اواخر تشرين الاول دعا لوريس – ميليكوف كبار تجار القمح في بطرسبورغ وراح يحاول اقناعهم بخفض الاسعار بعض الشيء . ولم يطاوعه التجار ، بطبيعة الحال ، متذرعين بتلف المحصول . عندئذ اعلن الكونت انه اذا كان يتحدث حتى الآن مع المدعوين بصفته وزيرا للداخلية ، فهو سيتحدث الآن بصفته رئيس الشرطة الذي يدخل ضمن واجباته التحذير من الاضطرابات الشعبية التي قد تحدث بسبب الغلاء . وتلقى تجار القمح انذارا : اذا لم يخفضوا الاسعار خلال ٢٤ ساعة ، فسوف ينفى المذنبون من العاصمة .

كان لهذا التهديد الروسي المحض تأثيره : فقد انخفض سعر الرطل الواحد من الخبز الجودار فورا من ٥ الى ٤ كوبيكات .

في العدد الاخير من «يوميات كاتب» يتحدث دوستويفسكي كذلك عن القضايا الاقتصادية . غير انه يحذر من ان «استنتاجه النهائي» قد يثير السخرية لدى القارئ غير المعد سلفا لمثل هذه المفارقات . رغم ذلك تجده يسرد استنتاجه :

«لاجل اقتناء اموال حكومية جيدة في دولة شهدت هزات معينة ، لا تفرط في التفكير بالاحتياجات الجارية ، مهما كانت صارخة ، بل احصر فكرك في انعاش الجذور - عندها ستحصل على الاموال» .

ان الدعوة الى «انعاش الجذور» هي الفكرة المحورية للعدد الاخير من ال«يوميات» . فلا الغاء ضريبة الملح ، ولا «الاصلاح العظيم المنتظر لنظام الضرائب» ، ولا أية تطويرات اقتصادية اخرى بمقدورها ، في رأي دوستويفسكي ، ان تُخرج الامة من المأزق . وما كل هذا سوى مسكنات ، «شيء ما خارجي لا يبتدئ من الجذر» .

ولكن مم ينبغي البدء ؟

ان رأي مؤلف ال«يوميات» في هذه المسألة قد يبدو ليس «خياليا» فحسب ، بل وحتى متعاليا بعض الشيء . اذ يقترح دوستويفسكي تناسي الشؤون الجارية . تناسي «الاحتياجات الصارخة لميزانيتنا والاموال المتعلقة بالقروض الخارجية والعجز والروبل . . .» وهو يقترح تناسي الشؤون الجارية بمقدار النصف على الاقل ، كلا بل بمقدار واحد من عشرين فقط . انه يدرك جيدا ان الجاري يقف على الدوام في المقام الاول . لكنه لاجله بالذات ، لاجل الجاري ، يقترح الانكفاء عنه للحظة واحدة وتوجيه الاهتمام «الى شيء آخر تماما ، الى عمق ما لم يسبق قط الاطلال عليه من قبل . . .» وعندئذ . . . «عندئذ يمكن الرجوع مجددا الى الجاري ، أو من الافضل القول الى شؤون جارية جديدة ، لانه ينبغي الاعتقاد بان السالف (أي شؤوننا الجارية الحالية ، الراهنة) سوف يتغير خلال هذه الفرصة تغيرا جذريا ويغير من طابعها الى درجة يتعذر علينا معها ان نتعرفه» .

وينبغي الشروع في «انعاش الجذور» من الانسان . اما الاقتصار على التدابير الادارية فيعني ، على حد رأي دوستويفسكي ، وضع العربة امام الحصان . والجهود الاقتصادية ، ايا كانت ، لا تعطي بحد ذاتها ثمارا مستقرة ، اذا لم يتغير المنفذون . ولكن اذا «تعمّر» الانسان فسوف ينتعش الاقتصاد ايضا وتتضاعف الاموال . ولاجل انهاض الاقتصاد الوطني ينبغي بالدرجة الاولى تحسين المناخ المعنوي .

لقد أسمى الكاتب فصل ال«يوميات» الـــذى يلمح فيه الى امكانية تحقيق كل هذه العجائب تسمية تهكمية : «بسبب غياب المهارة اتورط فيما هو روحى» .

ان هذا الطوباوى العظيم لا يتوهم بتاتا فيما يتعلق بامكانية تنفيذ آماله الطوباوية . رغم ذلك نجده يطـــرح هذه المسألة ، لان . . . . «. . . لان انعدام الطمأنينة الروحية يعنى انعدام اية طمأنينة اخرى» .

ويدور الحديث مرة اخرى عن ضرورة التقـدم الخلقى . فالمتكهّن ، المثالى (الذى يبدو بنظـــــرة معينة عديم الجدوى تماما) يجرى تناوله بمثابة موضع ممارسة تاريخية فعلية .

فى وقت سالف حاول الكاتب ايراد فكرة مفادها ان عـــلى روسيا فى سياستها الخارجية الا تسترشد بالمنفعة الآنية ، بل أن تنطلق حصرا من الاعتبارات الاخلاقية . اما الآن فهو يحوّل هذا المبدأ نحو الشؤون المنزلية . ان نظرية الاخلاقية التاريخية تكتسب صفة متعددة الاغراض واكتمالا داخليا .

فى ٣٠ كانون الثانـــى (يناير) ١٨٨١ نشرت صحيفـــة «بتربورغسكايا غازيتا» عرضا النبأ التالى (الذى لم تجر الاشارة اليه من قبـــل) : «. . . لقـــد تسنى لى ان أرى فيودور ميخائيلوفيتش آخر مرة فى يوم السبت المنصرم (أى ١٧ كانون الثانى - **المؤلف**) ، وذلك فى الحفل الموسيقى لعازف البيانـــو براسين فى مبنى الكونسيروتوار . وكان يبدو اكثر نشاطـــا وعافية من المألوف ، وقد تحدث كثيرا وبحماسة عن «يوميات كاتب» وعن مشاريعه وتوقعاته ، معبرا عن قناعة راسخة بـأن المرء سوف يستطيع فى القريب العاجل ان يعبر بمزيد مـــن الصراحة والحرية عن «كل ما يعتلج فى دواخله» .

اذن ، لقد عبر دوستويفسكى عن «قناعة راسخة» بشأن حل قريب لتلك المسألة التى كانـــت تقلقه ، هو المؤلف والناشر لل«يوميات» التى استؤنفت ، من الناحية التطبيقية الصرف .

وكان لهذه الآمال بعض المسوغات .

كان لوريس - ميليكوف قد دعا فـــى ايلول (سبتمبر) ١٨٨٠ رؤساء تحرير كبريات صحف ومجلات بطرسبورغ وحذرهم من ان تقوم المطبوعات الموكلة اليهم بايهام القراء باقاويل عـــن

احتمال اشراك القوى الاجتماعية فـــى شؤون الدولة . وبعد ان صان بذلك كرامة السلطة القيصرية ، لمح الكونت رغم ذلك الى انه شخصيا يرى ممكنا منح الصحافة حق «مناقشة مختلـــف فعاليات وقرارات واوامر الحكومة ، شريطة الا تكدر وتقلــق عبثا العقول الاجتماعية باحلامها الوهمية المذكورة» .

كان هذا تنازلا : فقد كان يسمح للصحافة ان تدلى برأيها فى نشاط الادارة ، دون ان تمس خلال ذلـــك ، فى الحقيقة ، مسألة حساسة هى مسألة المؤسسات التمثيلية .

لقد اخذت القيادة تدرك انه ينبغى مراعاة الصحافة : ففى غضون عام ١٨٨٠ لم تُصدر سوى اربعة تحذيرات ، ولم توقف مؤقتا سوى صدور مطبوعتين دوريتين . وهذه امور تافهـــة بالمقاييس الروسية . ان «دكتاتورية القلب» كانت تتوفر لهـــا فرصة ان تتحول الى **عيد ميلاد القلب** .

قبل حوالى عشرة ايام من وفاته كان دوستويفسكى عنـــد سوفورين . وتطرق الحديث ، طبعـــا ، الى التجديدات المنتظرة (وقد اوردنا آنفا جزءا من هذا الحديث) .

ينقل سوفورين اقوال محدثه كما يلى : «من الممكن ان تكون عندنا حرية تامة لا وجود لها فى أى مكان ، وكل هذا دون ايما ثورات او معاهدات . كامـــل حريـــة المعتقد والصحافـــة والاجتماعات ، ثم اضاف :

— الحرية التامة . محكمة للصحافة — أهذه حرية صحافة ؟ انها تحط من قيمتها . فالصحافة حتى مع المحكمة سوف تسير سيرا معوجا ، وحيد الجانب . ليقولوا كل ما يريدون . . . نحن بحاجة الى الحرية اكثر من سائـــر الشعوب ، لان لدينا عملا اكثر ، ونحن بحاجة الى صدق تام كى لا يبقى هناك ما لم يتـــم التعبير عنه» .

ان ما يقترحه دوستويفسكى يبدو غير معقول : حرية تامة شاملـــة غير مبتورة فـــى بلد لا وجود فيه لابسط الحقوق المدنية . انه يتصور مكانة للصحافة لـــم يسبق لها قط ان شغلتها فى اى مكان (ولا تشغلها حتى هذا الحين) : حريـــة تعبير مطلقة وغياب ليس فقـــط المقاضاة الادارية ، بل حتى المقاضاة القانونية «المألوفة» التى تنص عليها تشريعات البلدان

كافة . من الواضح انه يعتبر حتى مكافحة التشهير تدبيرا لاقضائيا يرتبط بهذا او ذاك من أشكال الادانة المعنوية .

فهل كان يؤمن بامكانية تحقيق هذه الافكار الطوباوية ؟

يدون الكاتب : «ان الماكنة اهم من الخير . فماكنة الادارة الحكومية هي كل ما تبقى لنا . اذ لا يمكن تغييرها ، وليس ثمة ما يتسنى به الاستعاضة عنها دون هدم الاسس . الافضل أن نغدو نحن انفسنا افضل . هكذا يقول الموظفون . ان نظام ناظرية وادارة روسيا الحكومى ، حتى على الرغم من انه كان وخيما ، فهو افضل من الخير» .

وترى الكاتب يسجل على حواشى هذه الاسطر (التى تذكر كثيرا بأخرى سواها : عن الغاء «معادلة الادارة») عبارة «من كل بد» ، ثم يرسم ثلاثة صلبان وستا من علامات التعجب .

من المفترض ان يكون واجبا عليه ، وهو الداعية الى التطور الاخلاقى الشخصى ، ان يرحب برغبة موظفى الدولة «فى ان يصبحوا افضل» . ولكن هيهات ، ان تهكمية النبرة لا تدع مجالا للشك فى هذا الصدد .

هذا هو احد تناقضاته «الصارخة» والتى تبدو للوهلة الاولى مستعصية على الحل . ولكن ، لو اعملنا الفكر لوجدنا ان هدم الماكنة (الفعل الخارجى) و«ثنى» من يقوم بهدمها (الفعل الداخلى) ليس احدهما بعيدا عن الآخر كثيرا .

اجل ، انه مع التطوير الذاتى . بيد انه لا يميل بتاتا الى عزو نتائج هذه العملية الفردية الشخصية الى ازمنة بعيدة . فالثورة الروحية ليست مفصولة لديه فصلا تاما عن التحويلات الرسمية المرافقة لها . وتتاح للدولة نفسها فرصة ان تغدو «انسانا ذا وجدان» .

ان مثل هذه الفرصة لم تكن تغرى بتاتا مؤدلجى كيان الدولة الروسى الفعلى .

فى اليوم الذى تلا وفاة دوستويفسكى كتب بوبيدونوستسيف الى كاتكوف يقول : «لقد تحدثت واياه مرارا كثيرة : فقد خصصت له فترة الاستراحة بعد صلاة العشاء يوم السبت ، وكان يجلس عندى فى حديث ودى صريح حتى ما بعد منتصف الليل» .

اذن ، كانا يتحدثان فى امسيات ايام السبت . ولكن على الرغم من افادة احد طرفى هذه الاحاديث بأنها كانت «ودية وصريحة» يصعب (ويكاد يتعذر) تصور دوستويفسكى صريحا مع بوبيدونوستسيف حتى النهاية .

ومن غير المعقول اصلا ان يتخيل المرء ان بوبيدونوستسيف – هذه الشخصية الحكومية المؤمنة والصلبة فى ايمانها بالدولة ، المناصرة للرقابة الادارية الصارمة والكاملة النفاذ – ان يتمكن هذا المتعصب للسلطة القوية الواثقة بنفسها وغير الميالة الى النقاش ، من تأييد امنيات مؤلف «يوميات كاتب» الاكثر من مريبة .

ليس مصادفة ان يقلق الكاتب بهذا الشكل على مصير عدد كانون الثانى من ال«يوميات» .

مندوب عن «اصحاب الزبون الرمادى»

فى نهار يوم ١٧ كانون الثانى عرج عليه اوريست فيودوروفيتش ميللر .

«هرع رب البيت الى المدخل ، حاملا ريشة الكتابة بيده ، وعلى وجهه علامات قلق غريب ، قال هو نفسه على الفور موضحا انه ناجم جزئيا عن خشيته مما اذا كانت الرقابة ستسمح بنشر بضعة اسطر كان عليه ان يطور مضمونها فى الاعداد القادمة من ال«يوميات» طوال العام كله . وقال : «اذا لم يسمحوا بنشرها فسوف يضيع كل شىء» .

«اذا لم يسمحوا بنشرها فسوف يضيع كل شىء» . كان المقصود هو تلك الاسطر التى سبق ان عرفناها : «. . . هناك كلمة سحرية هى بالذات : «ايلاء الثقة» . أجل ، ان شعبنا يمكن ان يولى الثقة ، لانه جدير بها . استدعوا اصحاب الزبون الرمادى وسلوهم هم انفسهم عن احتياجاتهم ، وعما يلزمهم ، وسيقولون لكم الحقيقة ، وسنسمع نحن جميعا ، ربما لاول مرة ، الحقيقة الحقة» .

بعد وفاة دوستويفسكى نشرت مجلة «ميسل» (١٢٣) مقالا

مسهبا مكرسا له . ويتوقف كاتب المقال ل . اوبولينسكى عند ذلك المكان من «يوميات» شهر كانون الثانى ، حيث يقترح التوجه الى الشعب والى الشعب وحده .

«ما هذا . . . أهو يقترح السعى الشخصى الى الكمال ؟ — يتساءل اوبولينسكى . — أليس واضحا لكل فرد ان دوستويفسكى لم يكن عدوا للاصلاحات . . .» انه لم يكن يعترف الا بذلك الاصلاح الذى «من شأنه ان يكون مناسبا لروح الشعب واحتياجاته» . ولأجل هذا الغرض كان دوستويفسكى «يستبعد ليس المثقفين فحسب ، بل حتى نفسه» . ويمضى اوبولينسكى فى تساؤلاته قائلا : أين ومتى تبنت «موسكوفسكيه فيدوموستى» تلك الفكرة التى ادلى بها دوستويفسكى فى «يومياته» ؟ «على العكس ، لقد قرأنا فيها مقالات تدافع عن ان تكون الغلبة لملكية الاراضى الكبيرة فى كل مكان ، وقرأنا فيها صرخات مدوية ضد الدفاع عن . . . الفلاحين ، ونحن نطالع الآن اتهامات بالخيانة جراء ادنى محاولة لمناقشة مسائل رفاهية الشعب . . . لقد كانت تدعو الدكتاتورية الى البلد . . . وكانت تدعو فى كل مكان الى امر واحد هو الارهاب ، فالارهاب ثم الارهاب ! اغلال القصاص الغاشمة . اما نحن فقد رأينا توا ما اذا كان دوستويفسكى يقول الشىء نفسه !»

ويختتم اوبولينسكى مقاله بالقول : «ان افكار دوستويفسكى وافكار «موسكوفسكيه فيدوموستى» «قطبان متضادان يضمر احدهما للآخر اشد العداء» .

فى العدد الثانى من مجلته يطرح اوبولينسكى السؤال التالى : أية فئة بالضبط ، أى «حزب» من الشعب الروسى يمثله مؤلف «الاخوة كارامازوف» ؟ ان طروحات ناشر «ميسل» بهذا الشأن مثيرة جدا للفضول ، رغم انها قابلة للجدل .

فى رأى اوبولينسكى ان دوستويفسكى اضطلع بـ«تمثيل وحماية» جمهور «الفلاحين الارثوذكس الجهلاء **لا اكثر ولا أقل**» . ليس مصالح المثقفين وليس مصالح جزء ما منعزل من الشعب (كالمنشقين مثلا) هى ما تشكل موضع همومه : أنه يعبر عن تأمل العالم من زاوية «اصحاب الزبون الرمادى» بكامل كليته ،

«دون استقطاعات . . دون بتر هذا التأمل للعالم حسب مـــا يحلو له» .

ان وجهة نظر اوبولينسكى استثنائيـــة للغاية : فنحن لا نصادف مثل هذه الآراء فى كل أدب ذلك العهد . ويخيّل ان احدا من مجايلى دوستويفسكى لـــم يخطر بباله ربط اسمـــه بأيديولوجيا «الفلاحين الارثوذكس الجهلاء» . بينما يتيح ادراك هذه الصلة العميقة النظر الى مؤلف ال«يوميـــات» من زاوية غير متوقعة بعض الشيء .

ثمة سنّة منطقية عميقة فى ان يسارع اكبر فنانين روسيين فى اواخر القرن التاسع عشر - تولستوى ودوستويفسكى - الى التبرؤ من الآراء المقرونة بدائرة حياتهما الشخصية ويعتبران لزاما عليهما تبنى وجهة نظر «الاكثرية» .

صحيح ان كلا منهما يفعل ذلك على طريقته ، بيد ان اتجاه جهودهما العام لا يرقى اليه الشك .

فى ٢٠ كانون الثانى أرسل ن . س . آبازا ، المدير الجديد للادارة العليا لشؤون الصحافة بطاقـــة زيارة الى دوستويفسكى وكتب على ظهرها : «أرجو المعذرة جراء التأخير . ليس هناك اية عوائق ، بالطبع» . يفيد اوائل كاتبى سيرة حياة دوستويفسكى بأن ابازا طمأن مؤلف ال«يوميات» «بأن ليس بمقدور الرقابة ان تتطاول على اية فكرة من افكاره» .

على هذا النحو ، مر «اصحاب الزبون الرمادى» : كانت فترة زمنية ليبرالية منقطعة النظير .

وفى مفكرته الاخيرة ثمة ملحوظة : «لعدد آذار» . ترى ماذا كان سيقول فى «يومياته» **بعد** الاول من آذار ؟

لم يتبق على الانفجار على قناة يكاتيرينينسكى سوى اكثر من شهر . وكان قد تبقى له من الحياة ثلاثة ايام .

«ايامى معدودة»

فى يوم الجمعة المصادف ٢٣ كانون الثانى دار بينه وبين آنّا غريغوريفنا حديث عن الصيف المقبـــل . كان يرتئى شراء

ضيعة فى ضواحى موسكو بما سيتقاضاه من مال لقـــاء «الاخوة كارامازوف» والـ«يوميات» (كان المبلغ فى حدود ١٢–١٥ الفا ، وبالامكان اقتراض خمسة آلاف اخرى من معارفهـم) : «عندئذ سأسافر الى ايمس ، وانت ستسافرين الى الضيعـة وتضطلعين بتدبير شؤونها . وسنمكث هناك الى الخريف ثم نعود الى هنا . لسوف تتحسن صحتك وصحة الاطفال تحسنا ممتازا» .

انه يقول قبل وفاته بثلاثـة اشهر : «ان ايامى معدودة» . وقبل خمسة ايام نراه يرسم خططا رحبة للمستقبل .

فى يوم الاحد المصادف ٢٥ كانون الثانى توجه الى المطبعة لتسليم الورقة الاخيرة من الـ«يوميات» ، وليطلب ارسال مسودة الطبع غدا لتصحيحها .

وقد لوحظ انه كان فى ذلك اليوم «مرحا ومعافى تماما ، ولم يكن ثمة ما ينذر بما حدث بعد مضى بضع ساعات» .

عاد الى منزله فى السادسة والنصف ، حين جلست الاسرة باكملها لتناول طعام الغداء : وكانت هذه هى مائدتها المشتركة الاخيرة (اذا استثنينا مأدبة الغد المصيرية) .

تذكر آنّا غريغوريفنا فى مذكراتهـــا : «بعد الغداء ذهب لارتشاف قهوته ، ثم جلس لتسطير رسالة الى كاتكوف ، وبعد ان فرغ منها نادانى وتلاها علىّ» .

اغلب الظن ان هذه هى الاسطر الاخيرة المكتوبة بخط يده (أذا استثنينا ملاحظات العمل التى سجلها ليوم غد – بشأن بيع مؤلفاته) . وكانت الرسالة مؤرخة بيوم ٢٦ كانون الثانى : يرجح انه قام بنسخ مبيضتها فى ليلة ٢٥ على ٢٦ منه . ومن المحتمل ان ما تلاه على آنّا غريغوريفنا هو المسودة .

يطلب كاتب الرسالة من هيئة تحرير «البشير الروسى» أن تبعث له بما تبقى له من اجور لقاء «الاخوة كارامازوف» . «بما انكم كنتم منذ وقت طويل وفى اغلب الاحيان تنظرون دوما بعين العطف الى كل طلباتى ، فهل بامكانى ان اعقد الامل مرة اخرى على رعايتكم واستجابتكم لرجائى الحالى ، ولربما الاخير ؟» .

ان رسالته الاخيرة بخط يده لا تختلف كثيرا عن عشرات سواها : لقد كان معنيا بالمال طوال حياته .

تقول آنا غريغوريفنا فى مذكراتها : «فى المساء خرج ليتنزه

(كانت هذه هى نزهته الاخيرة — **المؤلف**) ، — بعد ذلك . . .»
تلى هذا السطر علامات كتابة اختزالية . . .

هذا الترميز يناسبه بعض الغموض فى تطور الاحداث اللاحق . بيد اننا سنرجئ لبعض الوقت مسألة مدى تناسب السرد الادبى للاحداث المشار اليها مع مضمونها الفعلى . وسنأخذ موقتا بصورة غير نقدية ، «من باب التصديق» ، الرواية التى تعتبر «رسمية» .

«قانون الدم» قيد التطبيق

فى الليل ، كما تدعى آنّا غريغوريفنا ، وقع «حادث صغير» لزوجها : «سقطت حاملة ريشة الكتابة على الارض وتدحرجت تحت منضدة الكتب (وكان هو شديد الاعتزاز بهذه الحاملة لانه كان يستخدمها ، فضلا عن الكتابة ، لتحشية سجائره) . ولأجل التقاطها قام فيودور ميخائيلوفيتش بازاحة منضدة الكتب . ويرجح انها كانت ثقيلة ، فأضطر فيودور ميخائيلوفيتش الى بذل جهد لا يستهان به ، ادى فجأة الى انقطاع الشريان الرئوى فتدفق الدم من حلقه . ولكن بالنظر لقلة كمية الدم المتدفق ، لم يحفل زوجى كثيرا بذلك ، حتى انه عزف عن ازعاجى ليلا» .

يجدر التنويه بأن المشارك (والشاهد) الوحيد فى هذا الحادث الليلى هو دوستويفسكى نفسه : معنى هذا ان آنّا غريغوريفنا تتحدث **نقلا عنه** .

وننبه كذلك الى انه عزف عن ايقاظ زوجته النائمة بأمان .

فى يوم الاثنين ، ٢٦ كانون الثانى ، نهض كعادته فى الواحدة ظهرا ، وعندما دخلت آنّا غريغوريفنا الى مكتبه ابلغها بحادث الليل . فأعترى آنّا غريغوريفنا «قلق شديد» ، فأرسلت — دون ان تُعلم زوجها بشىء الصبى بيتيا (نفس ذلك الصبى بيتيا كوزنتسوف الذى اوردنا آنفا مذكراته) لاستدعاء الدكتور فون بريتسيل . بيد ان هذا كان قد انصرف لمعاودة مرضاه ، ولم يتمكن من الحضور الا فى الخامسة .

وتفيد آنّا غريغوريفنا بأن زوجها طوال هذه الفترة «كان

هادئا كل الهدوء ، يتحدث ويمزح مع الصغار ، ثم شرع فى مطالعة مجلة «العصر الحديث»» . يلى ذلك مقطع ملغوز كفاية لدى آنّا غريغوريفنا . فهى تمضى فى مذكراتها الى القول :

– «فى حوالى الساعة الثالثة قدم الينا سيد طيب جدا يحظى باعجاب زوجى ، لكنه يحوز نقصا واحدا هو انه يتجادل على الدوام جدلا شديدا . واخذا يتحدثان عن مقال فى عدد «يوميات» المقبل . وراح محدثه يورد حججه على امر ما ، بينما صار فيودور ميخائيلوفيتش الذى كان قلقا بعض الشىء بسبب النزيف الليلى يعارضه حتى نشبت بينهما مجادلة ساخنة . واخفقت محاولاتى فى كبح جماح المتجادلين ، رغم اننى ابلغت الضيف مرتين بأن فيودور ميخائيلوفيتش ليس معافى تماما وان الحديث الكثير وبصوت عال يضر بصحته . واخيرا ، فى حوالى الساعة الخامسة انصرف الضيف ، وهممنا بالذهاب لتناول طعام الغداء ، واذا بفيودور ميخائيلوفيتش يجلس على اريكته ويصمت لدقائق ثلاث . فجأة ، ولهولى ، رأيت ان ذقن زوجى قد اصطبغ بالدم الذى راح يجرى منحدرا بمجرى نحيف على لحيته» .

فى سيرة حياة دوستويفسكى الاولى التى كتبها ستراخوف ونشرت عام ١٨٨٣ لم ترد كلمة واحدة عن زيارة ما قبل الغداء التى قام بها السيد الغامض . بل اكتفى بقول موجز : «فى الساعة الرابعة بعد الظهر جرى اول نزف دموى من بلعومه» . وتتكشف اسباب هذا الايجاز فى رسالة آنّا غريغوريفنا الى ستراخوف نفسه يوم ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٣ .

تقول آنّا غريغوريفنا فيها : «فى مجرى النهار اضطر (دوستويفسكى – **المؤلف**) الى خوض حديث شديد يكاد يكون شجارا مع شقيقته فيرا ميخائيلوفنا التى وصلت من موسكو (وهذا ، بالطبع ، امر لا ينبغى التنويه به فى الصحافة)» .

ولم يجر التطرق الى ذلك فى الصحافة وقتئذ . بل حتى بعد انقضاء بضعة عقود لم تجد آنّا غريغوريفنا خلال عملها على مذكراتها ممكنا الابلاغ بأن «السيد» الطيب جدا والذى يحظى باعجاب زوجها ، لكن له عادة مهلكة هى الجدل ، ليس سوى شقيقة دوستويفسكى فيرا ميخائيلوفنا .

بينما لم يكن موضوع الجدل جديدا البتة .

لقد كانت الخلافات العائلية حول تركة الخالة كومانينا (١٢٤) مستمرة منذ بضع سنوات ، ومصحوبة بحالات تأزم دورية . فقد توفت خالته عام ١٨٧٢ ، لكن دوستويفسكى لم يدرج رسميا الا منذ وقت قريب ، خلال شهر كانون الثانى ١٨٨١ ، فى حيازة جزء من ضيعتها فى ريازان . وكان عليه خلال ذلك ان يدفع مبالغ معينة لشقيقاته اللواتى لم يشاركن فى تقسيم التركة .

تقول ابنة دوستويفسكى ان خالاتهـــا كن «مستاءات جدا» من هذا الانعطاف فى القضية : «وهنا تذكرن كيف تخلى شقيقهن فيودور بيسر عن تركة والديه لقاء مبلغ تافه دفـــع على الفور (وبالفعل ، ففى عام ١٨٤٤ تنازل عن جزء من الأرث لقـــاء الف روبل - **المؤلف**) . لهذا كن يعتقدن بانـه سيبيح للآخرين مرة اخرى ان ينهبوه . . .»

بطبيعة الحـــال ، ان لوبوف فيودوروفنا تؤيد وجهة نظر **اسرتها** . فهى تذكر ان كل شقيقات والداهـــا يتمتعن بظروف مادية افضل كثيـــرا من اسرة دوستويفسكـــى : «كانت عمتى الكسندرا تملك عمارة فى بطرسبورغ ، وعمتى بربارا تملك بضعة دور فى موسكو ، وحصلت عمتى فيرا على ضيعة داروفويه من والديها» . رغم ذلك كانت لوبوف فيودوروفنا «لعلمها بسخاء والدها» على قناعة من «انه كان سيتنازل لشقيقاته عن حصته ، لو لم تكن واجباته تجاه زوجته وصغـــاره على هذا القدر من الالحاح» .

كان دوستويفسكى فى شجار مع شقيقته الكسندرا ، لذا لم تكن ترتاد داره ، وكانت له علاقات جيدة مع شقيقته بربارا . وكانت شقيقته فيرا هى الاثيرة لديه . ربما لهذا السبب اخذت على عاتقها هذه المهمة الحساسة : وهى ان تحاول اقناعه بتضحية **اخوية** .

يستدل من افادة آنّا غريغوريفنا ان الحديث الصريح مـــع «هذا السيد» قد جرى قبيل الغداء . واذا صدقنا باقوال لوبوف فيودوروفنا فقد جرى فى إبانه .

هذه لمسة جوهرية . فلو جرى المشهد اثنـــاء الغداء الذى حضره الاطفال ايضا لكان بمقدور لوبوف فيودوروفنا ان تعتمد

على ذكرياتها الذاتية . والا ستكون آنّا غريغوريفنا مصدر كـل المعلومات .

كانت فيرا ميخائيلوفنـــا عند آل دوستويفسكى فى حدود الساعة الثالثة ظهرا ، وغادرت بيتهم فى الرابعة او الخامسة . وكانت اسرة دوستويفسكى تتناول طعام الغداء فى وقت متأخر . وعلى صعيد آخر ، يصعب افتراض انهم تركوا ضيفتهم القادمة من موسكو تنصرف بلا غداء .

ولكن لنعد الى مذكرات لوبوف فيودوروفنا .

تقول ابنة دوستويفسكى ان غداء الاسرة (الذى تعزوه عن خطأ الى يوم ٢٥ كانون الثانى) ابتدأ بداية رائعة : فقد شغف الشقيق والشقيقة فى «تبادل الذكريات عن العابهما وتسلياتهما فى سنى الطفولة» . على ان فيرا ميخائيلوفنا ما لبثت ان انتقلت الى القضية .

«تجهم الوالد ، وحاولت امى تغيير موضوع الحديث . لكن ذلك لم يجد نفعا : كانت العمة فيرا اقل افراد الاسرة ثقافة» . فأرتفعت نبرة الحديث وانهمر لوم متبادل ، واخيرا انفجرت دموع العمة فيرا . «وفقد دوستويفسكى الصبر ، ولأجل انهاء المماحكات الشديدة الوطأة ، نهض من وراء المائدة قبل انتهـــاء الغداء . وحينما كانت والدتى تعيد شقيقة زوجها المستمرة فى البكـــاء والمصرة على الانصراف باسرع وقت ، توارى والدى فى غرفته» .

هكذا نجد رواية آنّا غريغوريفنا المسرودة فى مذكراتها تُدحض مرتين : من قبل آنّا غريغوريفنا نفسها (فى رسالتها الى ستراخوف) ومن مذكرات ابنتها . علما بأن البنت تورد تفاصيل تحبذ امها السكوت عنها . وحتى اذا افترضنا ان غداء الاسرة قد جرى رغم ذلك ، فقد قطعته ملابسات درامية جدا .

وتمضى لوبوف فيودوروفنا الى القول ان والدها جلس الى مكتبه ومس فمه وشاربيه بيده ثم سحبها فزعا : «كانت ملطخة بالدماء» .

فى تصوير آنّا غريغوريفنا يبدو المشهد على النحو التالى : قبل التوجه الى الطعام جلس دوستويفسكى على الاريكة وصمت لدقائق ثلاث واذا «بذقن زوجى يصطبغ بالدم» ، الذى راح يجرى منحدرا بمجرى نحيف على لحيته .

لقد كشفت قربى **الدم** عن مغزاها الحرفى المنسى .

ولكن ، من جهة اخرى : لقد طبق – بهذا الشكل او ذاك – «قانون الدم على الارض» ، الذى تحدث عنه فى مفكرته الاخيرة . انه لم يطبقه تطبيقا رمزيا فحسب ، انما حرفيا ايضا : لقد دفع دمه ثمنا .

تقول لوبوف فيودوروفنا ان والدها كان «فزعا» . اما والدتها فتدعى العكس ، أى انها – هى آنّا غريغوريفنا – كانت الفزعة ، بينما المريض نفسه «لم يكن مفزوعاً ؛ على العكس ، اخذ يهدئنى ويهدئ الصغار . . .» لقد اقتاد الصغار الى مكتبه وراح يعرض عليهم اعلانا تلقاه توا عن الاشتراك بمجلة «اوسكولكى» («الشظايا») الفكاهية . وكانت اللقطة تصور اثنين من صيادى السمك وقعا فى شباكهما وسقطا فى الماء . وراح الوالد يقرأ للصغار ابياتا شعرية «بنبرة مرحة جعلت الصغار يستعيدون هدوءهم» .

واخيرا ، وصل فون بريتسيل : وما ان شرع فى نقر صدر المريض باصابعه حتى تدفق الدم بقوة اكبر . وفقد دوستويفسكى وعيه .

لا تذكر آنّا غريغوريفنا كم استغرق اغماؤه ، ولكن يبدو انه لم يدم طويلا . وعندما ثاب الى رشده اخيرا كان اول كلام قاله هو : «آنّا ، ارجوك ، استدعى القس فورا ، أريد الاعتراف والمناولة !»

كان تولستوى قبل وفاته يخشى ان يفرضوا عليه ، وهو الذى حرم من الكنيسة على غير ارادة منه ، اداء الفرائض الكنسية . اما دوستويفسكى فيموت «كالآخرين» : انه يخشى ألا يتسنى له اداء فرائض الدين .

استدعى القس الاب ميغورسكى من كنيسة فلاديمير المجاورة . وتقول آنّا غريغوريفنا ان زوجها استقبل الاب «بهدوء ورحابة صدر» ، ثم ظل ردحا طويلا يعترف حتى تناول . لقد بقى ما قاله دوستويفسكى للاب ميغورسكى سرا مجهولا ، مثلما لا يعرف احد شيئا عن الاب ميغورسكى نفسه . فهو لم يترك لنا ايما مذكرات . لذا لا يزال سر الاعتراف مصونا حتى هذا الحين .

وعلى الرغم من ان الدكتور كان يؤكد ان ليس ثمة خطر

يذكر ، راح المريض يفعل كل ما يليق بالمحتضر : يعترف ، يودع زوجته واطفاله ويباركهم . انه لا يريد ان يفاجئه الموت .

يكتب سوفورين (نقلا عن كلام آنّا غريغوريفنا فيما يبدو) : «ان فقدان الدم استنزف قواه كثيرا . فهوى رأسه على صدره واظلم وجهه» .

في المساء وصل البروفسور كوشلاكوف (كان فون بريتسيل قد ارسل اليه رسالة مقلقة) . ولم يشأ هذا الطبيب الواسع التجربة ان يزعج المريض بالفحص ، بل قال لآنّا غريغوريفنا انه ما دام لم ينزف من الدم سوى كمية قليلة نسبيا «قرابة قدحين» ، «فمن المحتمل ان يحدث «انسداد» وتتجه الحالة نحو الشفاء» .

كان كوشلاكوف متفائلا بوجه عام : ففي يوم الوفاة كان يؤكد «ان انقاذه لا يزال ممكنا» .

اوصى الاطباء المريض بالاقلال قدر الامكان من الكلام والحركة . وظل فون بريتسيل ساهرا عند سرير مريضه .

في تلك الليلة - ليلة الاحد على الاثنين - جلست آنّا غريغوريفنا لتحرر رسالة الى ميللر : «أمس في السادسة مساء (في مصادر اخرى في الرابعة او الخامسة - **المؤلف**) مرض فيودور ميخائيلوفيتش مرضا خطيرا : انفجر لديه الشريان الرئوي وتدفق الدم بقوة من بلعومه . . . وقد اجرى الاطباء عندنا مشاورة ، ويطالب كوشلاكوف باصرار ان يمتنع فيودور ميخائيلوفيتش عن الحركة والكلام على مدى اسبوع .

انني اعاني يأسا قاتلا . فالخطر لم يبرح بعد : إن حدث نزيف دموي مماثل «فقدنا فيودور ميخائيلوفيتش» .

على ان المريض امضى الليل بهدوء .

«دعيني وما افعل . . .»

تقول لوبوف فيودوروفنا : «في اليوم التالي نهض معافى ونشيطا» .

منذ الصباح لاحت بوادر الامل : اذ لم يتكرر النزيف

الدموى . وراق مزاج المريض بعض الشىء ، فأستدعى الصغار وبادلهم الحديث قليلا . ومر فى النهاية مرتب الصحف للتحدث فى شؤون ال«يوميات» التى كانت تحت الطبع . «ماذا وراءك يا حضرة السيد ؟» - خاطبه دوستويفسكى : هكذا كان يسمى مازحا المشرف على طباعة مؤلفاته .

كان مرتب الصحف قد جلب مسودة الكتاب المطبعية لتصحيحها : واتضح ان فيها سبعة أسطر فائضة عن اللزوم . دب القلق الى نفس دوستويفسكى . فوجدت آنّا غريغوريفنا مخرجا : فقد اقترحت تقليص بضعة اسطر من الصفحات السالفة ، وهو ما فعلته بنفسها .

كان يُعنى عناية فائقة بأن يصدر الجزء الاول من ال«يوميات» ، مثلما اعلن عن ذلك ، فى اليوم الاخير من الشهر ، أى فى ٣١ كانون الثانى (يناير) .

وكان اليوم هو الثلاثاء ، ٢٧ كانون الثانى .

يقول سوفورين : «لقد نُصح بالراحة التامة اللازمة فى مثل هذه الحالات ، لكنه كان بطبيعته غير مؤهل للراحة ، فعقله يعمل بأستمرار . فهو - تارة - ينتظر الموت القريب والسريع ، فيصدر التعليمات ويقلق بمصير اسرته ، وتارة اخرى يحيا ويفكر ويحلم باعماله المقبلة ويروى كيف سينشأ الاطفال وكيف سيقوم بتربيتهم . . .»

وفى الرثاء الذى كتب قبل ذلك بثلاثة ايام يرسم سوفورين صورة مماثلة : «كان طوال يومه مرحا وهادئ البال ، يمزح ويتحدث عن اعماله المقبلة وعن اطفاله ويهدئ من روع المحيطين به . «مالكم تؤنبوننى ؟! لسوف احيا اكثر منكم» .

لم يبق على رحيله الا يوم واحد .

قدم اليه كوشلاكوف مرة اخرى : «رأى ان حالة المريض قد تحسنت كثيرا فأمّله مشجعا» . وطلب منه ان ينعم باكبر قدر من النوم : لهذا السبب أوى الجميع الى اسرتهم فى وقت مبكر . وفرشت آنّا غريغوريفنا فراشا لنفسها فى مكتبه ، ورقدت على حشية بجنب الديوان .

وثمة مسودة كتبتها آنّا غريغوريفنا بسرعة واصفة هذا اليوم : «فى يوم الثلاثاء جاءتنا شتاكنشنايدر واوريست ميللر ،

وذهبت لشراء عنب . تناول بعضا من الكافيار مع الخبز الابيض ، وشرب حليبا . زاره كوشلاكوف وبعده جاء بريتسيل وانصرفا ، نهض لقضـــاء حاجة وقام بتهويـــة الغرفة . فى المساء جاءت فيروتشكـــا وبافـــل الكسندروفيتش (آل ايسايف (١٢٥) — **المؤلف**) . رقدنا فى وقت مبكر ، شرب كثيرا من الليمونادا التى اعدتها ماما ، وفى اوقات متتالية . فى يوم الثلاثــاء خشى ان يأكلوا كل العنب ، وعندما جلبوا له مزيدا منه طلب منى ان آكل معه» .

ان كل هذه التفاصيل ، غير المهمة ربما ، عزيزة على آنّا غريغوريفنا . فهى التى قامت شخصيا بسقى المريض حليبـــا وقدمت له الخبز مع الكافيار . ولمعرفتهـا حبه للحلوى ذهبت بنفسها لشراء العنب (الذى ينبغى الظن انه لـــم يكن رخيصا فى شهر كانون الثانى . ونوهت بريبته الانفعالية («خشى ان يأكلوا كل العنب») ، كما نوهت بآخر علامة من علامات رعايته («طلب منى أن آكل معه») .

اما بوشكين فقد اطعمته زوجته قبيل وفاته نوعا من الكرز يدعى فريز السحاب .

تواصل آنّا غريغوريفنا مذكراتها فتقول : «فى مساء يوم الثلاثاء ، قبيل ان ينام ، صعدت الى الطابق العلوى لأرجو صاحب الشقة ان يكف عن السير ، اذ كان وقع اقدامه المستمر يقضّ مضجعه . فكف السيد عنه بالفعل» .

تجدر الاشارة الى ان عازل الصوت فى المبنى ردىء جدا . وهذه الاشارة سوف تنفعنا فى المستقبل .

وفى الليل نهضت آنّا غريغوريفنا عدة مرات لتتفقد المريض على ضوء مصباح ليلى : كان ينعم بنوم هادئ . ثم اخذتها هى الاخرى سِنَة النوم .

حل يوم الاربعاء الموافق ٢٨ كانون الثانى .

تقول آنّا غريغوريفنا : «أفقتُ فى حوالى السابعة صباحا ، فرأيت زوجى ينظر الىّ . فانحنيت نحوه وسألته .

— كيف حالك يا عزيزى ؟

فأجاب فيودور ميخائيلوفيتش بصوت يكاد يكون هامسا :

— أتدرين ، يا آنّا ، لقد أفقت قبل حوالى ثلاث ساعات

وكنت افكر طوال هذه الفترة ، ولم ادرك الا الآن بوضوح انني سأموت اليوم» .

ودون التفات الى محاولاتها اليائسة لرده عن رأيه قال :

«اوقدى شمعة ، يا آنّا ، وناوليني الانجيل !»

كان قد تلقى هذا الانجيل فى سيبيريا هدية من زوجات الديسمبريين ، وهو الكتاب الوحيد الذى كانت تحق له حيازته فى السجن . ولم يفارق هذا الكتاب قط ، وكان يخفى تحت غلافه ، كما نعلم الآن ، رسائل صغاره البريئة . وكان الانجيل بالنسبة له كتاب فأل ايضا : كان يهوى فتحه كيفما اتفق ليقرأ ما يصادفه على اول صفحة من الشمال . وقد فعل الآن الشيء نفسه .

كان ما طالعه الآن هو انجيل متى : الاصحاح الثالث ، ١٤-١٥ (تمضى لوبوف فيودوروفنا الى القول : «ان أمى قرأت بصوت عال مغالبة دموعها») : «فجعل يوحنا يمانعه فيقول : «انا احتاج الى الاعتماد على يدك ، فكيف تجيء انت الىَّ ؟ فأجابه يسوع : «دعنى الآن وما أفعل ، فهكذا يحسن بنا ان نتم كلَّ بِرّ» .

– أسمعتِ – «دعنى الآن وما أفعل» – معنى هذا اننى سأموت ، – قال زوجها واغلق الكتاب» .

لقد حفظت جيدا هذا الحوار الصباحى . اخذ زوجها يواسيها ، «وخاطبنى بكلمات رقيقة طيبة ، وشكرنى على الحياة الهانئة التى عاشها معى» . كل هذا تنقله آنّا غريغوريفنا سردا ، باستثناء عبارة واحدة اوردتها بالكلام المباشر : «ثم قال لى كلمات يندر ان يقولها احد من الازواج لزوجته بعد اربع عشرة سنة من الحياة الزوجية :

– أعلمى يا آنّا ، اننى كنت احبك على الدوام بحرارة ، ولم أخنك قط ، حتى فى مخيلتى» * .

فى حوالى التاسعة غفا بهدوء وهو يمسك بيد زوجته . «ولكن

---

* تقدم آنّا غريغوريفنا فى مسوداتها نصا مغايرا بعض الشيء : «. . . طلب المغفرة ، كان يحبنى [يحترمنى ، لم يخنى الا فى المخيلة ، وليس فى الواقع] . . .»

فى الحادية عشرة أفاق زوجى فجأة ، ورفع رأسه عن الوسادة ، واستؤنف النزيف الدموى» .

يقول سوفورين : «اخذ قلقه يزداد اكثر فاكثر» . اما آنّا غريغوريفنا ، فعلى العكس ، تؤكد ان زوجها ظل محتفظا برباطة جأشه ، «وكان واضحا من محياه الوادع ان فكرة الموت لا تبارحه وان الانتقال الى العالم الآخر لا يخيفه» . وعندما حاولت آنّا غريغوريفنا بعد النزيف الدموى الصباحى ان تهدئ من روع المريض ، اكتفى «بهز رأسه بحزن وكأنه كامل الايمان بأن فأل الموت سوف يتحقق فى هذا اليوم بالذات» .

هناك مصدر وثائقى آخر سجلت فيه الساعات الاخيرة من حياة دوستويفسكى ، هو رسائل ابنة الشقيق الاصغر لدوستويفسكى ى . ريكاتشوفا وزوجها الى ابيها فى ياروسلافل .

فى يوم ٢٨ كانون الثانى ، فى الساعة الثانية ظهرا زارت دوستويفسكى ابنة شقيقه ى . ريكاتشوفا التى كتبت تقول : «كان عمى راقدا ولا يسمح لاحد بالدخول عليه ، رغم انهم كانوا يبلغونه بكل من يأتى لزيارته . وكانت هذه رغبته من كل بد» .

فى هذا اليوم ظهر فى «العصر الحديث» اول نبأ عن مرض دوستويفسكى . وبعد الثانية ظهرا اخذ الزوار بالقدوم . وكان الجرس فوق باب المدخل يقرع دون توقف : فأضطروا الى شده . وعلى الرغم من عدم السماح للضيوف بالدخول عليه كان هو ، كما تقول آنّا غريغوريفنا ، مسرورا جدا لاهتمام وتعاطف الجميع ، وكان يسألنى هامسا ، بل حتى املى علىّ بضع كلمات ردا على رسالة طيبة» .

ثمة مسودة بين اوراق آنّا غريغوريفنا : جزء منها كتب بخط عادى ، والجزء الآخر بعلامات الكتابة الاختزالية . وعلى هذه الورقة نجد ملاحظة (يبدو انها كتبت فى وقت لاحق) : «أُملى علىّ ردا على رسالة الكونتيسة هايدن (١٢٦) فى الساعة الخامسة او الخامسة والنصف من يوم الوفاة» .

انه يملى عليها نصه الاخير : يقوم شخصيا بتقدير حالته . «فى يوم ٢٦ انفجر الشريان الرئوى ، واغرق الرئتين اخيرا . وعلى اثر النوبة الاولى حدثت نوبة اخرى ، مساء هذه المرة ، ففقد فيها قدرا كثيرا من الدم ، وصحبها اختناق . وطوال ربع ساعة

كان فيودور ميخائيلوفيتش على قناعة تامة بأنه سيموت ، واخذوا منه الاعتراف وناولوه المناولة . وشيئا فشيئا تحسنت انفاسه وانقطع الدم . ولكن ، بما ان الشريان المقطوع لم يلتئم ، فقد ظل احتمال ان يبتدئ النزيف من جديد . وعندها بالطبع سيكون الموت محتملا . اما الآن فهو يحتفظ بكامل ذاكرته وقواه ، لكنه يخشى ان ينفجر الشريان مرة اخرى» .

يمكن الافتراض ان النزيفين الصباحى والنهارى لم يكونا خطيرين جدا ، لذا لم يعتبرهما المريض جديرين بالذكر . ويكاد هذا ان يجد ما يؤكده فى رسالة ابنة شقيقه .

تقول ى . ريكاتشوفا : «وصلت فى الساعة الثانية ظهرا ، ولم يكونوا آنذاك قد فقدوا الامل ، لذا بعثوا بمن يستدعى كوشلاكوف . . . وفى اثناء مكوثى لم يكد عمى ينزف تقريبا . لذا كان الكل يأملون جدا شفاءه . . .»

وتتضمن «النشرة» التى املاها دوستويفسكى يوم ٢٨ كانون الثانى تقديرا دقيقا لحالته . انه يعى جيدا الخطر المحدق به ولا تراوده ايما اوهام بهذا الشأن . الى جانب ذلك يجرى ابلاغ الكونتيسة هايدن بأن المريض «يحتفظ بكامل ذاكرته وقواه» .

وهو لم يكتف باحتفاظه بوعيه الكامل فحسب ، بل ويصدر لآنّا غريغوريفنا بعض التوجيهات العملية . على سبيل المثال ، تراه يصر اصرارا قطعيا على ان تعاد – فى حالة وفاته – بدلات الاشتراك على الفور الى المشتركين بـ«يوميات كاتب» . وتفيد احدى صحف بطرسبورغ ببعض الاندهاش بأنه «عاد مرارا ، وليس مرة واحدة ، الى موضوع بدلات الاشتراك هذه» .

انه لم يكن راغبا فى البقاء مدينا لأحد .

فكيف مرت ساعاته الاخيرة ؟ هناك ملاحظات متقطعة تركتها آنّا غريغوريفنا بهذا الصدد .

ويُفهم من ملاحظات آنّا غريغوريفنا انها ذهبت صبيحة يوم ٢٨ كانون الثانى الى المطبعة لامور تخص بالطبع «يوميات كاتب» . فما هو سبب هذه الرحلة ؟

كتبت «العصر الحديث» يوم ٣١ كانون الثانى تقول : «فى صبيحة يوم وفاة دوستويفسكى . . . حملت اليه – بعد ان صُفّت – الملزمة الاخيرة من هذا العدد التى كان قد راجعها اثناء

التصحيح : وكان المطلوب فقط استحصال توقيعه على نشرها . لم يكد بمقدوره ان يفعل ذلك ، فقالت زوجته للساعي : «تعال غدا ، سوف تتحسن صحته فيوقعهـــا» . وفي اليوم التالي كان فيودور ميخائيلوفيتش قد سُجّي .

يقول م . ريكاتشوف : «لقد انهى توا الـ«يوميات» وقد وقع مسودة التصحيح الاولى ، ولكن لم يتسن له توقيع الثانية» .

ألم تكن آنّا غريغوريفنا قد حملت الى المطبعة احدى هاتين المسودتين اللتين تركهما الساعي وجرى توقيعهمـــا في نفس صبيحة يوم ٢٨ كانون الثاني ؟ يبدو ان المؤلف لم يكن يرضى بأدنى تأخير .

تقول آنّا غريغوريفنا في مذكراتها المتأخرة ، مناقضة مـــا أوردناه توا مما دونته من ملاحظات : «طوال ذلك اليوم لم ابرح زوجي حتى ولو لدقيقة واحدة» . ولسنا ننحو عليها باللائمة اذا قلنا : انها رغم ذلك بارحته : فقد ظلت معاونة له حتى النهاية .

اما هو فقد ظل حتى النهاية على سجيته : سوى ان حصافة التعبير لا تبيح لنا القول انه مات ماسكا بمسوداته المطبعية .

وتذهب آنّا غريغوريفنا الى القول : «عندما اقترحت عليه ، عملا بنصيحة كوشلاكوف ، ان يستأجر طالبا لتلبية طلباته وافق لكنه قال : «لكم اسلب من جيوبكم !»

انه يخشى ان يغدو عالة على اسرته اذا امتد به المرض .

ولنواصل ما دونته آنّا غريغوريفنا في مفكرتها .

«قال غاضبـــا بخصوص الشاي : «كنت سأدفن الآن . هذه سرعة غضب . اطلبي استدعاءه (كوشلاكوف) . . . ألا ترين ، دعيني وما أفعل» .

«كنت سأدفن الآن» – أي في اليوم الثالث ، لو كان النزيف الاول عبر البلعوم قد افضى الى الموت . «قال غاضبا بخصوص الشاي» – هذا هو اعتراضه الازلي على كون الشاي مركزا او قليل التركيز (ليس اعتباطا انه كان يحب اعداده بنفسه) . وعلى الفور يسارع الى الاعتذار – بصيغة تقويـــم ذاتي غير محمود كثيرا : «هذه سرعة غضب» .

«في يوم وفاته قلق بشأن المدفأة ، وهل احسنوا غلقها . دعي ماريا تأتي . «ألم تتناولي طعام الغداء بعد ؟»

تصرفاتـه ، حركاته ، كلماتـــه الاخيرة : كل شيء عادى وبسيط ، لا شيء «لاجل التاريخ» .

سجلت آنّا غريغوريفنـــا فى مفكرتهـــا : «طالعت «العصر الحديث» ، يوم الثلاثاء» . ذكرت الصحيفة ان الجنرال سكوبيليف الذى استولى فى سهوب حوض قزوين قبل اسبوعين على حصن غيوق - تبّه استلم امدادات جديدة . وذكرت الصحيفة كذلك ان ممثلى الدول الكبرى الذين ناقشوا فى الاستانة المسألـــة اليونانية - التركية «افترقوا دون التوصل الى اية نتائج» .

وتذكر آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «استقبل الطبيب الذى لا يعرفه استقبالا غير ودى» : مثلما كان متوقعـــا ، لم يتمكن الطبيب أ . بفايفر من كسب ثقة المريض النزق الذى كان يرتاب من الاطباء «الاغراب» . . .

«اقرئى لى «العصر الحديث» ، التى كتبت عنى ، مرتين ، اننى لم اشعر بضجر النهاية ، النهاية ، سيغمرنى (الدم) . ليت لى ريبتى السابقة . . .»

انه يرجو ان تقرأ عليه «العصر الحديث» عن يوم الاربعاء ، ٢٨ كانون الثانى : ففيها اول نبأ عن مرضه . وقد جاء فيه :

«فى برنامج الامسية البوشكينيـــة المنشور اليوم لن يجد القراء اسم دوستويفسكى الذى كان قد نشر سابقا . لقد الم به مرض شديد مســـاء يوم ٢٨ كانون الثانى ، وهو الآن طريح الفراش . وبات بمقدور من كان حتى وقت قريب يلومه على كونه كثيرا ما يجنى التصفيق فى حفلات الالقاء امام الجمهور ان ينعموا بالا : فالجمهور لن يسمعه فى وقت قريب . المهم ان يحفظ الله للشعب الروسى الحياة العزيزة لاكثر الكتاب المعاصرين عمقا ، الوريث المباشر لادبائنا العباقرة !»

لم يكن دوستويفسكى مدللا بمثل هذه التقديرات . لذا كان بمقدوره ان يرجو آنّا غريغوريفنا ان تقرأ النص «مرتين» دون ان يشعر خلال ذلك بالضجر .

على ان النبرة الرنانة فى نبأ «العصر الحديث» تنذر بمراث قريبة .

وجاء فى نفس عدد الصحيفة ان مجلس النواب الباريسى قد واصل مناقشة مسألة اعادة السماح بالطلاق . وان مجلس الوزراء

الاسبانى قد قدم استقالته ، وان العقيد موررومتسيف آمر فوج بينزينسكى قد اطلق الرصاص على نفسه ، وان الباب العالى لم يسمح بتأسيس مستوطنات يهودية فى فلسطين .

كل الامور كانت تجرى فى مجراها المعتاد .

تقول آنّا غريغوريفنا : «لقد هنأته بالمناولـة المقدسة ، لكنه قال انه لم يتناول المناولـة بعد ، وكانت تراوده شكوك فسأل القس اذا كان قد أحسن الفعل ، وماذا لو شفى فجأة» (تلى ذلك علامات كتابة اختزالية) .

. . . عندمـا كان تولستوى المحتضر يرقد فى بيت مدير المحطة فى استابوفو ، كان العالم بأسره ينتظر كاتما انفاسه كيف ستحل علاقاته مع الرب (مع «الرب الرسمى» بطبيعة الحال) . وقد بعث السينود المقدس ومديرية الشرطة ببرقيات . وغادر الى استابوفو على الفور رجال دين رفيعو المراكز . بيد ان تولستوى لم يستقبل احدا . لقد رحل محروما من الكنيسة وغير تائب .

ان وفاة تولستوى تعتبر من حيث دراميتها ، بل وحتى من حيث مظهرها الخارجى ، حدثا ملحميـــا . وليس عبثا ان يقول معاصروه ان الصحف آنذاك كانت تنفد فى الطرقات مثلما فى يوم اعلان الحرب . ان تولستوى غادر هذا العالم «صافقـــا الباب وراءه» : وسيبقى صدى هذه الصفقة المدوى يتردد طويلا فى اجواء الارض .

اما دوستويفسكى فيموت ، إن جاز القول ، موتا **عاديـا** — بعد ان ودع ذويه ورتب ترتيبا نسبيا شؤونه المتعلقة بالمِلْكية وبالدين . انه يعطى ما لله لله : اذ يسارع الى اداء المراسيم المقررة من قبل الكنيسة اداء صارما ، دون ان يضفى على هذا الفعل — بالمناسبة — ايما مغزى استثنائى . وليس بامكان المرء ان يرى فى تصرفاته لا تمردا ولا اذعانا صوريا . فهو الذى كان طوال حياته يستجلى بألم علاقاته بربه ، نراه وهو يحتضر يفعل المطلوب **حسب الاصول** . وهو الذى يعتنق دين الشعب لا يروم فى ساعته الاخيرة ان ينفصل عن هذه الاكثرية .

تولستوى يغادر ياسنايا بوليانا فى غمار البلبلة العظمى التى احتدمت حول قضية وصيته ، وهى القضية التى انجر اليها

عشرات من الاشخاص ، والتى تذكر من حيث «نقلات المضمون» بقصة مغامرات أخـّاذة .

اما دوستويفسكى فلا يترك ايما وصية رسمية . فتركتـه ليست كبيرة الى درجة تثير البلبلة .

هذه ملحوظة اخرى فى دفتر آنـّا غريغوريفنا : «كل النقود نقودك . لقد وقع كاتب العدل الوكالة» .

فى كانون الثانى ١٨٨١ كان فيديا فى التاسعة ولوبـا فى الحادية عشرة من العمر .

وفى الساعات الاخيـرة همس بضـع مرات : «إستدعى الصغار» . «استدعيتهما ، فمد زوجى شفتيه ، فقبلاه وخرجا على الفور بايعاز الطبيب ، بينما كان فيودور ميخائيلوفيتش يودعهما بنظرة حزينة» .

لقد استدعاهما خلال هذه الايام مرارا ، ورجاهما ان يحبا امهما ولا يتركاها .

تقول ريكاتشوفا : «كانت آنـّا غريغوريفنـا وليليا تبكيان بكاء عندما تخرجان بين الفينة والاخرى من غرفة عمى» . ويضيف ريكاتشوف : «كانت ليليا تقلق قلقا شديدا وتفهم كل شىء بشكل مدهش . «بابا ، يا حبيبى ، سوف ابقى اتذكر دائما ما تقوله ، سوف تبقى انت طول حياتى وكأنك معى» .

بعد مضى سنوات طويلة تحاول لوبوف دوستويفسكايا نقل كلمات والدها مثلما حفظتها آنذاك على النحو التالى : «حتى لو كتب عليكما فى مجرى حياتكما ان ترتكبا جريمة ، فلا تفقدا الامل بالرب . انتم اولاده ، فأخفضا له جناح الذل مثلما امام ابيكما ، وتضرعا اليه طلبا للغفران ، وسيكون مسرورا لتوبتكما ، مثلما أسر ّته عودة الابن الضال» .

انه لا يحدث الاطفال وهو على سرير الموت عن الحياة الهانئة الرغيدة ، وانما يحذرهم من احتمال الاثم والسقوط ويتوسل اليهم الا ييأسوا او يفقدوا الايمان بالمغفرة ، وأن يتذكروا ان من غير الجائز التخلى عن الامل حتى فى آخر لحظات الشدة . وفى غضون ذلك نراه يختار من بين كل المواضيع الانجيلية ذلك الموضوع الذى يتجاوب تجاوبا أوفى من سواه مع روح مؤلفاته .

والملحوظ ان كل ابداع دوستويفسكى عبارة عن استعارة عريضة من قصة الابن الضال .

وقبل ساعتين من وفاته يرجو تقديم انجيله الى ابنه فيديا الذى فى التاسعة من العمر .

. . . ولئن كانت ذكريات آنّا غريغوريفنا عن احداث الايام الاخيرة منطقية ورصينة ، فان مسوداتها عن نفس تلك الايام عشوائية ومقتضبة ولا يتيسر دائما فك الغازها .

«طلب غسل اسنانه ، ونصب ساعته ، ومشط شعره ، لماذا لست الى الطرف الآخر . . . «انت نائم ؟ كلا ، الى اللقاء ، انا احبك . - وانا كذلك . . . طلب المعذرة . اعرب عن حبه (تلى ذلك علامات كتابة اختزالية - **المؤلف**) . . . عنب ، كرز بالسكر ، مربى كرز ، جواريب ، بنطلون بيجامة» . . . «كان هذا مجرد سرعة انفعال» .

. . . يا لها من ليلة طويلة العذاب . الآن فقط ادركت : اذا حدث نزيف آخر مت لا محالة . «قدمى له سيجارا» .

كان غروسمان يظن ان عبارة «قدمى له سيجارا» يقصد بها الطبيب . لكن امرا آخر يتضح من رسالة ى . ريكاتشوفا : «عندما اخبروه بمجىء مايكوف ، اعرب عن رغبته فى رؤيته - ذلك انهما كانا صديقين على الدوام . فدخل مايكوف عليه لدقيقة ، فصافحه عمى وقال : «آنّا غريغوريفنا ، قدمى له سيجارا» ، - وهو ما فعلته ، وخرج مايكوف على الفور خشية ان يقلق المريض» .

وعبارة «قدمى له سيجارا» هى تلويحة وداع ، تعبير عن الود الرجولى ، وآخر ما يستطيع ان يفعله لزميله القديم .

تقول آنّا غريغوريفنا ان مايكوف تحدث قليلا مع دوستويفسكى «الذى كان يرد هامسا على تحاياه» . ومن مصدر آخر نرى ان مايكوف قضّى عند سرير المريض كل فترة ما قبل الغداء : «لم تجر بينهما احاديث لأن المريض منع منعا باتا عن الكلام» .

بعد الساعة الرابعة انصرف مايكوف الى بيته : ليتناول طعام الغداء .

يبدو ان الجواب («النشرة») عن استفسار الكونتيسة هايدن

المذكور آنفا املاه دوستويفسكى بعد انصراف مايكوف : همسا كذلك ، بطبيعة الحال .

وتعقب آنّا غريغوريفنا : «فى حوالى الساعة السابعة اجتمع عندنا كثير من الزوار فى غرفتى الضيوف والطعام . وكنا بانتظار كوشلاكوف الذى كان يعاودنا فى حدود هذا الوقت . وعلى حين غرة ، ودونما سبب ظاهـر ، انتفض فيودور ميخائيلوفيتش ، ونهض قليلا على الديوان ، واذا بثجيج الدم يخضب وجهه مرة اخرى» .

اخذوا يقدمون له قطعا من الجليد ، بيد ان النزيف لـم يتوقف . وعاد مايكوف بصحبـة زوجته التى عزفت عن انتظار كوشلاكوف وهرعت تبحث عن طبيب تعرفه . كان دوستويفسكى فاقد الوعى .

انه الاحتضار .

آنّا غريغوريفنا : «. . . كنت والصغار نجثو عند رأسه ، مغالبين بكل قوانا البكاء بصوت عال ، لأن الطبيب حذرنا من ان الحاسة الاخيرة التى تبارح الانسان هى السمع ، وان كل خرق للهدوء قد يطيل امد الاحتضار ويزيد من عذاب المحتضر» .

لوبوف فيودوروفنا : «كنا نسمع ضجيجا غريبا يذكر بقرقرة الماء فى بلعوم المحتضر ، وكـان صدره يتعالى ، وهو يتحدث بسرعة وبصوت منخفض ، ولكن لم يكن يوسعنا فهم ما يقوله . وبالتدريج خبت انفاسه وقل كلامه» .

آنّا غريغوريفنا : «كنت امسك يـد زوجى بيدى ، واحس بنبضه يتناءى اكثر فاكثر . . . ولم يتمكن الدكتور تشيريبنين الذى وصل سوى ان يقتنص ضربات قلبه الاخيرة» .

كانت الساعة تشير الى الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين . «اخرجت ساعتى : كانت تشير الى الثامنة والدقيقة السادسة والثلاثين» – يكتب احد الحاضرين مصححا بدقيقتين الوقت الذى ذكرته آنّا غريغوريفنا .

كان هذا الشخص الذى اخرج ساعته وسجل لحظة الموت هو الكاتب بوليسلاف ماركيفيتش (١٢٧) .

ان مؤلف الروايات المناوئة للعدميين هذا الذى كان ينشر عند كاتكوف ويكاد يكون تربا لدوستويفسكى ، لم يكن قط من

المقربين اليه ولم يحظ يوما باعجاب يذكر لديه . ولم يسبق له ان زار داره ، بل دخله الآن لأول مرة (تقول آنّا غريغوريفنا : «وكأنه جاء ليزيد من وطأة مصابى») قبل وفاة رب البيت بأربعين دقيقة (منفذا رجاء الكونتيسة س . تولستايا ، وهو الاستفسار عن صحة المريض) . وتفيد آنّا غريغوريفنا بانها كانت تخشى - نظرا لمعرفتها بماركيفيتش - «الا يتمالك نفسه عن وصف الدقائق الاخيرة من حياة زوجى» .

شهادة من جهة اخرى

وكانت محقة : اذ لم يتمالك ماركيفيتش نفسه . ففى ١ شباط (فبراير) ظهر فى «موسكوفسكيه فيدوموستى» مقال بعنوان : «بضع كلمات عن وفاة دوستويفسكى» .

طالعت آنّا غريغوريفنا المقال واستغربت فيه امورا كثيرة .

كان بوليسلاف ماركيفيتش من كتاب الادب الرائج السيئين . وكان مولعا بالميلودراما . ولكن ليس لدينا ، للاسف ، مصادر اخرى . لهذا سوف نهمل «الخَوَر» ، ونكتفى بايراد مقتطفات تستحق ، فى رأينا ، بعض الثقة .

«كنت لا أزال واقفا بعد على صحن السلم ، فسمعت عبر هذا الباب دويا شديدا . واذا بالباب يفتح بسرعة ويندفع فيه شخص لملاقاتى : «دكتور ، اسرع ، اسرع !» - صرخ هذا الشاب (ب . ايسايف - **المؤلف**) بصوت مولول . وقبل أن ارد عليه اندفعت الى المدخل صبية صهباء فى العاشرة من العمر صارخة صراخا يمزق الصدر : «حضرة الطبيب ، بربنا ارجوك ، انقذ ابى ، انه يشخر ! - «انا لست الطبيب» - هكذا هممت بارتباك وقد غمرنى هلع مفاجئ . وفى تلك اللحظة خرج الى المدخل ذاته أ . مايكوف شاحبا يلقى نظرات محمومة متوقدة : «ها ، هذا انت . . .»

ولعل اصدق ما فى المقال باسره هو وصف المحتضر :

«في عمق الغرفة المظلمة الشوهاء التى هى مكتبه كان

مستلقيا بملابسه على الديوان ورأسه ملقى على الوسادة . وكان ضوء المصباح او الشموع ، لا أذكر ، الموقدة على طاولة صغيرة بجنب السرير يسقط منبسطا على جبينه وصفحتى وجهه الابيض كالورقة . وثمة بقعة دم حمراء داكنة لم يتم مسحها على ذقنه . ولم يكن «يشخر» كما قالت ابنته ، بيد ان انفاسه كانت تندفع بصفير ضعيف من بين شفتيه المنفرجتين بتشنج . وكان جفناه مضمومين وكأنما بفعل عملية تشنج ميكانيكيـــة مماثلة لجسم مصاب . . . وكان فاقد الوعى تماما» .

تلى ذلك تفاصيل نشوانية : الزوجة (التى يصر ماركيفيتش على مناداتها باسم ماريا غريغوريفنا) ، تعانى «يأسا جنونيا» ، وابنته «فى سورة يأس» تتشبث بيدى كاتب المقال صارخـــة بصوت هستيرى : «صلِ ، ارجوك ، صلِ لاجل والدى كى يغفر له الله ذنوبه ، اذا كانت لديه ذنوب !» الخ . . . وهلمجرا . «اوه من ذا الذى افقده ، من ذا الذى افقده !» - تردد نادبـة آنّا غريغوريفنا التى هوت على الاريكة . «««من ذا الذى تفقده روسيا !» - افلتت منى ومن مايكوف فى آن واحد على غير ارادة منا» - هذا ما يضيفه ماركيفيتش بصرامة .

واخيرا وصل الطبيب الذى طال انتظاره (تشيريبنين) . و«دلف مسرعا الى المكتب ، وطلب فتـــح النافذة ، ثــم طلب نضّاحة ، وطلب بالحاح ان يتركوه مع ابن فيودور ميخائيلوفيتش بالتبنى» .

بعد مضى بضع دقائق خرج الطبيب من غرفـــة المحتضر . «ماذا ، انها النهايـــة !» - هتفت المرأة التعيسة وهى تهب من مقعدها بتشنج . . . - «لـــم ينته بعد . . . لكنــه على وشك الانتهاء . . .»

يدخل الجميع الى غرفة المحتضر . جثت الزوجة والاطفال على ركبهم بصمت . وهنا يورد ماركيفيتش لمسة لا وجود لها فى المصادر الاخـــرى : «دخل القس ، وراح يقـــرأ هامسا صلاة الرحيل . . .»

كان بجوار سريره : آنّا غريغوريفنا مع الاطفال ، امها ،

مايكوف وعقيلته ، ماركيفيتش ، ايساييف ، ربما بعض الاقارب الآخرين ، الدكتور ، القس . . .

ماركيفيتش : «انحنى الدكتور فوقه واصاخ السمع ، ثم فك زر القميص ومد يده تحت الياقة ، ثم هز لى رأسه . فى هذه المرة ، كان كل شىء بالفعل «قد انتهى»» .

واستل ماركيفيتش ساعته .

الفصل الثانى عشر

ملابسات الموت : رواية اخرى

عضو اللجنة التنفيذية

استل ماركيفيتش ساعته : الوقت سيبتدئ الآن يجرى جريانا مغايرا . ولكن ، لنرجع عقارب الساعة بضع دورات الى الوراء . ولنعد الى ليلة الاحد على الاثنين ، اى ليلة ٢٥ على ٢٦ كانون الثانى ١٨٨١ .

هذا الاستطراد ضرورى .

لأنه فى تلك الليلة التى تقول آنّا غريغوريفنا ان اول نزيف دموى حدث لزوجها فيها ، اجريت فى الشقة رقم ١١ الواقعة على صحن سلم واحد مع الشقة رقم ١٠ التى يقطنها دوستويفسكى ، عملية تفتيش ونصب رجال الشرطة كمينا فيها .

والشقة رقم ١١ كان يقطنها عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة «ارادة الشعب» الكسندر ايفانوفيتش بارانيكوف .

ان ما يعنينا هنا هو ثلاثة اسئلة : ١) هل كان دوستويفسكى على معرفة ببارانيكوف ؟ ٢) هل كان على علم بما يجرى فى شقة جاره ؟ ٣) هل كان له ضلع ما فى احداث تلك الليلة ؟

نسارع الى الاستدراك : ليس هناك حتى الآن أية معطيات وثائقية اكيدة تتيح الرد بالايجاب عن أى من هذه الاسئلة .

هناك افتراض . ولكن قبل الانتقال الى هذا الاخير لا بد من التعرف ، ولو بايجاز ، على سيرة حياة بارانيكوف ، او بالاحرى على طريقة حياته ونشاطه .

ان مصير بارانيكوف خيالى حقا .

كان والده عسكريا يؤدى الخدمة فى فوج لايب — غريناديرسكى اليريفانى بالقرب من تفليس . وبعد زواجه من فتاة جورجية واستقالته عاد الى وطنه — بوتيفل ، وهى مدينة

قضاء فــى محافظة كورسك ، حيث توفى عندمــا كان ابنه فى الخامسة من العمر .

شب بارانيكوف فى اسرة نبيلــة متوسطة الحال من اسر المحافظات بمعية شقيقه وشقيقتيه .

وكان جيران آل بارانيكــوف فى بوتيفل هــم اسرة آل ميخائيلوف . وكان احد اقطاب «ارادة الشعب» («رب» المنظمة) الاسطورى الكسندر دميتربيفيتش ميخائيلوف رفيقا لبارانيكوف فى العاب الطفولة وصديقا له طوال حياته القصيرة .

تخرج بارانيكوف فى ثانوية عسكرية بمدينة اوريول . ونزولا عند طلبات ذويه الملحة اضطر الى الالتحاق بالمدرسة العسكرية الاولى (مدرسة بافلوفسكايا) ببطرسبورغ .

بعد ذلك تجرى احداث لا يتصورها العقل .

يمثل بارانيكوف عملية انتحار . اذ يبعث برسالة الى آمر سريته يبلغه فيها بتدهور وضعه النفسى تدهورا شديدا ، ويبوح له بعزمه على مفارقة الحياة . وبعد ان ترك على شاطئ نهر نيفا (او عند فتحة فى جليد النهر ، كما تفيد مصادر اخرى) بدلته العسكرية توارى سنوات طويلة عن انظار ذويه ورؤسائه .

ويلتحق بارانيكوف ، ابن الثامنة عشرة ، بفصائل الثورة .

وبذا اصبح من مزاولى العمل السرى . ومنذ ربيع عام ١٨٧٦ راح يجوب ربوع روسيا الجنوبية : فيعمل حصاد عشب وأجيرا زراعيا وحمالا وصيــاد سمك . بيد ان «التطواف بين اوساط الشعب» يستنفد نفسه فى ذلك الحين كشكل من اشكال الدعاية الثورية . وبعد مكوثه فى استراخان لفترة من الوقت بصفة طرّاق (الامر الذى يقول كاتب سيرة حياته «انه يناسب قوته البدنية الفائقة») لا يلبث ان يعود الى بطرسبورغ .

وفى صيف عام ١٨٧٧ يغادر مع فريق من اعضاء منظمــة «الارض والارادة» الى محافظــة نيجنــى نوفغورود (١٢٨) على الفولغا . وبعد هزيمة الفريق يفلح فى الافلات من الاعتقال . كان الحظ بوجه عام حليفه : فرغم ادائــه دورا مهما فى الكثير من المجازفات الخطرة لم يلق عليه القبض قط ، واستمرت الحال على هذا المنوال حتى النهاية .

فى نفس عام ١٨٧٧ يظهر بارانيكوف فى مقاطعة تشرنوغوريا

التى تخوض صراعا غير متكافئ من اجل التحرر . فيشارك فى مقاتلة الاتراك بصفة متطوع روسى (وكان هدفه ، كما اعلن فى وقت لاحق اثناء التحقيق ، هو «التعرف عن كثب على ظروف كفاح فصائل الانصار الصغيرة ضد القوات النظامية ، كى يتسنى له الانتفاع من المعارف التى اكتسبها هناك فى ساعة اندلاع الانتفاضة الشعبية فى وطنه») . بعبارة اخرى ، يشارك فى نفس تلك الحركة الطوعية التى كان دوستويفسكى يتابع نشاطها باهتمام ويؤيدها بحرارة فى مؤلفه «يوميات كاتب» (دون علم منه ، طبعا ، باهدافها التى ذكرها بارانيكوف) .

وفى عام ١٨٧٨ يعود بارانيكوف الى روسيا .

وفى كانون الثانى يعتزم الانتقام من الجنرال تريوبوف لقاء جلده بوغولوبوف : لكن زاسوليتش سبقته الى ذلك . وفى تموز (يوليو) يقوم فى ضواحى خاركوف ، بصحبة عدد من رفاقه — مرتديا زى ضابط — بهجوم على مفرزة حراسة كانت تقتاد احد المحكوم عليهم من اعضاء منظمة «الارض والارادة» . ويفشل فى اطلاق سراح المحكوم عليه ، فينصرف بعد ان يجرح احد افراد المفرزة . وفى ٦ آب (اغسطس) قام ، كما اسلفنا ، بتغطية انسحاب كرافتشينسكى الذى طعن بخنجر رئيس الشرطة ميزينتسوف : لقد جفل الحصان «بربرى» من دوى الرصاصة وانطلق انطلاقة جامحة بحيث لم يتمكن فاتح النار من القفز الى المركبة والنجاة الا بفضل قوته البدنية الهائلة .

انه يعيش بوثائق مزورة واسماء مستعارة ، فقد اشتهر بأسم تيوريكوف وكوشورنيكوف . وكان له لقبان حزبيان هما «بورفيرى» و«سيميون» .

وعلى اثر تشكيل «ارادة الشعب» مباشرة ، اصبح احد انشط اعضاء لجنتها التنفيذية .

فى خريف عام ١٨٧٩ يقوم بارانيكوف (بصحبة بريسنياكوف الذى اعدم فيما بعد) بنقل حوالى ٣ بودات * من الديناميت الى اوديسا : كانوا بانتظار وصول قطار القيصر . بيد ان الرحالة المعظم اختار خطا آخر لرحلته . عندئذ ينتقل بارانيكوف الى

---

* البود — وحدة وزن تعادل ١٦،٨٣ كغم او ٣٦ رطلا مصريا .

موسكو ، حيث يكون من بين اولئك الذين يمدون سلك لغم ناسف طوله ٤١ مترا تحت قضبان سكة حديد موسكو - كورسك . غير ان الانفجار الذى وقع يوم ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) يعطل قطار الحاشية القيصرية .

فى صيف عام ١٨٨٠ (فى اثناء «فترة الهدوء») يجرى انزال اربع وسائد مصنوعة من مادة الغاتابرشا * ، ومحشوة بسبعة كيلوغرامات من الديناميت ، فى مياه قناة يكاتيرينينسكى بالقرب من الجسر الحجرى . وتخرج نهايات الاسلاك على عوامة تستخدم كمحل للغسيل . وكان على احد المشاركين فى عملية الاغتيال ان يكون اثناء مرور القيصر فوق العوامة ويتظاهر بغسل بطاطا فى زنبيل : اذ كان عليه ان يربط الاسلاك ببطارية مخفية فى الزنبيل . واخفقت العملية : فقد توجه الامبراطور الى ليفاديا من تسارسكويه سيلو مباشرة .

ويقترح بارانيكوف المشارك فى هذه القضية ، فضلا عن نسف الجسر ، استخدام سلاح جديد هو القذائف . وهى التى تصيب فى آخر الامر الهدف المتوّج ، ولكن فى وقت متأخر بعض الشىء .

وقبل اعتقاله بفترة وجيزة يبحث فى شارع مالايا سادوفايا عن محل مناسب يقيم فيه حانوتا لبيع الجبن . ومن قبو الحانوت يجرى حفر نفق : كان القيصر كثير المرور من هذا الطريق . وفى ٢٥ كانون الثانى يشرع بارانيكوف بصحبة رفاقه فى هدم جدار القبو . لكن حفر القبو ينجز من دونه .

كان الكسندر ايفانوفيتش بارانيكوف مهددا بحكم الاعدام عن اى من هذه الاعمال .

فكيف كان يبدو آخر جار لدوستويفسكى ، كان رفاقه فى الحزب ينعتونه من باب الرثاء بـ«ملاك الثأر» ؟

تقول فيرا فيغنير (١٢٩) فى مذكراتها : «كان له جسم رائع من حيث الاستقامة والجمال ، وكان يمتاز بقوة بدنية هائلة وصحة زاهرة . . . وكان وجهه المعتم الجميل دون ادنى قدر من الحمرة

---

* مادة شبيه بالمطاط تستخرج من بعض الاشجار الماليزية ، تمنع نفاذ الماء ، تستعمل فى صناعة الغواصات .

وشعره الاسود بلون جناح الغراب وعيناه السوداوان تجعله بعيد الشبه عن الفرد الروسى : كان من اليسير ان يظنه المرء «رجلا شرقيا» ، وعلى الاغلب من سكان القوقاز ، وهو كذلك من حيث والدته . . . كان جسمه ووجهه المتجهم ينسجمان تماما مع ما تتسم به قناعاته من حزم . . .»

ويتمم دايتش (١٣٠) اللوحة التى رسمتها فيغنير قائلاً : «كان بارانيكوف الاسود الشعر ، ذو القامة الاكثر من متوسطة ، الواسع المنكبين والبارز الصدر يبدو جميلا وهائل القوة . كان يتكلم لغة متقطعة ، مقتضبة ، وكأنه يصدر اوامر ، ويتسم بلياقة عسكرية . لم يكن يمتاز لا بكثرة المطالعات ولا بتطور ولا بعقل فطرى ، بيد ان هذا الشاب كان يكشف بحركاته وصوته ونظراته عن قدر كبير من قوة الارادة والاصرار ولاسيما الشجاعة والتصميم المستميت» .

يلتقى كل كاتبى المذكرات فى امر واحد هو ان بارانيكوف يتسم ليس فقط بمظهر لائق ، بل وبصفات شخصية فذة . كان شجاعا الى درجة الجنون وشديد الوفاء للقضية ، وبالامكان الاعتماد عليه كليا .

كان جار دوستويفسكى يكره الاكثار فى الكلام . تقول فيغنير : «كان يحدث احيانا ان تعين اللجنة التنفيذية جيليابوف (١٣١) مع بارانيكوف لاجل التفاوض مع جهة ما . عندئذ كنا نقول من باب المزاح ان جيليابوف يعين كى يتكلم وبارانيكوف كى يشيع الرعب» .

وفى مجرى الاعوام ١٨٧٨-١٨٨٠ يشارك بارانيكوف عمليا فى جميع الفعاليات الكبرى لمنظمة «ارادة الشعب» . ويعتمد دون تردد طرائق كفاح جديدة . وتخلص فيغنير الى القول : «لو كان المطلوب تقديم تجسيد حى للارهاب ، لما كان هناك اختيار افضل من شخصية بارانيكوف» .

رغم كل ذلك لم يكن بارانيكوف يستخف بالموضة : كان هندامه يتسم بالذوق والاناقة ، يضاف الى ذلك احتفاظه باللياقة العسكرية . وكانت التربية فى مدرسة اعداد الضباط تحدد سلوكه فى الكثير . وتقول ايفانوفسكايا ان ماضيه وبعض سمات شخصيته « لم تكن تسمح له بالانغماس فى طرائق السلوك

الراديكالية العامة والمظهر الديمقراطى . . . الامر الذى كان يبرزه بشكل ملحوظ بين اوساط الثوريين المهملى الهندام» . وعلى الرغم من مظهره المتجهم كان لطيف التعامل مع رفاقه بشكل مدهش – «كان «سيميون» حتى ليعجز عن بلوغ الفظاظة مع الآخرين ، ايا كان الشخص الذى يتعامل معه» . وتشير عضوات «ارادة الشعب» السابقات بالاجماع الى تعامله المؤدب مع الجنس اللطيف ، علما بأن فيغنير تضيف : «ان مظهره المحظوظ كان يؤمن له نجاحا كبيرا بين النساء ، حتى لأنه كان يثير لدى بعض منهن عبادة حقيقية» .

وبسبب اعتقاله قبل ١ آذار (مارس) بشهر لم يحضر محاكمة قتلة القيصر الشهيرة ، بل حوكم بعد مضى سنة تقريبا – ضمن دعوى الارهابيين العشرين . ورسائله من السجن لا تؤيد بتاتا ادعاء دايتش بأن ليس لدى كاتبها «عقل فطرى» . لكنها تدهش بسمة واحدة تعتبر غير مألوفة حتى بالنسبة لأدب السجون الرسائلى الذى له خصوصياته بوجه عام .

نظرا لايمانه العميق بأنه سيعدم شنقا ، يعمد بارانيكوف بصورة صارمة ومتواصلة ومنهجية – ان جاز القول – الى اعداد ذويه (الذين انبعث امامهم منذ وقت قريب جدا من بين الاموات) لملاقاة اختفائه الجديد – النهائى فى هذه المرة – من الحياة . فهو يكتب لهم انه لا يشكو عموما من نصيبه ، ويرى من أسمى آيات النعمة ان يموت المرء شابا (اكمل فى السجن الثالثة والعشرين) . ان اسلوبه الحاد الزوايا ، الفظ والحازم فى الكتابة يذكر تذكيرا مدهشا باسلوب بازاروف (١٣٢) . اما سخريته المتجهمة ، المشنقية بالمعنى الحرفى ، التى يراد منها ان تبعد عنه كل اشكال التعاطف ، فتحقق هدفا معاكسا . ان من الصعوبة بمكان عدم الاتفاق مع ناشر هذه الرسائل فى ملاحظته الدقيقة التالية : «تراودنى فكرة : الا يحاول كاتب الرسائل ان يقنع نفسه بفكرة حتمية الموت . ألا يريد ان يقتل فى نفسه غريزة الحياة ، غريزة حفظ الذات . . . كى ينتقل بسهولة الى العدم» .

كان سلوك بارانيكوف فى المحكمة يتسم بالبرود الشديد وقد ترك انطباعا قويا . وقد كتب احد شهود العيان يقول : «. . . كانت كلماته مفعمة بقدر من الصدق بحيث يبدو من

الوقاحة ان يشكك المرء فيها . . . اما الاسئلة التى قد تستخدم ضد الآخرين فكان يرفض الاجابة عنها صراحة» .

كتب صديقه أ . ميخائيلوف من السجن يقول : «ان النشيط والمرح والمفعم بالحيوية بصفة خاصة هو بارانيكوف . فهو يبدو وكأنه فى حفل راقص . هذه آخر وليمة فى حياته» وفى رسالة اخرى يقـــول : «بارانيكوف فارس مغوار من سدنـــة الشرف والمقدسات . وسلوكه الشهم الصريح رائع روعة روحه الفتية» .

ويكتب فى وصيته : «عيشوا وابتهجوا بالنصر . نحن نبتهج بالنصر ونموت» .

ولا يستبعد ان شخصيـــة بارانيكوف الخالصة الموحيـــة بالاحترام تلقائيـــا قد اثرت حتى على المكتب الخاص لمجلس الشيوخ الحاكم : فمهما يكن من امر ، كان هو الوحيد من بين جميع المرشحين المحتملين للاعدام الذى لم يحكم بالموت – هو الذى كانت اعماله تعنى الحكم بالموت مرارا عديدة .

لقد حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

كان قرار الحكم ، كما يقول هو نفسه ، ساحقا له . فبسبب استعداده للموت لم يكن مستعدا **لهذا الحكم** . وقلص الكسندر الثالث مدة المحكومية الى ٢٠ سنة . بعد ذلك امضى فى السجن الانفرادى فى الكسييفسكى رافيلين (١٣٣) اكثر من عام بقليل .

ذلكم هو مصير الانســـان الذى جمعت الحياة (او بالاحرى الموت) دوستويفسكى به . والسؤال ينحصر فقط فى معنى كلمة «جمعت» : بالمعنى الحرفى ام المجازى .

لقد طرح فيكتور شكلوفسكى (١٣٤) فى كتابه «مع وضد» (وقبل ذلك فى قصة «شكوك فيودور دوستويفسكى») افتراضـــا مفاده ان وفاة قاطن الشقة رقـــم ١٠ كانت بهذا الشكل او ذاك ترتبط باعتقال بارانيكوف .

على انه لم يقدم ايما براهين جادة : لم تحظ هذه الرواية باقبال (ولم تجر حتى مناقشتها) فى الادب .

ولنتوقف عند هذه المسألة بمزيد من التفصيل .

فى ادب مذكرات اعضاء «ارادة الشعب» ، رغم رحابته ، لا نجد الا مرة واحدة فقط يرد فيها اسما دوستويفسكى وبارانيكوف معـــا .

يقول م . فرولينكو (حوكم مع بارانيكوف) فى مذكراته ان بعض اعضاء اللجنة التنفيذية ، وبخاصة كولودكيفيتش (١٣٥) وبارانيكوف كان يعتريهم احيانا مزاج الأمن التام . فيذكر فرولينكو : «ذات ليلة كانا يسيران مع شخص ثالث ، فأدهشهم الهدوء وفراغ الشوارع القريبة من شقة بارانيكوف ، وعندما ودعاه كان الجميع يضحكون على مخاوف الجواسيس والخوف من المراقبة ، واعترتهما نفس تلك الطمأنينة والثقة بالامن . وفى نفس تلك الليلة تم اعتقال بارانيكوف . كان يقطن فى شقة ف . م . دوستويفسكى . وكانت طمأنينته تجد فى هذه الحقيقة ايضا ما يوطدها جزئيا» .

ان فرولينكو يتوهم فى بعض الامور . اولا ، جرى اعتقال بارانيكوف نهارا وليس ليلا ، وفى شقة اخرى غير شقته . ثانيا ، انه لم يكن يقطن فى شقة دوستويفسكى ، بل بجنبها .

ولكن ، على صعيد آخر ، ان ما جعل فرولينكو يتذكر بارانيكوف قاطنا فى شقة دوستويفسكى بالذات لا بد ان يحمل المرء على اعمال الفكر والتأمل . نشير قبل كل شيء (رغم ان هذا قد يبدو امرا طبيعيا) الى ان بارانيكوف يعلم من هو جاره ، وهو يأخذ هذا الامر بعين الاعتبار . ويفهم من نص فرولينكو دون ايما مواربة ان نزيل دوستويفسكى على معرفة شخصية برب البيت . علاوة على ذلك : ان الثقة بحقيقة هذا التعارف هى التى استطاعت ان تولد لدى فرولينكو خطأ فى الذاكرة ، لذا نراه قد نقل بارانيكوف على غير ارادة منه الى الشقة المجاورة .

ثم ان فرولينكو يقول ان طمأنينة بارانيكوف تجد جزئيا ما يوطدها فى كونه يقطن فى شقة دوستويفسكى . فماذا يبقى لو الغينا من هذا الزعم الخطأ الفعلى ، أى الشقة ؟ ما يبقى هو ان بارانيكوف يعتبر هذا الشخص «غطاء» يعول عليه جدا . وليس ثمة ما يوضح خلال ذلك اذا ما كان يعرف هذا الشخص نفسه بوظائفه هذه او انه يؤديها موضوعيا ان جاز القول .

ولنر الآن كيف تطورت الاحداث خلال الايام العشرة الاخيرة من شهر كانون الثانى . ولأجل هذا الغرض سوف نستخدم الى جانب المصادر الاخرى ما عثرنا عليه من وثائق ارشيفية .

من اراشيف الشرطة السرية

تمتد من اعتقال بارانيكوف سلسلة من الانكشافات التى استنزفت الحزب بشدة فى عشية اغتيال القيصر يوم ١ آذار . وقد بات معروفا بعد ثورة اكتوبر ان اسباب هذه الانكشافات كانت خيانة احد المحكوم عليهم فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ بموجب «دعوى الـ١٦» ، وهو العامل ايفان اوكلادسكى .

فى المحكمة نفسها (التى اعدم فى نتيجتها كفياتكوفسكى وبريسنياكوف) اثبت اوكلادسكى – مقلدا المتهمين الآخرين – صمودا لائقا تماما . واعلن فى كلمته الاخيرة : «. . . اننى لا أرجو ولا احتاج الى تخفيف ما قدر لى . على العكس ، اذا اقدمت المحكمة على تخفيف الحكم المتعلق بى فسوف اعتبر ذلك اهانة لى» .

واصدرت عليه المحكمة حكما بالاعدام شنقا ، استبدلت به الاشغال الشاقة المؤبدة . ولم يشعر اوكلادسكى بأهانة بتاتا : فتقديرا للعطف الذى شمل به وآملا بنعم قادمة ، اخذ يدلى باعترافات .

وفى نتيجة خيانة اوكلادسكى عثرت الشرطة على آثار مجرم تجرى تحريات عنه منذ وقت طويل هو كيبالتشيتش (١٣٦) المتهم بارتكاب جرائم عظمى (سوف نهمل – للاختصار – تفاصيل هذه التحريات) . وأتضح ان كيبالتشيتش كان فى صيف عام ١٨٨٠ يعيش بوثيقة احوال شخصية بأسم اغاتيسكولوف . وكانت دهشة رجال الشرطة عظيمة حين جاءهم من دائرة التسجيل السكنى بالمدينة ردا على طلبهم الجواب التالى : ان السيد اغاتيسكولوف لا يزال يقطن حتى الآن سليما معافى فى مدينة س . بطرسبورغ على العنوان : شارع كازانسكايا ، دار رقم ٣٨ ، شقة ١٨ . فتقرر فورا : «. . . اذا كان القاطن حسب دفتر اقامة

اغاتيسكولوف هو ليس كيبالتشيتش ، فهو شخص مقرب اليه بحيث تسنى له الحصول منه على دفتر الاقامة ، وعليه . . . تقرر بتاريخ اليوم اجراء تفتيش فى الشقة رقم ١٨ . . . ويجب معاملة الاشخاص الذين سيتم كبسهم فى الشقة حسب ما سيسفر عنه التفتيش من نتائج» .

فى الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف ليلة ٢٥ كانون الثانى وصل عقيد سلك الشرطة نيكولسكى ومعاون الادعاء العام لفرقة قضاء بطرسبورغ دوبرجينسكى الى العمارة رقم ٣٨ الواقعة على شارع كازانسكايا . الا أن الشخص الذى عثر عليه ليس لديه ادنى شبه بالمطلوب كيبالتشيتش : فبموجب وثيقة الاحوال الشخصية العائدة للمدعو اغاتيسكولوف يقطن ابن تاجر يدعى غريغورى ميخائيلوفيتش فريدينسون ويبلغ من العمر ٢٦ سنة . وتم خلال التفتيش العثور على اعداد من «ارادة الشعب» السرية . وبطبيعة الحال ، تعرض اغاتيسكولوف (فريدينسون) لـ«التوقيف الشخصى» ، وكما جاء فى الوثيقة الرسمية ، «دون استجواب بسبب تأخر الوقت» .

وفى الحال جرى تحرير قرار لعب دورا غاشما فى جميع الاحداث التالية : «. . . تكليف الشرطة بفرض مراقبة سرية على شقة اغاتيسكولوف التى جرى تفتيشها ، وبعد القاء القبض على الاشخاص الذين يفدون الى شقة اغاتيسكولوف بصفتهم من معارفه ، واحاطة ادارة شرطة محافظة س . بطرسبورغ علما بذلك ، مع اتخاذ التدابير اللازمة للتحقق من هوياتهم واماكن سكناهم . وفى الوقت ذاته الطلب من الشعبة الخاصة لديوان حاكم مدينة س . بطرسبورغ اصدار الاوامر بأن تفرض مثل هذه الرقابة على الشقق بشأن كل باقى الاشخاص الذين سيلقى القبض عليهم فيما يتم الكشف عنه من شقق المشتبه بهم» .

وهذا يعنى اذا ترجم من اللغة الدواوينية أن أى شخص يأتى الى شقة فريدينسون (اغاتيسكولوف) يسقط اوتوماتيكيا فى الفخ ، بعد ذلك يجرى نصب كمين فى شقة الشخص المحتجز بدوره ، وهكذا دواليك .

وادت خطة الشرطة البسيطة هذه مفعولها على الفور . ذلك ما تدل عليه الوثيقة التالية :

من حاكم مدينة س . بطرسبورغ	سرى
شعبة حفظ الهدوء والنظام العام	الى ادارة شرطة
فى س . بطرسبورغ	محافظة س . بطرسبورغ

فى ٢٦ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١
الرقم ١٢٧٣

جاء امس الى الشقة رقم ١٨ فى العمارة رقم ٣٨ على شارع كازانسكايا ، الموضوعة تحت رقابة الشرطة ، كما يعلم بذلك شخصيا مدير ادارة شرطة محافظة س . بطرسبورغ ، شاب ادعى انه مواطن الشرف بالوراثة غيورغى ايفانوفيتش الافوزوف ، ورفض ذكر الاشخاص الذين يعرفونه فى س . بطرسبورغ ويستطيعون تزكية هويته .

وبابلاغ ادارة الشرطة بما ورد اعلاه تتشرف الشعبة السرية باحالة المدعو الافوزوف الى ادارتكم لاجراء اللازم . علما بأننا نحيل طيا المحضرين اللذين حررا عن الشخص المذكور مع مرفقات باحدهما ، كذلك ما كان بحوزته من نقود باوراق مالية قيمتها ثمانية وخمسون روبلا مع حافظة نقود جلدية وساعة نسائية ذهبية ذات سلسلة ، وغلاف قلم ذهبى ومفكرة وسكينة مطواة وصحف مختلفة فى مظروف خاص .

مدير الشعبة السرية
فورسوف .

كان الافوزوف (ولا داعى لأن نخفى انه بارانيكوف) قد جاء الى شقة فريدينسون مثلما يتضح من وثيقة اخرى (هى اشعار من مدير شرطة محافظة س . بطرسبورغ الى وزير الداخلية) ، صبيحة يوم ٢٥ كانون الثانى ، وعلى الاغلب قادما مباشرة من شارع مالايا سادوفايا ، حيث باشروا فى تلك الليلة بحفر النفق . والقى رجال الشرطة القبض عليه ، ولم يعثروا لديه ، مهما بدا الامر غريبا ، على أى شىء يثير الشبهة . واقتيد المحتجز

الى الشعبة السرية لحاكمية المدينة ، واحالته هذه بدورها الى ادارة الشرطة .

وامضى بارانيكوف فى الشعبة السرية لحاكمية المدينة بضع ساعات . واعلن انه لا يعرف احدا فى بطرسبورغ سوى خطيبته وذويها (الذين لا يرغب فى ذكر اسمائهم) وبالتالى لا يستطيع اثبات هويته . لذا فقد تقرر : «. . . احالة المدعو الافوزوف الى محل السكنى الذى ادعاه ، وهو زقاق كوزنيتشنى وشارع يامسكايا ، العمارة رقم ٢/٥ لفحص ممتلكاته الشخصية ، وطلب الوثيقة الخطية التى وصل المدعو الافوزوف بموجبها الى بطرسبورغ بغية التحقق من هويته ، ومن ثم اعادته مع كل ما سلم الى الشعبة السرية لمواصلة البت بالقضية» .

هكذا يظهر فى الوثائق الرسمية عنوان البيت الذى كان يسكنه دوستويفسكى .

لقد عزف بارانيكوف عن اخفاء عنوان سكنه ، وهو محق فى اعتقاده بأن من اليسير معرفة العنوان عن طريق دائرة التسجيل السكنى .

وفى يوم ٢٦ كانون الثانى رفع لوريس - ميليكوف بصفته وزيرا للداخلية تقريرا دوريا الى الكسندر الثانى .

ويذكر لوريس-ميليكوف فى تقريره انه تم العثور فى شقة الافوزوف على صور فوتوغرافية لهذا الاخير فيها شبه «بشخص تجرى التحريات عنه منذ وقت طويل ، وهو الذى يعرفه جلالتكم باسم نبيل مدينة بوتيفل الكسندر ايفانوفيتش بارانيكوف (وهو ايضا تيوريكوف وكاشورنيكوف)» . يتضح على هذا النحو ان الاسم الحقيقى لجار دوستويفسكى ، شأنه شأن «اسمائه المستعارة» ، معروفة للامبراطور شخصيا . وقد عرضت الصور الفوتوغرافية على السجين ايفان اوكلادسكى الذى اكد ان اوجه الشبه لا ريب فيها . ولمزيد من التحقق «جرى نقل اوكلادسكى من القلعة ، وحين عرض عليه المحتجز بصورة غير ملحوظة بالنسبة لهذا الاخير اكد مرة ثانية شبهه الاكيد ببارانيكوف» .

لقد القى اوكلادسكى نظرة على بارانيكوف دون ان يراه ، وذلك عبر ثقب الباب او عبر ثقب خاص فى الجدار ، او من مخبأ وراء ستار . وكان هذا يسمى الابراز المستور .

فسجل الكسندر الثانى على التقرير العبارة التالية : «اعتبر هذه النتيجة مهمة للغاية» .

اذن لم يجر التحقق من هوية بارانيكوف الا فى ٢٦ كانون الثانى ، أى بعد ان داهم رجال الشرطة شقته . لهذا السبب تكفل بالتفتيش (ليلة ٢٥ على ٢٦) ليس عقيد الشرطة ومعاون المدعى العام اللذان يديران هذه الدعوى ، بل اشخاص آخرون تماما . وحتى اذا اخذنا بالاعتبار الارهاق الكبير الذى سببته لنيكولسكى ودوبرجينسكى احداث ليلة السهر البارحة واعتقال فريدينسون ، ثم استجوابه نهارا ، فمن المتعذر رغم ذلك الظن انه لو كان لدى المحققين ادنى شك فى كون هذا الشخص هو احد اعضاء اللجنة التنفيذية المتملصة بالزئبق ، وقاتل الجنرال ميزينتسوف الجارى البحث عنه منذ وقت طويل ، والمسؤول عن تفجير قطار القيصر فى ضواحى موسكو ، لتوجها شخصيا الى شقته ، املا فيما سيحققانه من اكتشافات وما سينالانه من مكافآت .

لكنهما فضّلا نيل قسط من الراحة ، فكلفا الموظفين الخافرين بتفتيش مواطن الشرف المتوارث لمدينة ستاوروبول .

وفى تلك الساعات التى كان يتقرر خلالها مصير بارانيكوف ، كان جاره على بعد خطوتين من شقته الشاغرة يتحدث بدعة مع مايكوف ، ويناقش رسالة تولستوى مع ستراخوف ، ويحتد فى جدله مع اوريست ميللر بشأن برنامج الامسية البوشكينية .

وكان المساء يقترب .

عملية تفتيش وراء الجدار

لقد رسم فيكتور شكلوفسكى فى قصته الطويلة «شكوك فيودور دوستويفسكى» (صدرت عام ١٩٣٣) اللوحة الأخّاذة التالية : يطرق رجال الشرطة باب شقة دوستويفسكى (فيقرر هذا لسبب ما انهم جاؤوا ليعتقلوه) ، وبعد ان طمأنوا رب البيت المرتعب طلبوا منه ان يتفضل ويكون شاهدا على تفتيش شقة جاره . فيوافق دوستويفسكى كارها . ينتابه قلق شديد ، وينفتح عنده نزيف دموى .

لا بد من الاقرار بأن هذه الرواية جذابة جدا . فهى تقدم حلا للغز وعكة دوستويفسكى الليلية المباغتة ، وتسلط ضوءا جديدا على اسباب مرضه الذى افضى به الى الموت .

وكان يكفى لاثبات صحة هذه الرواية العثور على وثيقة .

ولقد تم الآن العثور على مذه الوثيقة : وعلى الرغم من اتضاح بعض الامور ، اصبح اللغز اكثر غموضا .

وبالنظر لاهمية هذا سنورد نصه كاملا .

المحضر رقم ٨٣

فى ٢٥ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ قمت ، انا كوزمين ، رائد سلك الشرطة ، تنفيذا لأمر مدير ادارة شرطة محافظة س . بطرسبورغ المؤرخ فى ٢٥ كانون الثانى الجارى والمرقم ١٨٠ ، وبعد وصولى الى القطاع الثانى من الجانب الموسكوبى ، الى العمارة رقم ٢/٥ الواقعة فى زاوية تقاطع زقاق كوزنيتشنى وشارع يامسكايا ، والى الشقة رقم ١١ التى تقوم بتأجيرها الكاسبة الموسكوبية ماريا نيقولاييفنا بريبيلوفا ، والمؤلفة من سبع غرف مؤثثة ، يستأجر احداها تحت رقم ١ مواطن الشرف المتوارث غيورغى ايفانوفيتش الافوزوف ، وبصحبة معاون المدعى العام لمحكمة دائرة س . بطرسبورغ بوغدانوفيتش ، وبحضور مأمور مركز الشرطة المحلى ناديجين وصاحبة الغرف المؤثثة والشهود الموقعين ادناه وغيورغى ايفانوفيتش الافوزوف ، باجراء تفتيش دقيق لممتلكات هذا الاخير بموجب قانون ١٩ أيار (مايو) ١٨٧١ ، ولم نعثر خلاله على أى شىء جنائى له علاقة بالدعوى ، لكننا ارتأينا لاجل مقتضيات الدعوى احتجاز ما يلى : ١) شهادة السكن الصادرة بأسم مواطن الشرف المتوارث غيورغى ايفانوفيتش الافوزوف عن بلدية ستاوروبول بتاريخ ٢٤ آذار (مارس) ١٨٧٦ تحت رقم ١١٤٦ . ٢) صورتان شمسيتان لألافوزوف وصورة اخرى مماثلة مع امرأة . ٣) قنينة دواء مع وصفة طبية مرفقة بها بأسم السيد بوبوف . ٤) منديلا جيب طرزت على احدهما طغراء أ . غ وعلى الآخر أ . ك ، كما يبدو . ٥) ملعقة شاى فضية نقشت عليها طغراء الحرفين م . أ ، ملفوفة بورق جريدة والبست عليها حلقة خطوبة ذهبية ، و٦) مفكرة جيب

لعام ١٨٨٠ . وقـــد تقرر : تحرير هذا المحضر عما ذكر اعلاه بتوقيع جميع الحاضرين .

الرائد كوزمين
معـــاون المدعى العــــام بوغدانوفيتش
مأمور مركز شرطـة الجانب الموسكوبى
ناديجين
ماريا نيقولاييفنا بريبيلوفا
الشاهد ياكوف اييفليف ، بواب العمارة رقم ٩ فى زقاق كوزنيتشنى
الشاهد تروفيم سكريبين ، بواب العمارة رقم ٢/٥ على زاوية زقـاق كوزنيتشنى وشارع يامسكايا
مواطـــن الشرف المتــوارث غيورغـــى الافوزوف .

يتضح من هذه الوثيقة ان ساكن الشقة رقم ١٠ لم يحضر عملية التفتيش : فقد اضطلع بدور الشاهد ، كما هو متبع فى مثل هذه الحالات ، البواب تروفيم سكريبين .

اذن ، لم يحضر دوستويفسكـــى عملية التفتيش . على ان الوثيقة لا توفر ثقة تامة بانه لم يكن على علم بهذا الحادث .

دون خوض فى مناقشة هذه المسألة ، نعود الى الوثيقـــة ذاتها . بامكاننا ان نستمد من نصها جملة من التفاصيل المهمة .

اولا ، ان التفتيش لم يجر فى وقت متأخر جدا ، ومهما يكن من شيء ، فقـــد ابتدأ قبل منتصف الليل . والا لكان المحضر مؤرخا فى ٢٦ كانون الثانى : فالشرطة كانت تحرص فى مثل هذه الحالات على التقيد بالدقة .

ثانيا ، يتضح ان الشقة رقم ١١ كان يقطنها ليس بارانيكوف بمفرده ، بل كانت واحدة من سبع غرف مؤثثة تؤجرها المدعوة ماريا نيقولاييفنا بريبيلوفا ويشغلها ، فيما يبدو ، نزلاء آخرون .

ثالثا ، ذكرت اسماء الحاضرين اثناء التفتيش ، ويتضح انه كان من ضمنهم مؤجر الشقة المحتجز نفسه .

ويلفت الانتبـــاه امر آخر هو انه لم يتم العثور فى شقـة بارانيكوف (كما لم يتم العثور فى حوزته ايضا) على اى حاجة او

وثيقة تثير الشبهـة . وهذه قضيـة نادرة جدا فى مثل هذه الحالات . بمعنى ان الشقة رقم ١١ كانت «نظيفة» .

من الممكن ، طبعا ، الافتراض ان الحوائج التى كان يمكن ان تثير الشبهات قد اخفاها بارانيكوف فى مكان آخر ، يبدو انه ليس ببعيد . ولو اطلقنا العنان للمخيلـة (وليكن ذلك مثلا ، اكثر قليلا مما اباحه شكلوفسكـى لنفسه) ، لامكننا حتى ان نتصور كيف يسارع قاطن الشقة رقم ١٠ ، بعد سماعه بعملية التفتيش لدى جاره ، باعادة اخفـاء شيء ثقيل جدا : فالمجهود البدنى الحاد يسبب انقطاع الوعاء الدموى . !

أن يقوم مؤلف «يوميات كاتب» بنقـل رزم من النشريات الممنوعة او –فى حالة اطلاق العنان التام للمخيلة – من العناصر اللازمة لصنع الديناميات – لاخفائهـا فى مكان أمين – فتلك مسألة تشبه بأقصى درجات الشبه القصص البوليسية ، لكنهـا تبدو بنفس القدر بعيدة الشبه بالحقيقة .

ولنحاول الاقتصار على الرقائع فحسب .

اما الواقعة الرئيسـة فتتلخص فيما يلى : اجريت عملية التفتيش قبل منتصف الليل ، ودوستويفسكى لم يكن قط يأوى الى فراشه فى مثل هذا الوقت المبكر ، ولا يجوز ان نستبعد كليا بأنه كان يعرف شيئا عما يجرى فى العمارة . لا سيما وان شقة بارانيكوف تقع ، كما يقال ، بابا الى باب مع شقته .

تقول آنّا غريغوريفنا ، كما نتذكر ، ان زوجها حرك منضدة الكتب محاولا التقاط حامل الريشة الذى سقط على الارض . ثم تمضى الى القـول : «وكانت هذه المنضدة ثقيلـة ، **فيمـا يبدو** . . .» (التشديد لنا – **المؤلف**) . ويصعب التصديق بان امرأة دقيقة للغاية مثل آنّا غريغوريفنـا يمكن ان تتحدث عن قطعة من اثاث منزلها كان لهـا مثل هذا الدور المصيرى بهذا القدر من التردد .

«كانت هذه المنضدة ثقيلة ، فيما يبدو ، فأضطر فيودور ميخائيلوفيتش الى بذل جهد كبير انقطع بسببه فجأة الشريـان الرئوى فأندفع الدم من بلعومـه . . .» – هذا ما جـاء فى «مذكرات» آنّا غريغوريفنا . بيد ان هذه التفاصيل لا وجود لها فى سيرة حياة دوستويفسكى الاولى (فى فصل «الدقائق الاخيرة»

الذى وضع «بجهود شهود العيان المشتركة») . فليس هناك سوى اشارة مقتضبة : «ابتدأ المرض السابق للوفاة فى ليلة ٢٥ على ٢٦ كانون الثانى بنزف دموى قليل من الانـف لم يعره فيودور ميخائيلوفيتش اهتماما يذكر» .

فى «سيرة الحياة» ورد ان الدم تدفق من الانف ، بينما تتحدث آنّا غريغوريفنا عن نزيف دموى من البلعوم .

من المعروف ان دوستويفسكى كان شديد الريبة والشكوك ويميل الى تضخيم حتى الاختلالات التافهة فى عمل بدنه . فهل كان بمقدوره الا يعير اهتماما يذكر لنزف الدم ، اذا كان هذا هو النزيف الاول ، وخاصة اذا كان من البلعوم ؟ باعتقادنا ، انه كان ، رغم كل حبه لآنّا غريغوريفنا ، وبالنظر لمثل هذه الحالة الطارئة ، سيجازف بانتهاك راحتها الليلية .

كانت آنّا غريغوريفنا ترتضى تماما الرواية التى تفيد بأن سبب المرض هو زيارة فيرا ميخائيلوفنا ، وما تلاها من مشهد عاصف بين الشقيق وشقيقته . اذ ان مثل هـــذا التفسير كان سيلقى ضوءا يضر بسمعة ذوى زوجها الساعين وراء اغراضهم الانانية فى رأيها ، خاصة انها – أى زوجة دوستويفسكى – كانت تضمر على الدوام لذوى زوجها نفورا غريزيا تمليه رعايتها لاسرتها . فالمهم بالنسبة لآنا غريغوريفنـا هو الاقلال من اهمية النزيف الدموى الاول والتركيز على الطابع القاتل للنزيف الثانى .

ويجدر القول ان هذه الرواية قد اثارت بعض الشكوك منذ اليوم الثانى لوفاة دوستويفسكى .

فى ٣٠ كانون الثانى (يناير) كتبت ى . ريكاتشوفـا الى أ . ف . دوستويفسكى : «ان آنّا غريغوريفنا تدعى ان فيرا ميخائيلوفنا هى التى كانت سبب مرض عمى الشديد ، لأنهـا ازعجته ازعاجا شديدا يوم ٢٦ ، عندما تحدثت معه عن مسائل ميراثكم وطالبته بنقود ، لكننى لا أصدق كثيرا بذلك ، لأن الدم ظهر لدى عمى منذ صباح يوم ٢٦ ، بينما كانت فيرا ميخائيلوفنا عندهم وقت الغداء ، أى عندما كان المرض قد ابتدأ» .

وتتوهم ريكاتشوفا فى التفاصيل (الدم «ظهر» فى ليلة ٢٦) ، لكنها ادركت ادراكـا صحيحـا نبرة التحيز فى روايـة آنّا غريغوريفنا . ان زوجة دوستويفسكى ترغب فى تكوين انطباع –

داخل حلقة الاسرة الضيقة ، طبعا - بأن السبب الحقيقى للمرض هو شجار زوجها مع شقيقته . وبمرور الزمن تترسخ هذه الرواية بصفتها «محصورة داخل الاسرة» : على سبيل المثال ، لا تتطرق لوبوف فيودوروفنا بوجه عام الى النزيف الدموى الاول (الليلى) ، بل تبتدئ توقيت المرض من زيارة عمتها الدراماتيكية مباشرة .

اذن يمكن اثبات وجود روايات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا . اذ تعزى اسباب المرض الى ما يلى : ١) شجاره مع شقيقته (رسالة آنا غريغوريفنا الى ستراخوف بتاريخ ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٣ ، مذكرات لوبوف فيودوروفنا ، افادة ريكاتشوفا) ، ٢) رفع منضدة الكتب الثقيلة (مسودة مذكرات آنا غريغوريفنا) ، ٣) حاملة الريشة التى تدحرجت الى ما وراء منضدة الكتب ، ٤) جدل دوستويفسكى الساخن مع سيد لم يذكر اسمه (النص المطبوع لنفس تلك «المذكرات») ، ٥) انفعال دوستويفسكى المقلق لزيارة ما خفية («سيرة حياة . . .») .

ان تعددية الاحداث المذكورة (والمتمم بعضها لبعض جزئيا) تشدد احتمال ان يضيع بينها حدث آخر مخفى .

فما هى الاسباب الذاتية التى كان بمقدور آنّا غريغوريفنا ان تسترشد بها وهى تخفى عن اقرب الاصدقاء وعن ذرية الاسرة الفضولية اية علاقة لزوجها بالاحداث فى شقة بارانيكوف ؟

لقد ذكرنا آنفا ان آنّا غريغوريفنا لم تكن تميل الى السياسة . اذ كانت تتحاشى بشتى السبل الخوض فى مواضيع خطرة وقابلة للتأويل (من وجهة نظرها) . ولئن اخذنا بما جاء فى مذكراتها فسوف نجد دوستويفسكى مفصولا فصلا محكما عن عالم الثورة الروسية : فهذا العالم لا وجود له اصلا بالنسبة لدوستويفسكى . وتتجاهل كاتبة المذكرات بالكامل تقريبا هذا الجانب بالذات من الحياة الروسية ، الذى لعب ابرز دور جوهرى فى حياة دوستويفسكى الابداعية والاجتماعية .

ولا تتطرق آنّا غريغوريفنا بأيما كلمة الى مأساة ايشوتين . كما تلتزم الصمت بصدد اعدام ملوديتسكى . وينبغى الظن انها تلتزم الصمت عن امور كثيرة اخرى . فما الذى يحدو بآنّا غريغوريفنا الى ربط مرض زوجها الذى حظى بعد وفاته **بتقدير**

الدولة (الامر الذى سنتطرق اليه مستقبلا) بالسيد الافوزوف ، المشبوه ، الذى يعيش بوثائق مزورة ، والذى اتضح انه مجرم سياسى وشخص شرير شاءت المصادفة السخيفة وحدها ان يصبح جارا لشخص موقـــر كفيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى ؟ كلا ، ليس الاشارة اليه فحسب ، بل حتى ادنى تلميح الى مـا حدث ليلة ٢٥-٢٦ كانون الثانى سوف يبدو مجانبـــا للادب واللياقة . ولئن كان ممكنا بعد ابلاغ اقرب الاصدقاء بالشجار العائلى (بل وحتى استحصال منفعة معنوية من هذا الابلاغ) ، فمن الحرى ان ينسى حادث تفتيش الشقة المجاورة : فورا والى الابد .

والآن نطرح السؤال التالى : أكان بمقدور الرائد كوزمين ان يعرّج مع رفقائه على بيـــت دوستويفسكى (لغرض الاستفسار منه ، مثلا ، عن هوية جاره) ؟ ليس هذا بالامر المستبعد . اذ كان بمقدور دوستويفسكى نفسه ان يخرج من الشقة بدافـــع الضجة ووقع الاقدام على السلم .

تقول آنّا غريغوريفنا فى مذكراتها : «كانت شقتنا مؤلفة من ست غرف ومستودع رحب للكتب ومدخل ومطبخ ، وكانت فى الطابق الثانى . وكانت سبع نوافذ تطل على زقاق كوزنيتشنى . . . والمدخل الامامى . . . يقع تحت غرفة ضيوفنا (بجنب المكتب)» .

على هذا النحو ، نرى ان نافذة المكتب تطـــل على المدخل الرئيس مباشرة ، واذا افترضنا ان رجـال الشرطة اختاروا هذا الطريق بالذات ، فمن المستبعد ان يغفل قاطن الطابق الثانى عن حركة مثل هذه المفرزة المتميزة .

ولن نتغاضى عن «المستودع الرحب» ايضا . فقد كان الصبى بيوتر (كوزنتسوف) يدير شؤون المستودع . وكان من اليسير ان تضيع بين الكتب الكثيرة ادبيات من نوع معين ، لا سيما اذا افترضنا ان صاحب هذه الادبيات كان على علاقة لا بأس بها مع هذا الصبى بيوتر . ان «نظافة» شقة بارانيكوف تقودنا عفويا الى هذا الافتراض الفنطازى تماما فى أغلب الظن .

ولكن ، لنعد الى الرائد كوزمين . انه لم يجئ ، كما نعلم ، بمفرده : وكان على دوستويفسكى ان يكون على معرفة شخصية بأثنين من الحاضرين فى اقل تقدير . اولهما هـو البواب تروفيم سكريبين . والثانى هو مأمور مركز الشرطة ناديجين .

الامر مع البواب واضح . فواجبات الخدمة (تجهيز الحطب مثلا) كان لا بد ان تجعله على تماس متكرر مع اسرة دوستويفسكى .

الامر اصعب مع مأمور المركز ناديجين .

تتضمن رسالة ريكاتشوفا الى والدها بتاريخ ٣٠ كانون الثانى ، حيث تصف الحج لتوديع جثمان دوستويفسكى ، العبارة التالية : «لقد ذكر مأمور مركز الشرطة ان عدد المشيعين بلغ حوالى ١٠ آلاف» . وقد ذكر مأمور المركز هذا الكلام الى اهل الفقيد : وبديهى انه كان يزور شقتهم فى تلك الايام الاليمة – لاجل احلال النظام الظاهرى على الاقل . ولكن يصعب الافتراض ان مأمور مركز القطاع الثانى من الجانب الموسكوبى لم يجد طوال السنتين ونصف السنة من اقامة دوستويفسكى فى زقاق كوزنيتشنى فرصة للتعارف مع هذا النزيل المشهور والتحدث اليه .

ان وجود اشخاص يعرفون دوستويفسكى فى المجموعة التى ظهرت فى الشقة رقم ١١ يزيد من احتمال كونه قد اجتذب – بهذا الشكل او ذاك – الى المشاركة فى هذا الحادث الليلى . ويتنامى هذا الاحتمال اكثر اذا افترضنا ان بارانيكوف الذى حضر عملية التفتيش كان على معرفة بجاره .

يسوق شكلوفسكى حجتين تشهدان بان دوستويفسكى كان يمكن ان يعرف شيئا عن السيد الافوزوف . اولا ، نجد فى المسودات والمخططات المتعلقة بـ«الاخوة كارامازوف» ان اليوشا يتجادل مع ارهابيين . ثانيا ، ما سجله سوفورين فى يومياته ، وهو قصة الحوار المتخيَّل بين اثنين من مدبرى التفجيرات عند متجر داتزيارو : اذ يرى شكلوفسكى ان هذا الحوار بمقدوره الا يكون متخيَّلا الى هذا الحد .

ولأجل جعل هاتين الحجتين «تؤديان مفعولهما» ينبغى ان نستوضح متى بالضبط اصبح بارانيكوف من سكنة زقاق كوزنيتشنى .

حتى هذا الحين لم يكن يعرف عن هذا الموضوع أى شىء . بينما يمكن العثور على دلائل مناسبة مرتبة زمنيا ، سواء لدى بارانيكوف نفسه او فى المصادر الأخرى التى تستأهل الثقة .

في يوم ٢٦ كانون الثاني يشرع العقيد نيكولسكي بحضور معاون المدعي العام دوبرجينسكي في استجواب المعتقل .

ان افادات السيد الافوزوف لا تتضمن ادنى قدر من الحقيقة . ولكن باستثناء امر واحد فقط .

في معرض حديثه عن آخر زيارة له الى بطرسبورغ يشير المعتقل الى الوقت قائلا : «في الايام الاخيرة من شهر تشرين الاول (اكتوبر) العام الماضي (أي عام ١٨٨٠ – **المؤلف**) . في بادئ الامر «توقف في غرف مؤثثة تقع على زاوية جادة نيفسكي وشارع كروانايا ، ثم انتقل الى الشقة رقم ١١ في العمارة رقم ٢/٥ بزقاق كوزنيتشني» . في هذه الحالة لم يكن ثمة ما يدفع بارانيكوف الى التستر : ان من اليسير التأكد من المعلومات التي يدلي بها عن طريق سجلات السكن .

وافادت صاحبة الشقة ماريا بريبيلوفا : «ان الافوزوف شغل الغرفة رقم ١ من شقتي ، ابتداء من يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٨٠ المنصرم وحتى يوم اعتقاله ، أي حتى ٢٦ كانون الثاني من العام الحالي» .

يخبر فورسوف ، مدير الشعبة الخاصة لحاكمية بطرسبورغ ، ادارة الشرطة بأن الافوزوف انتقل الى زقاق كوزنيتشني يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) .

هكذا نجد ان بارانيكوف قد اصبح جارا لدوستويفسكي في الايام الاولى من شهر تشرين الثاني . اذن فقد ظل جارا له طوال شهرين ونصف تقريبا .

ولكن ما دام الامر كذلك فليس هناك ما يدعم تصورات شكلوفسكي المذكورة اعلاه . ففي تشرين الثاني ١٨٨٠ كان دوستويفسكي قد فرغ من «الاخوة كارامازوف» . اما بخصوص افادة سوفورين فهي تعزى – كما نتذكر – الى شباط (فبراير) ١٨٨٠ .

رغم ذلك يصعب شطب افتراض تعارف دوستويفسكي مع بارانيكوف .

ان اسرة دوستويفسكي – باطفالها وخدمها ، وبشواغلها

المتعلقة بأرسال الكتب على مختلف العناوين واستقبال عدد لا يحصى من الزوار ، بهمـــوم الاشتراك فى الـ«يوميات» وميراث كومانينا – تحيا حياتها ، وليست تُعنى اطلاقا ، فيما يبدو ، بما يجرى بجوارها ، أى فى الغرف المؤثثـة التى تؤجرها الكاسبة الموسكوبية ماريا نيقولاييفنا بريبيلوفا . هذه العوالم لا تكاد تلتقى ، لكنها تجد الفرصة ، كما يبدو واضحـــا ، لأن يراقب بعضها بعضا . . .

مهما يكن من امر ، فأن قاطن الشقـــة رقم ١٠ شخصية مشهورة على نطاق روسيا باسرها ، وهذا الامر بحد ذاته كان لا بد ان يثير اهتماما خاصا : به وبأسرته وبنمط حياته .

ومن جهة آخرى ، يصعب افتراض ان دوستويفسكى نفسه وافراد اسرته لم يعيروا ادنى قدر من الانتباه الى جارهم الشاب ذى الهندام المواكب للموضة والذى ينـــم باستمرار عن ذوق سليم ، والى وجهه ذى الملامح الشرقية ، والى مظهره الوسيـــم كفاية بوجه عام . ولا تستبعد اللقاءات السريعة على السلـــم وانحناءات التحية المتبادلـة والاتصالات على الصعيد المعيشى . ولكن لا تستبعد كذلك اشكال الاختلاط الاخرى الاوثق عرى .

يقول بارانيكوف فى احدى رسائله من السجن : «. . . اننى اذ اضمر مشاعر رقيقة بصفـــة خاصة لمثالى الاسمى ، اقر فى الوقت ذاته بوجود مثل اخرى ايضا ، وبالتالى بامكانى ان احب واحترم الناس الذين يسعون الى تحقيقها ، شريطة ان يكون هذا السعى نزيها . . . وكثيرا مـــا نصادف فى التاريخ ، بل وفى الحياة المعاصرة ايضا ، عدوين يكن احدهما الاحترام للآخر» .

بطبيعة الحال ، هذا قول عام . ولكن قد تكمن وراء الكلمات العامة انطباعات شخصية .

كان بارانيكوف يشعر فى زقاق كوزنيتشنى بثقـــة عالية بالنفس . يقول شخص كان كثير التردد على بارانيكوف (سوف يأتى الكلام عنه) فى افاداته : «لم أر لدى الافوزوف ما ينم عن القلق او الهم او الاستعجال : كنت كثيرا ما اجده مستلقيا على السرير او الديوان يقرأ ليرمونتوف (١٣٧) الذى كان معجبا به اعجابا جما . . .»

ويؤكد بارانيكوف فى رسائله من السجن ذلك بقوله : «بيد

ان ليرمونتوف ، ان توخينا الجد فى القول ، يعجبنى جدا جدا ، حتى لأكاد احفظ كل قصيدته «ديمون» عن ظهر قلب . ولو لم يرحل مبكرا ، فى سن السادسة والعشرين ، لاصبح ليس شاعرا عظيما فحسب ، بل ومواطنا عظيما . انه فى نظرى يقف اعلى من بوشكين بما لا يقاس» .

كانت ثمة مواضيع لاحاديث مع جاره : ولا يبقى سوى امر واحد غامض ما اذا كانت قد دارت هذه الاحاديث .

لم يذكر بارانيكوف قط فى رسائله من السجن اسم دوستويفسكى . من المفترض ان تكون هذه الحقيقة افضل دليل يشهد لصالح ان هذا الموضوع لا يعنيه بتاتا .

ولكن يمكن من هذا ايضا استخلاص استنتاج معاكس تماما . ذلك ان عدم التنويه بأسم دوستويفسكى مسألة مدهشة وغير قابلة للتفسير للوهلة الاولى .

وبالفعل : لقد سطر بارانيكوف خلال مدة اكثر من عام قضايا بانتظار المحكمة فى قلعة بطرس وبولص وفى دار التوقيف بضع عشرات من الرسائل ، وليس فى اى منها حتى ولو تلميح الى دوستويفسكى . لنفترض ان ليس جميع الرسائل ، وليس باكملها ، قد حفظها لنا الدهر . ولنفترض ان فى بعض منها ما شطبته رقابة السجن ، رغم ذلك يبدو هذا الصمت غريبا .

ان دائرة المواضيع المسموح لبارانيكوف بها فى مراسلاته محدودة جدا : شؤون الاقارب ، ذكريات الطفولة ، المصير الذى ينتظره . اما الادب الوطنى فموضوع محايد تماما ومباح تماما . فهو إن تطرق الى ذكر ليرمونتوف ، فلماذا لا يتطرق الى اديب آخر اقرب اليه من حيث الزمن ومن حيث محل السكنى ؟ ففى آخر الامر ليس من المقدر لك ان تكون كل يوم جارا لكاتب شهير ناهيك عن ان هذا الكاتب يلقى ربه بعد يومين من اعتقالك ، وتغدو مراسيم دفنه الفخمة حدثا وطنيا . ما الذى يحول دون التجاوب ، حتى ولو بكلمتين ، مع هذا الحدث الذى يكاد يكون – فى نظر قاطن الشقة رقم ١١ – حدثا **منزليا** ؟

هنا ايضا تنبع شكوك : هل سمع بارانيكوف بوفاة جاره ؟ هذا السؤال ليس ببعيد الاحتمال ، كما يبدو للوهلة الاولى . ان الشخص تحت التحقيق لا يرى صحفا منذ لحظة اعتقاله .

وليس فى حوزته ايضا مصادر اخرى للمعلومات (بأستثناء رسائل ذويه الساكنين خارج بطرسبورغ) . اما المحققون والقائمون على شؤون السجن ليسوا ملزمين بابلاغه عما يجرى فى الخارج .

الا أنه يعرف ، فى الحقيقة ، ان محاولة الاغتيال التى تمت يوم ١ آذار (مارس) قد تكللت بالنجاح : اذ كانوا مرغمين على ابلاغه بهذه المعلومات نظرا لعلاقته بالحدث .

ولكن اذا كان بارانيكوف لا يعلم اطلاقا بموت دوستويفسكى ، فلسوف يغدو صمته اكثر تعبيرا . اذ يتكون انطباع بانه يتقصد تحاشى هذا **الموضوع** : وهى رغبة مباحة تماما ، اذا افترضنا ان للشخص المتحاشى ذكره علاقة بالدعوى الجارى التحقيق فيها .

كان دوستويفسكى يصلح غطاء جيدا : هذا ما كان يمكن البوح به للرفاق . ولكن ليس لزاما عليه بتاتا ان يخبر بذلك العقيد نيكولسكى ومعاون المدعى العام دوبرجينسكى فينال بذلك من سمعة جاره .

لقد كان بارانيكوف ، كما هو معروف ، شحيح الكلام .

رجل الثورة لمكافحة التجسس

كان بارانيكوف شحيح الكلام ، وقد احجم اثناء التحقيق عن التطرق الى الاشخاص الذين كانوا يزورونه فى زقاق كوزنيتشنى . بينما يستحق هؤلاء الاشخاص الاهتمام .

فى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ تم اعتقال الكسندر دميترييفيتش ميخائيلوف فى استوديو للتصوير الفوتوغرافى يقع على جادة نيفسكى . وكان ميخائيلوف يلقب فى الحزب بـ«البواب» او بـ«جنرال العمل السرى» : اذ لم يكن بين اعضاء «ارادة الشعب» من هو اكثر منه حرصا على الضبط الحزبى . لذا كانوا يتنبؤون له بعد انتصار الثورة منصب الوزير الاول (رئيس الوزراء) ، كونه منظما فذا وحارس أمن الحزب .

بيد ان ميخائيلوف ، فضلا عن نشاطه الواسع الشهرة فى اوساط العمل السرى ، كان يزاول عملا لا يعلم به الا قلة قليلة من المطلعين .

كان على صلـة مـع الرجل الاول ، «رجل الثورة لمكافحة التجسس» نيقولاى فاسيليفيتش كليتوتشنيكوف الذى اندس فى الشعبة الثالثة ، وذلك فى كانون الثانى ١٨٧٩ ، وراح بعد الغاء هذه الاخيرة يخدم خدمة متفانية «ارادة الشعب» فى شعبة مسك الملفات الثالثة بمديرية الشرطة .

لم يكن كليتوتشنيكوف ثوريـا محترفا . فهو سليل اسرة مهندس معمار متواضعة فى مدينة بينزا ، وقد عمل موظفا صغيرا فى يالطا وسيمفيروبول ، أى بجوار البحر ، ذلك انه اخذ يشعر منذ ذلك الحين بأعراض اصابـة قريبة بمرض السل . كان قد تجاوز الثلاثين حين ظهر فى بطرسبورغ ، بعزم راسخ على تكريس ما تبقى من حياته للقضية التى كان يعتبرهـا الوحيدة الجديرة بالكفاح .

عرض خدماته وجرى قبولهـا . وقد تسنى له من خلال تطبيق خطة ماكرة للغاية من جهة ، ومن خلال محالفة الحظ له بشكل لا يصدق من جهة اخرى ، ان يجد عملا فى قدس اقداس الشرطة السرية الروسية ، وبالتحديد فى شعبة التحريات ، وان ينال على هذا النحو منفذا غير محدود تقريبـا الى اسرار تلك الدائرة التى كانت تجابه بصلابة وصلاحيات تفوق سائر الدوائر الاخرى مد الثورة الروسية المتصاعد بشدة .

واصبح كليتوتشنيكوف الملاك الحارس للحزب . كان يبعد عنه مصائب لا مفر منها ، ويحذره مما يبيت من عمليات المداهمة والتفتيش ، ويبلغه بما تضمره الشرطة من عمليات ، ويفضح الجواسيس ويجهض تبعات الخيانة .

كان كليتوتشنيكوف قصير القامة ، دائم السعال ، ضيق المنكبين ، يرتدى نظارة دائرية ، وله لحية رقيقة صغيرة ، أى له مظهر خاب هو المظهر النمطى للمثقفين . وبهذه المواصفات انقذ كليتوتشنيكوف العديد من انشطة العمل السرى من الفشل ، وحال دون اعتقال العشرات ، بل وحتى المئات من المواطنين . ان الثورة الروسية لم يكن لها قط مثل هذا الرجـل المكلف بمكافحة التجسس (علما بأنه لم يكن – من الناحية الرسمية – عضوا فى المنظمة) .

يقول ترويتسكى (١٣٨) ، وهو مؤرخ معاصر مختص بتاريخ

«ارادة الشعب» : «اذا كان كليتوتشنيكوف يحرس هذه المنظمة الثورية ، فقد كانت هذه المنظمة الثورية تحرس كليتوتشنيكوف» .
وكان ميخائيلوف ، ذكر اعضاء «ارادة الشعب» فى مذكراتهم لاحقا ، «يقوم شخصيا بكل الاتصالات معه ، ويصونه عموما كحدقة عينه ، كما كان مستعدا لأن يستشهد شخصيا من ان يسمح بأن يفتك بهذا العميل النفيس القيمة» .

بعد اعتقال ميخائيلوف كان يجب ان يضطلع بالاتصال مع كليتوتشنيكوف كل من بارانيكوف وعضو آخر من اعضاء اللجنة التنفيذية هو كولودكيفيتش .

يقول ترويتسكى : «لماذا أرتأت اللجنة التنفيذية استقبال عميلها الفائق السرية فى شقة شخص يعمل فى التنظيم السرى (يقصد به كولودكيفيتش - **المؤلف**) كشفته عيون الشرطة منذ وقت طويل - ذلك ما يصعب فهمه» . وقد ذكر اعضاء اللجنة التنفيذية فى وقت لاحق «ان هذا القرار يبدو غريبا ، ولكن لم يكن بوسعنا ان نفسر لماذا اتخذ هذا القرار رغم ذلك» .

ويمكن ان نعزو ما قيل عن كولودكيفيتش بالكامل الى بارانيكوف ايضا .

ولنعد الى محاضر استجوابات كليتوتشنيكوف .

فى ٣١ كانون الثانى افاد المحتجز بأن ميخائيلوف عرّفه على غيورغى ايفانوفيتش الافوزوف ، «الذى يزاول النشاط العلنى كما اكد لى ميخائيلوف» .

ويمضى كليتوتشنيكوف الى القول : «فى تشرين الثانى استصحبنى ميخائيلوف الى شقة الافوزوف ، التى اخذت بعدئذ اتردد عليها كثيرا ، وكنت اعرّج عليها احيانا لمجرد الحديث وتعاطى المشروب لأن الافوزوف كان محبا للمرح والانس» .

لماذا قام ميخائيلوف ، وهو الفائق الحذر ، باستصحاب كليتوتشنيكوف شخصيا الى شقة صديقه وابن بلدته الذى تبحث عنه الشرطة منذ وقت طويل بسبب مشاركته فى اغتيال ميزينتسوف ، وفى محاولة اغتيال القيصر ، وفى جملة من الاعمال الاخرى التى لا تقل جسارة ؟ هل كان ميخائيلوف قد حدس انه سيعتقل قريبا وحرص لأجل هذا الاحتمال على ان يضمن التوارث فى الاتصالات مع «العميل النفيس القيمة» ؟ وهل كان يؤمن

بقدرة بارانيكوف على التملص والافلات ، وبأمان الوثيقة الشخصية التى بحوزته ؟

بطبيعة الحال ، كان بمقدور ميخائيلوف ان يسترشد بكل هذه الاعتبارات . ولكن لا يستبعد ان الحجة الحاسمة لصالح بارانيكوف كانت تتمثل فى مستوى الامان الرفيع لشقته ، وان اسم دوستويفسكى قد لعب هنا دورا لا يستهان به .

ان مواد التحقيق تتيح لنا - طبعا من الجانب الظاهرى فقط - ان نستحضر نمط حياة بارانيكوف .

افادت الفلاحة فاسيليسا بومبينا التى كانت «تعمل فى خدمة السيدة بريبيلوفا» : «كان يغادر البيت فى وقت مبكر ، فى حوالى الساعة التاسعة ، ولا يعود الا مع حلول المساء . ولم الحظ شيئا غريبا يذكر فى حياته» .

ويذكر كليتوتشنيكوف بعض التفاصيل : «. . . بعد ذلك يدور حول مائدة الشاى والنبيذ حديث عن امور تافهة ، ولم يحدث الا مرتين خلال الآونة الاخيرة ان الافوزوف قال ، بعد ان نظر الى ساعته ، ان عليه بعد نصف ساعة ان يعرج على مكان ما ، وقد ذكر فى المرة الاولى انه ذاهب الى مسرح مارييسنكى وفى المرة الثانية انه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وقد ارتدى خلال ذلك ، بالفعل ، ملابس داخلية نظيفة وأفضل بدلة لديه . لكننى كنت اعلم مما كان يرويه انه كان يمضّى كل الايام من الصباح الى ساعة متأخرة من الليل خارج البيت ، ولا يعود اليه فى الموعد المحدد الا فى الايام التى يعينها لالتقائى» .

ان كليتوتشنيكوف لا يخفى عن التحقيق ان السيد الافوزوف كان يتبع نمط حياة مشتتا بعض الشيء . تقول احدى عضوات اللجنة التنفيذية ممن قدر لهن البقاء على قيد الحياة فى مذكراتها : «كان كثيرا ما يضطر الى الظهور فى شوارع بطرسبورغ بصفة غندور متنزّه حسن الهندام وكأنه شخص بطّال خالى الهموم . وفى خريف عام ۱۸۸۰ عثر خلال احدى هذه النزهات على قبو فى شارع مالايا سادوفايا سابقا معروض للايجار . . .»

وكان هذا ، كما اسلفنا ، هو القبو الذى مدوا منه نفق الالغام .

ولم يكن يتسنى كثيرا لقاطن الشقة رقم ١١ اخذ قسط من الراحة على الديوان ومطالعة شاعره الاثير (الامر الذى نستطيع الآن القول ان كليتوتشنيكوف قد ابلغ التحقيق بشأنه) . وتؤكد وثيقة الشرطة ما يتسم به الافوزوف من سرعة تحرك ، وهو الذى «لم يكن يحوز شيئا سوى البدلة التى يرتديها وشنطة من الخيش وحقيبة مخملية ، كما كان يغادر شقته مبكرا ويعود فى وقت متأخر . . .»

كان يغادر المنزل عندما يكون دوستويفسكى لا يزال نائما ، ويعود حين يكون هذا ساهرا . فهل كان يرى النور فى نافذة المكتب ؟ وهل عنى بحياة جاره ، وهل كان على معرفة بذويه او هل خالط خدمه ؟ أم ان مؤلف «الاخوة كارامازوف» ظل خارج نطاق رؤية عضو اللجنة التنفيذية المنغمس فى شواغل العمل السرى ؟

لقد امضى شهرين ونصف الشهر جنبا الى جنب مع اضخم «قوة ادبية» فى عصره (ويحتمل ان تكون قوة معادية فى تصوراته) . ان الايام الاخيرة من حياة احدهما تطابق الايام الاخيرة من حرية الآخر . وكلاهما يهجر هذا العالم «فى لحظاته المصيرية» .

الشقة رقم ١١ : لقاء سرى أم كمين ؟

ماذا كان يجرى فى الشقة رقم ١١ بعد ان غادرها المسؤولون بصحبة احد نزلائها ؟ لقد كان الوضع هادئا ، فيما يبدو ، طوال النصف الاول من نهار ٢٦ كانون الثانى .

وكان ساكنو الشقة المجاورة قد بعثوا شخصا لاستدعاء الدكتور فون بريتسيل . ولكن لم تكن تلاحظ بعد دلائل قلق يذكر ، بل حتى كانوا يستعدون لمأدبة غداء عائلى .

فى تلك الاثناء كان ثمة كمين قد بيت فى العمارة .

اما ما حدث فى وقت قريب لاحق فتشهد عليه الوثيقة الرسمية التى نسوقها فى ادناه :

في يوم ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٨١ حررت شرطة القطاع الثاني للجانب الموسكوبي هذا المحضر عما يلي :

في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم المذكور جاء الى الشقة رقم ١١ في العمارة رقم ٢/٥ الواقعة في ركن شارع يامسكايا وزقاق كوزنيتشني رجل مجهول المهنة طالبا الافوزوف ، وبعد ان اخبر بانه غير موجود في البيت خرج الى الشارع ، حيث طلب مراقب شقة الافوزوف ناظر الحي ياكوفليف من الشخص المجهول ان يرافقه الى مركز الشرطة . وفي الطريق حاول الموقوف الفرار ، لكن ياكوفليف منعه عن ذلك . بعدئذ طلب المجهول اخلاء سبيله ، وعرض عليه نقودا . وعند وصوله الى المركز رفض المجهول الكشف عن مهنته ومحل سكناه ، لهذا قررنا احالته فورا الى الشعبة السرية .

مأمور المركز ناديجين

ان اسلوب محضر الشرطة الرزين ليعجز عن اخفاء الصفة الدرامية لما يجري : اضطراب الشخص المجهول الذي وقع على حين غرة في كمين ، و«دعوته» المشبوهة الى المركز ، وصراعه اليائس مع نزاهة ناظر الحي اللامرتشي ياكوفليف ، واخيرا ، وصوله الى المكان الذي لا عودة منه ، عادة . ولا مجال الى الشك في ان الجميع باتوا يعلمون منذ صبيحة يوم ٢٦ كانون الثاني باختفاء احد نزلاء العمارة . ويتعذر تصور ان هذا الخبر المثير قد خفي على سكنة الشقة رقم ١٠ . والسؤال ينحصر فقط فيما اذا كانوا على علم بالكمين .

هل يعلم دوستويفسكي بالكمين ؟

حتى لو افترضنا انه لم يكن طرفا لا مباشرا ولا ضمنيا ، بل ولم يكن - اخيرا - مجرد شاهد على الاحداث الليلية ، فلا بد للاشاعات ان تجعله يقلق من اعماق نفسه . انه الشخص الذي يتفرس في عالم الثورة الروسية ويعاني قسمة ايشوتين وموته وكأنهما فاجعة شخصية ، ويغمره في تأملات حزينة اعدام دوبرونين وكفياتكوفسكي وبريسنياكوف . الشخص الذي كلف

نفسه عناء حضور اعدام ملوديتسكى ، أيعقل ان يقف موقف اللامكترث ازاء خبر مفاده ان الشخص الذى سبق ان رآه والتقاه وربما عرفه بالاسم قد اعتقل ليلا فى الشقة المجاورة ؟ ؟ أكان يمكن الا تراوده ذكريات تعتبر بديهية تماما فى مثل هذه الحالة ، بشأن ما تعرض له شخصيا منذ وقت بعيد من تفتيش واعتقال واقتياد الى المبنى الواقع عند جسر تسيبنوى ، ومن ثم الاختفاء لسنوات طويلة «فى دواهى الارض المظلمة» ؟

باعتقادنا ان هذا الخبر الصباحى قد هزّه بقدر لا يقل عما هزه شجاره النهارى مع شقيقته فيرا ميخائيلوفنا .

يبدو ان كون الشقة رقم ١١ خاضعة لمراقبة الشرطة لم يكن سرا كبيرا - لا بالنسبة لساكنى هذه الشقة ، ولا بالنسبة لجيرانهم . فالبواب الجيد الاطلاع تروفيم سكريبين لم يقطع قط وعدا بالتزام الصمت .

عدا عن ذلك ، كان من المريح ان تجرى مراقبة الاشخاص الذاهبين الى الشقة رقم ١١ من الشقة المقابلة .

هنا يجدر بنا ان نتذكر مرة اخرى حوار دوستويفسكى مع سوفورين عند متجر داتزيارو . هناك كان خطر الموت يتهدد القيصر («السلطة») : «لقد جرى تشغيل الآلة ، والقصر الشتوى بات محكوما عليه بالدمار . وثمة شخص يعلم بذلك تسمّر رعبا امام سؤال : كيف ينبغى التصرف ؟

فى ٢٦ كانون الثانى كان الموقف مماثلا من الناحية العملية ، لكنه لم يعد من ثمار المخيلة ، بل هو موقف واقعى تماما ، كما انه يبدو خلال ذلك وكأنه مقلوب على بطانته . فخطر الموت لم يعد الآن يهدد السلطة ، بل يهدد من يتطاول على هذه السلطة . «لقد جرى تشغيل الآلة» ، غير ان «اشتغالها» يعمل هذه المرة ضد مدبرى التفجير انفسهم .

ومرة اخرى نجد بين هؤلاء واولئك شخصا ثالثا يعلم بهؤلاء وباولئك ويتريث امام الاختيار الاليم .

كان بالامكان آنذاك انقاذ «الاصدقاء» بتسليمهم الى الاعداء . وبالامكان الآن انقاذ «الاغراب» الذين يمارسون دور الضحية . ان عدم التدخل من شأنه ان يكون مكافئا لنفس تلك الخيانة ، سوى انها خفية وصامتة .

بطبيعة الحال كان بمقدوره ، مثلما فـــى تلك المرة ، ان يجيب عن سؤال : ألا ينبغى تحذيرهم ؟ على النحو التالى : «وهل هذا من شأنى ؟ هذا من شأن الشرطة» — ولكن بعلامة معاكسة فى الحقيقة ، ذلك ان تحذير **من يجرى اقتناصه** (كما هـى الحال **مع من يقوم بالاقتناص) ليس من شأنه** ايضا . بيـد ان هذه البديهية التطمينية المبتذلة لا تلغى السؤال نفسه . فهو لم يكن ملزما بالتحذير ، لا فى هذه الحالة ولا فـــى تلك ، غير ان الشعور الوجدانى فى كلتا الحالتين (بل حتى «الاحساس بالجمال» ان اردتم) ظل ينتظر الرواء .

لم يكن «المسيح» عند متجر داتزيارو يعرف كيف ينبغى ان يتصرف ، تماما مثلما لم يكن يعرف ذلك «المسيح» عند شقـة بارانيكوف .

ولكن آن الآوان لتذكر الترتيب الزمنى للاحداث .

تفيد المعلومات المتوفرة بأن الرجل المجهول قد وصل شقة بارانيكوف فى حوالى الساعة الرابعـة بعد الظهر . وقد جاء فى «مذكرات» آنّا غريغوريفنا ان السيد الذى اقلق زوجها بجدله حول «يوميات كاتب» قد زارهم «فى حوالى الساعة الثالثة» وانصرف «فى حوالى الساعة الخامسة» ، بعد ذلك حدثت اول نوبة مرض خطيرة . بيد ان الوقت فى «سيرة حياة . . .» قد حدد بمزيد من الدقة : «فى **الساعة الرابعة بعد الظهر** (التشديد لنا — **المؤلـف**) حدث اول نزيف دموى من البلعوم» . وقد ذكر نفس هذا الوقت فـى رسالة آنّا غريغوريفنا الى ستراخوف .

هكذا يتوفر الآن تطابقان يمكن وصفهما ، فى اقل تقدير ، بأنهما محيران وغريبان . فبوادر المرض السابق للوفاة تظهـر لدى دوستويفسكى فى ساعات التفتيش لـــدى بارانيكوف ، والنوبة الحازمة لنفس المرض تدركه بعد بضع دقائق بالضبط من توقيف عضو آخر من اعضاء اللجنة التنفيذية لـ«ارادة الشعب» هو نيقولاى كولودكيفيتش .

وهذا هو اسم الشخص المجهول الذى رفض ذكر مهنته ومحل سكناه .

. . . فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢٦ كانون الثانـى اقتيد الرجل «المجهول المهنة» الى الشعبة السرية . ويتضمـن

محضر تفتيشه خمسا وعشرين تسمية لما كان بحوزته من حوائج (لنتذكر - من حيث التباين - زهد الوثيقة المماثلة التى حررت بشأن بارانيكوف !) ويخيل ان احدا لو اراد عن قصد ان يجتذب اعتم الشبهات لكان من الصعب عليـــــه ان يحوز اكثر مما كان بحوزته . لقد ضبط لدى كولودكيفيتش ما يلى : النظام الداخلى لحلقة حـــزب «ارادة الشعب» ، برنامج اللجنـــة التنفيذية ، استمارات رسميـــة مزورة تحمل «ختم وتوقيـــع شخصيات مسؤولة» ، مخطوطة «الاسس العامة لتنظيم المجموعة المحليـــة والمركزية ، الخ ، الخ . وغنم رجال الشرطة ايضا مفكرة تحوى عناوين وملاحظات مختلفة (كانت تتضمن ، كما أتضح فى وقت لاحق ، «معلومات عن صنع مواد مختلفة لتحضير فتيل المفرقعات والمختراات المتفرقعة وفلمنات الزئبق ، وكذلك جدولا بالاوزان النوعية لمختلف مركبات الديناميت») .

لا يدرك العقل ما الذى اضطر كولودكيفيتش الى ان يأخـــذ معه مجموعة كاملة من الادلة الثبوتية . فهـــو لم يكن مهملا الى درجة تجعله يحمل معه باستمرار الحوائج التى ضبطت بحوزتـــه عند التفتيش . أليس من الاكثر بداهة الافتراض بأنه كان فـــى هذه الحالة يعتزم ايصال الاستمارات الرسمية المزورة ، وكذلك وثائق «ارادة الشعب» الحقيقية ، الى رفيقه فى الحزب ؟

غير اننا نعلم ان شقة بارانيكوف كانت «نظيفة» منتهـــى النظافة . ولو كانت لدى ساكن الشقـــة مواد تنال من سمعته لحفظها على اية حال فى مكان غير المكان الذى يقطنه .

ولكن اين له هذا المكان ؟ هنا نضطر الى تذكر افتراضنـــا **الخيالى** (وبالتحديد ، عن الصبى بيوتر) .

لقد رفض كولودكيفيتش ذكر عنوان شقته فى بطرسبورغ . وكانت لديه اسباب جادة فى هذا الصدد .

ان عضو الهيئة القيادية العليا لـ«ارادة الشعب» ، وأحـــد المطلعين القليلين على سر كليتوتشنيكوف كان لا بـد ان يدرك انه - أى كولودكيفيتش - سوف يكون بعد اعتقال بارانيكوف حلقـــة الارتباط الوحيدة بين «العميل النفيس القيمـــة» واللجنة التنفيذية . لم يكن بمقـــــدور كليتوتشنيكوف ان يذهب الى بارانيكوف ، والا كانوا سيعتقلونه . كان بامكانه ان يذهب الى

كولودكيفيتش ، ولو فعل ذلك لما وجده فى البيت ، ولكن لما كان قد وصل الى هناك ايضا رجال الشرطة .

ولكن لماذا لم يتمكن «الملاك الحارس» للحزب من تفادى اعتقال بارانيكوف ؟

فى خريف عام ١٨٨٠ لم تكن مديرية الشرطة هى وحدها التى تضطلع فى بطرسبورغ بالتحريات ، بل كانت تضطلع بها ايضا الشعبة السرية لحاكمية المدينة . وقد انقلبت ازدواجية الشرطة هذه وبالا على كليتوتشنيكوف . فهو يقول فى افادته : «فى آخر مرة كان لى موعد مع الافوزوف فى حانة بالكين الواقعة فى ركن شارع بولشايا سادوفايا ، وذلك فى يوم الاثنين المصادف ٢٦ كانون الثانى ، ولكن لم يحضر لا هو ولا كولودكيفيتش ، وفى يوم الثلاثاء علمت باعتقال الافوزوف ، وفى يوم الاربعاء قررت ، اخيرا ، ان اعرّج على شقة كولودكيفيتش لمعرفة اسباب اعتقال الافوزوف . . .»

يقول كليتوتشنيكوف : «لمعرفة اسباب اعتقال الافوزوف» . لقد كان بامكانه ان يعرف هذه الاسباب فى مقر عمله ، أى فى مديرية الشرطة . لقد توجه («قررت ان اعرّج») الى كولودكيفيتش لتحذيره بشأن بارانيكوف دون دراية منه بأن الوقت قد فات .

لكن كولودكيفيتش كان فى تلك الاثناء ، أى يومى ٢٦ و٢٧ كانون الثانى ، يراوغ ليوهم الشرطة لا بعادهم عن الآثار املاً منه ان كليتوتشنيكوف سوف يستعلم خلال هذه الفترة فينجو بنفسه . لكن كليتوتشنيكوف كان يتريث هو الآخر .

بيد ان الاحداث حول العمارة رقم ٢/٥ لا تنتهى عند هذا الحد . ويجدر بنا ، اخيرا ، ان نذكر اسما آخر . ان الشرطة لا تزال تجهله بعد ، لكنه معروف منذ وقت طويل بالنسبة الى فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى .

والمقصود هو آنّا بافلوفنا كوربا .

الارهابية ذات المنديل الابيض

التحقت كوربا بحزب «ارادة الشعب» فى سنة تأسيسه (١٨٧٩) . وكانت آنّا بافلوفنا قد بلغت من العمر ٣٠ سنة .

وفى كانون الثانى ١٨٨٠ جرت ترقيتها من «عميل الدرجة الاولى» الى عضو كامل الحقوق من اعضاء اللجنة التنفيذية الذين كان عددهم آنذاك ١٧ شخصا .

ولم تكن عندها خدمة فى العمل السرى ، مثلا ، كالتى عند جيليابوف وبيروفسكايا (١٣٨) وبارانيكوف . وكانت تحيا حياة آمنة كفاية . ولعل اسطع صفحة فى سيرة حياتها هى مشاركتها فى الحرب الروسية - التركية خلال عامى ١٨٧٧-١٨٧٨ : فقد تطوعت للذهاب الى رومانيا بصفة ممرضة ، وعملت هناك فى اخلاء الجرحى والمرضى .

وكانت قبل ذاك ، فى عام ١٨٧٦ قد كتبت الى دوستويفسكى باعتباره مؤلف «يوميات كاتب» الذى رحب ترحيبا حارا بحركة التطوع الروسية .

وبعد عودتها من الحرب التحقت بالثورة

سوف تنجو وتشهد احداث ١ آذار وتحطيم اللجنة التنفيذية واستشهاد رفاقها . وستقضى بعد اعتقالها فى عام ١٨٨٢ سنوات طويلة من الاشغال الشاقة ، وستغدو شاهدة عيان فى مأساة هى عمليات الانتحار الجماعية التى اقدم عليها المسجونون السياسيون . وستنجو وتشهد الثورات الروسية الثلاث . وستعمل بعد عام ١٩١٧ بنشاط فى جميعة المنفيين والمحكومين بالاشغال الشاقة ، وستنشر مقالات فى المجلات التاريخية . وستوافيها المنية عام ١٩٣٩ وهى فى سن التسعين .

وفى ايام احتضار دوستويفسكى كانت آنّا بافلوفنا تعد العدة مع باقى اعضاء اللجنة التنفيذية لاعداد «العمل المركزى» - لقد بات اغتيال القيصر قريبا .

فهل رد دوستويفسكى آنذاك ، فى عام ١٨٧٦ ، على رسالة كوربا ؟ اغلب الظن انه رد عليها : فقد كان من شيمه الرد على مثل هذا النوع من الرسائل . ومهما يكن من أمر ، فان احدى مكاتباته من مينسك تذكر فى رسالة لها غير منشورة اسم كوربا باعتباره اسما يعرفه جيدا مؤلف الـ«يوميات» .

وهل كانت بينهما مراسلات فى وقت لاحق ؟ هذا ما لا يمكن

الا تخمينه . هل التقيا فى يوم ما ؟ هذا ايضا ما يتعذر البت به .

اما كوربا نفسها فلم تذكر اسم دوستويفسكى الا مرة واحدة . ففى معرض حديثها عن مراحل تطورها الفكرى كتبت تقول : «ان انتمائى الفكرى الى النارودنيتشيستفو («الحركة الشعبية») نشأ تحت تأثير كتب لافروف (١٤٠) وفليروفسكى (١٤١) وغليب اوسبينسكى وكذلك دوستويفسكى جزئيا . . .»

«كذلك دوستويفسكى جزئيا . . .» . لقد كتبت ذلك فى عام ١٩١٦ . قبل هذا باربعين سنة كتبت الى مؤلف «يوميات كاتب» : «أقول صراحة اننى انتظر منك عونا ، دونما وجه حق فى ذلك ، اللهم الا حق من يعانى الالم . لقد تعذبت روحى فى مجرى سنوات طويلة سوء العذاب ، ولئن قررت الآن ان أقلقك بآهاتى ، فذلك لعلمى بأننى لن اجد طبيبا أفضل» .

لقد اثر فيها دوستويفسكى تأثيرا أقوى بكثير مما يخيل اليها بعد مضى عقود من السنين . غير ان اسمه فى عام ١٩١٦ لم يعد يحظى بشعبية بين اوساط من نال الاستحقاق من الثوريين .

فى عام ١٨٧٦ كانت مستعدة لبذل الكثير فى سبيل لقاء مع الشخص الذى كانت تناشده مثل هذه المناشدة الحارة . بعد خمس سنوات ، أى فى كانون الثانى ١٨٨١ ، لم تكن بطبيعة الحال تأبه لمراسلها القديم . لكنهما اذا كان قد تعارفا من قبل ، فمن الطبيعى ان نتساءل : أكان بمقدور كوربا ان تمر من امام شقة دوستويفسكى دون ان تعرّج حتى ولو مرة واحدة على الشخص الذى كان فى يوم ما مداويا لجروحها الروحية ؟

لقد كتب لها ان «تمر من امام شقته» مرات عديدة : فقد كانت تزور بارانيكوف .

لقد ابلغت صاحبة شقة النزيل الذى اعتقل ليلة يوم ٢٦ كانون الثانى الكاسبة الموسكوبية بريبيلوفا هيئة التحقيق انها كانت ترى كيف تأتى لزيارة السيد الافوزوف «سيدة فاحمة الشعر طويلة القامة لها من العمر حوالى ٢٠ سنة ، جميلة جدا وحسنة الهندام ترتدى روتندا (١٤٢) حريرية مزينة بفراء

الثعلب ، ومنديل رأس ابيض على غرار نساء اورنبورغ . ولم تشرع هذه السيدة بالمجيء الى شقة الافوزوف الا فى الآونة الاخيرة من اقامته عندنا» .

من الواضح ان منديل اورنبورغ الابيض كان يليق جدا بالزائرة المجهولة : فقد حسمت بريبيلوفا من عمرها عشر سنوات فى أقل تقدير .

وقدمت فاسيليسا بومبينا (الخادم فى شقة رقم ١١ كما اسلفنا) بعض التفاصيل الاضافية الى التحقيق . فبعد تشخيصها كليتوتشنيكوف وكولودكيفيتش باعتبارهما كانا ممن يزورون بارانيكوف اجملت فاسيليسا بومبينا القول بأن الشخصين المذكورين كانا ذات مساء بصحبة سيدة مجهولة فاحمة الشعر يحتسون الشاى عند الافوزوف . «اجتمعوا فى حدود الساعة السابعة او الثامنة ومكثوا حتى العاشرة . قدمت لهم السماور لكنني لم امكث فى الغرفة سوى بضع دقائق ، ولا علم لى عما كانوا يتحدثون بشأنه آنذاك . ويخطر لى ان اجتماعا كهذا عقد فى منزل الافوزوف مرتين ، علما بأن نفس الاشخاص قد حضروا الاجتماع الثانى» .

على بعد خطوتين من شقة دوستويفسكى يجلس لاحتساء الشاى بدعة ثلاثة من اعضاء اللجنة التنفيذية لـ«ارادة الشعب» واحد اكثر عملائها تخفيا .

واخيرا ، نطق احد المشاركين فى حفلة الشاى هذه ، وهو بالتحديد كليتوتشنيكوف ، بالاسم قائلا : «. . . فى اواخر تشرين الثانى وصلت الى شقة الافوزوف بصحبة الكسندر ميخائيلوف شابة فى سن ٢٦-٢٧ ، متوسطة القامة ، سمراء نحيفة فاحمة الشعر ، كانوا ينادونها فى حضورى باليزابيتا ايفانوفنا . وقد كانت هى نفسها فى وقت لاحق ، خلال عيد الميلاد او راس السنة ، تعرّج على شقة الافوزوف لفترة وجيزة» . وكانت هذه الاسطر فى نص الافادة مؤشرة بقلم رصاص .

ويتطرق كليتوتشنيكوف مرة اخرى الى هذا الموضوع خلال استجوابه يوم ١١ شباط (فبراير) قائلا : «كانت المرأة التى تأتى لزيارة الافوزوف وتدعى انها اليزابيتا ايفانوفنا تبدو أنها

على علاقة حميمة بالكسندر ميخائيلوفيتش ، الامر الذى استنتجته من انه كان يخاطبها بغير صيغة الكلفة ، ومن كون اعتقاله ، كما ابلغنى الافوزوف فى وقت لاحق ، قد اثر فيها تأثيرا قويا جعلها تمرض ، لكننى لا أتذكر ان ميخائيلوف قد ناداها باسمها فى حضورى ، كما ان ملامحها لا تذكر بأى من الصور التى سبق ان رأيتها فى المكتب الثالث من الشعبة الثالثة سابقا» .

ان كليتوتشنيكوف يحاول اقناع التحقيق بعدم وجود اية علاقة شخصية له بـ«اليزابيتا ايفانوفنا» . لكن المحققين كان لديهم رأيهم فى هذا الصدد . ففى خلاصة الاتهام ورد بهذا الشأن ما يلى : «وفى نتيجة ذلك تعرف (كليتوتشنيكوف — **المؤلف**) واقام علاقات مع كفياتكوفسكى وبارانيكوف وكولودكيفيتش وشخص آخر لم يتم العثور عليه حتى الآن» .

وهذا «الشخص الذى لم يتم العثور عليه» هو اليزابيتا ايفانوفنا ، زائرة بارانيكوف الغامضة ، اما أسمها الحقيقى فهو آنّا بافلوفنا كوربا .

هل تتسنى «اعادة احداث» التاريخ ؟

فى عام ١٩٢٤ كتبت آنّا بافلوفنا مقالا بعنوان «اعتقالات كانون الثانى وشباط وآذار عام ١٨٨١» ، توقفت فيه بالتفصيل عند الاحداث المأساوية لتلك الايام . وفى معرض تناولها لاسباب حالات الانكشاف التى ادت الى مصرع كليتوتشنيكوف تقول : «بالامكان الآن اعتبار اعتقالات كانون الثانى قد فسرت ، كما يمكن اعتبار حقيقة كون سبب هذه الاعتقالات يتلخص فى خيانة اوكلادسكى مثبتة» .

فى عام ١٩٣٢ تعود بريبيلوفا — كوربا ، ابنة الثالثة والثمانين ، مرة اخرى الى موضوع يفترض انه قد استنفد منذ زمن طويل : «كان نيقولاى فاسيلييفيتش كليتوتشنيكوف يثق ثقة لا حدود لها بأعضاء حزب «ارادة الشعب» ولجنته التنفيذية ، وكان يحترم فيهم ليس الصفات الاخلاقية والوطنية فحسب ، بل كان يثمن كذلك ما يتسمون به من قدرة على التخفى ويؤمن

بحذرهم وعنايتهم بحياة الآخرين . رغم ذلــك ، رغم كل ذلك ، استشهد بسبب هفوات اصدقائه الجدد» .

وكان عنوان المقال هو : «فى ذكرى الصديق العزيز نيقولاى فاسيلييفيتش كليتوتشنيكوف» .

فى نبرة كاتبة المقال ، وفى تكرارها الحزين مرتين («رغم ذلك ، رغم كل ذلك ، استشهد . . .») يلوح ليس مجرد الحزن على رفيق شهيد ، انمــا يتردد منها ما هو شخصي جدا : انه الشعور بالذنب ، شعور لا فكاك منه مرّ عبر خمسة عقود مــن السنين . . .

وتخلص آنّا بافلوفنا الى القول : «كيــف أمكن ان يحدث ذلك ، وكيف حدث ذلك – هذا ما ظل غامضا» .

ينبغى ان نحاول مرة اخــرى استحضار احداث اواخر العام ١٨٨٠ – اوائل العام ١٨٨١ .

نحن نتذكر ان ميخائيلوف نفسه هــو الذى استصحــب كليتوتشنيكوف ، ان صدقنــا بافادات هذا الاخير ، الى الشقة الواقعة فى زقاق كوزنيتشني . ويبــدو انه كان يظن ان هذه الشقة مأوى مؤقت ، ويأمل ان يجد وكرا اكثر امنا فى القريب العاجل . لكن ميخائيلوف اعتقــل يوم ٢٨ تشرين الثانــــى (نوفمبر) .

ويواصل بارانيكوف لقاءاته مع كليتوتشنيكوف ، وحيــن يغادر الى موسكــو لفترة قصيــرة من الوقت يعرّفــه على كولودكيفيتش . وبعد عودة بارانيكوف يضطلع بالاتصالات مـع «العميل النفيس القيمـــة» شخصان : كلاهما يحيا بأسم مستعار وبوثيقة شخصية مزورة .

تتحسر كوربا بعد نصف قرن قائلة : . . . «كيف أمكــن استقبال كليتوتشنيكوف فى شقة شخص يزاول العمل السرى ، علاوة على ان ذلك يجرى فى ظل غموض اشارات الامن او ربمــا فى ظل غيابها التام – ذلك ما لا يمكن فهمه مطلقا» . وتردد معها فيغنر بقولها : «. . . ان هذا الخرق يبدو اكثر غرابة حين نعلم ان كليتوتشنيكوف كان يعانى قصر نظر شديدا يجعله عاجزا عن تمييز اشارات الامن التى كنا نضعها على الدوام فى شقتنا» .

وتطرح كوربا بدورها افتراضا مفاده ان اشارات الامن لـم

يتسن رفعها من نوافذ الشقة لا لكولودكيفيتش ولا لبارانيكوف .
«وهذه الملابسات الاخيرة هي التي ادت الى استشهاد كليتوتشنيكوف» . لكننا نتساءل : كيف كان لهما أن يفعلا ذلك اذا كان كل منهما قد اعتقل في شقق **اخرى** ، بينما حرصت الشرطة التي داهمت مسكنيهما ، بالطبع ، على ان تترك كل شيء فيهما دون مساس ؟

ولئن كانت اشارات الامن على وضعها ، فلم يكن هدفها سوى تمويه الهاوية .

لم يكن ثمة وقت للتقيد بشروط السرية : فقد جرى تشغيل «الآلة» ولم يبق على الانفجار سوى اسابيع معدودة .

غير ان بارانيكوف وكولودكيفيتش كان لا بد لهما ان يدركا انهما يسيران على شفا الهاوية . لهذا جرى ابلاغ عنوان كليتوتشنيكوف - من باب الاحتياط - الى عضو آخر من اعضاء اللجنة التنفيذية هو آنّا بافلوفنا . وينبغي الاعتقاد انهما قاما عن قصد بتعريف نيقولاي فاسيلييفيتش على «اليزابيتا ايفانوفنا» : اذ كان عليه ان يعرف بالوجه - في حالة انكشاف امر زعمائهم - الشخص الذي يضطلع بأداء دورهم .

ولنتذكر افادة نيقولاي فاسيلييفيتش بأنها مرضت عندما علمت باعتقال ميخائيلوف . ولا غرابة في الامر : لقد كان ميخائيلوف وكوربا يحب احدهما الآخر .

لذا كان بمقدور آنّا بافلوفنا ان تعتبر تكليفات اللجنة التنفيذية كذلك واجبا من واجباتها الشخصية .

ميخائيلوف - بارانيكوف - كولودكيفيتش - كوربا : ان الحبل يغدو اطول من ألا تنكشف نهايته .

لماذا قامت اللجنة التنفيذية باختيار كوربا بالذات كشخص ظل للزعامة ؟ أكان ذلك لمجرد ان اسمها مجهول لدى رجال الشرطة وانهم لا يبحثون عنها بعد ؟ ام ان هناك اسبابا اخرى وراء هذا القرار ؟

لنفترض ان كوربا قد واصلت بعد عودتها الى بطرسبورغ عام ١٨٧٨ الاحتفاظ بعلاقاتها مع دوستويفسكي (بل حتى انها كانت تزوره) . أفليس بنصيحة منها قام بارانيكوف في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٨٠ بتغيير محل اقامته

ليسكن زقاق كوزنتيشنى ؟ فالشقة رقم ١١ مريحة ، ليس فقط لأن مجاورة كاتب مشهور بعيد عن الميول الراديكالية تضعف الشبهات المحتملة ، انما هى مريحة ايضا لأن تدفق الزوار على الكاتب المشهور لا ينضب : وفى حالة فرض رقابة خارجية لا تتسنى معرفة الشقة التى يقصدها الشخص الجارية مراقبته * .

ولنتذكر ان فرولينكو كان يربط صفاء بال بارانيكوف بجاره «الامين» بالذات . ومن أوكل الى آنّا بافلوفنا دور «الزعيم الظل» كان بامكانهم ان يهتدوا ايضا بالاعتبار التكتيكى التالى : سوف تكون لديها على الدوام ذريعة ان تعرّج فى حالة حدوث مضاعفات على الشقة رقم ١٠ ، دون ان تمر بمسكن بارانيكوف .

فهل تحقق مثل هذا الاعتبار فى تلك الايام من كانون الثانى عندما جرى فى العمارة الواقعة فى زقاق كوزنيتشنى حدثان مأسويان (متوازيان فعلا ؟) : قاطن الشقة رقم ١٠ يحتضر وقاطن الشقة رقم ١١ وزواره يهلكون فى نتيجة خيانة ؟

كوربا نفسها لا تقدم جوابا عن هذا السؤال .

فى عام ١٩٣٤ تتذكر آنّا بافلوفنا كليتوتشنيكوف من جديد على صفحات مجلة «المنفى والاشغال الشاقة» . وتعود مرة اخرى الى ملابسات اعتقاله .

تقول كوربا ان ياكيموفا (هى التى ادت - بالمناسبة -

---

* عثرنا فى ارشيف منظمتى «الارض والارادة» و«ارادة الشعب» على وثيقة رسمية لا تؤكد افتراضنا فحسب ، بل وتضفى على مضمونها اهمية مثيرة جديدة . اذ اتضح ان كوربا كانت **منذ اواخر عام ١٨٧٩** (حسب تسجيل الاقامة المشار اليه فى الوثيقة) - تقطن **فى العمارة رقم ٥/٢ الواقعة فى زقاق كوزنيتشنى** ! ولم يعد الآن ثمة مجال للشك تقريبا فى احتمال وجود اتصالات شخصية لديها مع دوستويفسكى ، كذلك فى ان اختيار بارانيكوف لمحل سكناه لم يكن مصادفة . ولكن السؤال هو : لماذا **لم تشخص صاحبة** الشقة بريبيلوفا والخادم بومبينا «السيدة ذات الشعر الاسود والمنديل الابيض» ؟ أيعنى هذا ان كوربا كانت تسكن شقة اخرى ، وكانتا تجهلانها فعلا ، ام ان الشاهدتين استرشدتا بدوافع خاصة اخرى ؟ كل هذا يتطلب توضيحات .

دور صاحبة حانوت الجبن على شارع مالايا سادوفايا الذى ابتدأ منه حفر النفق) عرّجت عليها يوم ٢٧ كانون الثانى ، وعرضت عليها ان تتوجه فورا الى كليتوتشنيكوف لتحذيره «كى لا يعرّج موقتا على احد بسبب اعتقال بارانيكوف وكولودكيفيتش» .

وتمضى كوربا الى القول : «نظرت الى الساعة فوجدتها تشير الى حوالى الثالثة» .

كان الذهاب الى شقة كليتوتشنيكوف غير ذى فائدة ، لأنه كان ينصرف من عمله فى الرابعة . وبعد ان اوضحت آنّا بافلوفنا ذلك لياكيموفا «قطعت عهدا بأنها ستفعل كل ما فى وسعها لأجل ان تراه» . وبالفعل ، فبعد الساعة الرابعة ، ذهبت آنّا بافلوفنا - على حد زعمها - ثلاث مرات الى شقة كليتوتشنيكوف ، ولما لم تجده كتبت له قصاصة ورق طلبت فيها منه الاّ يعرّج على احد قبل اللقاء معها . بعدئذ بعثت الى كليتوتشنيكوف من دائرة البريد بطاقة ابلغته فيها انها ستكون بانتظاره غدا ، يوم ٢٨ ، فى الساعة السادسة مساء على جادة نيفسكى قرب المخزن الكبير .

هذا ما تقوله آنّا بافلوفنا كوربا . ويصعب خلال ذلك على المرء ان يتخلص من انطباع أن كاتبة المذكرات تبحث عن اعذار كى تبرر تصرفاتها : امام نفسها على الاقل .

ولكن ، ان كان كل شيء قد جرى بالفعل على النحو الذى تصفه آنّا بافلوفنا ، فسوف تغدو مفهومة دوافع حزنها الاليم المتأخر .

انها تشعر بالذنب .

حقا ، ان تعيش فى نفس المدينة ، وأن تكون امامها فرصة يوم كامل (يوم كامل !) ولا يتسنى لها انقاذ «العميل النفيس القيمة» - فذاك إثم لا يغتفر . كان عليها ان تعرّج على كليتوتشنيكوف ليس ثلاث مرات ، بل ثلاث وثلاثين مرة ، وان تنتظره حتى منتصف الليل ، وأن تعود اليه مع الفجر ، ولكن لزاما عليها ان تحذره . كان بامكانها فى آخر الامر ان تلتقيه قبيل ذهابه الى العمل او بعد انصرافه منه ، ان تنتظره عند مبنى مديرية الشرطة بالذات (والمجازفة ليست كبيرة فى

مثل هذه الحالة) . لقد تصرفت آنا بافلوفنا – ولتغفر لنا سده المقارنة – مثلما تتصرف آنسة من بنات الاكابر : عندما لا تجد رفيقها تترك له رسالة ، ثم تلجأ الى معونة دائرة البريد لتضرب له موعدا ، كأنها بصدد نزهة فى ضواحى المدينة وليس امام مسألة حياة او موت .

بعدما وعدت ياكيموفا (وبشخصها وعدت اللجنة التنفيذية) بأن تفعل «كل ما فى وسعها» ، لم تف بوعدها بالكامل .

أليس هذا هو ما جعل آنا بافلوفنا كوربا ، وهى الانسان الرفيع الاخلاق والكامل القيمة ، تعود وهى فى سنواتها الخمس والثمانين المرة تلو الاخرى الى تلك الايام البعيدة من كانون الثانى لتعرف اين كان يكمن الخطأ ؟

وهل علمت بأن ثمة وثيقة تضمن براءتها ؟

لقد وقعت البطاقة البريدية التى ارسلتها الى كليتوتشنيكوف فى يد الشرطة ، وبفضل ذلك حفظها لنا الدهر . وقد جاء فيها :

«نيقولاى فاسيلييفيتش .

انا بحاجة الى ان اراك لكننى لا أدرى متى يمكن العثور عليك فى البيت . انت تدرى اننى اتنزه قبيل الغداء فى جادة نيفسكى (الجانب المشمس) فى حوالى الساعة الخامسة . ألا تتفضل علىّ بالمرور على نيفسكى فى هذا الوقت .

٢٨ كانون الثانى عام ٨١»

لقد ورد فى قرار الاتهام المتعلق بـ«دعوى العشرين» : «فى يوم ٢٩ كانون الثانى ١٨٨١ ، أى فى اليوم التالى لاعتقال كليتوتشنيكوف ، حمل البريد الى شقته رسالة مؤرخة فى ٢٨ كانون الثانى يدعى كليتوتشنيكوف فيها الى جادة نيفسكى فى الساعة الخامسة بعد الظهر للالتقاء بالشخص المجهول الذى ارسل الرسالة . وعند مقارنة الخط الذى كتبت به هذه الرسالة بخط المجرم جيليابوف الذى اعدم لارتكابه جريمة عظمى ، والذى ينكر كليتوتشنيكوف تعارفه او علاقاته به ، خلص الخبير الى ان الرسالة المذكورة قد كتبت بخط جيليابوف» .

لقد اخطأ الخبير . ولكن يبدو ان آنّا بافلوفنا قد اخطأت هى الاخرى حين نسبت كل الاحداث الى يوم سابق .

ذلك انها لو كانت قد كتبت الرسالة ليس فى يوم ٢٧ ، بل فى ٢٨ ، لما كان امامها يوم احتياطى كامل ، بل بضع ساعات فقط ، واغلب الظن ان كليتوتشنيكوف لم يعد فى ذلك اليوم الى بيته ، بل توجه الى كولودكيفيتش مباشرة . وكانت الفرصة الوحيدة لانقاذه بالفعل ، بعد مجىء ياكيموفا (فى الثالثة ظهرا) ، هى التوجه فورا الى مقر عمله : صحيح انها فرصة ضعيفة لكنها الوحيدة المتاحة .

ولو عرّجت كوربا فى هذا اليوم على الشخص الذى تحت وصايتها للمرة الرابعة (أى بعد ذلك بوقت وجيز) لفوجئت حتما برجال الشرطة .

ثم هل عرّجت آنّا بافلوفنا على كليتوتشنيكوف **ثلاث** مرات حقا ؟ أم انها زارته مرة واحدة فقط - فى حوالى الساعة الخامسة - وبعد ان احست غريزيا بالخطر قررت عدم المضى بالمجازفة والاكتفاء بارسال بطاقة بريدية (الامر الذى كان **فى مساء ٢٨ كانون الثانى** خطوة صحيحة شكليا انقذتها من الاعتقال) .

كل هذه الاعتبارات منصفة لو كانت آنّا بافلوفنا قد علمت باعتقال بارانيكوف وكولودكيفيتش لا فى ٢٧ ، بل فى ٢٨ كانون الثانى . اما اذا كان هذا قد حدث يوم ٢٧ ، كما تذكر ، فلم يكن الشعور بالذنب يعذبها جزافا .

ذلك أن ثمة فرصة محتملة اخرى كانت متوفرة لتحذيره من الخطر المحدق ، عدا عن الذهاب المتكرر الى شقة كليتوتشنيكوف . اذ كان بالامكان ترقب نيقولاى فاسيلييفيتش عند العمارة الواقعة فى زقاق كوزنتيشنى : فآنّا بافلوفنا تجهل ان كليتوتشنيكوف قد علم باعتقال بارانيكوف . وكان من البديهى افتراض ان نيقولاى فاسيلييفيتش سوف يذهب الى وكر لقاءاته الدائم ، وبالتالى الحرص على وقفه وهو لا يزال فى طريقه الى هناك .

فى هذه الحالة كان يمكن ان تلعب شقة دوستويفسكى دورا معينا .

لنطرح السؤال التالى : من اين علمت اللجنة التنفيذية عموما باعتقال بارانيكوف وكولودكيفيتش ؟ اذ لم يكن بمقدور كليتوتشنيكوف ان يبلغها بذلك . ولم يكن التحقق من اختفاء

الرفاق ممكنا الا بالذهاب الى مساكنهم : والافلات من هناك لم يعد ممكنا . او بالاقتراب من الشقة . ان الاستفسار من البواب كان ينطوى على مجازفة . تبقى هناك فرصة واحدة هى الاستفسار عند المعارف من سكنة العمارة .

كان اسم دوستويفسكى يفتح فرصة سهلة للدخول الى العمارة والتأكد من وجود كمين ام لا .

وفى العمارة يمكن الحصول موقعيا على معلومات عما جرى لقاطن الشقة رقم ١١ وزواره .

ربما كانت آنّا بافلوفنا كوربا تشعر بالذنب فى اواخر حياتها لسبب آخر هو انها ، رغم علمها بكل هذه الفرص ، لم ترغب او لم تتمكن من استغلالها .

. . . فى نفس تلك الساعات ، حين كانت آنّا بافلوفنا تحوم حوما عقيما حول الشقة المحكوم عليها بالموت ، وتبعث الى صاحبها ببطاقتها البريدية التى باتت عقيمة ، كان هو شخصيا يسير الهوينا باتجاه العمارة رقم ٤٧ فى شارع فونتانكا ، حيث كان كمين ينتظره . ويستدل من محضر الشرطة ان كليتوتشنيكوف جاء الى كولودكيفيتش يوم ٢٨ كانون الثانى «فى الساعة السابعة والربع بعد الظهر» .

وبعد ساعة ونصف الساعة ودع الحياة فى شقته بزقاق كوزنيتشنى فيودور دوستويفسكى .

معركة حول الجثمان

فى غضون العمل على فصل الذكريات المكرس لمرض ووفاة دوستويفسكى ، اضافت آنّا غريغوريفنا اليه الملاحظة التالية : «ربما كان بامكان زوجى ان يسترد صحته لفترة من الوقت ، بيد ان هذا التحسن ما كان له ان يدوم طويلا : فمما لا شك فيه ان نبأ الجريمة الوحشية يوم ١ آذار كان سيهز هزا عنيفا فيودور ميخائيلوفيتش الذى كان يؤلّه القيصر كونه محرر الفلاحين ، ولأنقطع مجددا الشريان الذى التأم توا وأودى بحياته» .

ان موت دوستويفسكى - حتى اذا كان مفترضا وليس فعليا - يربط ربطا مباشرا بكارثة ١ آذار . ولكن ، هل كان لآنّا غريغوريفنا ان تنكر ان وفاته التى جرت فى الموعد المقرر لها ، وليس المؤجل لمدة شهر ، كانت مرهونـــة بعض الارتهان بهذا الحدث التاريخى ؟

اذا افترضنا ، حتى ولو لدرجة ضئيلة ، وجود علاقـــة لاعتقالات ومداهمات كانون الثانى بمرض دوستويفسكى السابق لوفاته ، فسوف يغير حتى هذا الافتراض الحذر تغييرا قويـا صورة الوقائع المألوفة ويسلط على كل ما يجرى ضوءا مأسويا شديدا . ان وفاة هذا الانسان العبقرى ، فضلا عن مغزاهـا الذاتى - العظيم بما فيه الكفاية - تكتسب بعدا آخر وتندرج - ربما بصفة موضوع «مرافق» - فى سلسلة الاحداث التـى شملت مصائر الكثيرين وافضت الى الكثير من النتائج الدموية . وقد انجرت الى هذه الاحداث قوى اجتماعية مختلفة - ابتداء من الحكومة الروسيـــة ورئيسها المتوج وانتهاء بالثورييـــن - الارهابيين وزعماء المنظمات السرية فى روسيـــا وقادة ارهب مؤامرة فى تاريخها .

ان القيصر وقتلة القيصر المحترفين «يلتقون» عند جثمان دوستويفسكى المسجّى . ويغدو ملاذه الاخير عند مفترق طرق لقوى متضادة لامتهادنة ، مشتبكة فيما بينها اشتباكا مستميتا ، وتأتى ضربات قلبه الاخيرة متزامنة مع الضربات المكتومة لهذا الصراع .

تعتقد آنّا غريغوريفنا ان زوجها كان سيموت رغم كل شىء ، بعد ١ آذار . ويمكن القول ان هذا الموت كان نتيجة لانفجار ١ آذار بمعناه التاريخى الرحب .

تقول آنّا غريغوريفنا ان نبأ اغتيال القيصر المعبود كـان سيقود زوجها الى القبر . وليس مستبعدا ان ما كان سيقوده الى القبر هو الضربات الموجهة ضد من اعد العدة لهذا الاغتيال .

ولنحاول الآن التخلى عن كل فرضياتنا وتخميناتنا وتوقعاتنا المرتبطة بملابسات وفاة دوستويفسكى الخافية عن انظـــار الغرباء . ولنحاول حتى الاستخفاف بالوقائع ، ونعزو كل شىء الى الاعيب القدر ، الى المصادفة التى بيتت مكيـــدة واحدثت

الصدام بين الابطـــال ودبرت التوافقات الزمنية ، وكل هذا لا لشىء ، الا لغرض استثارة من كان فى الماضى يجهد نفسه فـى ان يرى اكثر مما يعرض عليه . ولنفترض ان دوستويفسكـى لم يسمع قط شيئا من جيرانه ، ولم يكن يعرف قط ما يجرى وراء الجدار ، وان كل ما جرى لا يمت له بايما صلة .

هو لم يكن يعلم بذلك . اما نحن فنعلم .

وبحكم هذه المعرفة يشع مـــوت دوستويفسكى – بصرف النظر عن اسبابه الفعلية – مغزى مباغتا متعدد الدلالات .

لقد كان طوال حياته يقف وجها لوجه مع الثورة الروسية ويعانى وطأة تساؤلاتها ويرفض اجوبتها ، وهو الشاهد المنحاز على الصراع الجارى امام عينيه ، واذا به يجد نفسه ، فى آخر الامر ، وعلى غير ارادة منه طرفا عفويا فـــى المأساة ، حتى اذا فهمنا هذه المشاركة بمعناها المجازى . وفى وقائعه الاخيـــرة يقحمه القدر – دون علمه وموافقته فى اغلب الظن – فى عالم تلك الاحداث الصارمة التى كانت تحدد جوهر الحياة السياسيـة الروسية وكان لها حضور – خفـــى او ظاهر – على صفحات «يومياته» وادبه الروائى . لقد كان دوستويفسكى يقف بيـن نارين ويصطلى بوطيسهما ، لكنه الفـــى نفسه الآن بينهما لا بالمعنى المجازى ، بل بالمعنى البدنى المباشر : فالمعركة تدور رحاها حول جثمانه .

ويصعب على المرء ان يتصور ما يفوق هذه الخاتمة الرمزية .

كان دوستويفسكى خصما واعيا وغيورا للعنف الثورى ، ورافضا لمنطقه التاريخى واساليبه التكتيكية ، لكنه كان ايضا مستودعا للطموحات المثالية التى حددت الخيار الاخلاقى لبضعة اجيال من الثوريين الروس . وكان يفضح بلا رحمـــة الشرور الاجتماعية ويبشر بتغيير العالم المقبل ، لذا كان من حيث روحه الابداعية ذا قربى عميقة مع تلك القوة المدمرة الهائلة التـــى اختمرت فى رحم الحياة التاريخية الروسية وباتت مستعـــدة لاجتراف دعائمها الازلية . وقد وجدت فيه نزعة طلب الحد الاقصى التى تتسم بها هذه القوة نصيرا لها ومعبرا عنها . لقد اصبح الامثولة الروحية للثورة الروسية كاشفا لا عن رفضه لـ«محيا هذا العالم» فحسب ، بل وداعيا الى تغيير هذا المحيا .

لقد جسد دوستويفسكى الشعور القومى الباطنى الذى اصبح هو السائد منذ النصف الثانى من القرن ، وبات يقرر مصائر البلد ، القريبة منها والبعيدة .

انه **الشعور بالمخاض** ، الاحساس بحتمية الانعطاف التاريخى الحاسم الذى يهاب به ان يقضى على تسلط القيم الوهمية غير المناسبة لطبيعة الانسان الحقة ، واعمار هذه الطبيعة بأوفى كمالها . انه التعطش الى حصيلة نهائية للعالم («لن نهادن بثمن ارخص») والتقاء مدهش بين فلسفة الآخرة وفلسفة السعادة .

لكنه ، اذ يشكل الانعكاسية الخلقية للثورة الروسية ، كان يرفض بكل كيانه تبنى الثورة نفسها .

لقد كان يظن ان قوى الهدم الاجتماعى **بحد ذاتها** لتعجز عن هدم النظام العالمى القديم وانشاء ملكوت الحرية والعدل على انقاضه ، وانها لو اطلق لها العنان مرة فلن تفعل سوى انها ستضاعف حجم الشرور العالمية وتسبب نتائج مضادة لتلك التى قررت فى الاصل المثالى .

كان يفهم العنف السياسى على انه عدم احترام لمجرى الحياة الطبيعى ، ومحاولة احداث تغيرات «ميكانيكية» لا تؤثر فى الجوهر العميق ، وكدليل على العجز عن التعايش مع التاريخ بحد ذاته .

كان «الحل الروسى للمسألة» يتلخص ، باعتقاده ، فى مسألة مغايرة هى انبعاث الموارد الروحية الداخلية . وكان على القانون الاخلاقى (الذى تعيه الامة غريزيا) ان يغدو معدلا مدركا لحياتها ونشاطها .

لم يكن بمقدوره كسب حلفاء «من اليسار» : فقد كانوا **هناك** يستبقون الزمن ، مثقيلن بنفاد الصبر التاريخى الحاد وحالمين بالقضاء على الشر **بضربة واحدة** .

بيد ان السلطة البعيدة كل البعد عن المشكلات التى تؤرقه لم تكن هى الاخرى تعتزم بتاتا المشاركة فى العابه الخطرة . اذ كان هو يعد لهذه السلطة نفسها فى التحصيل الاخير مصيرا لا تحسد عليه . فلو تحولت الدولة الى كنيسة ، كما يريد ،

لاندمجت كلتاهمـــا خلال ذلك مع «العالم» وتلاشى وجودهمـــا التاريخى الفعلى .

كانت روسيا ابان ذلك «تتأرجح على الهاوية» : وكان يظن ان كلا من الطرفين المصتارعين قادر على اسقاطها فـــى هذه الهاوية . كان اليوشا كارامازوف يعد العدة لأن يصبح واحـدا من قتلة القيصر . فقد جرى تشغيل «الآلة» ، والانفجار يمكن ان يحدث فى كل لحظة . اما هو فلم يكن يشعر بأن له الحق فـى «اقتناص» من قام بتشغيل «الآلة» : فقد كان من المحتمل ان يكون بينهم بطله الحبيب .

لذا فقد فضّل الموت .

مراسيم الدفن كفعل سياسى

زهاء منتصف الليل

بعد وفاته بساعة تقريبا وصل ايفان غريغوريفيتش سنيتكين ، شقيق آنّا غريغوريفنا . لقد قدم من موسكو لرؤية شقيقته ، ولم يكن يتوقع بتاتا انه سيكون اول من يحضر جثمانه .

عندما وصل الشقيق الى مدخل العمارة ، كما تذكر آنّا غريغوريفنا ، «لاحظ باندهاش ان كل نوافذ شقتنا منارة انارة ساطعة ، وثمة شخصان او ثلاثة اشخاص يرتدون الشويكات (١٤٣) يقفون قرب المدخل بشكل يثير الشبهات» . كلا ، لم يكن هؤلاء من عملاء الشرطة المتنكرين : فقد هرع احدهم نحو ايفان غريغوريفيتش وراح يتوسل اليه هامسا ان يسعى فى ان تكون الطلبية من نصيب هذا الشخص بالذات .

«- ماذا حصل ، أى طلبية ؟ - تساءل شقيقى الذى لم يكن يفقه شيئا .

- نحن من مكتب الدفن الفلانى ، وانا بشأن التابوت .

- من الذى توفى هنا ؟ - سأل ايفان غريغوريفيتش تلقائيا .

- كاتب من الكتاب ، لم احفظ اسمه . قال البواب انه . . .» .

كان البواب ، الذى نعرف الآن اسمه ، وهو تروفيم سكريبين على دراية بالامر .

وكان سوفورين ايضا على دراية بالامر : فهو ، كصحفى حقيقى ، وصل زهاء منتصف الليل متقدما بنصف يوم كامل على زملائه فى الصحافة . وهو الذى اعد تحقيقا فريدا فى نوعه عن هذه الليلة .

«لقد دخلت غرفة الضيوف المظلمة واطللت على المكتب الشحيح الانارة . . .

المنضدة الطويلة مغطاة بشرشف ابيض وقد وضع بشكل منحرف عن الركن . والى شمالها ، باتجاه الجدار المقابل فرش على الارضية قش جاف ، وثمة اربعة اشخاص يقفون على ركبهم محيطين بشيء ما وقد انشغلوا فى عمل ما بمثابرة . وتناهى الى السمع ما يشبه الاحتكاك ، ما يشبه ماء يدلق . وعلى الارضية شيء ما ابيض يتقلب او كانوا يقلبونه . ونهض هذا الشيء قليلا كأنه انسان . اجل ، انه انسان . كانوا يلبسونه قميصا ويسحبون ذراعيه من الاكمام . كان رأسه متدليا تماما . انه هو ، فيودور ميخائيلوفيتش ، هذا رأسه . أهو حى ؟ لكنهم كانوا يفعلون شيئا له . لماذا يستلقى على هذا القش ؟ كان فى اثناء محكومية الاشغال الشاقة يستلقى هكذا ، على مثل هذا القش ويعتبر مثل هذا الفراش وثيرا . لم اكن افقه شيئا قط . كان كل شيء يمرق امامى ، لكننى لم استطع تحويل بصرى عن هذه الثلة الغريبة ، حيث ينهمك افرادها فى العمل بسرعة فائقة وكأنهم لصوص يوضّبون ما نهبوه . فجأة تعالى من ورائى نحيب . استدرت ، واذا بزوجة دوستويفسكى تبكى ، فأجهشت انا ايضا بالبكاء . . . ورفع نفس الاشخاص الاربعة الجثة من على القش ، فتدلى رأسها الى الوراء . لمحت زوجته ذلك ، فسكتت نجأة واندفعت لاسناده . حملوا الجثة الى الطاولة ووضعوها فوقها . كان هذا قشرة الانسان ، اما الانسان نفسه فقد رحل . . .»

اما الانسان نفسه فقد رحل ، لكن النبأ لم يطف بعد بطرسبورغ . عاد سوفورين سريعا الى هيئة التحرير كى يكتب رثاء فى العدد قبل فوات الاوان . وانصرف باقى معارف الاسرة . ونام الصغار فى غرفتهم بعد طول بكاء . ولم يبق ساهرا سوى الارملة وامها وشقيقها .تقول آنّا غريغوريفنا : «فى حدود الساعة الواحدة كان الفقيد قد سجّىَ فوق علّية الدفن فى وسط مكتبه . . . وانا اتذكر بامتنان عميق للقدر هذه الليلة الاخيرة عندما كان زوجى العزيز لا يزال بكامله ملكا لاسرته . . .»

فى اليوم التالى ، الموافق ٢٩ ، لم يعد دوستويفسكى ملكا لاسرته .

ليس بيتا ، لكنه معبد

فى يوم الخميس الموافق ٢٩ كانون الثانى ابلغت «وقائع سانت-بطرسبورغ» (١٤٤) اخيرا قراءها (بسطرين على الصفحة الثالثة) : بما يلى : «ألمّ بدوستويفسكى مرض عضال مساء يوم ٢٦ كانون الثانى وهو الآن طريح الفراش» .

بينما كان فى تلك الاثناء مسجى على المنضدة وتسنى لـ«غولوص» و«العصر الحديث» ابلاغ القراء بالوفاة — فى اطار حداد على الصفحة الاولى — بل حتى نشرت كل منهما رثاء .

كتبت «غولوص» : انه مات مبكرا» . كان له من العمر ٥٨ عاما فقط (٥٩ — **المؤلف**) . ولا يجوز عنه القول انه انجز «كل الدنيوات فى حدود الدنيا» . لقد انجز الكثير ، لكنه لم ينجز كل شىء . . .»

اما سوفورين الذى وصل مقر هيئة التحرير قادما من زقاق كوزنيتشنى مباشرة ، فقد كاد يملى مقاله الليلى على منضد الحروف .

يقول سوفورين : «اليوم غادرنا دوستويفسكى — أصدق وأنبل سادن للحقيقة . لقد انطفأ نوره خلال ثلاثة ايام ، انطفأ فى عنفوان موهبته ، فى زهرة الامل بالنشاط المقبل ، بالنضال ، بالدفاع عن حقوق الفرد الروسى الغالية» .

كانت هذه هى البداية ، فبعد يوم واحد سيتدفق سيل من الافتتاحيات والمقالات والملاحظات الاعلامية والتعليقات وقصائد الرثاء والتحقيقات على صفحات الصحافة الروسية لتغطى على كل الانباء الاخرى («العصر الحديث» وحدها نشرت خلال موعد قصير نسبيا زهاء مائة مادة بهذا الصدد) .

منذ صباح يوم ٢٩ كانون الثانى بات ملكا للجميع .

سارع النحات بيرنشتام الى اخذ الماسك (قناع الموت) . وفى وقت لاحق وصل كرامسكوى وراح يرسم تخطيطات لبورتريت

الكاتب . تقول ريكاتشوفا : «بقدر ما تسنت لى الرؤية كان البورتريت يبدو شديد الشبه . كان ذلك مشهدا فظيعا : فمن جهة كان ثمة فنان يرسمه ، ومن جهة اخرى كان يقف القندلفت ويتلو الصلاة على روح الميت» .

لقد نجح الفنان فى هذا البورتريت : رأس دوستويفسكى يستكين على وسادة تتفرع عليها ثنايا حية (لم يوضع بعد فى التابوت) ؛ ربما لهذا السبب يبدو انه لم يفارق الحياة بعد .

يؤكد كل شهود العيان باجماع مدهش الانطباع غير المألوف الذى كان يتركه الفقيد .

سوفورين : «لقد رأيناه الآن زهاء منتصف الليل . لقد فرغوا توا من غسله ووضعوه على المنضدة . كان راقدا وكأنه حى . شاحب ، هادئ ، كما لو كان نائما» .

آنّا غريغوريفنا : «كان وجه الفقيد هادئا ، وكأنه لم يمت ، بل ينام ويبتسم فى منامه لـ«حقيقة كبرى» تكشفت له الآن» .

لوبوف فيودوروفنا : «خيّل انه ينام على وسادته وتعلو محياه ابتسامة خفيفة وكأنه يرى امامه شيئا ما حسنا جدا» .

ريكاتشوفا : «وجهه هادئ هدوءا مدهشا ، ولم يتغير قيد شعرة . . .»

بوبيدونوستسيف : «يبدو كأنه حى ، وعلى قسمات وجهه هدوء تام ، مثلما فى افضل لحظات حياته» .

اوبودوفسكى : «كان الكاتب يرقد فى تابوته وكأنه حى ، قسمات وجهه لم تتغير» .

زيلينيتسكى : «كانت ثمة طمأنينة عميقة وشىء من التأمل على محيا هذا الرجل . . .»

دميتربيفا : كان (وجهه – **المؤلف**) هادئا تماما ، حتى ليمكننى القول انه كان بشوشا ومنيرا ، وكأن هذا الشخص تعذب وارهق ارهاقا مميتا ، وها هو قد استلقى الآن وغفا اغفاءة عذبة ويرى احلاما سعيدة» .

كونى : «يا له من وجه يتعذر على الانسان ان ينساه . . . كان هذا الوجه ينطق ، كان يبدو ملهما ورائعا» .

Nemo (صحيفة «مينوتا») : «. . . راسه يستكين على الوسادة . ووجهه يميل الى الاصفرار . ذو انف ممدود ، مدبب ،

يعبر عن طمأنينة فائقة . . . حتى ليخيل الى المرء انـــه يقف ليس امام جثمان ، بل عند سرير شخص ينام نوما مطمئنا رغيدا» .

نحن لا نرى هذه التعابير فى اية صورة فوتوغرافية او اى بورتريت يصور دوستويفسكى فى حياته . فوجهه قلق ، متوتر ، صارم ، لكنه لم يكن ابدا هادئا او جليـــلا . حتى ليبدو وكأن الموت قد طمس هذا الغليان الداخلى الدائم ، وبسط ملامحـــه واطلق العنان لشيء دفين وعميق . كأن ما كانت تتوق اليه روح الفقيد على الدوام قد طفا الى السطح ، مشوبا بمسحة حية مـن هذه الروح . ان الطمأنينة والارادة اللتين كانتا بعيدتى المنال فى حياته باتتا تحتضنانه وهو على فراش الموت .

كان هادئا ، بيد ان القلق الذى اثاره موته كان يتنامـى ساعة اثر ساعة .

يروى كونى ذكرياته فيقول : «عندما وصلت فى هذا اليوم الى المحكمة التى كنت أترأسها استدعيت احد امنائى ، وهـو القانونى الشاب لورنس . . . الى الشروع فى ابلاغى بما وصل حديثا من معاملات ، ورحت اسجل عليها قراراتى . وسرعان ما اخذ لورنس يتلعثم ، فتهدج صوته ، ثم توقف عن الكلام فجـأة دون ان يتمه . رفعت رأسى وتطلعت نحوه متسائلا . كانت عيناه مغروقتين بالدموع ، وانحرف فمـــــه بارتجافة بكاء مكبوت . فسألتــه هاتفـــا : «مـــاذا بك ؟ هـــل انت مريض ؟» . . . «دوستويفسكى ، دوستويفسكى توفى !» — رد عليّ وهو يكاد يصرخ ، مثيرا دهشتى لهذا النبأ المباغت ، ثــم اجهش بالبكاء» .

فى حدود الساعة الحاديـــة عشرة اخذ يصل الى زقـــاق كوزنيتشنى اوائل المعزّين . وفى آخر النهار كان قد مر عبر مكتب دوستويفسكى حوالى عشرة آلاف شخص .

تقول آنّا غريغوريفنا : «ينبغى القول اننى اتذكر ببعض الفزع فترة اليومين ونصف اليوم التى كان خلالها جثمان زوجـى الطيب الذكر لا يزال مسجّى فى دارنا» .

كان ثمة سيل بشرى يتدفق دون توقف مـن مدخل العمارة وثمة سيل آخر يتدفق من سلم الخدم . وملأ الناس الشقــة . (لم يبق فيها شاغرا سوى غرفة نائية شغلتها ام آنا غريغوريفنا ،

وكانت الارملة تذهب اليها بين الفينة والفينة لترتمى على السرير وتطلق العنان لدموعها اليائسة .) وكان زحام الناس فى المكتب شديدا الى درجة جعلت الشموع ومصابيح الزيت المحيطة بالجثمان تنطفىء بسبب نقص الاوكسجين. وكان من لم يتسن له الدخول الى الشقة ينتظر دوره بصبر على السلم القذر المظلم ، حيث كانت تفوح ، كما افاد احد شهود العيان، رائحة «قطط وبن مقلى» . (علق احد المعزّين : «انظروا كيف يحيا كتابنا المشهورون !») وفى الشقة نفسها كانت تفوح «رائحة ازهار الزنبق والورد العبقة» : وكان كل الراغبين يأخذون زهرة للذكرى ، لكن وفرة الزهور لم تتضاءل .

يقول الروائى والمؤرخ موردوفتسيف فى رسالة الى سوفورين : «. . . كنت الآن عند دوستويفسكى . الكل - شيبا وشبانا - يزدحمون عند جثمانه . . . المجيد . . . قال لى ليونيد مايكوف (شقيق أ . مايكوف - **المؤلف**) : «ربما ينبغى ان نخلع معاطفنا» ، فقلت له : - «لماذا ؟ هذه الدار اصبحت الآن كنيسة . . لسنا فى دار بل فى كنيسة ، لذا لا داعى لخلع المعاطف» . اجل ، انها كنيسة . . .»

«كنيسة» ، - يقول موردوفتسيف ، وهو بطبيعة الحال لا يقصد الجانب الطقسى من القضية فحسب . ذلك ان ليس كل دار تغدو بعد رحيل صاحبها معبدا .

لقد اخذ مفعول قوة دوستويفسكى الروحية التى اطلقها وغيرها الموت يؤثر حسب توقيت تاريخى يختلف اختلافا تاما عما فى حياته . . .

حين يبلغ الصراع الفكرى والسياسى اقصى حدوده ، حين تتفحص القوى المحافظة والليبرالية والثورية صفوفها وتستعد للاشتباك الحاسم ، يحدث حدث يبدو للحظة وكأنه يصالح الجميع . لذا يغدو موت دوستويفسكى واقعة ذات طابع **فوق الاحزاب** ، لكنها - كما سنتيقن لاحقا - تعنى بالحياة السياسية الجارية ، بقضايا الساعة ، واقعة ذات مغزى تاريخى عميق .

ولكن كان لهذا الموت جانب آخر لم يلحظه احد : وهو ما يجدر بنا ان نتذكره .

يقول مراسل «مينوتا» : «كانت الساعة تشير الى السادسة والنصف مساء ، عندما اوصلنى الحوذى اليوم الى مدخل العمارة التى فى ركن كوزنيتشنى ويامسكايا . وكان يقف عند المدخل مأمور مركز ومساعده وشرطى» .

لنقطع مؤقتا هذا التحقيق الصحفى ونلتفت الى معارفنا .

عند مدخل العمارة رقم ٢/٥ يسهر مأمور المركز ناديجين ، ومن يدرى ، لربما كان ناظر الحى ياكوفليف الذى اوقف ثلاثة ايام ببسالة الرجل «ذا المهنة المجهولة» . كان الجمهور يتقاطر ، ولدى رجال الشرطة ما يكفى من الشواغل والهموم الجديدة . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : هل غابت عن بالهم شواغلهم القديمة ؟

ان لهذا السؤال طابعا محدد المعالم ، وليس بالطبع القابل للجدل .

وبالفعل : من اين لنا أن نعرف انه لم يعد للشرطة بعد وفاة دوستويفسكى واجبات اخرى سوى الحفاظ على مظاهر النظام والادب فى زقاق كوزنيتشنى ؟ على العكس ، هذا امر ليس بمقدور احد ان يكون واثقا منه بتاتا . فمن الصعوبة بمكان الظن ان الشرطة نسيت بعد وفاة ساكن الشقة رقم ١٠ نسيانا تاما وجود الشقة رقم ١١ .

لنفترض ان ٢٩ كانون الثانى صدر فيه قرار مفاده ان فيرا فيودوروفنا غريغوريفا التى تقطن الغرفة رقم ٢ ، كما اسلفنا ، قد أعفيت من المشاركة فى «هذا التحقيق» . ورفعت عنها المراقبة العلنية ، وكان بامكان رقيب الخيالة الذى لم نتمكن من قراءة اسمه ان يحول انتباهه الى اشخاص آخرين . بيد ان الغرفة المجاورة رقم ١ ظلت تحت المراقبة ، فيما يبدو .

لقد اسفر الكمين الذى نصب فى العمارة يوم ٢٦ كانون الثانى عن نجاح ملموس : اذ لم يكن اعضاء اللجنة التنفيذية المتملصة كالزئبق يقعون فى قبضة الشرطة كل يوم (رغم ان ما حدث يومى ٢٥ و٢٦ يدحض هذا القول !) . وكان بديهيا ان يأمل رجال الشرطة ان بعضا من الاشخاص الذين يُعنون بهم

سوف يعرّج على الشقة رقم ١١ . وهو الامر الذى كان سيحدث بالحتم ، مثلا ، لكليتوتشنيكوف ، لو لم يسمع فى الـــوقت المناسب باعتقال بارانيكوف . والمرشح الثانى هو كـوربا ، وينبغى الظن ليس هى وحدها .

لم يكن لدى الشرطة ايما مسوغات للكف عن هذه العملية التى كانت لها مثل هذه البداية الباهرة .

فى اليوم التالى يلقى ربه . لكن هذا الحدث لا يجب بأى شكل من الاشكال ان يعيق نشاط الشرطة الطبيعى .

ولكن ما دام الامر كذلك ، فلابد ان ينبع الاستنتاج الاكيد التالى : طوال الايام التى كان خلالها السيل البشرى يمر عبر شقة دوستويفسكى لم يحول عمـــلاء الشرطة انظارهم عن الشقـــة المجاورة .

بطبيعة الحال ، لقد تعقدت الآن مهمتهم تعقدا شديـــدا . فتحشد الناس بهذا العدد الغفير يعمل لصالح المجرمين : فقبل زيارة الشقة التى ينشدون بات بامكانهم القيام باستطلاع دقيق . اذ باتت لديهم فرصة مغرية للتأكد (مما اذا كانت الشقة «نظيفة» ام لا) دون ان يلحظهم احد خلال ذلك .

وبطبيعة الحال كان الكمين يؤدى وظائفه ليل نهار : انهـــا خفارة سرية ومتطفلة عند جثمان دوستويفسكى .

ولكن كانت هناك خفارة علنية ايضا : خفارة يجرى تبديلها بلا نهاية ، لكنها لم تكن تنضب .

«افسحوا الطريق ، ايها السادة !»

تفيد «بوريـــادوك» («النظام») : «كنا تـــوا عند جثمان دوستويفسكى . سلم مظلم ، غرف صغيرة مزدحمـة . . . بعض الناس يدخل وبعضهم الآخر يخرج . لم يكن الجو مهيبا ، لكن الدموع ترطب مقل الكثيرين . يبدو ان الجميع قد ريعوا لهـــذا المصاب المباغت» .

لقد جرى مرارا وصف ما كان يجرى خلال هذه الساعات فى

الشقة التى فى زقاق كوزنيتشنى . ولكن يجدر بنا الرجوع الى مصادر لا تزال مجهولة عمليا . ففى انباء ما يسمى بالصحف الصغيرة يمكن العثور على قدر لا يستهان به من الامور الثانوية والطارئة ، لكنها تنقل الى المرء احيانا الجو الحى السائد فى تلك الايام . فالتفاصيل واللمسات التافهة بحد ذاتها تطمس احيانا الجوانب الرئيسة وتكتسب بعض الوزن التاريخى .

ولنعد الى تحقيق صحيفة «مينوتا» . كان مراسلها قد تجاوز مأمور المركز والشرطى الخافرين عند مدخل العمارة .

«كان الباب مفتوحا على مصراعيه ، والجمهور يرتقى السلم الضيق المؤدى الى شقته . . . وعلى صحن السلم الاول من اليسار باب يحمل رقعة : «فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكى» . دلفت الى الممر الضيق الذى يفضى بابه الى الصالة . . .» .

تجدر الاشارة الى الرقعة التى تحمل اسم الكاتب على باب الشقة : انه برهان آخر على ان زوار السيد الافوزوف كان لابد ان يعرفوا من يقطن هذه العمارة .

يمضى الصحفى الى القول : «. . . افلحت كيفما اتفق فى الانزلاق الى الباب والولوج فى غرفة صغيرة مستطيلة بعض الشىء هى المكتب الذى يتسع لما لا يزيد عن ٢٠ شخصا . عند الباب ، فى الزاوية ، منضدة وضعت فى جوانبها الاربعة شمعدانات كنسية ذات شموع متقدة ، وعلى المنضدة سجيت شمس ادبنا الخابية (لندع الاسلوب فى ذمة كاتب التحقيق - **المؤلف**) ، ورأسه يغوص فى الوسادة» .

ثم يصف كاتب التحقيق الميت «المغطى بغطاء من الديباج المذهب» ، واكاليل وباقات الزهور الحية ، من الورد الابيض والاحمر والبنفسج والاقحوان ، وفى الركن «على منضدة كتب صغيرة من خشب الجوز» (أليست هذه هى المنضدة التى حاول ازاحتها فى تلك الليلة المصيرية ؟) ايقونة نياح السيدة العذراء باطار محفور من الفضة يتقد امامها قنديل . «والى الشمال ، على الجدار بين النافذتين مرآة مغطاة بكيس ابيض ، والى يسارها قرب الطاولة علق على الجدار بورتريت فوتوغرافى كبير لفيودور ميخائيلوفيتش . وعنده بالضبط خزانة كتب صغيرة ذات رفوف اربعة يرى عليها : «رسائل من بيت الموتى» ، «الحرب

الشرقية» لبوغدانوفيتش ، غوغول ، ليرمونتوف ، شكسبير ، وفى الاسفل ، على الرف الاول ، يرى العهد الجديد بغلاف مجلد .

بين المؤلفين الآخرين – ليرمونتوف . ألم يستعره السيد الافوزوف بحق الجار على الجار ، وهو الذى يتسم بغياب الممتلكات التام تقريبا ، (لم يرد فى محضر التفتيش ذكر آى كتاب) ليطالع مؤلفات شاعره الاثير ؟

كان عدد الحاضرين فى المكتب ، كما يقول الصحفى ، يتراوح بين ٤٠ و٥٠ شخصا : وهم فى الاساس من الفتيات (حرصوا على السماح لهن بالدخول قبل سواهن) المتشحات بالسواد . «كانت درجة الحرارة فى الغرفة مرتفعة الى درجة تجعل التنفس متعذرا» .

تشهد جميع المصادر دون استثناء ان الاغلبية الساحقة ممن حضر جثمان دوستويفسكى كانت تتألف من الشباب . لقد جاء لتوديعه جمهوره الاكثر تعلقا به وتجاوبا معه .

ولكن ، لنعد الى التحقيق الصحفى .

« – افسحوا الطريق ، ايها السادة !» – يدوى صوت رجالى اجش .

فيرد عليه صوت نسائى واهن :

– اخفض صوتك ، انت فى حضرة ميت .

– لقد جئتم انتم لغرض الفرجة ، بينما انا بحكم الواجب . . . افسحوا الطريق ، لا يجوز هكذا ! أتسمعون ، افسحوا الطريق ! – ويتعالى الصوت الاجش بقوة . – انا مرتّل الكنيسة .

تنحى الجمهور ، واخترق الصوت الاجش الغرفة يتصبب عرقا .

– افسحوا الطريق لأبينا !

لكن الجمهور لا يبارح مكانه .

– يا سادة ، من فضلكم ، افسحوا الطريق كى يمر أبونا ، – خاطبت الجمهور عقيلة فيودور ميخائيلوفيتش المنقبضة النفس غما .

وكررت رجاءها بضع مرات» .

كان هذا يشق على آنّا غريغوريفنا اكثر من سواها . فهى

تقول ان ما عذبها طوال هذه الايام هو الوفود التى جاءت لتعبر لها عن تعازيها . وكان الجميع يتحدثون عن الشخص الذى فقدته روسيا ، ولم يشر احد الى الشخص الذى فقدته **هى** : «وحين اراد احد اعضاء الوفود الكثيرة ان **يواسينى** ، فضلا عن مواساة «روسيا» ، تأثرت تأثرا شديدا بحيث اختطفت يد هذا الشخص المجهول وقبلتها» .

ويسجل مراسل صحيفة «مينوتا» بأناة ان عقيلة الفقيد كاد يغشى عليها فى اثناء التأبين ، فتأبط ذراعها بعض الحاضرين واخرجوها .

وكادت احدى هذه النوبات ان تنتهى نهاية مفجعة . فقد قدموا لآنّا غريغوريفنا ، عوضا عن ثلاثين قطرة من صبغة حشيشة الهر المهدئة ، نفس القدر من النشادر . فأحترق فمها ولسانها ، ولكن تسنى لها ان تبصق هذا الدواء القاتل : ولم يتسرب سائل النشادر الى المرىء .

طوال هذه الايام كان طعام آنّا غريغوريفنا يقتصر على الشاى وأرغفة الخبز . فهى تقول فى مذكراتها : «كان معارفى الطيبون يستصحبون اطفالى الى النزهة ويطعمونهم فى بيوتهم ، لان الطباخة لم تكن تجد الفرصة لطهى الطعام بحضور هذا العدد الغفير من الجمهور المتدفق على الشقة من باب الخدم ، لذا كان طعام الجميع يقتصر على النواشف» .

فى يوم الجمعة الموافق ٣٠ كانون الثانى استمر توديع الفقيد . وضعوا الجثة فى تابوت من خشب السنديان ، مغلف بالديباج المذهب . وحضر اثنان من المصورين الزيتيين ، احدهما عن مجلة «التصوير العالمى» والآخر عن مجلة «التراث الروسى» . وكان المصور الفوتوغرافى شابيرو يحاول جاهدا التقاط صورة : اذ كان ذلك صعب التنفيذ فى غرفة المكتب الشحيحة النور .

ويقول المراسل واصفا الفقيد : «لقد تضمر وجهه وتغير كثيرا ، وتحول لونه الاصفر الى لون ابيض او بالاحرى يميل الى الزرقة» .

وجاء دور وصف مراسيم الدفن . اخذت تحدث حول الجثمان

مشاهد لم يجر تصويرها فى أية مذكرات ، لكن مراسل «مينوتا» رصدها بعينيه المتعطشتين الى مثل هذا النوع من الانطباعات :

«قام بتلاوة المزامير قندلفت او حارس كنيسة «يبدو قد تعاطى من الخمر ما يكفى ويزيد» ، الامر الذى يتجلى فيما يلى :

اخذ القارئ ، وهو يردد كلمات توضح انه يجب تغطية وجه الميت بالدانتيلا ، يسحب الدانتيلا من تحت الديباج ، فدعس طبقة العشب الطحلبية التى غلفت بها حافات التابوت ، ولوث الدانتيلا ، وسقط جزء من الطحلب المدعوس على وجه الميت . عندئذ اخذ القارئ يمسحه بلفافة من القطن . فأبعد متعهد الدفن القارئ وطلب ممن يجيد القراءة ان يواصل تلاوة المزامير . فأستجاب احد الطلاب» .

ويختتم كاتب التحقيق هذا المشهد المحزن بالخاتمة المثيرة التالية : «يا الهى ، أيعقل ان دوستويفسكى لم يستحق ان يقف عند جثمانه قارئ صاح !» .

ريثما كان الحاضرون يتحدثون عن اهمية الفقيد الروحية ، كانت ارملته مشغولة بمسائل اقل شأنا : كان المطلوب تجهيز زوجها الى مثواه الاخير .

كانت آنّا غريغوريفنا ترغب فى ان تكون مراسيم دفن زوجها من الدرجة الاولى . رغم ذلك لم يكلفها الدفن مبلغا كبيرا : فمعظم المقتضيات الكنسية قد اجريت بالمجان .

فى وقت لاحق ، حين ستشرع آنّا غريغوريفنا باعادة النقود الى المشتركين لقاء ما لم يصدر من «يوميات كاتب» سوف يرفض الكثيرون من القراء هذه المبالغ الزهيدة متبرعين بها لصالح اقامة نصب لمؤلف ال«يوميات» او لانشاء مدرسة تحمل اسمه . وسيجرى فى جميع ارجاء روسيا اكتتاب مغاير ، سوف يقام النصب على ضريحه لا بأموال اسرته او بأموال الدولة ، بل برأس المال العام الذى جمع روبلا من كل فرد لهذا الغرض .

كان دوستويفسكى يخشى ان يترك ذويه فى حالة من الفاقة . لكن اسمه ، كما قال هو نفسه ذات مرة ، قد كلف مليونا . فلسوف تصدر آنّا غريغوريفنا سبع طبعات من مؤلفاته وتتحول الى امرأة بعيدة كل البعد عن الفاقة والعوز . حتى انها ستحقق ما كان زوجها الراحل يحلم بتحقيقه فحسب : فسوف

تشترى ضيعة (ولكن فى القفقاس ، وليس فى الشطر الاوسط من روسيا) . صحيح ان صغارها لن ينالوا ما كانت تريده لهم فى الحياة ، لكنهم لن يعرفوا العوز .

بيد ان كل هذه الامور سوف تحدث فى وقت بعيد لاحق . اما الآن ، فى كانون الثانى ١٨٨١ ، فليس لدى الاسرة المتيتمة ايما مدخرات ، ورحيل ربها جاء ضربة موجعة لميزانيتها .

فى ابان ذلك يجرى فى كل انحاء بطرسبورغ جمع الاموال لشراء الاكاليل : بعض منها يعتبر تحفا باذخة من فنطازيا مراسيم الدفن ويكلف كل منهـا ٣٠٠ روبل واكثر ، الامر الذى يفوق اضعافا مضاعفة – اذا اخذ عددها بالاعتبار – المبلغ المتواضع الذى خصصته آنّا غريغوريفنا لمراسيم الدفن .

تستعيد آنّا غريغوريفنا ذكرياتها فتقـول : «احدى حفلات التأبين حضرها سمو الامير دميترى قسطنطينوفيتش (١٤٥) الذى كان يافعا آنذاك بصحبـة مربيه ، الامر الذى حظى باعجـاب الحاضرين ودهشتهم» .

كان هناك ما يستأهل دهشة الحاضرين : فحضور احد افراد العائلة المالكة عند جثمان كاتب روسى ليس من الاحداث العابرة . لقد ثمن الجمهور ذلك ، بالطبع ، كعمل سياسى خطير : اذ قد يكون الجمهور يجهل ان سمو الامير المعظم البالغ من العمر عشرين عاما (شأنه شأن شقيقه قسطنطين قسطنطينوفيتش الذى سيبعث بتعازيه من نابولى) هو احد شبان البلاط الملكى الذين اجرى معهم مؤلف «يوميات كاتب» بطلب وصيهم محاورات تربوية . . .

ان اعضاء الاسرة القيصرية ، على قدر ما هو معروف ، لـم يسبق ان حضروا مراسيم دفن لا بوشكين ولا غوغول ، ناهيك عن ان يحضروا دفن نيكراسوف او تورغينيف او تولستـوى . ولئن تكرموا على دوستويفسكى بهذا الشرف ، فأن سبب ذلك لا ينحصر (بل حتى لا يتمثل) فى موهبته الروائية بقدر ما يتمثل فى اجتماع نادر لتلك الظروف التاريخية التى جعلت هذه الخطوة ممكنة .

على ان السلطة لم تقتصر على التعبير الافلاطونى عن حزنها .

ينبغى تقدير الحكومة حق قدرها : لقد تحركت بسرعة . لو صدقنا باقوال آنّا غريغوريفنا ، فقد جاءها فى حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح ٢٩ كانون الثانى «سيد موقر الطلعة» . وقد جاءها بتكليف من وزير الداخلية . وبعد ان عبر المبعوث عن احر التعازى نيابة عن الكونت لوريس - ميليكوف ، اضاف انه يحمل مبلغا من المال الى ارملة الفقيد ، لاغراض الدفن . تقول آنّا غريغوريفنا : «لا أدرى كم كان هذا المبلغ ، لكننى رفضت قبوله» . واغلب الظن ان رفضها قد ادهش الموظف : اذ لم تكن اسرة الاديب الراحل تنسب الى عداد الاسرة الموسرة . ولآنّا غريغوريفنا الحق فى ان تشير الى ان ثمة تقليدا كان سائدا فى الوزارات كافة «بتقديم معونة الى اسرة الفقيد لغرض دفن الفرد المتوفى فيها ، وان احدا لم يكن يعتبر هذه المعونة ضربا من الاهانة» . رغم ذلك قررت الارملة بحزم دفن زوجها بالمال الذى كسبه هو نفسه . وطلبت من المبعوث ان ينقل امتنانها الى الكونت .

انها لم تكن تعلم بان زيارة المبعوث قد سبقتها بعض الاحداث .

فى يوم ٢٩ كانون الثانى (نهارا ، على ما يبدو) يقوم بوبيدونوستسيف بابلاغ ولى العهد : «مساء امس توفى درستويفسكى . لقد كان صديقا مقربا لى ، وانه ليحزننى ان يرحل عنا» .

بعد ان اعرب المدعى العام الاعلى للسينود المقدس بهذه العبارات المعتدلة حزنه الشخصى ، لم يفته الجانب الاجتماعى من القضية : «بيد ان وفاته خسارة كبرى بالنسبة لروسيا ايضا . فهو فى اوساط الادباء يكاد يكون الداعية المتحمس الوحيد للاصول الاساسية للدين والشعب وحب الوطن . لقد كانت فتوتنا المسكينة التائهة كالنعاج بلا راع تثق به ، وكان تأثيره عليها كبيرا جدا ومثمرا . وكان الكثير من شبابنا التعساء يخاطبونه شفهيا وتحريريا باعتباره معلما روحيا . ولم يعد ثمة من يحل محله الآن» .

ان بوبيدونوستسيف يضع بثبات علامات التشديد بيد

مقتدرة . فثمة حضور فى عباراته لكل عناصر الرواية الرسمية المقبلة تقريبا . ذلك ان نشاط دوستويفسكى يثمن بمقولات ما تجنيه الدولة من منافع ، ووفاته تفسر على انها خسارة للدولة .

لهذا السبب بالذات ينتظر بوبيدونوستسيف من الحكومة خطوات فورية ، ذات طابع خيرى فى البداية . يذهب كاتب الرسالة الى القول : «لقد كان ضيق الحال ولم يخلّف شيئا سوى الكتب . اسرته تعانى العوز . وانا اكتب الآن الى الكونت لوريس — ميليكوف وارجوه ان يبلغنى ما اذا كان جلالة الامبراطور سيتكرم بالمساهمة . أفلا يتفضل سموكم بدعم هذا الالتماس . لقد كان سموكم يعرف ويقدر المرحوم دوستويفسكى من خلال مؤلفاته التى سوف تغدو الى الابد رمزا للموهبة الروسية العظيمة» .

وفى معرض حديثه عن خدمات دوستويفسكى الاخرى ، لم يفت بوبيدونوستسيف (فى السطر الاخير من رسالته) التطرق الى موهبته الادبية .

واستجاب وريث العرش الكسندر الكسندروفيتش على الفور : «لقد تأثرت جدا لوفاة المسكين دوستويفسكى . انها خسارة كبرى ، والحق ان احدا لن يستطيع ان يحل محله .

ان الكونت لوريس — ميليكوف قد ابلغ صباح اليوم جلالة الامبراطور بذلك ، واستماحه اذنا بتقديم معونة مادية لاسرة دوستويفسكى .

الكسندر»

ان بوبيدونوستسيف لم يقدر حق التقدير ما لدى الكونت ميخائيل تارييلوفيتش من حكمة سياسية : فقد كان قد باشر باجراء اللازم . والحقيقة ان هناك شخصا آخر يميل الى عزو هذه الخدمة الى نفسه .

فى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٩ سجل سوفورين فى دفتر يومياته : «اتذكر اى انطباع تركه مقالى الذى نشرته دون توقيع عن وفاة دوستويفسكى . لقد اسميته بـ«المعلم» . فقد توجه لوريس-ميليكوف على الفور ، كما روى سكالكوفسكى ، الى جلالة الامبراطور والتمس راتبا تقاعديا لارملته» .

يقصد سوفورين بذلك الرثاء الذى نشره فى «العصر الحديث» بتاريخ ٢٩ كانون الثانى . ومن المحتمل ان يكون المقال قد ترك انطباعا بالفعل .

بيد ان لوريس - ميليكوف ، باعتقادنا ، لم يشأ هو الآخر تفويت فرصة القيام بمبادرة حميدة مناسبة . واغلب الظن ان المال اللازم لمراسيم الدفن قد خصص على اثر اشعاره الصباحى للامبراطور . ولعلهم قرروا بادئ ذى بدء الاكتفاء بذلك . غير ان تدخل بوبيدونوستسيف ، وأهم من ذلك ، تجليات الحزن العام المنقطعة النظير من حيث ابعادها - كل هذا قد حدا بالحكومة ان تقرر القيام بخطوة اكثر تأثيرا على الرأى العام .

فى ٣٠ كانون الثاني حضر حفل التأبين النهارى الذى اقيم فى زقاق كوزنيتشنى رئيس الادارة العليا لشؤون الصحافة ، رئيس تشريفات البلاط ن . آبازا ، وسلم أرملة الفقيد وثيقة هذا مضمونها :

«حضرة السيدة آنا غريغوريفنا !

لقد تفضل صاحب الجلالة الامبراطور فى الثلاثين من شهر كانون الثانى الجارى باصدار امره السامى التالى :

مراعاة للخدمات التى قدمها المرحوم عقيلك للادب الروسى الذى كان يشغل فيه احد ابرز مقامات الشرف ، تقرر منحك بصحبة اطفالك راتبا تقاعديا قدره الفا روبل فى السنة .

أرجو التفضل بقبول التأكيد على
سمو اعتبارى وصدق وفائى
أ . أبازا
٣٠ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ .

وكان هذا الكتاب موقعا من قبل وزير المالية (وهو احد اقارب ن . أبازا) .

تقول آنّا غريغوريفنا انها سارعت فورا الى مكتب زوجها لتبشيره بهذا الخبر المفرح ، لكنها حين دخلت المكتب **تذكرت** آنئذ فقط ، فأجهشت فى بكاء مرير .

لقد سجل الجنرال كيرييف ، وهو شخص جيد الاطلاع فى

دفتر يومياتـــه يوم ٣١ كانون الثانى : ممـــا له دلالتـه ان بوبيدونوستسيف قد ابلغ لوريس بالوفاة ، وقام هذا بابلاغ الامبراطور ، وطلب الراتب التقاعدى تقدم به أبازا ، فأين هـو دور صبوروف (١٤٦) فى كل ذلك» .

وبالفعل ، ان كل هذا يجرى بدون وزير التعليـــم العام . ودوستويفسكى ليس موظفا فى وزارة صبوروف . انهم يسارعون الى ادراج مؤلف «يوميات كاتب» ليس فى شتم القيم الثقافية ، بقدر ما يسارعون الى ادراجه فى سلم القيم الرسمية .

كان قرار منح الراتب التقاعدى منقطـع النظير بمعنى من المعانى .

فمن بين كل الادباء الروس لم يجر منحه الاّ لاسرة بوشكين ولاسرة كارامزين (١٤٧) . وكان كلاهما من موظفى الدولة . اما دوستويفسكى فكان اول كاتب تقدر خدماته الادبية لذاتها ، ان جاز القول . لقد منح هذا الراتب التقاعدى لارملة واطفال شخص **مدنى** . وهذه هى المرة الاولى التى يثبت فيها رسميا ان تقدير الوطن يمكن استحقاقه ليس فى معترك الخدمة فى جهاز الدولـة فحسب .

يمكننـــا ان نشخص فى رد الفعـــل الحكومى على وفـــاة دوستويفسكى جانبين مهمين .

اولا ، ان الدوائر الرسمية تعبر امام الملأ عن احترامهـــا **لكاتب** . بمعنى ان الادب بات يؤخذ بعين الاعتبار كقوة تاريخية قائمة . ان الحكم المطلق فى روسيا يرغب فى الظهور بمظهـــر المتعلم .

ثانيا ، ان الحكومة تحاول اختطاف المبادرة الاجتماعية . فمن المهم جدا بالنسبة لها ان من يذهب لتوديع دوستويفسكى انما يؤم جنازة شخص ادرك تخبطات الشباب وشاطر السلطة مجهودها الاخلاقى بمحض ارادته .

وللحكومة هدف آخر بعيد المرمى هو انها ، اذ تدفـــــن دوستويفسكى كفرد من «انصارها» ، انما تُبرز حقوقا مشروعة فى حيازة تراثه الفكرى ، و«تجيّر» له مكانة مربحة من وجهة نظـــر القوى الايديولوجيـــة المسيطرة — فى الصراع الفكرى المقبل .

فالموت والدفن ذريعة مواتية لترسيخ الاسطورة الرسمية .

هنا يكون كل شيء مهما : **أين** سيكون القبر ، **ومن** سيقوم بالدفن .

متاجرة حول القبر

تقول آنّا غريغوريفنا : «في مجرى يوم ٢٩ كانون الثاني سألني الكثيرون اين سيتم دفن فيودور ميخائيلوفيتش ؟ ولكوني اتذكر ان فيودور ميخائيلوفيتش قد اعرب ابان دفن جثمان نيكراسوف (١٤٨) عن اعجابه بمقبرة دير نوفوديفيشي ، فقد قررت ان ادفنه فيه» .

آنذاك قال دوستويفسكي بعد ايداع نيكراسوف الثرى : «عندما اموت ، يا آنّا ، ادفنيني هنا او أين ما تشائين ، ولكن تذكري جيدا «لا تدفنيني في مقبرة فولكوفويه ، ضمن مدافن الادباء . لا أريد الرقود بين اعدائي (١٤٩) ، يكفيني انني عانيت منهم الامرّين في حياتي» .

انه يروم الرقود جنب نيكراسوف – اقرب اصدقاء «اعدائه» الادبيين ؛ جنب نيكراسوف – زعيم الاتجاه الذي هو ، دوستويفسكي ، بعيد كل البعد عنه . انه لا يشاء الرقود جنب «المنظرين» : بل يفضل عليهم **الشاعر** .

كانت آنّا غريغوريفنا تكره الخوض في مثل هذه الاحاديث المتجهمة . لذا حرصت على تحويل الكلام الى مزاح : قالت انها ستدفنه في مقبرة العظماء ، مقبرة قلعة الكسندر نيفسكي ، وهي مكان ينم عن الشرف والامتيازات . فضحك وقال معترضا انهم لا يدفنون هناك سوى جنرالات قوات المشاة .

وتنقل لوبوف فيودوروفنا تتمة هذا الحوار كما يلي :

« – وماذا في الامر ، الست جنرالا من جنرالات الادب ؟ ان لك الحق في ان تدفن جنبهم . أي تشييع رائع سأنظمه لك . سوف يتلو الاساقفة الصلاة على روحك الطاهرة ، وسترتل جوقة المطرانية . وسيسير وراء جنازتك جمع حاشد ، وعندما يقترب الموكب من مقبرة العظماء سوف يخرج الرهبان لاستقبالك .

- انهم لا يفعلون ذلك الا للقياصرة ، - قال دوستويفسكى الذى كانت تسرّه وتسلّيه تنبؤات زوجته .

- سوف يفعلون ذلك لاجلك ايضا . أوه ، اى تشييع مهيب سيكون . . .»

الآن تذكرت آنّا غريغوريفنا هذا الحوار القديم . وهى لا تعتزم - بطبيعة الحال - تنفيذ تهديدها المازح : كانت مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى لا تناسب الاسرة ، لا من حيث المنزلة ، ولا من حيث الدخل . لذا اوفدت آنّا غريغوريفنا شقيقها سنيتكين ونسيبها (زوج شقيقتها المتوفاة) سفاتكوفسكى الى دير نوفوديفيتشى لاقتناء مكان : شريطة ان يكون قريبا قدر الامكان من قبر نيكراسوف . واستصحب الموفدون الكبار الصغار معهم : فالتنزه على الزحافات يعود على صحتهم بالنفع .

تقول آنا غريغوريفنا : « . . . عاد نسيبى وقال ان رئيسة الدير نوهت بوجود بعض الصعوبات بشأن الموقع الذى اختارته ابنتى ، لهذا جرى ارجاء شراء القبر الى الغد» .

ان آنّا غريغوريفنا تعرف حق المعرفة عن اية «صعوبات» يدور الحديث ، لكنها تكتب عن هذا الموضوع بأسلوب معتم ، دون خوض فى التفاصيل . اما لوبوف فيودوروفنا التى حضرت المداولات فتدخل على حديث والدتها اضافات مهمة .

عندما عرض المندوبون على رئيسة الدير (وهو دير راهبات) رغبة دوستويفسكى فى الرقود بين جدرانه ، واجملوا القول ان اسرته تود تحقيق مشيئته ليس لقاء مثل هذا المبلغ الكبير (وكانوا قد اخذوا معهم كل ما يتوفر لدى الاسرة من نقود) ، ابدت رئيسة الدير «وجها ينم عن الازدراء» معترضة ببرود : «نحن راهبات لم نعد ننتمى الى هذا العالم ، ومشاهيركم ليس لهم فى نظرنا اية اهمية . اسعار القبور عندنا ثابتة ، وليس فى وسعنا تغييرها لاجل احد ، كائنا من كان» .

لم يكن بحوزة اسرة دوستويفسكى هذا القدر من النقود (هنا يمكن تذكر رفض الاسرة لمعونة الدفن التى عرضت عليها !) . ورفض باستياء رجاء المندوبين تسديد المبلغ بالاقساط . وتختتم لوبوف فيدوروفنا وصفها بالقول : «لم يبق امامنا سوى النهوض والانصراف من حضرة هذه المرابية المتشحة بلبوس الرهبان» .

فى تلك الاثناء ذكرت صحيفة «بوريادوك» («النظام») يوم ٣٠ كانون الثانى ان الجثمان سوف ينقل غدا الى كنيسة فلاديمير القريبة من دار الفقيد (كان دوستويفسكى يهوى السكن فى العمارات الركنية بحيث تطل نوافذ الشقة من كل بد على معبد ما). واضافت الصحيفة بحذر: «الا ان مكان الدفن لم يحدد بعد».

واتضح ان صحيفة «مينوتا» اكثر اطلاعا. ففى نفس اليوم (٣٠ كانون الثانى) نشرت على صفحاتها الحوار التالى:

«سألت مأمور مركز الشرطة:

– متى موعد الدفن ؟

– غدا سينقلون الجثمان الى كنيسة فلاديمير، وفى يوم الاحد سيجرى الدفن فى دير نوفوديفيتشى، – هكذا تلطف مأمور المركز بالرد».

ان تلطف مأمور المركز ناديجين (وهذا هو نفس ناديجين الذى تعرفنا عليه دون شك) لا يقل عن سعة اطلاعه. كما لا يقل عن قدرة تحمله. ذلك ان مأمور مركز الشرطة الثانى فى الجانب الموسكوبى اضطر خلال الاسبوع الاخير الى بذل مجهود مفرط: القيام بعمليات التفتيش ونصب الكمائن فى العمارة رقم ٢/٥، تحرير التقارير والمحاضر، وها هو الآن مضطر ايضا الى مراقبة النظام بين الجمهور الذى يحاصر نفس تلك العمارة التى لا يسكن لها ساكن. متى كان يجد وقتا للراحة ؟ انه يتلطف بالرد على اسئلة الصحفى، وجوابه يظهر فى الصحيفة، لكن المعلومات التى ادلى بها اصبحت، للاسف، قديمة.

لن ينقل جثمان دوستويفسكى الى كنيسة فلاديمير ولن يدفن فى دير نوفوديفيتشى.

اعتبارات الكنيسة واعتبارات الدولة

تقول آنّا غريغوريفنا ما يلى: ريثما ذهب اقاربنا للتفاوض مع رئيسة الدير، زارها محرر صحيفة «وقائع س. بطرسبورغ» ف. كوماروف. «وقال انه جاء نيابة عن مقبرة العظماء التى تحمل اسم الكسندر نيفسكى ليعرض اى مكان فى مدافنها كى يكون

مثوى لزوجي . «ان مقبرة العظماء ، - قال كوماروف ، - ترجو قبول المكان بلا مقابل ، وستعتبر شرفا لها اذا ما تم دفن جثمان الكاتب دوستويفسكي الذي كان غيورا في دفاعه عن العقيدة الارثوذكسية بين جدرانها» .

وتضيف آنّا غريغوريفنا : «ان العرض الذي تقدمت به مقبرة الكسندر نيفسكي كان مشرفا الى درجة تجعل رفضه مؤسفا حقا» . ولكن ، بما ان الاتفاق مع دير نوفوديفيتشي لم يسفر عن نتيجة ايجابية ، فقد حظيت رغبة مقبرة العظماء بالقبول .

اذن ، لو صدقنا رواية الاسرة لوجدنا ان مصدر مبادرة دفن دوستويفسكي بين جدران مقبرة قلعة الكسندر نيفسكي هو مقبرة العظماء نفسها ، وان هذه المبادرة كانت تلبية لما كان لدى رئاستها من امان دفينة . ولكن ، ثمة مصدر يكاد يكون مجهولا يرغمنا على التشكيك البالغ في هذه الرواية الرائجة الآن .

ونقصد به يوميات زوجة الجنرال بوغدانوفيتش ، الكسندرا فيكتوروفنا .

في ٢٩ كانون الثاني سجلت زوجة الجنرال بوغدانوفيتش في دفتر يومياتها : « جاء كوماروف من عند اسرة المرحوم دوستويفسكي وهو يقول ان الاسرة تعاني الفاقة . فطرحت فكرة : ماذا لو طلبنا من المطران دفن دوستويفسكي بلا مقابل في مقبرة قلعة الكسندر نيفسكي . فتشبث كوماروف بهذه الفكرة وراح يرجوني مع يفغيني فاسيلييفيتش بالذهاب الى المطران واستحصال اذن منه» .

يتضح ، على هذا النحو ، ان هذه الفكرة السعيدة خطرت لاول مرة في بال سيدة هي الكسندرا فيكتوروفنا : اما مقبرة العظماء نفسها فليس لها حتى هذا الحين علم بذلك . ولا علم بذلك ايضا لدى الصحافة التي تنسب «مبادرة الدفن» تحديدا لمن كان ينبغي له ان يعنى بمثل هذه الاشياء لا بحكم سورة عاطفية بل بحكم الواجب .

في يوم تشييع دوستويفسكي كتبت «غولوص» ما يلي :

«كان سيادة المطران ايسيدور ، متروبوليت نوفغورود وبطرسبورغ ينظر على الدوام بعين الاحترام الى الادب الوطني ورجالاته . وقد احزن نبأ رحيل دوستويفسكي حزنا عميقا سيادة

ارشمندريت مقبرة كنيسة الثالوث الاقدس التى تحمل اسم الكسندر نيفسكى ، فتفضل رغبة منه فى تكريم ذكرى الكاتب الذى انتقل توا الى جوار ربه ، باصدار امر يقضى بتخصيص موقع بالمجان ليكون مثوى له فى مقبرة العظماء» .

ينبغى الاعتقاد ان مراسل «غولوص» ، لو قدر له بمعجزة ان يحضر حديث زوجة الجنرال بوغدانوفيتش مع المطران ايسيدور ، لكانت عبارات مقاله اقل تحمسا واعجابا .

وتدون بوغدانوفيتش فى يومياتها : «ان المطران استقبل هذا الالتماس ببرود شديد ، متنصلا من هذا الموضوع بقوله ان دوستويفسكى روائى عادى لم يكتب شيئا ذا شأن ، وانه يتذكر تشييع نيكراسوف الذى وصفته الصحف ، — كان هناك الكثير من ضروب المظاهرات غير المحبذة بين جدران مقبرة العظماء ، الخ» .

ان شهادة بوغدانوفيتش هذه فصيحة كل الفصاحة . فالزعيم الاعلى للكنيسة (الراعى الروحى الاول فى روسيا من حيث مكانته ، بعد قرن ونصف القرن من غياب البطريرقية) يرفض رفضا قاطعا تأييد هذه الفكرة المتسمة بهذا القدر الكبير من البراءة ، والاهم من ذلك ، ان تكون — حسبما يفترض — ذات نفع بالنسبة الى الكنيسة . على ان ذرائعه تثير ما فيه الكفاية من الفضول .

اولا ، ان دوستويفسكى فى نظر ايسيدور «روائى عادى» . ولئن كان مؤلف «الاخوة كارامازوف» بالنسبة لرئيسة دير نوفوديفيتشى شخصا من عباد الله شأنه شأن سواه ، ولا يستحق التساهل المادى الذى يلتمسه اقاربه (الاجر الذى يتقاضاه الدير واحد بالنسبة للجميع) ، فان ايسيدور الرفيع الثقافة يسوق ذرائع ذات طابع ايديولوجى : فالمرحوم ، من وجهة نظر الكنيسة ، «لم يكتب شيئا ذا شأن» .

ثانيا ، ان صاحب الملك يخشى «شتى ضروب المظاهرات» لكن دوستويفسكى ليس نيكراسوف . فهو كاتب حسن الطوية ، فيما يبدو . رغم ذلك يعرب رئيس مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى عن محاذير تليق بمكانته : انه يبالغ فى قيمة مستوى حسن الطوية هذا .

ان الكنيسة الرسمية تنظر فى افضل الحالات نظرة تفاضلية الى شخص دوستويفسكى نفسه والى **قضيته** . وهذا التحفظ الرسمى يتاخم احيانا الارتياب الصريح . فهى فى شخص المطران ايسيدور لا تروم احاطة مؤلف «الاخوة كارامازوف» باهتمام خاص منها ، كما لا تسارع الى الاعراب بشأنه عن عدم رضاها الرعوى . انها تفضل عدم التدخل .

غير ان الكنيسة فى روسيا عام ١٨٨١ لم يجر فصلها بعد عن الدولة ، واذا كانت ترتكب خطأ فى امر ما ، فان الدولة تصحح لها هذا الخطأ بلطافة ، ولكن بحزم .

تدون زوجة الجنرال بوغدانوفيتش : «ان بوبيدونوستسيف قال خلال التأبين : «نحن نخصص مبلغا من المال لدفن دوستويفسكى» ، وأتى على ذكر ايسيدور بعبارة غير حميدة» .

لقد كان رئيس المؤسسة الدينية العلمانى (وزير شؤون الاديان من الناحية الفعلية) ، المدعى العام الاعلى للسينود المقدس ابعد نظرا وأرهف حسا ليس فقط من حمقاء دير نوفوديفيتشى ، بل ومن مطران بطرسبورغ نفسه . «نحن نخصص مبلغا من المال لدفن دوستويفسكى» - ان هذه الـ«نحن» تنطوى على نغمة رسمية مؤثرة . فليس لدى بوبيدونوستسيف لا وقت ولا رغبة فى خوض مجادلات لاهوتية **بعيدة عن الحياة** . انه سياسى واقعى همّه ان يستخلص من الموقف اقصى قدر من المنفعة .

فى اليوم التالى ، ٣٠ كانون الثانى تسجل بوغدانوفيتش فى يومياتها : «حضر الآن ناظر مقبرة العظماء . وكرر بوبيدونوستسيف التماسه بشأن دفن دوستويفسكى فى المقبرة وهذا الالتماس يعادل الامر . وقد ارسل المطران الناظر ليقول لنا انه يلبى طلبنا ، ويخصص مكانا ، كما ستكون صلاة الدفن مجانية» .

اغلب الظن ان كوماروف قد سارع بعد ذلك فقط الى ابلاغ آنّا غريغوريفنا بـ«العرض الحميد» الذى تقدمه مقبرة العظماء .

ان ما خطر بمحض المصادفة فى بال زوجة الجنرال بوغدانوفيتش الطيبة القلب ، ولكن غير الواعية كثيرا من الناحية السياسية ، وما لم يكن من شأنه ان يتحقق بفضل مبادرتها الشخصية وحدها ، قد حظى عن جدارة بتثمين المدعى العام الاعلى

للسينود المقدس، وراح يطبقه على الفور فى واقع الحياة . وبوجه عام يشعر المرء وراء كواليس الاحداث بوجود يده الخافية ، ولكن الصلبة .

كان بوبيدونوستسيف مشغولا اكثر من اى شخص سواه بضمان تشييع دوستويفسكى ايديولوجيا (وماديا) . فتراه يقوم بتشغيل الآلية الحكومية ، فيستحصل الارادة السامية . وتراه يضغط على مطران بطرسبورغ فيمنح دوستويفسكى مكانا فى مقبرة العظماء . انه يريد من الكنيسة والدولة ، ومنهما بالدرجة الاولى ، ان تشيعا بوفاق وأبهة الفقيد الى مثواه الاخير .

وعلى الرغم من ان هذه الخطة قد نجحت جزئيا ، لا يجوز القول ان بوبيدونوستسيف قد بلغ غايته . فقد طغت الموجة الاجتماعية التى اثارها موت دوستويفسكى بالمعنى الحرفى للكلمة على كل محاولات التعاطف الرسمى . فالراتب التقاعدى الممنوح لارملة الفقيد وتكرم مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى المفاجئ – كل هذا كان يبدو تافها بالمقارنة مع تجليات المشاعر العامة التى اذهلت المعاصرين ، والتى لم تلعب فيها ظلال الحزن – مهما بدا ذلك غريبا – دورا رئيسا .

فى يوم السبت ، ٣١ كانون الثانى ، اخذت نبوءة آنّا غريغوريفنا تتحقق .

فى يوم السبت ، ٣١ كانون الثانى ، ملأ جمهور حاشد زقاق كوزنيتشنى وشارع يامسكايا والطرقات المتاخمة لهما .

كان يوما مشمسا ، جافا ودافئا .

يقول ستراخوف : «كان تشييع دوستويفسكى ظاهرة ادهشت الجميع . . . ويمكن القول بشجاعة ان روسيا لم تشهد قبل ذلك الحين قط تشييعا كهذا» .

وبالفعل : لم يسبق قط ان جرى تكريم أى كاتب روسى بمثل هذا التشييع . لقد رافق جنازة هذا الشخص غير الرسمى زهاء ثلاثين الف مشيع (ذكرت بعض الصحف رقما اكبر كثيرا) : وهو مشهد لا عهد لبطرسبورغ به من قبل .

ويذهب ستراخوف الى القول : «كيف جرى تنظيم مثل هذه التظاهرة الحاشدة – هذا امر يشكل لغزا لا يستهان به . اغلب الظن انها نشأت بشكل عفوى ، دون ايما تحريض مسبق ، دون

ايما تحضيرات او اوامر او محاولات اقناع ، لان احـدا لم يكن يتوقع وفاة دوستويفسكى ، والوقت بيـــن نبأ الوفاة المفاجئ والتشييع (ثلاثة ايام) كان قصيرا جدا لا يتسع لاية تحضيرات واسعة النطاق» .

فى عشية اخراج الجثمان اخبروا آنّا غريغوريفنا بأن هناك ثمانية وفود اعربت عن رغبتها فى حمل اكاليل وراء جنازة زوجها الراحل . وقد وجدت الارملة ما يؤاسيها فى هذا الشرف العظيم . وفى صباح يوم ٣١ كانون الثانى اتضـــح ان هناك ٦٧ وفدا ، بينما اتجاوز عدد الاكاليل السبعين .

اخرجت الجنازة من الشقة بعيد الساعة الحادية عشرة .

تشييع ام مظاهرة ؟

يقول تيومينيف (١٥٠) : «على برج كنيســـة فلاديمير رنت الاجراس ، وعـــلى اثر اول دقة تقريبا . . . تعالت بوقار «ايها الرب القدس» . ومـع بواكير انغام هذا الدعاء حسرت رؤوس الجميع . . . وغص الكثيرون بالعبرات . . . وفى تلــك اللحظة احس الجميع فعـــلا بنفحات الرب ، المتدينين منهم وغيـــر المتدينين . . .»

ويضيف تيومينيف انه لن ينسى ابدا هذه اللحظة .

ويذكر بافلوف ، عالم الفسلجة الشهير المقبل فى رسالة الى خطيبته : «عزيزتى ساره . لم اشهد قط مثيلا لذلك . اجتمعت جموع لا تحصى من البشر ، وامتد الموكـب لمسافة فيرستا * . جمع عظيم من البشر ، وفوق رؤوس هذا الجمع رتل لا نهاية له من الاكاليل . . . كانوا يرفعون الجنازة الموشحة بالذهـــب (بالديباج – **المؤلف**) طوال الوقت فوق الرؤوس وحول الجنازة لمسافة ثلاثة او اربعة ساجينات ** . بكـــل الاتجاهات كانوا يرفعون بأذرعهم ضفائر متواصلة مـــن الزهور الحية . وبمحاذاة

---

* الفيرستا تعادل ١٠٦٠ مترا .

** الساجين يعادل ١١٣ سم .

كل هذا الموكب الممتد لفيرستا كان يتردد بلا انقطاع دعاء : «ايها الرب القدس» . وكان الترتيل لا يقتصر على جوقات الترتيل الكنسية ، بل شاركت فيه مجموعات منفردة ايضا : تضم مختلف الطلاب والطالبات وتلاميذ المدارس الثانوية» .

كان عدد «الطلاب والطالبات وتلاميذ المدارس الثانوية» غفيرا : فقد الغى الدوام فى العديد من مؤسسات التعليم (ولكن ليس فى جميعها : على سبيل المثال ، يفيد مراقب مطلع بان تلاميذ المدرسة الثانوية الاولى «قاموا ، على الضد من الحظر الذى اصدره المدير ، بجمع تبرعات لشراء اكليل ، وتسلل الكبار منهم خفية من المدرسة للمشاركة فى الموكب») .

كانت الاكاليل تشترى باموال التبرعات العامة . وكانت هذه التبرعات سريعة وسخية .

كان د . غريغوروفيتش (١٥١) يسير فى مقدمة الموكب بصفته القيّم الرئيس . يليه اكليل من الغار ترافقه مفرزة من طلاب الكلية العسكرية بزى العروض الكامل ، وهو اكليل كلية الهندسة العسكرية (كلية نيقولاى) التى تتلمذ فيها الفقيد .

يلى ذلك تلاميذ بضع من مدارس بطرسبورغ الثانوية وكلية التجارة ، ودورات اعداد المعلمات وطلبة التكنولوجيا ، ومعهد التعدين ، الخ . وحملت اكاليل عن اكاديمية فنون بطرسبورغ ، وعن المعلمين والمعلمات ، عن اكاديمية بطرسبورغ اللاهوتية ومعهد مهندسى الطرق والمواصلات ، عن اكاديمية الجراحة الطبية وجمعية الجوقات الموسيقية النسوية وكلية الحقوق ، ثم اكليل من ازاهير اللؤلؤ البيضاء عن دورات بيستوجيف (١٥٢) ، واخرى عن لجنة محو الامية وعن الكونسيروتوار ، عن جمعية الكتاب المسرحيين الروس وعن الاوبرا الروسية (كان يسير وراء هذا الاكليل الفنان ميلنيكوف من مسرح مارييسنكى ، الذى سينال فى وقت لاحق توبيخا من الادارة ، لأنه «ذهب للمشاركة فى اخراج الجثمان دون اذن : فقد كان معرضا هناك للاصابة بالبرد وفقدان الصوت والمرض مما يؤدى الى الاخلال ببرنامج المسرح») ، وعن المحققين القضائيين فى محكمة دائرة بطرسبورغ وعن القضاة المحلفين . . .

وكان ثمة اكليل يتهادى فوق ثلاث ساريات عالية لفت انظار

الجميع . وقد طوى عليه شريط كتب عليه بزهور الاقحوان الابيض : «عن طلبة جامعة سانت بطرسبورغ» .

كانت الكتابات بوجه عام متباينة .

على بعض الاشرطة كتبت عبارة بسيطة : الى ف . م . دوستويفسكي ، وعلى بعضها الآخر كتبت عناوين مؤلفاته : «مذلون مهانون» ، «الجريمة والعقاب» ، «الاخوة كارامازوف» (لم يجر التنويه بـ«الشياطين» حياء) . وكانت هناك ايضا بعض العبارات المتجاوزة لحدود التكلف .

فقد كتب طلبة معهد التاريخ وعلوم اللغة : «الى المدافع عن اشقائنا الصغار» . وحمل اكليل عن موسكو عبارة : «الى المعلم العظيم – من قلب روسيا» . وكتبت الجمعية الخيرية السلافية على اكليلها : «الى الانسان الروسى» . ولمحت حتى هذه العبارة : «الى مفسر بوشكين» (لعلهم اعتبروا هذه الخدمة من خدمات الفقيد هى الاكثر استحقاقا للذكر) .

ولفت الانتباه ايضا اكليل عن ادارة السجون العامة اشارت اليه «العصر الحديث» متسائلة عن وجه حق : «ما موجب ذلك؟») : ربما كان هذا الاكليل رمزا لرثاء امتنان لنزيل بيت الموتى السابق .

وبذلت محاولة للتذكير ببيت الموتى بطريقة اكثر فاعلية .

تفيد ى . ليتكوفا-سلطانوفا فى مذكراتها : «حدثت لفترة قصيرة من الوقت بلبلة فى ساحة فلاديمير . فقد هرع رجال الشرطة وطوقوا بعض الافراد وانتزعوا منهم شيئا . واخمد الشباب على الفور هذه الضجة ، وسلموا بصمت اغلال السجن التى ارادوا حملها وراء جنازة دوستويفسكى كى يعيدوا الفضل بذلك الى صاحبه الذى تعذب جراء قناعاته الساسية» .

لم يأت ذكر هذه الواقعة ثانية لدى اى من كاتبى المذكرات . لكنها تجد ما يؤكدها ضمنيا فى دفتر يوميات زوجة الجنرال بوغدانوفيتش التى تنتمى الى حلقة اجتماعية تختلف اختلافا تاما عن تلك التى تنتمى اليها ليتكوفا-سلطانوفا . اذ تقول بوغدانوفيتش : «. . . روى كرايفسكى ان طالبات الدورات النسائية أردن ، عوضا عن الاكاليل ، ان يحملن اغلالا على وسائد

فى تشييع دوستويفسكى تذكيرا بأنـــه كان فى يوم ما يرزح بمثل هذه الاغلال» .

ولا تحدد بوغدانوفيتش هل جرى تنفيذ هذا العزم ام لا : فالمشهد الذى وقع فى ساحة فلاديمير ظل مجهولا بالنسبة لهـا فيما يبدو .

فهل كانت السلطة تخشى مثل هذه الحوادث ؟

يبدو للوهلة الاولى انها لم تكن تخشى ذلك : اذ يجمع كـل كاتبى المذكرات على عدم اتخاذ أية اجراءات احترازية رغم تحشد الجمهور الغفير ، وهو بالاساس من الشباب .

تقول ليتكوفا-سلطانوفا : «احاطت هذه الشبيبـــة الجنازة بسلسلة أمينة من السواعد المفتولة ولم تسمح للشرطة بالحفاظ على النظام» . كان التشييع تجليا للفعاليات الاجتماعية بشكلها الخالص ، ان جاز القول : فقد اضطلعت شخصيات غير رسمية بكل وظائف التنظيم . وكان من نصيب ممثلى السلطة القليلى العدد دور المتفرج .

وتؤكد «وقائع سانت – بطرسبورغ» ما ذكرته كاتبة المذكرات بقولها : «ان الشرطة لم تكن معدة بتاتا لمثل هذا التحشد من البشر ، بل وكان غيابها واضحا من الناحية النسبية ، ولكن أى نظام ساد فى كل مكان ، أى وقار ورزانة !»

ان الشرطة «لم تكن معدة» بالفعل : وذلك ، فى المقام الاول ، لان احدا لـــم يتكهن بالحجـــم الذى ستبلغـه هذه التظاهرة التشييعية .

ولكن هناك ، فى الحقيقة ، توجيها لم يأت ذكره حتـى الآن يرفع عن الحكومة ، ان كان موجودا بالفعل ، جزءا من الذنـــب المترتب على ما ابدته من اهمال .

يقول احد معاصرى الاحداث : «ان لوريس – ميليكوف لم يجد ضرورة فى كبح سورات «المصاب الوطنى» ، وفى وضـــع حواجز امامها . بيد ان قوات القوزاق كانت لديها بالمصادفـــة مناورات فى ساحة عرضاتها الواقعة جنب مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى ، حيث جرى دفن دوستويفسكى – لذا كانت هذه القوات على «اهبة الاستعداد» طوال الوقت» .

ليس عبثا ان يذيع صيت لوريس-ميليكوف كرجل دولـــة

محنك . فقد سارع الى احاطة الفقيد بآيات الرعاية الرسمية . ولكن كانت لديه – بصفته رئيسا للشرطة – مسوغات لأن يخشى التجاوزات : اذ كان يمكن ان تكون لهذه الاخيرة عواقب بعيدة المدى .

كان المعاصرون يدركون جيدا هذا الامر .

بعد ان تشير زوجة الجنرال بوغدانوفيتش الى عزم طالبات الدورات النسوية على حمل الاغلال وراء جنازة دوستويفسكى ، نراها تضيف : «لم تخمد الاهواء العاصفة بعد ، ولا تزال روح الاحتجاج حية . ان هذه التجمعات والتشييع ، رغم انه تشييع رزين وملتزم . ولكنها حاشدة جدا (يقال ان عدد المشاركين فيها قد بلغ ٣٠ الفا) قد تكرر فى ظل ظروف مغايرة تماما» .

ثلاثون الف شخص فى شوارع مدينة بطرسبورغ التى لم تشهد طوال تاريخها ايما تظاهرة سياسية ضخمة – كل هذا قد يشكل «فى ظل ظروف مغايرة تماما» مخاطر فعلية .

وهذا امر كان يدركه ليس لوريس-ميليكوف وحده . فبعد مضى بضع سنوات ، وبالتحديد فى عام ١٨٨٦ يقول بوبيدونوستسيف بهذا الصدد هو الآخر : «ان انضمام مواكب التشييع او التوديع المدنية الى المواكب الكنسية اخذ ينتشر عندنا تدريجيا ، وهدف ذلك الذى لا يخلو من نوايا خفية هو ايجاد ذريعة للمظاهرات التى سبق ان حدثت غير مرة (مثلا عند دفن دوستويفسكى وتورغينيف وآخرين) وسببت للشرطة متاعب لايستهان بها» .

والاشارة الى «المتاعب» التى عانتها الشرطة تسوق الى الذهن فكرة الحادث الذى جرى فى ساحة فلاديمير : لقد كان بوبيدونوستسيف يمتاز دوما بسعة اطلاعه .

ولكن نعتقد ان المدعى العام الاعلى للسينود كان يضمّن كلمة «المظاهرة» مغزى ارحب . فلا بد له ان يدرك ان المسيرة المؤلفة من الوف عديدة وراء جنازة مؤلف «الاخوة كارامازوف» هى ظاهرة ليست غير مألوفة فحسب ، بل ومثيرة للحذر والترقب . على الاقل ، لانها نتيجة مبادرة «من القاعدة» لم يخطط لها ولم تباركها الجهات العليا : فالمجتمع نفسه – أى كل الشطر

المثقف منه عمليا – قد اعلن بهذا النحو عـن وجوده ، وعلاوة على ذلك ، بدا وكانه يجرى استعراضا صريحا لقواه المتوفرة .

لقد عاجلت المنية بوبيدونوستسيف قبل فترة وجيزة من وفاة ليف تولستوى الذى حرمه هو نفسه ، بوبيدونوستسيف ، من الكنيسة ، والذى كان تشييعه الخالى بشكل متقصد – من حيث المظهر – من حضور الدولة والكنيسة يبدو مناقضا تماما لتشييع دوستويفسكى عام ١٨٨١ . بيـد ان هذين الحدثين من حيث مغزاهما الداخلى يتناغمان فيما بينهما تناغما متباينا . فلئن كان تشييع دوستويفسكى يرمز مستقبلا لاحتمال مساومة تاريخية ما . فان وفاة تولستوى وما اثارته من تظاهرات كانت دليلا عـلى القطيعة التامة والنهائية بين الحكومة والمجتمع . لقد اظهرت وفاة تولستوى ان تلك الاوهام التى كانت ركيزة للحماسة الاجتماعية فى عام ١٨٨١ لم يعد لها وجود منذ وقت طويل . ولئن كانت ترى بعد ٢٨ كانون الثانى ١٨٨١ تعدديـة معينة من البدائل التاريخية ، فلـم يعد الطريق الذى ابتدأ يوم ٧ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٠ قادرا على ان يفضى الا باتجاه واحد ، أى الى شباط (فبراير) ١٩١٧ * .

«لاى جنرال هذا التشييع ؟»

من الذى شيع دوستويفسكى الى مثواه الاخير ؟

تقول «العصر الحديث» : «لا الاصدقاء ولا الادباء ، انما كل من كان يقرأ ويفكر ويتعلم – الكل اجتمعوا لتكريم الفقيد ، الكل كانوا يطمحون الى شرف حمل جنازته» .

كانت تسير امام الجنازة حاملة الاكاليل وفود غفيرة العدد وجوقات ترتيل كنسية (كانت احداها تضم مـا يربو على ١٠٠ شخص) ورجال دين . وحـول الجنازة سار الادباء والصحفيون واساتذة الجامعة ، وخلفها اقارب الفقيد واصدقاؤه اما الجنازة

---

* يقصد بذلك ثورة شباط ١٩١٧ البرجوازية الوطنيـة التى اطاحت بالنظام القيصرى – **المترجم** .

نفسها – كما اسلفنـــا – فقد كانوا يحملونها طوال ساعات التشييع الثلاث على السواعد (او بالاحرى عـــلى نقالة خاصة) : كانت مركبة الحداد المغطاة بظُلّة قرمزية اللون تسير متنحية جانبا كاليتيمـــة . وتوقف الموكب مرتين ، مرة عند كنيســـة فلاديمير ومرة عند كنيسة الدلالة ، حيث تليت الليتيا (١٥٣) على روح الفقيد .

تفيد صحيفة ل . هاتزوك (١٥٤) : «كـان المتفرجون يقفون على شرفات وسقالات العمارات الجديدة ، ويطلون من النوافذ . وتوقفت حركة المركبات تلقائيا» .

ويضيف تيومينيف : «وكان ثمـــة زحام حقيقى يحتدم فوق عربات الترام المتوقفة» .

ويقول شاهد عيان : «. . . لا يشيع هكذا ، لا الاغنياء ولا اولو الامر والنهى . لا يشيع هكذا الا احباء الجماهير الشعبيـــة الذين ناضلوا طوال حياتهم فى سبيل هذا الشعب ، ودافعوا عنه من جور شتى النوائب والخطوب ، ونالوا حب الشعب بسنوات طويلة من العذاب والمعاناة» .

ان معاصر تلك الاحداث هذا يتحدث عن الشعب ليس بالمعنى الخصوصى ، «القروى الروسى» المحض الذى كان يستخدم بـــه دوستويفسكى نفسه هذا المفهوم . **فذاك** الشعب لم يكن حاضرا فى التشييع . لـــم يكن بين «بطرسبورغ بأسرها» التى ملأت المسافات الممتدة من زقاق كوزنيتشنى حتى محطة قطار نيقولاى (محطة قطار موسكو حاليا) اولئك الذين عقد عليهم مؤلـــف «يوميات كاتب» احر امنياته .

تدون بوغدانوفيتش : «ان الشعب لـــم يشارك فى هذا التشييع . ثمة من اجاب عن سؤال : مـــن ذا الذى مات ؟ – «يقولون انه من الكتبة» . معنى هذا ان الشعب لم يكن يعرفه . لقد كانت التظاهرة باسرها من تنظيم الشبيبة الطلابية والصحف والادباء» .

اجل ، ان الشعـــب لم يكن يعرفه (على الرغم من قـــول ريكاتشوف ان «اكليل الشعب كان يمتاز بضخامة حجمه» وانه كان «باكمله من الورد») : لقد كان المتفرجون على الموكب مـــن الرصيف بحاجة الى بعض التوضيحات .

يقول بوبوف فى مذكراته : «كانت تقف على الارصفة جموع غفيرة من عامة الشعب . وكان الشعب البسيط يتطلع بدهشة الى الموكب . وقد روى لى ان امرأة عجوزا سألت غريغوروفيتش : «لاى جنرال هذا التشييع ؟» – فأجاب هذا :

– ليس جنرالا ، بل معلم ، كاتب .

– لهذا أرى هذا العدد الغفير من الطلبة وتلاميذ المدارس . معنى هذا انه كان معلما كبيرا وجيدا . ليدخل ملكوت السماء» .

ويسوق غنيديتش (١٥٥) بدوره المحاورة التالية :

«. . . عندما خلع الحوذى الشيخ قبعته وسأل الممثل بيتيبا :

– من هذا الذى يشيعونه ؟

اجاب هذا بنبرة لا تخلو من اعتزاز :

– محكوم بالاشغال الشاقة !»

ولا يستدل من حقيقة ان الجمهور المتعلم كانت له الغلبة بين السائرين وراء نعش دوستويفسكى ان التشييع لم يكن ذا طابع «شعبى محتمل» .

لقد سجل الكاتب فى مفكرته الاخيرة : «فى ظل الواقعية التامة يجرى العثور على الانسان فى صلب الانسان . هذه صفة روسية فى الاغلب ، وبهذا المعنى انا شعبى ، بالطبع (ذلك أن اتجاهى ينبع من اعماق الروح الشعبى المسيحى) – رغم اننى مجهول فى اوساط الشعب الروسى الحالى ، لكننى سأكون معروفا لدى الشعب الروسى المقبل» .

كان يعى صلة الدم هذه . فهو الذى لم يكتب شيئا تقريبا عن «الشعب» تحديدا (بأستثناء «رسائل من بيت الموتى») لم يكن يفصل نفسه عنه ، بل كان يدرك ادراكا تاما هذا الانتماء الروحى . ورغم كل ذخيرته الذهنية الجبارة لم يكن كاتبا للمثقفين فقط ولأجل المثقفين : كلا ، بتاتا . ثم ان المثقفين الروس انفسهم الذين اكرموه بالاجماع هذا الاكرام الكبير فى ساعة الوداع ، كانوا اقل من سواهم ميلا الى تقدير مؤلف «كارامازوف» باعتباره مدافعا عن مصالحهم «المهنية» . ان من قام بتوديعه الى مثواه الاخير كان لا بد ان يدرك انه ملك للجميع .

ان جماهيرية تشييعه المنقطعة النظير و«حيويته» المفاجئة كانتا تنبعان من ان وعى المثقفين كان يعتبره هو نفسه تجسيدا حيا للمعضلات القومية الرئيسة . كانوا يحترمونه على ما يبديه من ألم عالمى وعلى الطابع العالمى لامانيه ، وعلى كونه قد عين بهذه السمات التى اكتشفها وجاهر بها شخصيا الطبيعة العرقية للمثقفين الروس ، مشيرا الى صلتهم بالشعب والى مصيرهم التاريخى .

فى تلك الاثناء اقترب رأس الموكب من بوابة مقبرة العظماء .

روسيا في عشية ١ آذار

فى معرض تأملاته لتشييع دوستويفسكى يقول ستراخوف انه ترك لدى الجمهور انطباعا اقوى حتى من خطابه عن بوشكين : «لقد اثيرت فى المدينة نقاشات ومجادلات ساخنة عن اهمية هذا الحدث ومسبباته» .

فى مجرى بضعة اسابيع – حتى حلول الاول من آذار – لم يفارق اسم دوستويفسكى صفحات الجرائد والمجلات . ولن تثير عملية اغتيال القيصر القادمة هذا القدر من ردود الفعل الصحفية ، ومهما يكن من شىء ، لن تثير مثل هذا التعبير الاجماعى عن الاسى والاسف . ولن تحفظ ذاكرة المعاصرين التشييع الرسمى لقيصر روسيا مثلما حفظت التشييع غير الرسمى لمجرم سياسى سابق .

يقول سوفورين : «لم يسبق لا لبطرسبورغ ولا لاية مدينة روسية اخرى مطلقا ان رأت مشهدا اكثر جلالا واكثر رقة وتأثيرا . ولم تحظ أية ارملة واى اطفال بمثل هذه المواساة العظيمة . . .»

وتشير الصحافة الروسية بما لا يخلو من الدهشة الى ذلك الاجماع الذى تكشف عند جنازة دوستويفسكى .

فى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٩ تذكر سوفورين وهو فى الخامسة والستين من العمر احداثا تعود الى ثمانية عشر عاما

خلت ، وهى احداث وفاة وتشييع دوستويفسكى . وقد سجل فى دفتر يومياته :

«كان هذا النهوض فـــى بطرسبورغ مدهشا . وكان ذلك بالضبط قبيل مصرع الامبراطور . فقد اندفع الجمهور لقراءة وشراء مؤلفات دوستويفسكى ، وكأن الموت قد اكتشفه ، بينما لم يكن له وجود من قبل» .

من المفترض ان يتساءل المرء : عن أى **نهوض** يمكن الحديث فى ساعة الحزن العام ؟

ولكن لننظر ماذا كتب سوفورين نفســـه آنذاك ، فى عام ١٨٨١ : «لم يكن ذاك تشييعا ، لم يكن انتصارا للموت ، بـل كان انتصارا للحياة وانبعاثا لها» .

ويقـول معاصر آخر : «كــان ذلك حتى لا يذكــر كثيرا بالتشييع ، انما كان اشبه بالاحتفال الشعبى . . .»

ويكتب تيومينيف : «كان الموكب اشبه بمسيرة نصر» .

ويقول ميخائيلوفسكى (١٥٦) : «مهما يبدو الامر غريبا ، الا أن التشييع كان ينطوى حتى على نوع من الابتهاج . . . لقد رأيت دموعا حقيقية صادقة عند جثمان دوستويفسكى . لكننى كنت اشعر حوالىّ ايضا بفرح واسمع عبارات فرح كأنها تقول : انظروا كم من الحرية وكم من تآلف القلوب» .

وتصف «غولوص» الحدث بأنه ينطوى على الحزن والسلوى فى آن واحد .

«الابتهاج» ، «الاحتفال» ، «الفرح» ، — كل هذه النعوت لا تصلح كثيرا للتعبير عن المشاعر التى اثارتها الخسارة الاليمة . كأن الحزن بحد ذاته لم يكن المزاج **السائد** فى تلــك الايام . وكأن الحزن كان **مشرقا** ، كأنه اصطبغ بتلاوين غير متوقعة بتاتا .

اذا تعالت فى لحن الحداد على حين غرة نغمات مفرحة ، فلا بد لذلك من مسوغات .

ما الذى كان بوسع معسكر المحافظين ان يقترح على البلد فى عام ١٨٨١ ؟

ان النزوع الاجتماعى الروسى المحافظ الذى لم يكن لديه — باستثناءات نادرة — مفكرون اصلاء ومؤثـــــرون ، والذى كان محدود الافق حتى فى مبادراته المحافظة بفعل الخمـول السياسى

الرسمى المزمن ، كانت تجرى تلقائيا مماهاته بالنزوع الحكومى المحافظ الذى انفق قرضه المعنوى منذ وقت طويل . اما القيم التى وان يدافع عنها الادب الصحفى الرسمى وشبه الرسمى فلم تكن تحظى لدى المجتمع المتعلم بأدنى قدر من الثقة . ولا يجوز القول ان فئة المحافظين لم تكن تُعنى بالتعليل المعنوى لطموحاتها : كانت هذه التعليلات ترتدى بالدرجة الرئيسة طابعا قوميا تاريخيا (توافق الحكم الاوتوقراطى «الصميمى» مع نمط الامة التاريخى) . فى عام ١٨٨١ كان كل هذا يبدو خطأ تاريخيا فادحا .

واخيرا ، معسكر الثورة الروسية .

ان ما يقوله المعاصرون يمكن ان يسمى بالتفاؤل التاريخى . ولهذا التفاؤل ، بطبيعة الحال ، علاقة ليس بحقيقة الموت (غير القابل للرجوع ، ويا للاسف) ، بل بما كشف عنه هذا الموت فى الحياة المستمرة الجريان ، وبما وفر الداعى للامل ، رغم ما فى الخسران من مرارة .

فعلام كان يمكن عقد الآمال فى شتاء عام ١٨٨١ ؟

لقد توفى دوستويفسكى فى ظرف استثنائى من التاريخ الروسى ، استثنائى من الناحيتين الروحية والسياسية على السواء .

فى مستهل عقد الثمانينات تكشفت كل تيارات الفكر الاجتماعى الروسى التى نشأت من قبل تقريبا ، تكشفا وافيا كفاية . فالقرن الروسى التاسع عشر ، المنقطع النظير من حيث حجم وتوتر النشاط الروحى ، القرن الذى «هضم» جما غفيرا من الآراء والنظريات والتراكيب الايديولوجية ، وشهد حماسة المداخلات والمعارك الادبية ، الباعث للحياة منها والمضنى (وهى ما كان يعوض جزئيا عن غياب **القضية**) - تقول ان هذا القرن قد اقترب من نقطة حرجة . فقد استنفد تراث الاربعينات والستينات الثر ؛ كان الورثة يواصلون الجدل حول التفاصيل ، لكنهم لا يعرفون كيف ينبغى الجمع بين النظرية والحياة غير المطاوعة . ولم يتسن لاى من الطموحات الفكرية للعقود السالفة ان يثبت حقه فى اولوية اجتماعية لا جدال فيها . ولم يتسن لاية

قوة من القوى التى كانت تخوض المعترك الروحى ان تثبت وجودها فى ميدان الانجازات التطبيقية .

هنا تتجلى مع حلول عام ١٨٨١ علائم تشتت عميق . ومرد ذلك هو ليس فقط اختفاء زعماء الحركات المعترف بهم من مسرح التاريخ ، انما هو ايضا ان الثورة الفلاحية المناهضة للاقطاع قد فقدت آفاقها الفعلية بعد اصلاح عام ١٨٦١ ، أى تحرير الفلاحين . فلم يتحرك الفلاحون ابان «التوجه العظيم الى الشعب» عام ١٨٧٤ : فالتضحيات التى لا حصر لها والتى قدمها المثقفون الشباب فى سبيل «القروى» – كمفهوم مجرد – تركت القروى الحقيقى بعيدا كل البعد عن الاكتراث بها . وتعرض حب الشعب الذى اصبح ملكا **رسميا** للديمقراطيين الروس ، ان جاز القول ، لمحنة عصيبة . وكانت فئة الفلاحين التى راحت تندمج اعمق فأعمق بالنمط الاجتماعى الجديد تتريث فى الكشف عن قدراتها المناوئة للبرجوازية . وفى السبعينات اصطدم الشعبيون بفراغ اجتماعى معين عندما لم يعد «القروى» يبرر الآمال الثورية المعقودة عليه ، بينما لم تكن قد برزت بعد قوى اخرى قادرة على «هز اركان» الحكم المطلق .

ويقدم الراديكاليون الروس على آخر خطوة يائسة : انهم يدخلون بمفردهم معركة ضد الحكومة .

كانت نتائج هذا الصراع بادية للعيان : فالسلطة المصعوقة اخذت تتداعى لاول مرة . لقد احدث ارهاب «ارادة الشعب» بلبلة شديدة بين صفوفها المهزوزة . وكان يهاب بـ«دكتاتورية القلب» ان تعيد التوازن المهزوز . وكانت تتوفر لدى الحكومة بعد احتياطات مادية هائلة : الجيش ، الشرطة ، جهاز الدولة . فى الوقت ذاته استنفدت «ارادة الشعب» مواردها تقريبا . ولم يتجاوب «القروى» الغامض قط مع ما قدمته من تضحيات جسيمة .

يمكننا ان نتصور نظريا ان اللجنة التنفيذية كانت ستتمكن فى آخر المطاف من اسقاط الحكومة . ولكن من الاصعب ان نتصور من كان سينعم بثمار هذا الانتصار وبأى شكل .

ان ما سيحدث بعد شهر واحد على وفاة دوستويفسكى – أى بلوغ المنظمات الثورية السرية هدفها الرئيس – سوف

يكشف العجز التاريخيى للارهاب . ولكن ستتكشف منذ عهد مؤلف «الاخوة كارامازوف» الصدامات الاخلاقية المريرة التى احدثها هذا الصراع . لقد كان الارهاب هو نفس ذلك الحل «الميكانيكى» للمسائل الاجتماعية ، هو نفس «الحساب» الراسكولنيكوفى ، رغم تجميله باقدام من رفع «بلطة الارهاب» على التضحية بالنفس «ذلك ان مسألة «دمعة الطفل» والهناء العام قد طرحت منذ وقت طويل قبل ان تنفجر فى قناة يكاتيرينا القنبلة المخصصة للامبراطور فتصيب وتشوه **بالمصادفة** مراهقا كان على مقربة منها . كان أليوشا كارامازوف عند «حجر ايليوشتشكين» يدعو الصبيان الروس الى ان يحب بعضهم بعضا ، ثم رحل الى الجزء الثانى من الرواية ليدبر محاولة اغتيال القيصر . ترى هل كان الاطفال سيحضرون هذا المشهد ؟

لقد تعثرت الثورة الروسية عند العتبة : فهى لم تحسم بعد كل المسائل «السابقة للازل» .

هكذا كان طيف الاحداث عام ١٨٨١ : من القيصر «الابيض» حتى الارهاب الاحمر ، من المداخلات الفلسفية عن وجود الله حتى انفجارات قنابل «ارادة الشعب» التى كانت تؤكد وتنكر حضور القانون الاخلاقى فى آن واحد . كانت هذه هى «نقطة» القرن «الميتة» : كان بمقدوره ان يتحرك بهذا الاتجاه او ذاك .

توفى دوستويفسكى ، وفجأة خُيل ان القضية قد تحركت .

خيل ذلك لانه نفسه كان معجزة من بنأت الخيال : الشخص الوحيد فى روسيا الذى بدا موته وكأنه قد اصلح بين الجميع . فقد نكست كل الاحزاب اعلامها : هذه حقيقة لم يسبق لها مثيل من قبل ولم تتكرر قط فى تاريخ روسيا اللاحق .

لم يدم كل ذلك سوى لحظة تاريخية واحدة ، ثم انقلب شبحا ، سرابا ، خدعة بصرية . ولكن هذا قد حدث رغم كل شىء ، وما دام الامر كذلك ، فهو بحاجة الى توضيحات .

فى عام ١٨٨١ كان المستقبل يبدو ضبابيا ، غامضا ، لكنه يبدو مفتوحا : لا أحد يعرف **الى اين** سيمضى البلد وبأى **شكل** سيجرى هذا الانتقال . كانت روسيا تعيش **مخاضا** . الكل يشعرون بقرب الفرج ، لكن احدا لا يدرى ماذا سيحدث . وكان هذا الشعور المزدوج بالامل وانعدام الثقة ينبع من غموض الحياة

العام عندما بدت الفرص والامكانيات السابقة مستنفدة ، بينما بدت السبل الجديدة تنطوى على ما يكفى من التعقيد والمجازفة . وتمخضت ازمة الوعى الاجتماعى عن غياب الاستقرار الروحى ، واسفرت ازمة السلطة عن عدم استقرار سياسى . بيد ان التشاؤم التاريخى الذى سيحدد نغمية فترة الحكم التالية لم يدخل بعد رحاب الموضة .

وكشاهد صامت على اشتباك الحكومة مع المنظمات الثورية السرية لم يكن لدى اغلبية المثقفين الروس لا طاقة ولا رغبة فى تبنى وجهة نظر أى من الطرفين . فهى ، أى هذه الاغلبية ، معدة سيكولوجيا لقبول النماذج الايديولوجية الواعدة بمخرج قريب ويحبذ ان يكون بلا ألم من الوضع القائم .

ربما كان «سر» دوستويفسكى يتلخص بالفعل فى انه لم يوص بأية حلول تطبيقية محددة المعالم . انه ابتدأ «من الطرف الآخر» : كان يتحدث عن الحقيقة والخير والصدق والعدالة . وكان يعتقد بأن صحة الدولة مرهونة بصحة مواطنيها الخلقية ، وبأن التطويرات «الميكانيكية» ايا كانت لن تؤدى الى الغاية المنشودة ، اذا بقى الانسان نفسه بعيدا عن الكمال . كانوا ينعتونه بالمعلم : وكان هذا تعليما متفردا فى نوعه . فهو لم يتجرأ على اعطاء جواب **مفصل** عن السؤال المقدس تقليديا : «ما العمل ؟» اغلب الظن انه كان يلمح الى مسألة **كيف** ينبغى العمل ، ونقول يلمح بالذات ، لان من غير الممكن ان نجد عنده ، بخلاف تولستوى مثلا ، اشارات الى **الزامية** هذه او تلك من الافعال او القواعد السلوكية . كان يولى الثقة لكل فرد ولحدسه الاخلاقى ، لارادته الحرة ولا يرغب فى الاثقال على هذه الارادة بـ«الزامية» اخلاقية او بفرض حلول مقبولة للجميع بشكل مطلق . كان يدعو الى التصرف **بما يمليه الضمير** ، كونه راسخ الايمان بأن هذه «الصفة» الفردية المحض تطابق فى التحصيل الاخير احساس الامة بالعالم ، وتتغذى منه . لقد ارشد المثقفين الى «اصحاب الزبون الرمادى» ، فيما كان ينتظر من هؤلاء الاخيرين تبنى ثقافة «علية المجتمع» المتكونة طوال قرنين من الزمن ، والمخصبة بهذا التحالف المنقذ . كان يريد التعويض

عن الوجود المنفصل للشعب والمجتمع المتعلم ، وهو وجود ينذر بهلاكهما معا ، **بالتقائهما** على الصعيد الاخلاقى بالدرجة الرئيسة .

وما كان يردده لم يكن «برنامجا» ، بل كان فى الاغلب اشبه بالشعور ، لكنه شعور قوى جدا يداعب اوتار النفس الدفينة . ولئن كانت السياسة لا توحى بمخرج ، فان هذا المخرج ربما كان يتراءى فى تنظيم الحياة الجديد ، حين يلقى المرء قناعه ويدير الى الآخرين وجهه الصريح التائق للاحسان .

لقد بدت وفاة دوستويفسكى التى وحدت حول جثمانه اتباع كل المعتقدات والاتجاهات وكأنها اول توكيد دامغ لما كان الفقيد يدعو اليه . وكأنه بهذا الشكل فقط ، اى بموته ، يستطيع الكشف امام الملأ عن صواب رأيه : بهذا المعنى كانت وفاته تعزى الى عداد اقوى حججه وبراهينه .

ليس جزافا ان يرى معاصروه فى هذا الوداع مغزى اجتماعيا بارزا : فهو يرتبط اوثق ارتباط بذلك الظرف التاريخى الذى كانت تشهده روسيا .

كان الموكب المتجه من زقاق كوزنيتشنى الى مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى خاتمة لفترة حكم الكسندر الثانى .

لقد اختتم هذا الموكب عصرا كاملا . وكان يرمز للنقطة الاخيرة من تلك الحركة الاجتماعية التى ابتدأت من موت الامبراطور نيقولاى بافلوفيتش . فالعهد الذى ابتدأ بدفن نيقولاى اختتم بدفن ضحيته السابقة . وكانت عمليتا الدفن هاتان دليلا على ان ربع القرن المنصرم لم يمر فى حياة روسيا بلا أثر .

غير ان تشييع دوستويفسكى كان موجها بقدر اكبر نحو المستقبل . فقد اعرب عشرات الالوف من البشر عن آيات الاحترام والحب لمن كان يدعو الى تجددهم خلقيا ، كخطوة اولى نحو تغيير نظام الحياة العام (وربما العالمى) . لقد بدا السائرون وراء نعش مؤلف الخطاب البوشكينى وكأنهم يقولون لاولى الامر والنهى : نحن مستعدون . نحن مستعدون «للاذعان» (ولتسليم الاغلال المحمولة عوضا عن الاكاليل دون تذمر) ، اذا ما «اذعنت» السلطة بدورها ايضا وتبنت بالفعل مبادئ الحب التى تحدث عنها الفقيد . كفانا القتول المتبادلة والكتم وغياب القانون

والبطش الرسمي والسرى ! ان المجتمع مستعد للاصلاحات : لقد أغتنم **الفرصة** وخرج الى الشارع ليجاهر بذلك . انظروا : نحن موالون كل الولاء ، نحن نرتل بايقاع واحد «ايها الرب القدس» ، عوضا عن ان ننشد ، مثلا ، «المارسيليزا» . انها فرصة اخيرة تمنح لكِ ، ايتها الحكومة ، فلا تفوتيها !

بيد ان هذه الفرصة قد فوتت .

لقد فوتت هذه الفرصة حين كان بوسع الحكم القيصرى ان يقدم على حل وسط — ان لم يكن مع فئة المثقفين الروسية بأسرها ، فمع جزء كبير منها على الاقل . كان المخرج من الوضع الثورى ممكنا ليس فقط عن طريق الثورة المضادة السافرة ، مثلما جرى بعد شهر ونيف .

لم يكن لدى الحكم القيصرى لاجل ذلك لا رغبة ولا طاقة كافية . لذا فان الموكب الجماهيرى التالى فى مدينة سانت — بطرسبورغ ، وهو موكب سلمى ايضا ، رغم انه مختلف تماما من حيث تركيبه ومسبباته ، سوف تجابهه السلطة بالرصاص : هذا ما سيحدث يوم ٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٥ (١٥٧) .

سيحدث هذا وسيرسى بداية الثورة الروسية الاولى .

ويتنادى هذان الموكبان : فالدم الذى بذله المشاركون فى الموكب الثانى سوف يطمس كامل وهمية الموكب الاول .

اجل ، ان ما حدث فى العاصمة يوم ٣١ كانون الثانى ١٨٨١ يمكن وصفه باجتماع الاوهام التاريخى ، ولكن يمكن وصفه فى الوقت ذاته بانه أضخم تظاهرة سياسية فى روسيا القرن التاسع عشر ، تلك التظاهرة التى حدثت فى تخوم عصرين والهمت القلوب آمالا لم يكتب لها التحقق .

ليس اعتباطا ان يقلق بوبيدونوستسيف حين يتذكر تشييع دوستويفسكى : فقد كان عليما بخفايا الفؤول التاريخية .

«ولكن إنْ ماتت . .

فى مساء ٣١ كانون الثانى وصلت آنا غريغوريفنا بصحبة الصغار الى كنيسة الروح القدس لحضور صلاة السحر التى تقام عند الجثمان :

«كانت الكنيسة تغص بالمصلين . وكان هناك عدد كبير بصفة خاصة من الشبيبة هم طلاب مختلف مؤسسات التعليم العالى والاكاديمية اللاهوتية وطالبات الدورات . وظل معظمهم فى الكنيسة طوال الليل ، يعقب بعضهم بعضا فى تلاوة المزامير على الجثمان . . .»

وعندما هموا صباحا بتنظيف الكنيسة لم يجدوا فيها حتى ولا عقب سيجارة واحدة . وقد اثار هذا الامر دهشة الرهبان البالغة . تقول آنّا غريغوريفنا : «خلال الصلوات الطويلة لا بد - فى العادة - ان يدخن احد ما فى الكنيسة خفية ويرمى بعقب سيجارته» . لقد فاق احترام ذكرى الفقيد احترام المقام .

كان النعش موضوعا على علية وسط الكنيسة تحت برقع من المخمل القرمزى المزين باهداب ذهبية ، ومحاطا بعدد كبير من الاكاليل . وقد صف بعض منها كان محمولا على ساريات طويلة بمحاذاة الجدران ، الامر الذى «اضفى على بيت العبادة جمالا متميزا» ، على حد تعبير آنّا غريغوريفنا . ومن مقصورة جوقة الترتيل كان يتدلى ، مظللا النعش ، بيرق كبير بثلاثة الوان - عن هيئة تحرير «اللغة الروسية» : يبدو انها كانت تريد بهذا الحجم غير المألوف للبيرق ان تكفر عن التهجمات الكثيرة التى كانت هذه المطبوعة تشنها على ابداع الفقيد . . .

يقول شاهد عيان : «تذكرت عن غير ارادة تلك اللحظة التى اعتلى خلالها دوستويفسكى منصة الخطابة فى اعياد بوشكين ، بينما كانوا يمسكون وراءه - كاطار - اكليلا من الزهور» .

فى مساء يوم السبت توجه مطران بطرسبورغ ايسيدور (هو نفسه الذى عارض بشدة فكرة دفن مؤلف «الاخوة كارامازوف» بين جدران مقبرة العظماء) الى كنيسة الروح القدس . وتنقل ابنة دوستويفسكى اقواله كما يلى : «لقد اوقفنى الرهبان عند المدخل قائلين ان الكنيسة (التى كنت اعتقد انها مقفرة) تغص بالناس» . عندئذ اختار سيادة المطران برجا صغيرا يقع فى الطابق الثانى من كنيسة مجاورة ليكون مركزا لمراقباته الرعوية : كانت نوافذ البرج تطل على دواخل بيت العبادة ، حيث يقع النعش . «لقد امضيت هناك شطرا من الليل اراقب الطلبة دون ان يرونى . كانوا يصلون ويبكون وينتحبون جاثين على ركبهم .

واراد الرهبان ان يتلوا المزامير عند اذيال النعش ، بيد ان الطلاب اخذوا منهم كتاب المزامير وراحوا يتلونها بالتعاقب . اننى لم اسمع قط تلاوة كهذه . . . كان الطلاب يتلون المزامير بصوت يرتعش انفعالا ، وكل كلمة يلفظونها تنبع من اعمق اعماق نفوسهم» .

هكذا قيض لايسيدور الذى اربكه هذا المشهد ان يتيقن من صواب حكمة المدعى العام الاعلى للسينود المقدس ، الذى التمس ان تفتح ابواب مقبرة العظماء امام هذا الجثمان **الجدير بالتقدير** . . .

فى ساعة مبكرة من صباح يوم الاحد الموافق ١ شباط (فبراير) توجه بوبيدونوستسيف بصحبة شقيق آنا غريغوريفنا الى مقبرة العظماء . تقول لوبوف فيودوروفنا : «لقد فتحا النعش فوجدا دوستويفسكى قد تغير تغيرا فظيعا» . كان ذلك اليوم هو اليوم الرابع بعد وفاته . وكانت الجثة طوال ثلاثة ايام تقريبا فى غرف خانقة الجو تغص بالناس . ثم ان الجثمان حمل بضع ساعات على اذرع كانت تؤرجحه وتهزه . كل هذا كان لا بد ان يسرع من عملية التفسخ . «وخشية ان يترك مظهر وجه الفقيد الذى تغير انطباعا شديد الوطأة فى نفس ارملة دوستويفسكى واطفاله ، منع بوبيدونوستسيف الرهبان من فتح التابوت . ولم يكن بمقدور والدتى قط ان تغفر له هذا المنع» .

كان يحز فى نفس آنا غريغوريفنا انها لم تتمكن من أداء الطقس الذى يفرضه التقليد الارثوذكسى : وهو تقبيل الميت القبلة الاخيرة .

ثم انها لم تتمكن بوجه عام من دخول مقبرة قلعة الكسندر نيفسكى الا بالكاد .

كانت جموع غفيرة تضج فى الساحة الواقعة امام المقبرة وكان عدد الناس قد بلغ فيها بضعة آلاف : ذلك ان الدخول الى المقبرة كان صارما لا يتم الا بالبطاقات . ولم تكن لدى آنا غريغوريفنا بطاقات . لذا حاولت اثبات هويتها .

«اجابونى :

— لقد مر هنا العديد من ارامل دوستويفسكى ، سواء بمفردهن او بصحبة اطفال .

– لكنكم ترونني متشحة بملابس الحداد .

– هن ايضا كن يرتدين براقع الحداد . ابرزى من فضلك هو يتك الشخصية» .

بطبيعة الحال لم تكن بحوزتها ايضا هوية شخصية . لذا لم يتسن لآنا غريغوريفنا واطفالها تجاوز بوابة المقبرة الا بمساعدة بعض المعارف الذين حضروا بالمصادفة .

كتبت صحيفة «وقائع سانت – بطرسبورغ» تقول : «اليوم ، على الضد من يوم امس ، نظمت الشرطة مفارز كبيرة من افرادها لضبط النظام . . .» . وكأن رئاستها انتبهت فجأة وسارعت الى التعويض عما فات .

لم تحدث اضطرابات : لكن حدثـــت فوضى . الحقيقة ان الكنيسة نفسها كان يسودها هدوء مهيب : فقد احاط المندوبون بالنعش الذى ظهرت حوله اكاليل جديدة : عن اكاديمية المدفعية واكاديمية الاركان العامة ، عن جميعة الكتاب المسرحيين ، عــن الادباء بل وحتى «عن الاطفال الروس» .

فى العاشرة صباحا ابتدأت الصلاة على روح الميت . ورتلت جوقة قلعة الكسندر نيفسكى – كان الشبــاب يلتقطون كلمات الصلاة ويرددونها بصوت خفيض . وقام بتمثيل السلطة ثلاثــة مندوبين هم : بوبيدونوستسيف ، ومدير الادارة العامة لشؤون الصحافة آبازا ، ووزير التعليم العام صبوروف .

تعالى دعاء رئيس الكهنة يانيشيف فى الختام : «لنمنحــه الآن ، هو الذى احبنا كثيرا ، قبلة حبنا الاخيرة» ، – ناسيا ، فيما يبدو ، ان تلبية هذا الدعاء – بسبب كون التابوت مسمّرا – لم تكن ممكنة الا بالمعنى المجازى . . .

عندما اخرج الجثمان من الكنيسة ، كمـا يفيد ريكاتشوف ، «حدث زحام وبلبلة» . وتضيف «وقائـــع سانت-بطرسبورغ» قولها : «كان الزحام شديدا بحيـــث اضطر منظمو التشييع الى بذل مجهود كبير من اجل شق الطريق امام رجال الدين والجثمان الى مثواه الاخير» .

وكان هذا المثوى قريبا – فى مدفن تيخفينسكويه : جنب مرقدى جوكوفسكى (١٥٨) وكارامزين .

يقول كاتب المذكرات : «وعند القبر كانـــت هناك تجمعات

ايضا : فشواهد القبور والاشجار والسور الحجرى . . . - كل هذا شغله القادمون لاداء الواجب الاخير الى الكاتب . وطلب غريغوروفيتش من الطلاب ان يفسحوا الطريق المفضى الى اللحد وما حواليه . وقد فعلنا ذلك بعناء وصففنا الاكاليل والبيارق على جانبى الممر كسياج» .

وعندما انزل النعش فى القبر تعالت صرخة ليليا ابنة الحادية عشرة : «وداعا ، يا ابى الحبيب الطيب ، وداعا !»

لم تتعال عند قبره مداخلات كلامية : كل الجدل سوف يأتى بعد حين .

ويتذكر بوبوف ، عضو «ارادة الشعب» المقبل : «بقى فى النفوس انطباع عن شخصية فلاديمير صولوفيوف الرسولية ، عن شعره المتدلى خصلا مجعدة على جبينه . وقد تحدث بحماسة وانفعال بالغين» . وتشهد آنا غريغوريفنا هى الاخرى ان الفيلسوف الشاب «كان بارز الحضور بمظهره المنفعل» .

قال صولوفيوف فى كلمته عن الفقيد : «سوف نحرص ، نحن الذين يجمعنا حبه ، على جعل هذا الحب يجمع بيننا» .

كان بمقدور هذا ان يذكر بكلمة اليوشا عند حجر ايليوشيتشكين . لقد كان هذا الموت اكبر من مجرد موت : انه جاء «عن غير ارادة» ليخدم ما كان مؤلف «كارامازوف» يكرس له كل ما يعن لنفسه من افكار .

يقول بافلوف : «لو تسنى لدوستويفسكى نفسه ان يرى كل هذا ويشعر به ، لكان راضيا ! فكم من الناس اتخذوا عند قبره قرارا ، واعطوا قسما بأن يكونوا افضل ، وبأن يكونوا شبها له» .

«ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير . . .»

ان موته لم يختتم حياته فحسب . انه اصبح نفسه عنصرا من «تعاليمه» ومحاولة اولى لتطبيقها فى واقع الحياة . كان موتا بناء : فقد تكشفت فى المجتمع قوى مثالية لم يكن المجتمع نفسه حتى ليعلم بوجودها . ورغم ان هذه القوى كانت تسعى الى اهداف ملموسة تماما ، فقد تراءى ان هذه الاهداف يمكن بلوغها بوسيلة تعتبر بين سائر الوسائل المتوفرة بعيدة كل البعد عن الماديات ، الا وهى الحب .

فى ١ شباط كان يبدو ان ذلك بات فى متناول اليد .
فى ١ شباط كان لا يزال ممكنا بعد عقد الامل على ان الاول من آذار (**ذلك** الاول من آذار) قد لا يحل بتاتا .
وكان هذا خطأ .
كان هذا خطأ يسهل الوقوع فيه كلما ازدادت الرغبة فى الوقوع فيه .
عند القبر القيت كلمات كثيرة . القى كلمة المؤلف المسرحى بالم – رفيق الفقيد فى قضية بتراشيفسكى : كانا قد اعتليا معا منصة الاعدام . والقى الاديبان بيكوف وهايديبوروف قصيدتين من تأليفهما ، كما تحدث بضعة اشخاص ظلوا مجهولين .
كانت الفكرة الرئيسة لدى جميع الخطباء واحدة ، وهى ان الفقيد قد هدى الى **الطريق** . ولا يبقى سوى السير بالاتجاه الذى حدده : والباقى ينتظم على ما يرام .
كان صوت الخطباء غير مسموع جيدا .
فى حوالى الساعة الثالثة ظهرا شرعت بوابة المقبرة : فاندفع الجمهور الى جادة نيفسكى .
يقول بافلوف : «انتهى كل شىء على الطريقة الروسية نوعا ما – أى بتمزيق الاكاليل عنوة ، على الضد من رغبات اصحابها» .
كل شىء انتهى على الطريقة الروسية نوعا ما :
اكاليل النصر التى كانت تظلله خلال عامه الاخير تحولت الى اكاليل دفن ومزقها الجمهور الجشع فى نزاهته ؛ وفى مساء اليوم نفسه احتفل مجهول بانتقاله الى منزل جديد ؛ بعد العودة من التشييع ابتدأ جدل حول الفقيد و«استمر الجدل» حتى السابعة والنصف صباحا («مثال لم يسبق له مثيل حتى فى مدوناتنا التاريخية» ، على حد قول احد الحاضرين) .
بعد مضى اسبوع سوف يقتاد مواطن الشرف المتوارث لمدينة ستاوروبول السيد الافوزوف ، المعتقل فى قلعة بطرس وبولص (حيث كان جاره السابق سجينا قبل ثلاثين سنة) ليمثل امام السيدة ايليزابيتا ايفانوفنا بارانيكوفا التى استقدمت من مدينة بوتيفل ، فيعترف بعد لحظة تردد بأنها امه .
وبعد مضى شهر سوف يترجل الامبراطور الروسى سالما

معافى من مركبته التى نسفتها قنبلة ابن التاسعة عشر ريساكوف ويدخل فى حديث قصير مع المعتدى على حياته ، بعد ذلك تــلى القذيفة الثانية التى رماها غرينيفيتسكى لتنهى فترة حكمه .

وبعد شهر آخر سوف تؤسس الجمعية الطبية القفقاسية منحة دراسية بأسم دوستويفسكى لقاء كتابــة انشاء فى موضوع : «علم اسباب الجنون فى ظروف الحياة الروسية الاجتماعية والخلقية من خلال مؤلفات دوستويفسكى» .

لقد توفى فى ظرف هزات عظام وآمال عظام . كانت روسيــا تقف «عند نقطة نهاية ما» : كانت الكفــة تتأرجح على التوالى الى هذا الجانب تارة ، والى ذاك تارة اخرى .

وكان المستقبل مفتوح الافق .

لقد مات - والاسئلة التى كانــت تنعت - تبعا لاحتياجات طارحيها - بالازلية تارة ، والعالمية تارة ثانيــة ، واللعينة تارة ثالثة ، نالــت نعتا آخر : فقــد اصبحت تسمى بأسئلــة دوستويفسكى .

هوامش

١ ـ **الكسندر الثاني** (١٨١٨ ـ ١٨٨١) ـ امبراطور روسيا (ابتداء من عام ١٨٥٥) .

٢ ـ **«نارودنايا فوليا»** («ارادة الشعب») ـ منظمة ثورية سرية في روسيا اوائل سبعينات ـ اواخر ثمانينات القرن التاسع عشر ، كان هدفها الاطاحة بالحكم الاوتوقراطي ، وكانت تقر بممارسات الارهاب الفردي .

٣ ـ **كرافتشينسكي (س . م)** (١٨٥١ ـ ١٨٩٥) ـ ثوري روسي ، مهاجر . صدرت له مجموعة من الكتب عن الحركة الثورية في روسيا .

٤ ـ **اعياد بوشكين** ـ احتفالات في موسكو اقيمت في حزيران (يونيو) ١٨٨٠ بمناسبة افتتاح تمثال بوشكين . في هذه الاحتفالات القى دوستويفسكي خطابه الشهير المعروف **بالخطاب البوشكيني** (انظر الفصل التاسع «اشهر خطاب في التاريخ الروسي») .

٥ ـ **قسطنطين نيقولايفيتش** (١٨٢٧ ـ ١٨٩٢) ـ شقيق الكسندر الثاني .

٦ ـ **بيرينس (ى . أ)** (١٨٣٣ ـ ١٨٩٩) ـ رجل دولة روسي ، من ممثلي البيروقراطية الليبرالية . له «يوميات» (١٨٨٠ ـ ١٨٨٣) اصدرت في عام ١٩٢٧ .

٧ ـ **لحرب اخرى . . . البلقان** ـ الحرب الروسية-التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) . كان سببها نهوض حركة التحرر الوطني في بلاد البلقان واشتداد التناقضات الدولية . وقد اثارت الانتفاضات ضد النير التركي في بوسنيا وهيرتزيغوفينا (١٨٧٥ ـ ١٨٧٨) وفي بلغاريا (١٨٧٦) حركة اجتماعية في روسيا لصالح الشعوب السلافية الشقيقة . حررت القوات الروسية بلغاريا ووصلت الى بوابات القسطنطينية (الاستانة) .

٨ ـ **مؤتمر برلين** عقد في حزيران ـ تموز (يونيو ـ يوليو) ١٨٧٨ . شارك في اعماله مندوبو روسيا وبريطانيا وهنغاريا النمساوية والمانيا ، وحضرته وفود عن فرنسا وايطاليا وتركيا . اضطرت روسيا

تحت ضغط الدول الغربية (خطـــر الحرب مع بريطانيا وهنغاريـــا النمساوية) ، بعد ان خرجت خائرة القوى من الحرب التى انتهت توا مع تركيا ولم تحظ بدعم من المانيا ، الى الموافقة على اعادة جزء من اراضى بلغاريا واراضيها ما وراء القفقاس الى تركيا ، وعلى فرض حماية هنغاريا النمساوية عـــلى بوسنيا وهيرتزيغوفينا الـــخ . واثارت هذه التنازلات الدبلوماسية استياء كبيرا فى روسيا .

٩ – **«يوميات كاتب»** – مجلة فردية كان يصدرها دوستويفسكى فى عامى ١٨٧٦ – ١٨٧٧ . صدرت منها اعداد منفردة ايضا فـــى عامى ١٨٨٠ – ١٨٨١ . كل المقالات والخواطر فى هذه المطبوعة الفريدة فى نوعها كانت بقلم المؤلف – الناشر .

١٠ – **١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥** – يـــوم انتفاضـــة الديسمبريين (الثوار النبلاء) فى بطرسبورغ ، وهى اول انتفاضة علنية مسلحة ضد الحكم الاوتوقراطى ونظام القنانة . جرى قمعها بقسوة واعدم المبادرون بها على يد **نيقولاى الاول** (١٧٩٦ – ١٨٥٥) الـذى اعتلى العرش .

١١ – **ميدان مجلس الشيوخ** فى بطرسبورغ – يقع امام مبنـــى مجلس الشيوخ الحاكم .

١٢ – **كاخوفسكى (ب . ا)** (١٧٩٧–١٨٢٦) – ديسمبرى اعدم بقرار من المحكمة ضمن خمسة من انشط المشاركين فى الانتفاضة .

١٣ – **ميلورادوفيتش (م . أ)** (١٧٧١–١٨٢٥) – جنـــرال ، مشارك فى حروب نابليون . محافظ بطرسبورغ العسكرى منذ عـــام ١٨١٨ . اصيب بجرح قاتل عندما كان يحاول اقناع الجنود المشاركين فى انتفاضة الديسمبريين بتسليم انفسهم طواعية للسلطات القيصرية .

١٤ – **كاراكوزوف (د . ف)** (١٨٤٠ – ١٨٦٦) – ثورى ارهابى . اول من حاول اغتيال الكسندر الثانى (٤ نيسان (ابريل) ١٨٦٦) . اعدم بقرار من المحكمة .

١٥ – **الشعبة الثالثة** فى ديوان جلالته الخاص – جهاز المباحث والتحقيقات السياسية فى روسيا خلال الاعوام ١٨٢٦ – ١٨٨٠ .

١٦ – **غوستينى دفور** (بلاط الضيوف) – مركز تجارى فـــى بطرسبورغ ابان القرن التاسع عشر ، كان يضم عددا غفيرا من المتاجر ، ويقع فى قلب المدينة ، وفى الشطر الارستوقراطى منها (على جـــادة نيفسكى) .

١٧ – **ميـــدان ميخائيل** – يقـــع امـــام قـــصر ميخائيل (المتحف الروسى حاليـــا) ، فى الطريـــق من بـــلاط الضيوف الى الشعبة الثالثة .

١٨ – **الايطالى** – شارع فى بطرسبورغ .

١٩ – **كروبوتكين (ب . أ)** (١٨٤٢ – ١٩٢١) – امير ، عضو

فى الحركة الثورية الروسية ، احد منظرى الفوضوية .

٢٠ ـ **القصر الشتوى** ـ المقر الشتوى للاباطرة الروس (متحف الارميتاج حاليا) .

٢١ ـ **كاتكوف (م . ن)** (١٨١٨ـ١٨٨٧) صحفى ومنظر الاتجاه المحافظ ، صاحب جريدة «موسكوفسكيه فيدوموستى» («الوقائع الموسكوبية») السياسية الواسعة النفوذ (١٨٦٣ـ١٨٨٧) ومجلة «روسكى فيستنيك» («البشير الروسى») (١٨٥٦ - ١٨٨٧) . فى هذه المجلة صدرت كل روايات دوستويفسكى المتأخرة باستثناء «المراهق» .

٢٢ - **فياتكا** (كيروف حاليا) - مدينة فى شرق الشطر الاوربى من روسيا ، مكان تقليدى للمنفيين السياسيين «تحت مراقبة البوليس» ابان القرن التاسع عشر .

٢٣ ـ **يرتدى قبعة . . . مسلكية** ـ كان الموظفون فى روسيا قبل الثورة ، عندما يذهبون الى العمل ، يرتدون زيا «مدنيا» على غرار الزى العسكرى .

٢٤ ـ **القيصر المحرر** - فى عهد حكم القيصر الكسندر الثانى جرى تحرير فلاحى الملاكين العقاريين من نظام القنانة (وفق البيان الصادر فى ١٩ شباط (فبراير) ١٨٦١) .

٢٥ ـ **يقتلون خنقا بلفاف الرقبة . . . فى غمار حفلات الانس الودى** ـ يقصد بذلك مؤامرات البلاط فى القرن الثامن عشر ـ اوائل القرن التاسع عشر : مقتل الامبراطورين بولص الاول (١٨٠١) وبطرس الثالث (١٧٦٢) .

٢٦ ـ **بوبيدونوستسيف (ك . ب)** (١٨٢٧ - ١٩٠٧) - شخصية حكومية كبيرة فى الشؤون الامنية ، مشرع قانونى .

٢٧ ـ **ستارايا روسا** ـ بلدة تقع على مقربة من بطرسبورغ ، فى منطقة تشتهر بمياهها المعدنية .

٢٨ ـ **سمولينسكويه بوليه** - ميدان فى ضواحى بطرسبورغ ، على مقربة من مقبرة بنفس الاسم .

٢٩ ـ **بوتصيكوفيتش (ف . ف)** (١٨٤٣ـ١٩٠٩) ـ كاتب صحفى محافظ النزعة ، من معارف دوستويفسكى .

٣٠ ـ **النهليستيون** . (من كلمة nihil اللاتينية التى تعنى **لا** شىء او العدم) ـ العدميون . هكذا كانت توصف ، عادة ، الشبيبة الروسية الثورية الميول . نشأت العدمية كاتجاه فكرى اجتماعى فى ستينات القرن التاسع عشر ، وتجلت فى رفض الايديولوجيا والاخلاق الرسمية واصول السلوك الحياتى المقررة رسميا . وانتشر مصطلح «النهليستيون» نفسه بعد نشر رواية تورغينيف «الآباء والبنون» (١٨٦٢) التى وصف بطلها بازاروف بانه نهليستى (عدمى) . فى وقت لاحق بات مصطلح

« النهليستية » يستخدم كدالة جامعة على التيارات الايديولوجية الراديكالية .

٣١ ــ **بطرس الاكبر** (١٦٧٢ــ١٧٢٥) ــ قيصر روسى (منذ عام ١٦٨٢) ، اول امبراطور روسى (منذ عام ١٧٢١) . كان المبادر الى تطبيق تحويلات كبرى فى كيان الدولة .

٣٢ ــ **التشيفسكايا (خ . د)** (١٨٤٣ــ١٩١٨) ــ شخصية اجتماعية ، عالمة تربوية فى مدرسة البعث النسوية بمدينة خاركوف ، مراسلة دوستويفسكى فى سبعينات القرن التاسع عشر .

٣٣ ــ يقصد به ك . ب . بوبيدونوستسيف . **المدعى العام الاعلى** ــ شخصية علمانية يعينها الامبراطور ، تضطلع بمراقبة نشاط **السينود المقدس** . وهو اعلى هيئة لادارة الكنيسة الارثوذكسية الروسية فى الاعوام ١٧٢١ــ١٩١٧ .

٣٤ ــ **سوفورين (أ . س)** (١٨٣٤ــ١٩١٢) ــ صحفى معروف انتقل من صفوف اليسار الى اليمين . اصدر صحيفة « نوفويه فريميا » (« العصر الحديث ») الشهيرة فى بطرسبورغ (ابتداء من عام ١٨٦٨) .

٣٥ ــ **قلعة السجن الليتوانية** ــ احد سجون بطرسبورغ .

٣٦ ــ **«نشرة» الارض والارادة»** ــ لسان حال جمعية ثورية سرية انقسمت فى عام ١٨٧٩ الى منظمتين سريتين هما « اعادة التمليك السوداء » (التى ركزت على التحريض الثورى بين اوساط الفلاحين) و« ارادة الشعب » ــ انظر الهامش رقم ٢ .

٣٧ ــ **كونى (أ. ف)** (١٨٤٤ــ١٩٢٧) ــ شخصية قضائية واجتماعية كبيرة ، صحفى وكاتب مذكرات . رئيس محكمة المحلفين فى بطرسبورغ (منذ عام ١٨٧٣) .

٣٨ ــ **التلها** ــ طرحة نسائية .

٣٩ ــ **نيقولاى الاول** ــ انظر الهامش رقم ١٠ .

٤٠ ــ **«موسكوفسكيه فيدوموستى»** (« الوقائع الموسكوبية ») ــ انظر الهامش رقم ٢١ .

٤١ ــ **غرادوفسكى (غ . ك)** (١٨٤٢ــ١٩١٥) ــ صحفى .

٤٢ ــ **فالويف (ب .أ)** (١٨١٤ــ١٨٩٠) ــ كونت ، شخصية حكومية ، رئيس مجلس الوزراء .

٤٣ ــ **اذهبى ، انت حرة . . . لا تفعلى ذلك مرة اخرى** ــ استشهاد ــ بتصرف ــ بقول يسوع المسيح فى الانجيل : « . . . أذهبى ولا تعودى الى الخطيئة » (يوحنا ، الفصلان ٨ ، ١١) .

٤٤ ــ **قلعة بطرس وبولص** فى بطرسبورغ ــ السجن السياسى الرئيس فى الدولة ، مكان احتجاز واعدام الديسمبريين واعضاء حركة ١ آذار (مارس) (الذين شاركوا فى محاولة اغتيال الكسندر الثانى فى ١ آذار ١٨٨١) .

٤٥ ـ **«الكنيسة مشلولة منذ عهد بطرس الاكبر»** ـ كان بطرس الاول قد الغى البطريركية فى روسيا ووضع الكنيسة تحت مراقبة السلطة العلمانية المتمثلة فى شخص موظف حكومى هو المدعى العام الاعلى .

٤٦ ـ **البتراشيفيون** ـ مجموعة من الشباب كانت تجتمع فى دار بتراشيفسكى خلال الاعوام ١٨٤٦ـ١٨٤٩ . اشتراكيون طوباويون كانوا يحلمون بتغيير نظام الحكم فى روسيا . وكان دوستويفسكى احد اعضاء هذه الحلقة . اعتقلوا فى عام ١٨٤٩ وحكموا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى الاشغال الشاقة فى سرايا المسجونين .

٤٧ ـ **كافيلين (ك . د)** (١٨١٨ـ١٨٨٥) ـ مؤرخ ، مشرع قانونى ، عالم اجتماع وكاتب صحفى ليبرالى .

٤٨ ـ **صولوفيوف (ف . س)** (١٨٥٣ـ١٩٠٠) ـ مفكر لاهوتى ، شاعر ، ناقد وكاتب صحفى .

٤٩ ـ **الكسندر الثالث** (١٨٤٥ـ١٨٩٥) ـ نجل الكسندر الثانى ، امبراطور روسى (منذ عام ١٨٨١) .

٥٠ ـ هكذا كانت تسمى موسكو .

٥١ ـ **تولستوى (أ . ك)** (١٨١٧ـ١٨٨٥) ـ شاعر ، اديب ، مؤلف مسرحى ، صديق طفولة للامبراطور الكسندر الثانى .

٥٢ ـ **الصندوق الادبى** (الاسم الكامل ـ جمعية اعانة الادباء ـ والعلماء المحتاجين) ـ اسس فى عام ١٨٥٩ ، لا يزال موجودا حتى الآن .

٥٣ ـ **مجمع النبلاء** ـ منتدى للنبلاء فى العواصم ومدن المحافظات .

٥٤ ـ **سكابيتشيفسكى (أ . م)** (١٨٣٨ـ١٩١٠) ـ ناقد ومؤرخ فى الادب .

٥٥ ـ **«غولوص»** («الصوت») (١٨٦٣ـ١٨٨٤) ـ صحيفة سياسية وادبية اسبوعية اصدرها كرايفسكى (أ . ا) (١٨١٠ـ١٨٨٩) . فى اربعينات القرن التاسع عشر كان دوستويفسكى من منتسبى مطبوعة اخرى يصدرها كرايفسكى هى مجلة «اوتيتشيستفينيه زابيسكى» («رسائل وطنية») التى نشر كل مؤلفات دوستويفسكى المبكرة تقريبا (باستثناء «المساكين») . وفيها نشرت ايضا اولى مؤلفات دوستويفسكى بعد انهاء محكومية الاشغال الشاقة .

٥٦ ـ **ستراخوف (ن . ن)** (١٨٢٨ـ١٨٩٦) ـ ناقد ادبى ، كاتب صحفى ، فيلسوف . احد معارف دوستويفسكى المقربين ، ومؤلف ذكريات عنه .

٥٧ ـ **ميكوليتش (ف . م)** (١٨٥٧ـ١٩٣٦) ـ كاتبة .

٥٨ ـ **آل شتاكينشنايدر** ـ اسرة كانت لدوستويفسكى علاقات صداقة معها .

٥٩ ـ **صولوفيوف (فس . س)** (١٨٤٩ـ١٩٠٣) ـ ناقد وكاتب روايات رائجة .

٦٠ ـ **عن دوستويفسكى ـ محرر «المواطن»** ـ فى عام ١٨٧٣ كان دوستويفسكى محررا لمجلة «المواطن» المحافظة التى يصدرها الامير ميشيرسكى (ف . ب) ، صديق ولى العهد (الذى اصبح لاحقا الكسندر الثالث) .

٦١ ـ **كرامسكوى (إ . ن)** (١٨٣٧ـ١٨٨٧) ـ فنان فى التصوير الزيتى ، رسام ، ناقد فنى .

٦٢ ـ **بيروف (ف . غ)** (١٨٣٣ـ١٨٨٢) ـ فنان تشكيلى ، انشأ مجموعة بورتريهات مجايليه من الكتاب .

٦٣ ـ **بانوف** (م . م) ـ مصور فوتوغرافى موسكوبى مشهور فى القرن الماضى .

٦٤ ـ **مايكوف (أ . ن)** (١٨٢١ـ١٨٩٧) ـ شاعر ، صديق دوستويفسكى منذ اربعينات القرن التاسع عشر .

٦٥ ـ **النقيب الركن سنيغيريوف** ـ احد شخوص رواية دوستويفسكى «الاخوة كارامازوف» .

٦٦ ـ **سوسلوفا (أ . ب)** (١٨٣٩ـ١٩١٨) ـ كاتبة ، من معارف دوستويفسكى المقربين منذ ستينات القرن التاسع عشر ، نموذج اصل للعديد من الشخصيات النسوية فى رواياته .

٦٧ ـ **كوليتش** ـ كعكة بمناسبة عيد الفصح .

٦٨ ـ **كريلوف (إ . أ)** (١٧٦٩ـ١٨٤٤) ـ شاعر ، كاتب مشهور بحكاياته التراثية .

٦٩ ـ **عقيلات الديسمبريين** ـ التحقن بمحض ارادتهن بازواجهن فى سيبيريا بعد نفيهم اليها بسبب مشاركتهم فى انتفاضة ديسمبر (انظر هامش رقم ١٠) ، وقد حكم عليهم بالاشغال الشاقة فى مناجم سيبيريا .

٧٠ ـ **«تاراس بولبا»** ـ قصة طويلة من تاليف غوغول (١٨٠٩ـ١٨٥٢) .

٧١ ـ **اليكسى تولستوى** ـ انظر الهامش رقم ٥١ .

٧٢ ـ **القصر الرخامى** فى بطرسبورغ ـ مقر الامير الاكبر قسطنطين نيقولايفيتش واسرته .

٧٣ ـ **خالتورين (س . ن)** (١٨٥٧ـ١٨٨٢) ـ عامل ، ثورى ، مدبر التفجير فى القصر الشتوى . اعدم شنقا بقرار من المحكمة .

٧٤ ـ **مورسكايا ، فورشتاتسكايا** ـ شارعان فى بطرسبورغ .

٧٥ ـ **الكونت دى فولان** ـ دبلوماسى وكاتب .

٧٦ ـ **الفوريريون** ـ اتباع ف . م . ش . فورييه (١٧٧٢ـ١٨٣٧) ، الاشتراكى الطوباوى الفرنسى .

٧٧ ـ **سالطيكوف‌شيدرين (م . ى)** (١٨٢٦ـ١٨٨٩) ـ كاتب روسى تتسم كتاباته بالسخرية اللاذعة ، محرر مجلة «اوتيتشيستفنيه زابيسكى» («رسائل وطنية») المعارضة .

٧٨ ـ **قاهر كارس** ـ فى عام ١٨٧٧ ، ابان الحرب الروسية التركية (انظر هامش رقم ٧) .

٧٩ ـ **كيرييف (أ . أ)** (١٨٣٣ـ١٩١٠) ـ فريق فى الجيش ، من حاشية الامير الاكبر قسطنطين نيقولايفيتش .

٨٠ ـ **عريف البلدة** ـ رجل شرطة برتبة رئيس عرفاء او نائب ضابط فى روسيا القيصرية .

٨١ ـ **الزى الالمانى** ـ المقصود هنا هو : ليس بالزى القومى الروسى (زى عامة الشعب) بل بالزى الاوربى الغربى (زى علية القوم) .

٨٢ ـ **فانديا** ـ محافظة فى غرب فرنسا ، اصبحت ابان الثورة الفرنسية العظمى (١٧٨٩ـ١٧٩٤) مركزا للتمردات المناهضة للثورة التى امتازت بقسوتها المفرطة . فى وقت لاحق اصبحت تسمية «فانديا» نعتا للتدليل على بؤر الثورة المضادة .

ـ٨٣ ـ **الماما** ـ الكسندرا ساكسين‌ألتنبورغسكايا (١٨٣٠ـ١٩١١) ـ عقيلة قسطنطين نيقولايفيتش ، والدة ق . ر .

٨٤ ـ **غارشين (ف . م)** (١٨٥٥ـ١٨٨٨) ـ كاتب . ألم به مرض عضال بعد ان هزه اعدام ملوديتسكى . انتحر فى احدى نوبات مرضه ، وذلك بالقائه نفسه فى بئر السلم .

٨٥ ـ **بولونسكى (ى . ب)** (١٨١٩ـ١٨٩٨) ـ شاعر ، زميل دوستويفسكى .

٨٦ ـ **دوروف (س . ف)** (١٨١٦ـ١٨٦٩) ـ كاتب ومترجم من انصار بتراشيفسكى . فى وقت لاحق امضى مع دوستويفسكى محكوميته فى سجن الاشغال الشاقة بأومسك .

٨٧ ـ **ايشوتين (ن . أ)** (١٨٤٠ـ١٨٧٩) ـ مؤسس منظمة ثورية سرية («حلقة ايشوتين») التى كان كاراكوزوف عضوا فيها لفترة من الوقت .

٨٨ ـ **«بشير اوربا»** («فيستنيك أوروبى») ـ مجلة ليبرالية كبيرة الشأن .

٨٩ ـ **أرملة رئيس اكاديمية الفنون** ـ أرملة تولستوى (ف . ب) (١٧٨٣ـ١٨٧٣) . النحات والرسام وفنان التصوير الزيتى المعروف .

٩٠ ـ **نيتشايف (س . غ)** (١٨٤٧ـ١٨٨٢) ـ ثورى متآمر ، رئيس جمعية «الثار الشعبى» السرية ، النموذج الاصل لشخصية فيرخوفينسكى فى رواية «الشياطين» . كان نيتشايف يتسم بمنتهى اللامبدئية فى تصرفاته . استغلت الحكومة «حركة نيتشايف» للتشهير بالحركة الثورية .

٩١ ـ **شتاكنشنايدر (ى . أ)** (١٨٣٦ـ١٨٩٧) ـ من معارف دوستويفسكى ـ ابنة مهندس معمار من بطرسبورغ .

٩٢ ـ **ميللر (أ . ف)** (١٨٣٣ـ١٨٨٩) ـ مؤرخ فى الادب ، زميل لدوستويفسكى .

٩٣ ـ **اصلاح سنة ١٨٦١** ـ انظر الهامش رقم ٢٤ .

٩٤ ـ **آل سيرنو-صولوفيوفيتش** ـ الاخوان نيقولاى (١٨٣٤ـ ١٨٦٦) والكسندر (١٨٣٨ـ١٨٦٩) ، ديمقراطيان ثوريان .

٩٥ ـ **غروسمان (ل . ب)** (١٨٨٨ـ١٩٦٥) ـ كاتب سوفييتى ، ناقد ادبى باحث متخصص بحياة ونتاج دوستويفسكى .

٩٦ ـ **فيليبوف (ت . أ)** (١٨٢٥ـ١٨٩٩) ـ شخصية رسمية ، كاتب صحفى ، ضليع فى تاريخ الكنيسة .

٩٧ ـ **مينغدين (أ . ف)** (توفيت فى ١٨٨٦) ـ كونتيسة من معارف دوستويفسكى الوجهاء .

٩٨ ـ **يلينا ـ** شيريميتيفا (ى . م) ، حفيدة نيقولاى الاول ، ابنة عم ق . ر .

٩٩ ـ **هايديبوروف (ب . أ)** (١٨٤١ـ١٨٩٣) ـ صحفى وكاتب اجتماعى ، محرر وناشر صحيفة «نيديليا» («الاسبوع») .

١٠٠ ـ **قاعة مجمع النبلاء** فى موسكو ـ حاليا القاعة ذات الاعمدة بدار النقابات .

١٠١ ـ **بيلينسكى (ف . غ)** (١٨١١ـ١٨٤٨) ـ ناقد ، ديمقراطى ثورى . استقبل باعجاب رواية دوستويفسكى «المساكين» ، كان لفترة من الوقت على علاقة حميمة مع دوستويفسكى ، واثر تأثيرا كبيرا فى تكوين عقيدته .

١٠٢ ـ **ريوريك** (توفى فى سنة ٨٦٩) ـ احد مؤسسى الدولة الروسية القديمة ، الجد الاسطورى لقياصرة روسيا من سلالة آل ريوريك ـ اسلاف آل رومانوف .

١٠٣ ـ **اكساكوف (إ . س)** (١٨٢٣ـ١٨٨٦) ـ شخصية اجتماعية وكاتب صحفى .

١٠٤ ـ **اوسبينسكى (غ . إ)** (١٨٤٣ـ١٩٠٢) ـ كاتب يميل الى الديمقراطيين الثوريين .

١٠٥ ـ **لوبيمـوف (د . ن)** (١٨٦٤ـ١٩٤٢) ـ نجل محـرر «البشير الروسى» لوبيموف (ن . أ) .

١٠٦ ـ **فاسيليفسكى** (إ . ف) ـ صحفى .

١٠٧ ـ **ميخنيفيتش (ف . أ)** ـ صحفى .

١٠٨ ـ **هيرتسـن (أ . ا)** (١٨١٢ـ١٨٧٠) ـ ثـورى ، كاتب وفيلسوف وصحفى . مهاجر منذ عام ١٨٤٧ .

١٠٩ ـ **باكونين (م . أ)** (١٨١٤ـ١٨٧٦) ـ من رجالات الحركة الثورية الروسية ، احد منظرى الفوضوية . مهاجر منذ عام ١٨٤٠ .

١١٠ ـ **غرادوفسكى (أ . ن)** (١٨٤١ـ١٨٨٩) استاذ فى القانون الدولى ، استاذ جامعة بطرسبورغ ، ناقد وكاتب صحفى ليبرالى .

١١١ ـ **تاتيانا** ـ بطلة رواية بوشكين الشعرية «اوجين اونيغين» ، تجسيد للنزعة الشعبية فى نظر دوستويفسكى .

١١٢ ـ **ايفان بيزدومنى** ـ بطل رواية الكاتب السوفييتى ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ـ١٩٤٠) «المعلم ومارغريتا» .

١١٣ ـ **الزبون** ـ زى فلاحى روسى ، ويعنى الفلاح بالمعنى المجازى للكلمة .

١١٤ ـ **«بيريغ»** («الشاطئ») ـ صحيفة ذات ميول محافظـة صدرت فى بطرسبورغ فى عام ١٨٨٠ .

١١٥ ـ **ليونتيف (ك . ن)** (١٨٣١ـ١٨٩١) ـ فيلسوف ، مفكـر متفرد وكاتب صحفى متميز . كان يشغل مواقع محافظة للغاية . له كتابات فى مسائل التاريخ الروسى وتاريخ الكنيسة .

١١٦ ـ **المبنى الواقع عند جسر تسيبنوى** فى بطرسبورغ كان مقر الشعبة الثالثة .

١١٧ ـ **ليفاديا** ـ مقر الاباطرة الصيفى فى شبه جزيرة القرم .

١١٨ ـ **وسام . . . اندريه بيرفوزفانّى** ـ اى الرسول اندريوس الذى كان يعتبر حامى حمى روسيا .

١١٩ ـ **معهد سمولنى** ـ مؤسسة تعليميـة تربويـة «للفتيات النبيلات» (بنات اسر النبلاء) .

١٢٠ ـ **قصر انيتشكوف** ـ فى بطرسبورغ ـ مقر ولى العهد .

١٢١ ـ **«مختارات من المراسلات مع الاصدقاء»** ـ كتاب «اعترافات» صحفى حاول فيه غوغول تعليل مثله الاخلاقية .

١٢٢ ـ **افيركييف (د . ف)** (١٨٣٦ـ١٩٠٥) ـ مؤلف مسرحى وكاتب صحفى . احد منتسبى مجلة الاخوين م . م وف . م دوستويفسكى «ايبوخا» («العصر») (١٨٦٤ـ١٨٦٥) .

١٢٣ ـ **«ميسل»** («الفكر») ـ مجلـة اسبوعية اصدرها فـى بطرسبورغ ل . اوبولينسكى (١٨٤٥ـ١٩٠٦) .

١٢٤ ـ **كومانينا (ا . ف)** (١٧٩٦ـ١٨٧١) ـ خالة دوستويفسكى .

١٢٥ ـ **ايساييف (ب . أ)** (١٨٤٨ـ١٩٠٠) ـ ابن دوستويفسكى بالتبنى (ابن زوجته الاولى م . د ايساييفا) ؛ **فيروتشكا** ـ ابنة دوستويفسكى .

١٢٦ ـ **هايدن (ى . ن)** (١٨٣٣ـ١٨٩٤) ـ كونتيسة ، سيدة من المجتمع الراقى كانت تزاول الاعمال الخيرية ، من معارف دوستويفسكى فى بطرسبورغ .

١٢٧ ـ **ماركيفيتش (ب . م)** (١٨٢٢ـ١٨٨٤) ـ كاتب وصحفى ، كان من منتسبى «البشير الروسى» و«الوقائع الموسكوبية» (بأسم مستعار هو «عابر سبيل وافد») .

١٢٨ ـ **نيجنى نوفغورود** ـ مدينة غوركى حاليا .

١٢٩ ـ **فيغنير (ف . ا)** (١٨٥٢ـ١٩٤٢) ـ ثورية ، عضوة اللجنة التنفيذية لـ«ارادة الشعب» ، كاتبة مذكرات .

١٣٠ ـ **دايتش (ل . غ)** (١٨٥٥ـ١٩٤١) ـ من رجالات الحركة الثورية .

١٣١ ـ **جيليابوف (أ . إ)** (١٨٥١ـ١٨٨١) ـ ثورى ، عضو اللجنة التنفيذية لـ«ارادة الشعب» ، احد المنظمين النشطاء لمحاولة اغتيال القيصر الكسندر الثانى فى ١ آذار (مارس) ١٨٨١ . وضعه لينين فى مصاف ثوريين عظماء من امثال روبسبيير وهاريبالدى . اعدم شنقا بقرار من المحكمة .

١٣٢ ـ **بازاروف** ـ انظر الهامش رقم ٣٠ .

١٣٣ ـ **اليكسييفسكى رافيلين** ـ سجن سياسى سرى فى قلعة بطرس وبولص . فى عام ١٨٤٩ كان دوستويفسكى نزيل هذا السجن بمعية سواه من البتراشيفيين .

١٣٤ ـ **شكلوفسكى (ف . ب)** (١٨٩٣ـ١٩٨٤) ـ كاتب وناقد ادبى سوفييتى .

١٣٥ ـ **كولودكيفيتش (ن . ن)** (١٨٤٩ـ١٨٨١) ـ ثورى من منظمة «ارادة الشعب» . توفى مسجونا فى اليكسييفسكى رافيلين بقلعة بطرس وبولص .

١٣٦ ـ **كيبالتشيتش (ن . إ)** (١٨٥٣ـ١٨٨١) ـ ثورى ، مخترع . كان يرأس مختبر المواد المتفجرة فى اللجنة التنفيذية لمنظمة «ارادة الشعب» . وباعتباره «الفنى الاكبر» للحزب ، شارك فى التحضير لمحاولة اغتيال القيصر يوم ١ آذار (مارس) ١٨٨١ . اعدم شنقا بقرار من المحكمة . قبل بضعة ايام من اعدامه ، وضع وهو فى السجن تصميما فريدا فى نوعه لجهاز طيران نفاث مخصص لتحليق الانسان .

١٣٧ ـ **ليرمونتوف (م . ى)** (١٨١٤ـ١٨٤١) ـ شاعر روسى رومانسى اسماه مجايلوه بوريث بوشكين . نفى بسبب اشعاره الفاضحة للنظام الى القفقاس للخدمة فى الجيش المحارب .

«ديمون» – قصيدة شعرية ملحمية لليرمونتوف ، مفعمة بافكار الحادية .

١٣٨ – **ترويتسكى (ن . أ)** – مؤرخ سوفييتى ، مختص بتاريخ الحركة التحررية الروسية .

١٣٩ – **بيروفسكايا (س . ل)** (١٨٥٣–١٨٨١) – ثورية – عضوة اللجنة التنفيذية لمنظمة «ارادة الشعب» ، زوجة جيليابوف ، ترأست بعد اعتقاله (فى ٢٧ شباط (فبراير)) عملية التحضير لاغتيال القيصر يوم ١ آذار (مارس) ١٨٨١ . اعدمت شنقا بقرار من المحكمة .

١٤٠ – **لافروف (ب . ل)** (١٨٢٣–١٩٠٠) – كاتب صحفى ثورى ، مهاجر .

١٤١ – **بيرفى – فليروفسكى (ف . ف)** (١٨٢٩–١٩١٨) – عالم اجتماع واقتصاد وكاتب صحفى .

١٤٢ – **الروتندا** – حرملة نسائية طويلة بلا اكمام .

١٤٣ – **الشويكا** – لباس رجالى علوى من الجوخ ترتديه العامة ، نوع من انواع القفطان .

١٤٤ – **«وقائع سانت – بطرسبورغ»** (١٧٢٨–١٩١٧) – صحيفة يومية رسمية .

١٤٥ – **دميترى قسطنطينوفيتش** (١٨٦٠–١٩١٩) – شقيق ق . ر .

١٤٦ – **صبوروف (أ . أ)** (١٨٣٨–١٩١٦) – رجل دولة ، وزير التعليم العام فى عامى ١٨٨٠–١٨٨١ .

١٤٧ – **كارامزين (ن . م)** (١٧٦٦–١٨٢٦) – كاتب ومؤرخ ، كان يشغل ، شانه شان بوشكين ، منصب مدون تاريخى رسمى .

١٤٨ – **نيكراسوف (ن . أ)** (١٨٢١–١٨٧٧) – شاعر روسى ، محرر مجلتى «الانسان المعاصر» و«رسائل وطنية» المعارضتين . كان لدوستويفسكى فى مستهل حياته الادبية علاقات صداقة مع نيكراسوف . نشر فى مجلة «مختارات بطرسبورغ» الادبية التى كان يصدرها هذا الاخير اول مؤلف لدوستويفسكى وهو رواية «المساكين» (١٨٤٦) .

١٤٩ – **بين اعدائى** – فى مدافن الادباء بمقبرة فولكوفويه كان يرقد النقاد الادبيون ذوو الاتجاه الراديكالى ، وهم بيلينسكى (ف . غ) ودوبرولوبوف (ن . أ) (١٨٣٦–١٨٦١) وبيساريف (١٨٤٠–١٨٦٨) . وكان على هذا الاخير ان يثير كراهية خاصة لدى دوستويفسكى ، ذلك انه انكر القيمة الفنية لمؤلفات بوشكين منطلقا من مواقع المادية المبتذلة . وكانت افكار بيساريف فى ستينات القرن التاسع عشر تحظى بشعبية كبيرة بين اوساط الشباب ذوى الميول الثورية («النهلستيون») .

١٥٠ – **تيومينيف (ا . ف)** (١٨٥٥–١٩٢٧) – اديب ، ومؤلف موسيقى وكاتب ليبريتو .

١٥١ ـ **غريغوروفيتش (د . ف .)** (١٨٢٢ـ١٨٩٩) ـ كاتب ، صديق صبا لدوستويفسكى .

١٥٢ ـ **دورات بيستوجيف** ـ اول مؤسسة تعليم عال للنساء فى روسيا . اسست فى بطرسبورغ عام ١٨٧٨ ، سميت بأسم مؤسسها استاذ التاريخ بيستوجيف ـ ريومين (ك . ن) (١٨٢٩ـ١٨٩٧) .

١٥٣ ـ **ليتيا** ـ صلاة تابينية قصيرة .

١٥٤ ـ «**صحيفة ل . هاتزوك**» ـ صحيفة خاصة فى بطرسبورغ .

١٥٥ ـ **غنيديتش (ب .ب)** ـ اديب وكاتب مذكرات .

١٥٦ ـ **ميخائيلوفسكى (ن . ك)** (١٨٤٢ـ١٩٠٤) ـ عالم اجتماع ، كاتب صحفى ، ناقد ادبى ، مقرب الى الاوساط الثورية المعتدلة .

١٥٧ ـ **٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٥** ـ دخل هذا اليوم التاريخ الروسى بأسم «الاحد الدموى» . فى هذا اليوم فتحت النار فى بطرسبورغ على مظاهرة سلمية نظمها العمال ، الامر الذى اصبح حافزا على اندلاع الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥ـ١٩٠٧) .

١٥٨ ـ **جوكوفسكى (ف . أ)** (١٧٨٣ـ١٨٥٢) ـ شاعر ومترجم ، اضطلع بتربية الكسندر الثانى .

المحتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكـــم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتي

ايغور فولغين

التأرجح على الهاوية...

العام الأخير من حياة دوستويفسكى

هذا الكتاب مكرس لعلاقات دوستويفسكى بعالم الثورة الروسية . . . وقد ركزنا الاهتمام على المرحلة الختامية من هذه المجابهة الدراماتيكية ، من حيث مسببات الطابع المأسوى الحاد الذى اتسمت به احداثها التاريخية ، كذلك بحكم بقاء هذه الفترة بمنأى تام تقريبا عن البحث والدراسة . . .

لم يكن دوستويفسكى مجرد شاهـــد عيان يراقب هذه الدراما ، انما بات طرفا من اطرافها ، والى حد ما ، بطلا من ابطالها .

. . . واخيرا فان ملابسات وفاة الكاتب المثيرة التى لم تُفك الغازها حتى هذا الحين (وهذا موضوع لم يجر التطرق اليه فى الادب العالمى) – كل هذا يغدو من المواضيع التى يسلط عليها المؤلف جل اهتمامه .

ايغور فولغين

ISBN 5—01—002143—9